

دراسات في الحضارة الإسلامية

بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري

المجلد الأول



الهيئة السعودية للدراسات والبحوث

دراسات في الحضارة الإسلامية

(بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري)

المجلد الأول



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina



الجمعية المصرية للمساهمة في المكتبات

١٩٨٥

عفاف توفيق
الاخراج الفنى

مدخل

فى قىمة حصاد حضارة أمم الاسلام خلال أربعة عشر قرنا هجرىا ومكانة هذا الحصاد فى حضارة الانسانية

عندما استقر رأينا فى لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب فى مصر على اصدار كتاب يحصى ثمرات جهود المسلمين فى ميادين الحضارة خلال أربعة عشر قرنا هجرىا وضعنا خطتنا على أن يكون هذا الكتاب شاملا لميادين الحضارة كلها ، ولكن الظروف لم تأذن لبعض زملائنا الذين سألناهم أن يكتبوا فى ميادين تخصصهم من هذه الحضارة فى انجاز ما طلبناه منهم ؛ فرأينا ان نجمع ما تيسر لنا من الفصول وننسق بينها وندفع بها الى المطبعة بناء على موافقة كريمة من الهيئة المصرية للكتاب على ان تتولى هى نشر الكتاب ؛ فما لا يدرك كله لا يترك جله ، خاصة وان الفصول التى تجمعت لنا فصول قيمة جديرة بالنشر ، وعولنا على أنه اذا تجمعت لنا الفصول الباقية أصدرناها فى مجلد ثان بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب أيضا ، وهى مشكورة أصدق الشكر على مايسرت لنا من أمر نشر هذا الكتاب . ولايسعنا فى هذه المناسبة الا ان نستمطر رحمت الله سبحانه وتعالى على الشاعر الأديب الكبير صلاح عبد الصبور ، الرئيس السابق لهيئة الكتاب ، فقد كان - أفسح الله له فى رحاب الجنة - هو الذى أفسح لنا صدره وأجابنا الى ما سألناه اياه من نشر هذا الكتاب .



وسأحاول فى هذا المدخل ان ألقى نظرة على حصاد الجهد الحضارى لأمم الاسلام خلال الأربعة عشر قرنا هجرىا التى انقضت من عمر الاسلام المديد . ولا أقول « تراثا » كما تعودنا أن نقول ، لأن التراث لا يكون الا لميته ، وأمة الاسلام - صاحبة هذا التراث الحضارى . لازالت فى عنفوان حيويتها وشبابها

المتجدد ، ومادام هذا حالها فان حضارتها أيضا فى عنفوان حيويتها ، ومن ثم فان
ثمارها تسمى حصادا ولا تسمى تراثا ، لأن الحصاد يتجدد ، وكذلك الجهد
الحضارى لأمة الاسلام .

★ ★ ★

وأول ما يتجلى لنا عند النظر الى حضارة الاسلام بصورة عامة هو وحدتها
أى تشابهها فى الروح والخصائص المميزة لها أيا كن ميدانها ، فسواء نظرنا الى
الفقه أو الشريعة أو الفلسفة أو الطب والصيدلة أو العمارة فاننا نحس ان بينها -
وعلى اختلافها فى الطبيعة الخاصة بكل منها - خيطا رفيعا رابطا يحس به الانسان
لأول وهلة ، وهذا الخيط غير المنظور هو الذى يشعركم بأن هذه كلها ميادين من
حضارة واحدة ، فاذا نظرنا جليا وجدنا ان ذلك الخيط يرجع فى نهاية الأمر -
أو بدايته بتعبير أصبح الى الاسلام فالاسلام عقيدة وشريعة ونظام اجتماعى وخط
سلوكى وحضارة . والأربعة الأولى هى القوائم التى قام عليها بناء الحضارة
الاسلامية فى شتى صورها وأشكالها .

فلننظر مثلا فى ميدان من ميادين الانتاج الفكرى الاسلامى وهو
التاريخ - وقد كتب فيه الأستاذ الدكتور أحمد شلبى فصلا ممتعا فى الكتاب
الذى أتشرف بتقديمه ، فنجد قد بدأ من السيرة النبوية ، وتدوين السيرة بدوره
نابع من الحرص على معرفة السنة ، والسنة هى كل ما صدر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو استهجان أو استحسان . فالسيرة
كلها سنة ومن هنا جاء الحرص على الدقة العلمية فى تدوينها منذ البدايات الأولى
فقد سار أصحاب الروايات فى المغازى على أصول التدقيق البالغ فى
ومصدر الخبر ، ومن هنا ، وبعد محاولات جزئية قام بها أصحاب
الروايات الأولى قام محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى بكتابة سيرة كاملة
لرسول صلوات الله عليه ، وسيرة ابن اسحاق تعتبر فى نطاق التاريخ الاسلامى
أول وأوفى سيرة للرسول كتبها مؤرخ من مؤرخى الرعيل الاول من أعلام العلم
فى القرن الهجرى الثانى ، وهى فى نفس الوقت أول سيرة أو ترجمة حياة
مطولة كاملة تكتب فى تاريخ علم التاريخ فى الدنيا ، فلم يكتب الفرس أو الهنود
أو الاغريق أو الرومان سيرة مطولة كاملة لرجل من رجالهم ، لا ، ولا فعل هذا
المؤرخون المسيحيون مع حياة السيد المسيح ؛ وحياة المسيح بن مريم عليه
السلام لم يكتبها كاملة من المنظور التاريخى المتعارف عليه واحد من كتاب
المسيحية الأول : لا أصحاب الأناجيل ولا آباء الكنيسة ، فهى حتى فى الأناجيل
يحدد أقاويل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشعة متفرقة من ضوء تنير جانبا
دون جوانب من حياته . وما فى القرآن الكريم عن حياة عيسى بن مريم أوفى
من كل ما فى الأناجيل .

أما عندنا فإن الاسلام يقوم أساسا على كتاب هو القرآن الكريم . وقد بذل المسلمون غاية الجهد فى تدوين نص القرآن سليما من أدنى تحريف أو زيادة أو نقص وبذلوا جهودا كبرى فى المحافظة على هذا النص سليما على مر العصور ، ومن ثم ضبطوا نفس مقاييس الضبط قدر الطاقة عندما بدأوا جمع الأحاديث النبوية وتدوينها . وما دامت السيرة فى جملتها حديثا فقد روعى فى تدوينها قواعد الضبط والاحكام والتحقيق من مصادر الأخبار ، وهى الاسناد . وقد تفنن المسلمون الأول فى كتابة السيرة ، واعتزموا هذا المنهج من الدقة والضبط فى كل حالة . فالف الراقدى كتابه فى « المغازى » ، وهى الأعمال التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة ، سواء أكانت غزوات يقوم بها بنفسه أم سرايا يرسلها تحت قيادة من يختاره من أصحابه أم بعوثا أى جماعات صغيرة من المسلمين توفد لغرض محدد أم جماعات من الدعاة ترسل الى بعض قبائل العرب للدعوة السلمية دون حرب أو عنف وكتب ابن سعد كتاب « الطبقات » فى تراجم الصحابة بادئا الكتاب بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقع فى جزئين كاملين ، ثم أعقب السيرة بالبدرين من الصحابة فبقية الصحابة والتابعين ، وختم الكتاب بجزء خاص عن النساء ، وألف البخارى « صحيحه » الذى جمع فيه كل ما تيسر له جمعه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأضاف الى « الصحيح » كتاب « الرجال » عن الصحابة الذين أسند اليهم أحاديثه ، وهكذا تعددت أساليب كتابة السيرة النبوية واستنبطانها من كل جوانبها ، فان تفاصيل المغازى وصور الكتب التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتبها لوفود العرب كما أورد نصوص معظمها ابن سعد فى الطبقات ، وتراجم الصحابة ، وأحاديث الرسول جميعا ، كل هذه فنون من التاريخ اهتدى اليها المسلمون الأول بالفطرة السليمة والحرص البالغ على تدوين سيرة الرسول كاملة .



ومن هنا ، من تلك البداية الاسلامية عرف المسلمون فنونا شتى من فنون كتابة التاريخ وأصبحت الدقة والضبط والصدق أساسا من أسس العلم كله عند المسلمين سواء فى علوم الدين أم فى علوم الدنيا ، وسواء فى الناحية النظرية أم التطبيقية ، فاننا نجد أن الدقة والضبط هما الأساس فى كل العلم الاسلامى والجهد الحضارى الاسلامى كله ، وصانع الزخرفة المسلم شعاره الصدق والأمانة فى العمل والتزام روح الاسلام فى كل خط من خطوط أعمالهم ، وعمائر عظيمة مما يزين عواصم الاسلام من التاج ومحل فى اجرا بالهند الى قبة الصخرة فى القدس الى مجموعة السلطان قلاوون المعمارية فى القاهرة الى المساجد العثمانية البديعة فى مدائن تركيا الى مساجد قرطبة وفاس ومراكش ، كل هذه أعمال ما كانت لتتم لولا الصدق والأمانة والدقة والايمان العميق

بِالاسلام ، وقد قال ذلك المعمارى التركى العظيم سنان بن عبد الله بن عبد المنان عندما فرغ من مسجد السليمانية ومجموعته المعمارية فى استامبول فعندما انتهى من رفع القبة الى أعلى . من قبة أبا صوفيا قال الحمد لله الذى يسر لنا التفوق على ما أنشأ أهل الشرق وبنوا مع دعاواهم العريضة فى التفوق على أهل الاسلام فى المعمار ، وكل ذلك بعون الله وبركة ديننا ونبيينا صلى الله عليه وسلم .



ومنذ عصر الراشدين ، وقبل أن يكتمل بناء دولة الاسلام انطلق المسلمون فى آفاق العلم والعمل الحضارى ، وكلما دخلت فى الاسلام أمة دخلت فى نفس الوقت ميدان الحضارة والعمل العلمى النظرى والتطبيقات ، وتحت راية الاسلام عمل العرب والمصريون والایرانيون وأهل الشام وأهل العراق وأهل المغرب والأندلس ، ثم الأتراك بشتى طبقاتهم ومن تلاهم شرقا الى المحيط الهادى فى بناء صرح حضارة واحدة متعددة الميادين والأشكال هى حضارة الاسلام .

ولقد صنعت أمم الاسلام مجتمعة هذا البناء الحضارى من تراثها الماضى بعد أن بعث بعثا جديدا بفضل الاسلام . ومن الخطأ المتواتر قولهم : ان العرب لم يحملوا الى غيرهم من الأمم الا الاسلام ، حقا ان الاسلام أثمن ما حمل العرب الى الناس ، ولكنهم أيضا حملوا اللغة العربية ، وهى أداة حضارية من الطراز الأول ، وحملوا كذلك حضية تجارب حضارية خاصة بهم ، أنشأوها وتمت على أيديهم فى الجاهلية ، مثل استنباط الماء من الأرض وتسييره فى قنوات فى باطن الأرض أو على سطحها وقواعد سليمة وأعشاب بحرية فى علاج أمراض الانسان والحيوان وكان عندهم ادراك أصيل - مبالغ فيه أحيانا - لقدرة الانسان وكرامته لهم منطق فى التفكير واقعى وعملى وسليم ودقيق ومعرفة فطرية بطبائع البشر وميل صادق لمحبتهم والتعاون معهم مادام ذلك التعاون لا ينقص من قدر العصبية العريقة ، وكانت لهم قريحة صافية تحسن النظر الى الأمور وتصل الى لبابها دون تعقيد ، وكانت لهم فى أنفسهم أخلاق وقيم وتقاليد حسنة ، وأضافوا الى البناء العام مواد حضارية أخرى لم تدرسها حق الدراسة من ناحية ثم ان المجال لا يتسع لاختصاصها فى هذا المدخل من ناحية أخرى . كل هذا حملة العرب وأدخلوه فى حضارة الاسلام - ولازلنا بعيدين عن تقدير فضل العرب الحقيقى فى بناء الحضارة الاسلامية حق قدره .

وقد أفاد العلم بعد الاسلام فى هذه الخصال كلها وأضفى عليها طابعا اسلاميا زادت معه قيمة وفائدة . وعندما اتسعت رقعة الاسلام ودخلت فيه امم وحضارات شتى ، استعربت وأسلمت غالبية هذه الأمم واكتسبت الخلال العربية الاسلامية ، وبعضها أسلم ولم يستعرب وبعضها استعرب ولم يسلم

ولكن هؤلاء جميعا اكتسبوها خلال العصور وصبوا ما لديهم من عناصر حضارية على قالبه فنشأ من هذا كله ذلك التسبيح الحضارى الفريد الذى هو تسبيح الحضارة الاسلامية ذات الصور والأشكال واللغات المتعددة ولكنها واحدة فى الروح والطابع .

★ ★ ★

هذه الوحدة فى الروح والطابع هى التى أعطت المجتمع الإسلامى مثلاً خصائصه أيا كان مكانه وزمانه ، وخصائص هذا المجتمع أنه مجتمع الأسرة السلمية القوية المتراحمة البعيدة عما ينافى سلامة الطبع والخلق والتصرف ، لأن الإسلام أحكم بناء الأسرة وحدد روابطها وضوابطها سواء أكانت معنوية أم مادية ، وجعلها أساس المجتمع كله ، واعتبر الجماعة الإسلامية كلها أسرة كبيرة أى أمة تحكمها نفس المعنويات والقواعد والنظم . وقد نجحت الأمة الإسلامية وازدهرت وثبتت أقدامها طالما تمسكت بهذه القواعد والأساس سواء فى حياة الأسرة أم فى حياة الأمة ، وتدهورت عندما قصرت فى مراعاتها أو أهملتها أو لم تفهمها أو عندما انحرف بهاحكامها عن قواعد الخلق الإسلامى ، فنشأت من ذلك الأهواء والتناقضات واختلال الموازين والانحرافات ، وهذا هو السبب الرئيسى فيما تسميه بتدهور الدولة - أو الدول - الإسلامية أو ركودها وتراجعها .

★ ★ ★

وقد تنبه أهل العلم والفهم والدين من المسلمين من بادى الأمر الى أن المدخل الى فساد أمر الأمة إنما يكون من ناحية السياسة ، لأن السياسة تنازع على السلطان على الأرض والناس ، والإسلام قد افترض من أول الأمر أن جماعته أمة يحكمها القانون الخلقى والضمير الإسلامى اليقظ الواعى قبل أن يحكمها السلطان السياسى ، فالسلطان كله لله ، ولا سلطان لأحد على أحد إلا بما قدره الله فى القرآن وفصله الرسول فى السنة من أصول وحدود . أما وقد دخلت الميدان من أواسط العصر الراشدى سياسات وأفكار وآراء غير إسلامية وبغير عربية ، ودخلت معها الأهواء والمطامع ، فلم تعد النظم السياسية بالأطر الصالحة لسلامة الجماعة الإسلامية وضيانتها وتبين لهم أن الأطر السلمية التى لا تتغير هى أطر العقيدة والشريعة، وهم أهلها والعارفون بها، ومن ثم فقد بدأ أهل الدين والعلم والفقه فى صيانة الأمة من عواصف السياسة والاقتصاد بها عن أهواء أهل الحكم ومطامعهم ، ومن هنا نشأ ذلك الانفصال الكبير بين الدولة والأمة فى تاريخ الإسلام ، فوضعت الدول ما شاءت أن تضع من السياسات واحتشفت ما أرادت لها مطالب السياسة من ذروب الخطأ والخطر ، وقامت

الدول وسقطت ، وبقيت الأمة الإسلامية سليمة محتفظة بنفسها وطبيعتها وأخلاقياتها ، ولما كانت الحضارة بشتى مظاهرها من صنع الأمم في المكان الأول ، فقد كانت الحضارة الإسلامية في شتى ميادينها ذات طابع إسلامي واحد ، لأنها من صنع الأمة ، حتى ما أمر الملوك والسلاطين بعمله أو بنائه فقد تم بيد ناس من أفراد الأمة ، واستطاعت الأمة بذلك أن تسير في طريقها رغم الأزمات السياسية التي تعرضت لها بلا نهاية بل رغم الكوارث الكبرى التي عصفت بالدول ، ولكنها لم تعصف بالأمة وحضارتها إلا في حالات نادرة . ففي عصور الاضطراب والخطر السياسيين البالغين مثل عصور الحروب الصليبية مثلا ، ظلت الأمة سائرة في طريقها مواصلة بناء حضارتها ، ولا يتجلى هذا بصورة تهم المتأمل كما تتمثل في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فهو قرن التدهور السياسي البالغ وهو في نفس الوقت قرن الازدهار الحضاري العظيم ، لأن التدهور السياسي من صنع السياسيين وأهل الدول ، أما الحضارة فهي من عمل الأمة .

★ ★ ★

وتأكيدا لهذا المعنى نجد الكثيرين من الفقهاء تصوروا ان خلاص المسلم وسلامة دينه لا تكون الا في الزهد في الدنيا والبعد عن متاعها الذي وصف بأنه بهارج لا طائل تحتها أو « لهو ولعب وزينة » كما ورد في القرآن الكريم ، ولكن غالبية الناس انصرفوا في حدود ما أباح الله سبحانه الى كسب المال وجمعه والاستمتاع به وبناء الدور واتخاذ الضياع وآلات الحياة واحتاجت الدولة الى الوجهة والفخامة والقوة والتنظيم وما الى ذلك وسخرت في انشاء ذلك من شئت من أفراد الأمة المتخصصين في الفنون والصنائع ، وكل هذه مطالب حضارية مادية برع فيها المسلمون الى جانب ما أبدعوا فيه من وجوه الحضارة المعنوية كالفلسفة والكلام والتصوف والتقشف والتعمق في فهم الدين ، والاجتهاد في استخراج الأحكام للفصل في الخصومات وتطبيق هذه الأحكام وكل ما يدخل تحت مفهوم الفقه ثم البحث في شئون الكون والأرض مما نشأ عنه علم الفلك وعلم الجغرافية ، والبحث في الأبدان وعملها والسعى في مداواتها فنشأ عن ذلك علم الطب وعلم الأدوية والأعشاب وهو الصيدلة ، وفي كل هذه الميادين ومثالها أبدع المسلمون علما وتطبيقا ، وإذا كانت السياسة قد ضيعت على المسلمين الكثير من مكاسبهم وثمرات عملهم الا ان العلماء بجهدهم عوضوا الكثير من هذه الخسائر ، فإذا كان رجال السياسة قد تقاسموا بلاد الاسلام دولا وامارات بينهم فان أهل العلم ظلوا يرون ان دولة الاسلام الواحدة بلا تقسيمات أو حدود أو سدود لازالت قائمة ، وإذا كان المسعودي يقول ان مملكة الاسلام تمتد من غانة الى فرغانة ، فقد كانت هذه هي الحقيقة فكل هذه المساحة

كانت أرضا إسلامية مفتحة الأبواب لكل مسلم ، فكان المسلم يستطيع أن يجوب خلال بلاد الإسلام طولا وعرضا دون أن يفقد الشعور بأنه - حيثما كان يسير في وطن إسلامي واحد تسكنه أمة واحدة هي أمته ، ومهما اختلفت لغات أهل هذا الوطن فقد كانت للأمة الإسلامية صاحبة هذا الوطن لغة واحدة يستطيع جميع أفرادها التفاهم بها وهي العربية . وإذا كنا نتحدث اليوم عن وحدة العالم الإسلامي فإن المراد بذلك أن تلك الوحدة ضارية ، فالحضارة بشتى أشكالها هي التي أوجدت ذلك العالم الإسلامي والعلماء هم الذين نسجوا نسيجه سواء برحلاتهم في طلب العلم أم بخروجهم في قوافل الحج ، وقد كان الحج من أكبر عوامل وحدة أمة الإسلام ، فإن الكعبة المشرفة هي مجمع المسلمين جميعا في موسم الحج وهي متجه أنظارهم خارج ذلك الموسم وقوافل الحج - وهي في نفس الوقت قوافل تجارة وحضارة كانت في معظم الأحيان تنقل طرف الحضارة ومظاهرها ومبتكراتها من طرف إلى طرف في عالم الإسلام الواسع . وإلى العلم والعلماء من ناحية والحج وقوافل الحجاج والتجارة وقوافل التجار من ناحية أخرى يرجع الفضل في تعميق هذا صنع ذلك النسيج الحضاري الواحد الذي عاشت فيه أمة الإسلام رغم القلق السياسي والحروب والمنافسات والصراعات التي لم تتوقف قط بين أهل السياسة وطلاب السلطان .

وهذه العوامل - جهود العلماء ونشاط التجار واتصال مسير قوافل الحج هي التي عملت على تطوير حضارة الإسلام في شتى ميادينها ومواصلة روح الابتكار فيها ، فقد كان أهل العمل في عمل دائم وكذلك كان أهل الصنائع وكانت ثمرات علم العلماء وحصاد جهد أهل الصنائع تنتقل من ناحية من نواحي عالم الإسلام إلى ناحية ويحتك بعضها ببعض ، ومن احتكاكها ينشأ التطور والتحسين والتقدم ودونت ثمرات ذلك كله في كتب حملها الناس من صقع إلى صقع داخل أمة الإسلام . وانتقلت مبتكرات الصناعة والفنون من ناحية إلى ناحية فنشأ من ذلك العمل الدؤوب - المقصود حيننا وغير المقصود حيننا آخر - وحدة الحضارة الإسلامية وتشابه خصائصها العامة وتفاصيلها ، بل تشابه الذوق الإسلامي العام في المأكل والملبس والمسكن والمسجد بل في الموسيقى والزخرفة والتصوير وهذا الحصاد الحضاري ذو الطبيعة الواحدة ، زمانا بعد زمان كان في النهاية من أكبر العوامل في المحافظة على وحدة العالم الإسلامي واعطائه الطابع الحضاري المميز في إطار العقيدة الإسلامية السمحاء وهي عقيدة توحيد واتحاد في آن معا .

من هنا يمكن الحديث عن حضارة اسلامية عامة واحدة في الروح والخصائص العامة ، فكما ان الفقه الاسلامي علم واحد فكذلك الشعر عند الشعوب الاسلامية واحد ، سواء آكان عربيا أم تركيا أو ايرانيا ، فهو متشابه في القوالب والخصائص الفنية بل في الموضوعات التي يتناولها الى حد كبير ، وكذلك الفلسفة والطب والصيدلة والفلك والعمارة بفنونها المختلفة والموسيقى وآلاتها وما يعزف عليها . كل هذه متشابهة متقاربة في عالم الاسلام كله . ولم يقصد أحد الى ذلك قصدا بل هي حقيقة فرضت نفسها فرضا ، وقد شرحنا أسباب ذلك في قائمة هذا المدخل ، وبيننا العوامل التي أدت الى اطرادها وتوكيدها زمانا بعد زمان ، ثم يتولى الأساتذة الاجلاء الذين يكتبون فصول هذا الكتاب بيان تفاصيلها ، كل في ميدانه ، وقد كان الأمل أن يشمل الكتاب الميادين كلها ، ولكن هذا ما تيسر ، وفيه غناء الى ان يشاء الله فتكتمل هذه الصورة لحضارة حضارة الاسلام في أربعة عشر قرنا .

★ ★ ★

ولابد لنا ، قبل الفراغ من هذا المدخل من الوقوف لحظات عند موضوعين هامين يهمنا التنبيه عليهما فيما نحن بصدد من الكلام عن الحضارة الاسلامية ، الأول هو موضوع أصالة الحضارة الاسلامية والثاني موضوع استمرارها والمحافظة على سماتها في مواجهة تيار الحضارة الغربية الجارف في أيامنا هذه .

فاما عن الموضوع الأول فقد أكثر المؤلفون ، ما بين عرب ومسلمين وغير عرب أو مسلمين في القول بأن الحضارة العربية في صميمها حضارة نقل وان الابتكار فيها قليل ، وكما عزم بعض ثقلاء المستشرقين ممن زعموا أنهم متخصصون في الدراسات القرآنية مثلا بتتبع كل كلمة أو عبارة أو معنى في القرآن الكريم ، والقول بأن هذا اللفظ أو ذلك المعنى . من هنا أو هناك ، وهو ولع سخي غير علمي ولم ينته في آخر الأمر الى غاية ، فكذلك أولع نفر منا نحن العرب بالقول بأن الحضارة الاسلامية حضارة قائمة بذاتها لم تأخذ من غيرها شيئا ، ويتشدد بعض أصحاب ذلك القول حتى يصلوا الى تعصب غير معقول في هذا المذهب ، وخاصة فيما يتعلق بموضوعات يعتبرونها حراما لا يؤذن في ولوجه لغريب كالتشريع مثلا ، ولا معنى في رأينا لهذا التشدد كله فالحضارة الاسلامية في مجموعها ثمرة جهد اسلامي انساني عام وهي تختلف في ذلك عن العقيدة التي هي من وحى الله فهي لا تتبدل ولا مكان فيها للجهد الانساني الا الشرح والبيان ، وهي أي الحضارة تأخذ كما تعطي ، وبدون الأخذ والعطاء فلا ازدهار لحضارة . حقا ان حضارتنا تقوم أصلا على القرآن الكريم الذي هو

كلام الله سبحانه وتعالى ، ولكن البناء الحضارى الذى قام على أساس من القرآن والسنة بناء انسانى صنعه المسلمون مما وجدوه فى القرآن الكريم والسنة الشريفة من أوامر ونواه ودوافع وحوافز ونوجيهات وإيماءات وما يسر لهم من ينابيع حضارية أيا كان نوعها ومصدرها ، فما دامت العناصر التى يقيسونها لا تتعارض مع أمر من أوامر الاسلام أو نهى من نواهيه فالأخذ منها وبها حلال ، وبذلك قال نفر من أكابر مشرعى الاسلام مثل الامام مالك بن انس والامام أبى حنيفة النعمان ، بل لم يستنكره أحمد بن حنبل على ما عرف عنه من تشدد ، وهم يعتمدون فى ذلك على قول الله تعالى من انه ليس على المؤمنين فى الدين من حرج ، فمادامت العقيدة والشريعة مرعيتين فلا حرج على المسلم فيما سوى ذلك . ولدينا فى التشريع بالذات أمثلة كثيرة من اقتباسات لتقاليد تشريعية عربية جاهلية وغير عربية أصلا ، ولكنها ممارسات سليمة اسانية لا تتعارض مع الاسلام فى شئ ، لفظا أو روحا أو معنى ، ولنفر من كبار المشرعين المسلمين فى عصرنا الراهن من أمثال عبد الرزاق السنهورى وعبد العزيز فهمى ووحيد رأفت فى ذلك آراء جميلة صدرت عن علم تام بالشريعة الاسلامية وادراك عميق لطبيعة القوانين ووظيفتها فى حياة البشر .



فيبقى بعد ذلك فى النهاية ان لدينا حضارة اسلامية متميزة الشخصية والروح والهيئة بنتها العبقريّة العربية الاسلامية على أساس من الاسلام وأخذت ما احتاجته من مواد البناء الحضارى مما تيسر لها فى أوطان الاسلام الكثرة وما وصل اليها من خارجها ، فقد وجد المسلمون فى الهند مثلا ان تقاليد العمارة الهندوكية تجعل المعبد ثلاثة أقسام لآلهة الهندوكية الثلاثة ، فأخذوا هذه الهيئة وجعلوا بيت الصلاة ، أو حزقه الامامى المسقوف على ثلاثة أقسام المحراب والمنبر وبلاطتهما فى الوسط ومقصورتان عن يمين وشمال ، ثم مضوا الى أبعد من ذلك فاقاموا فوق كل من هذه الأقسام الثلاثة قبة : كبرى فى الوسط وصغيرتين عن يمينها وشمالها فنشأ عن ذلك هذا الشكل التقليدى البديع للمساجد والروضات الهندية الاسلامية .

ومثال آخر على ذلك الاقتباس الصحى السليم ما نعرف من اقتباس المسلمين للارقام الهندية والحساب الهندى ، وتطويرهم للارقام الهندية حتى أخرجوا منها الارقام العربية ، وأشكال الارقام العربية هى التى أخذها الأوروبيون وصنعوا منها أرقامهم المعروفة ، ولازال الترقيمان مستعملين فى عالم العرب ، فبلاد المغرب تستعمل الارقام الأوروبية لأن أهلها يرون أن هذه هى الارقام العربية الأصلية ، وأهل بقية بلاد العروبة يستعملون الارقام الهندية المطورة ويقولون انها هى

الارقام العربية . ولا زالت المناقشة دائرة بين أهل المغرب وأهل المشرق حول هذا الموضوع ، وكل منهما يرى ان أرقامه هي العربية الاصلية ، وهي مناقشة حضارية طريفة وعظيمة المبنى والدلالة .

ولابى على بن سينا الفيلسوف الطبيب عبارة جميلة فى هذا المعنى ، فقد قال فى « القانون » اننا - يريد أهل الطب - نداوى ولكن الشافى هو الله . وهذه عبارة اسلامية بالغة العمق ، فان شفاء الاسقام شأن من شئون الله سبحانه وتعالى وحده ، وقد نصت عليه آية من آيات سورة الشعراء « واذا مرضت فهو يشفين » وما دما قد قررنا ان الشفاء بيد الله سبحانه فماذا يمنع من أن نلتمس الدواء والعلاج المؤدى الى هذا الشفاء من أى مصدر يتيسر لنا من علم هرمس طبيب مصر القديمة وحكيمها فى رأى المبشر ابن خانك أم من كتابات ابقراط ابى الطب اليونانى أو من مؤلفات ديوسفوريدس وهو الاستاذ الأكبر للدوية والعقاقير عند اليونان ، بل ماذا يمنع من ان يستعين الطبيب المسلم بالعقاقير التقليدية المعروفة فى موروثة الشعوب ؟ بل ماذا يمنع من استعمال الرقى والتمايم ، وهى تبعث فى نفس المريض قوة نفسية تعينه فى أحيان كثيرة على التغلب على اسقام بعضها كما نعرف أوهام أو توهمات ؟ مادام المسلم يؤمن بان الشافى هو الله سبحانه وتعالى ، ومادام يؤمن بأن الحياة والموت بيده . سبحانه ، فماذا يمنع من التماس الدواء الذى يعين على الشفاء أو يخففه من الألم ؟

واذا نحن قلنا ان الجماعة الاسلامية تتكون من قسمين - كما هو الحال فى غيرها من الجماعات ، فانه من الممكن القول بأن الأساس وهو «الاستراكتشر» هو الاسلام نفسه ، وهو العقيدة وأصول الشريعة وأصول أخلاقيات الاسلام وهى مكارم الأخلاق ، وهذا كله ثابت أصيل لأنه منصوص عليه فى القرآن الكريم والسنة ، وأما البناء ، وهو « السوبر ستراكلتشر » وهو ما يقوم فوق الأساس من انشاء متطابق مع الأساس فى العمدة والأركان فيمكن للإنسان أو الجماعة التصرف فيه بحسب ما تقضى به مصالح الناس ، لأنه كما قلنا لا يخرج فى البنية والطبيعة عن الأساس كما نجد فى البناء المعمارى من انك لا تستطيع أن تبنى على الأساس شيئاً لم يحسب حسابه عند وضع الأساس أو خارجاً عن حدوده ، فأنت لا تستطيع أن تبنى البناء فوق ما يحتمل الأساس ، وليس لك أن تبرز ببعض أجزائه بما يجاوز عمر الأساس وقواعده ، وفيما عدا ذلك فأنت تستطيع أن تبشكر وتزيد بما يناسب حاجاتك وحاجات أهلك ،

أما القول بأن بناء الحضارة الإسلامية لا يمكن أن يزيد أو يضاف فيه شيء مما لا يخرج على الأساس أو يتعارض معه فتشدد لا معنى له ، ومن الأمثلة القاطعة بخطأ هذا المذهب قول بعض السلف من أن الصلاة في مسجد الرسول لا تصح إذا جاوزت ما بين المنبر والروضه فتكلف لا معنى له بل هو مباح ، إذ أنه يحرم الزيادة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر غير معقول ، فإن المساجد أماكن للصلاة ، ولا بد أن تتسع مع زيادة الناس . .

وقد ضربت هذا المثل لأنه صغير محدود ، ومن ثم فهو واضح الدلالة والمعنى ، فإذا نحن أخذنا مثالا أوسع مدى استطعنا أن ندرك بوضوح خطورة التشدد والتضييق دون حاجة ، مثل القول بأن رئاسة الجماعة الإسلامية لا تكون إلا خلافة أو إمامة دينية اعتمادا على أن هذا هو ما فعله السلف عقب انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى . فقد أنشأوا الخلافة والإمامة (وهما شيء واحد) . مع أن القرآن والسنة لم ينصا على خلافة أو إمامة ولم يحدد شكل التنظيم العباسي الذي يمكن أن تسير عليه الجماعة مادامت تلتزم بقواعد الدين عقيدة وشرعية . وإنما تركا ذلك للمسلمين أنفسهم يتخذون فيه ما يرون أنه أصلح لهم ولدينهم ودنياهم ، ولا ضير في أن يكون رئيسهم ملكا أو سلطانا أو أميرا أو شيخا مادام يسير على أصول الإسلام ولا يتخطى حدوده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندما استقر في المدينة كتب بين المهاجرين والانصار صحيفة هي بمثابة دستور في الحكم فنظم فيه العلاقات بين المهاجرين والانصار وعاهد فيه اليهود ممن رغب في العيش في سلام مع الأمة والاشتراك معها في العمل والمحافظة على أمن الجماعة الإسلامية ، وفي هذه الصحيفة نجد الرسول يقرر بعد التشاور مع أصحابه الكثير مما كانت عليه القبائل من تنظيم قبل الإسلام ، فيظل كل قوم ممن دخلوا في عقد الصحيفة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى أي على حالهم ونظامهم قبل الدخول في الإسلام مادام ذلك لا يمس العقيدة أو الشريعة . وفي العهود التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم لوفود العرب ممن قدموا عليه يضمن لهم فيها حقوقهم في أراضيهم التي يعيشون فيها منذ القدم ويقر فيها رياستهم الأولى التي ارتضوها لأنفسهم دون أن تكون فيها مخالفة للإسلام مع اشتراط الدخول في الأمة ومناصفة أهلها والعمل على حمايتها ، فإين هذا من التمسك بشكل الرئاسة والقول بأنها لا بد أن تكون خلافة وإمامة في نفس الشكل والتفاصيل التي كانت عليها خلافة أبي بكر وعمر . ومن أين لنا في كل عصر ومكان برجلين من طراز أبي بكر وعمر ؟ بل من أين لنا أمة من الصحابة كالتى عاشت وعملت معهما ؟ وإين هذا من المناقشة فيما إذا كان رئيس الجماعة لا بد أن يكون قرشيا ؟ فكل هذه شكليات انفق المؤلفون المسلمون في مناقشتها والجدل حولها قرونا متطاولة ، وصرفهم هذا عن لباب

تنظيم الجماعة الإسلامية كما اراده الرسول صلوات الله عليه عندما نص فيها مرة بعد أخرى على أن العنصر الاساسى فى تنظيم الجماعة هو روح المحبة والاخاء والمودة التى ينبغى أن تكون أساس التعامل بين المؤمنين ، والضمير الإسلامى الحى الذى يرشد المسلم الى التصرف الصحيح دون ان يكون هناك عليه رقيب أو حسيب الا الله سبحانه وتعالى ودون ان تكون هناك قوة تخيف وتعاقب من أمثال قوله فى ختام كل فقرة من فقرات الصحيفة « وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى واقومه » أو « وان أجده دون الاثم » أو « وان الله على أبر هذا » أو « وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وابره » أو « وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وابره » وما الى ذلك من هذه العبارات الصادقة النابعة من ضمير الاسلام ، والتى توحى بأن كل تعامل بين أفراد الأمة أو بينها وبين غيرها ينبغى أن يقوم على يقظة ضمير المسلم ووعيه اذ أن دينه ليس دين تخويف وثواب وعقاب فحسب ، بل هو دين قلوب ، وجماعته جماعة قلوب متحابة فى الله تراعى الله سبحانه فى كل تصرف . وهذا يختلف كل الاختلاف عما نقرأ فى مدخل كل كتاب من كتب المعاملات أو السياسة عندنا من ان الناس مفطورون على الشر والظلم والاستبداد ، وأنه لابد لهم لهذا من وازع يردهم الى الصواب بالقوة ، ومثل هذا القول يقوم على افتراض ان الاسلام لم يدخل فيه أحد ولا آمن به وأحسن بقوته الخلقية أحد ، والا فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزعماء أم هاديا ؟ وداعيا أم حاكما ذا قوة وجند ؟ وهل كان عند رسول الله سبحانه يودع فيه المخالفين ؟ ان السجن الحقيقى هو سجن الضمير ، ورسول الله يقظ الضمير ، وأصبح الضمير حاكم المؤمنين ووازع المؤمنين وسجن المؤمنين اذا حاد عن الصواب ، وهذه هي الغاية التى كان ينبغى ان يتنبه اليها كل من أقدم على تأليف كتاب فى التنظيم السياسى على أساس من الشريعة الإسلامية وكل متكلم فى تنظيم الجماعة الإسلامية أو حضارة الاسلام بشكل عام .



وعندما نتحدث عن حصاد الحضارة الإسلامية خلال أربعة عشر قرنا هجريًا ، فأننا نعنى بذلك أحسن ما فى هذا الحصاد وسنقتصر على ذكر أحسن وأنضج وأجمل ثمراته ، لان ذلك الحصاد كثير جدا ومن المتفق عليه ان كل خير أصاب الجماعة الإسلامية فمصدره الدين والعمل فى حدود الدين وكل شر يأتى من نسيان الدين والخروج على روحه ، ومن ثم فان المساوىء لا تدخل فى حصاد الاسلام وفى كتاب كهذا لا يمكن الإحصاء بل يجزىء عنه الاختيار أو اختيار الإحسن أو الذى يعتبر نموذجا لغيره ، وهنا نواجه حقيقة كبرى وهى أن أجمل ثمرات هذا الحصاد هى بالفعل ما راعى أصحابه فى عمله روح الاسلام

من الصدق والاخلاص والاجتهاد وبذل غاية الجهد ، وهذا هو ما نجده بالفعل
في روائع ذلك الحصاد . فمؤلفات اساطين الفقه والتشريع الاسلاميين سسواء
اكانوا اصحاب مذاهب أو فقهاء اجلاء وكبار الفلاسفة وأهل التصوف والكلام
المؤرخين والجغرافيين وكبار أهل الفلك والرياضيات والبارزين في ميادين العمارة
والزخرفة والموسيقى وأساتذة النباتيين والكيميائيين ، كل هؤلاء ومن في طبقتهم
من أعلام حصاد الاسلام كانوا مؤمنين ممن صحت قلوبهم ووعت ضمائرهم ولهذا
خلدت أعمالهم وكانت خيرا للانسانية كلها ، لان عنصر الخير والبر والانسانية
في أعمالهم جعلها تتخطى حدود مملكة الاسلام وتنتقل الى أمم كثيرة خارج نطاق
الاسلام ، فصبت في تيار الحضارة الانسانية وأصبحت حصادا انسانيا عاما ،
وهؤلاء هم المصابيح الذين يزدان بهم تاريخنا وتاريخ الانسانية كلها .
والله سبحانه الموفق ، وهو من وراء كل قصد رفيع ، له العبد والمنس
سبحانه .

• • حسين مؤنس

الاسلام في أربعة عشر قرناً

سنوات الحضارة الإسلامية

من مصادرها الأصلية

بمختار يفتحه

الدكتور أحمد شلبي

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ان الحديث عن « الحضارة الاسلامية من مصادرها الأصلية » يصحح خطأ طال مداه ، فقد كان هناك اتجاه سائد يرى ان الحضارة الاسلامية هي ما وصل له المسلمون من تقدم فى مجال العمران أو فى مجال الطب والرياضة ونظائرها من العلوم التجريبية ، ويتجاهل هذا الاتجاه أو يجهل ما سوى ذلك ، ولكن موضوعنا هنا يقود لايضاح الطريق الصواب حول الحضارة الاسلامية ، بأن نجعل التركيز على الحضارة المنبثقة من المصادر الاسلامية الرئيسية ، وهذا النوع من الحضارة هو ما نسميه « الحضارة الاسلامية الأصلية » أى التى استمدت وجودها من الفكر الاسلامى ، والتى هى منحة الاسلام لهداية البشرية ، أو بعبارة أخرى استمدت وجودها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وغيرها من مصادر التشريع الاسلامى .

وعلى هذا يتضح أن الحضارة الاسلامية نوعان هما :

أولاً : الحضارة الاسلامية الأصلية ، وتسمى حضارة الخلق والابداع ، وهى تلك التى جاء بها الاسلام ، أو عمقها ووضع لها النظم والتفاصيل ، ولم تكن كذلك قبل الاسلام مثل رأى الاسلام فى السياسة والاقتصاد وفى الحياة الاجتماعية وفى التربية والتعليم وفى مجال السلم والحرب ..

ثانياً : الحضارة الاسلامية التجريبية وتسمى حضارة البعث والاحياء ، وهى تلك الحضارة التى كانت موجودة قبل الاسلام وازدهرت قبل الاسلام كالتقدم فى الطب والموسيقى والفلك والعمران ، ولكنها ذبلت واختفت قبل الاسلام لعوامل متعددة سنعرفها فيما بعد ، ثم جاء الاسلام وحث على خدمة العلم كل العلم الذى ينفع البشرية ، فاتجه المسلمون بحماسة بالغة لاحياء هذه الحضارات ، بل اتجهوا لتطويرها والتأليف فيها .

وقد ازدهرت الحضارتان فى القرون الاسلامية الأولى ، فأصبح العالم الاسلامى بهما فى دائرة الضوء بين دول العالم ، ولما تم الالتقاء بين العالم

الاسلامى وبين أوروبا فى الأندلس وصقلية وفى مصر وفلسطين إبان الحروب الصليبية عمدت أوروبا الى الاغتراف من الحضارة الاسلامية وبخاصة الحضارة التجريبية لحاجة الملوك والأمراء الى الطب والموسيقى والعمران ، وأهمل الملوك والأمراء ، الحضارة الاسلامية الأصيلة لادراكهم أن الشورى فى السياسة ستكون على حسابهم لمصلحة الشعوب وكذلك الاقتصاد والتعليم وغيرها من قضايا الحضارة الاسلامية الأصيلة ، وهذا هو السبب فى الخطأ الذى شاع عن اعتبار الطب والموسيقى والعمران ... الذى نعمت به أوروبا - اقتباسا من الشرق - وهو الحضارة الاسلامية ، وقد نسي القائلون بهذا الرأى أن الحضارة الاسلامية الأصيلة لم تستسلم ، بل صمدت حتى فرضت نفسها على المجتمع العالمى كما سنرى فيما بعد .

والآن بعد هذا التقديم يمكننا أن نخطو للحديث عن « الحضارة الاسلامية من المصادر الرئيسية » وبعد ايضاح هذه الحضارة لن نبخل ببعض الفراغ لنشرح فيه بإيجاز المسيرة التاريخية للحضارة التجريبية استكمالا للفائدة .

والحضارة الاسلامية الأصيلة تشمل - كما أشرنا من قبل - نهج الاسلام فى شئون السياسة والحكم ، ونهج الاسلام فى شئون الاقتصاد والمال ، ونهج الاسلام فى مجال التربية والتعليم ، وفى مجال السلم والحرب ... وغير هذه من المجالات ، وسنأخذ فى ايضاح ذلك بشيء من التفصيل :

الاسلام والسياسة

قبل الإسلام كان التفكك سائدا وكانت القوة هى الوسيلة ليصل الانسان الى الحكم ، وكان الحاكم هو مالك الاقطاع وصاحب الثراء ، ولم يكن هذا ملتزما بأن يستشير ولا بأن يتبع الاستشارة ان قدمت اليه ، ولم تكن الشعوب تستطيع عزل الحاكم ان حاد عن الحق أو ظلم .

وفى مجال الشورى نورد فكرة مهمة هى أنه فى بعض الحالات اضطر الملك أو الرئيس قبل الاسلام الى استشارة قادة دولته ، ولكن هؤلاء أجابوا بأنهم لم يتعودوا الاستشارة وانما عليهم الطاعة وعليه هو ان يتدبر الأمر بما يرى ، فالأمر كله له ، والقرآن الكريم يقص من هذا النوع قصة على لسان بلقيس مع قادة قومها قال تعالى « انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلو على وأتوني مسلمين » قالت ياأيها الملائكة

أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون (١) ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين ، قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها « (٢) » .

فهذا دليل على ان الاتجاه العام كان يترك الأمر كله للحاكم وعلى الحكومة ان تسمع وتطيع .

وجاء الاسلام فعنى بالسياسة عناية عظيمة ، ووضع لها الحدود والقوانين ، وقدم للبشرية فى هذا النطاق أكثر النظم رسوخا وفائدة ، وأول ما عنى به التفكير الاسلامى فى نطاق السياسة ان ألزم قيام حكومة تدير أمور الناس وتنظم شئون المجتمع الاسلامى ، وقد أجمعت المصادر الرئيسية على ذلك فمن كلام الله الكريم قوله تعالى :

- يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (٣) .
- ولو رددوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (٤) .
- ومن احاديث الرسول قوله : -
- من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية .
- اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم .
- لا يحل لثلاثة يكونون فى فلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم .
- ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلسا امام جائر .
- ومن اقوال السلف الصالح :
- قول أبى بكر عقب وفاة الرسول : ... ان محمدا مضى بسبيله ، ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به .
- وقول عمر بن الخطاب : لا اسلام الا بجماعة ولا جماعة الا بامارة ، ولا اماراة الا بطاعة .

(١) يقول المفسرون ان المعنى انها لا تستطيع ان تقطع فى أمر « كهذا » بدون رأيهم وازافة « كهذا » يحتمل سياق الآيات لانهم سيجيبون بما يفيد ان الأمر دائما اليها وهم أهل قوة ملتزمون بالسمع والطاعة لا بالرأى .

(٢) سورة النحل الآيات ٢٩ - ٣٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٤) سورة النساء الآية ٨٣ .

والحكومة الاسلامية تقوم بعمل له شقان ، الشق الأول تعليم المسلمين الأحكام والشق الثانى انزال العقوبة بمن يخالف هذه الأحكام .

وليس كل فرد مسلم يستطيع ان يكون خليفة أو رئيسا ، فقد وضع التفكير الاسلامى شروطا لمن يتقدم ليتحمل هذه المسئولية ، ومن هذه الشروط العدالة ، والعلم المؤدى للاجتهاد ، وسلامة الخواص ، وسلامة الأعضاء ، والشجاعة ، ويهتم التفكير الاسلامى اهتماما كبيرا بشرط العدالة ويراه قمة الشروط اللازمة للخليفة أو الرئيس ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

— ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشى لرعيته الا حرم الله عليه الجنة .

— اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فرفق به .

ويروى أبو عبيد تعليقا مهما لأحد العلماء على هذا الشرط ، بقوله : ان الامام العادل يسكت الأصوات عن الله ، وان الامام الجائر لتكثر منه الشكايا الى الله (١) .

ويقوم أهل الحل والعقد باختيار الرئيس ممن تتوافر فيهم شروط الخلافة ومعنى هذا أن الجماهير لا تشترك فى اختيار الرئيس ، فقد روى أن الجماهير لما ذهبت الى على بن أبى طالب معلنة اختياره خليفة بعد مقتل عثمان ، صاح فيهم على : هذا الأمر ليس لكم أين أهل بدر ؟ أين طلحة والزبير ؟ (٢) . ولكن للجماهير دورا مهما هو حقهم فى رفض من يختاره أهل الحل والعقد اذا لم يوافق اختيارهم رغبة الجماهير .

الشورى فى الاسلام :

ومن المبادئ التى اهتم بها الفكر الاسلامى ضرورة ان يتبع الحاكم نظام الشورى فيما لا نص فيه ، وذلك اتباعا لقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » (٣) وقوله « وأمرهم شورى بينهم » (٤) وكان الرسول كثير الاستشارة ، وقد روى أبو هريرة انه لم يكن أحد أكثر استشارة من رسول الله ، ويروى انه

(١) كتاب الاموال ص ٦ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ٤٦٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٤) سورة الشورى الآية ٣٨ .

قال لصاحبيه أبى بكر وعمر : لو اجتمعنا على أمر ما خالفكما فيه ، وتبعنا لذلك اتخذ الخلفاء البررة مجالس للشورى .

الحاكم وأعوانه لا يدخلون الصفقات العامة :

ومن المبادئ التى اهتم بها الفكر الاسلامى ان الحاكم وأعوانه (الوزراء والولاة والقضاة) ليس لهم ان يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشتريين ، روى أن عاملا لعمر بن الخطاب اسمه الحارث بن كعب بن وهب ظهر عليه الشراء ، فسأله عمر عن مصدر ثرائه فأجاب : خرجت بنفقة معى فتجرت فيها . فقال عمر : أما والله ما بعثناكم لتتجروا . وأخذ منه ما حصل عليه من ربح (١) .

وقد نص البيان الشامل الذى أخرجه عمر بن عبد العزيز عقب توليته الخلافة فيما يتعلق بهذا الموضوع على ما يلى : ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه ، فان الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص على الا يفعل . ومما أثر عنه قوله : تجارة الولاة مفسدة وللرعية مهلكة (٢) .

وقد عقد ابن خلدون (٣) فصلا عن أن « تجارة السلطان مضره بالرعايا » ذكر فيه أن دخول السلطان ميدان التجارة يضر بالرعايا وينافى الاسلام ، فان أعوان السلطان قد يشترون لحسابه الواردات الخارجية ثم يضعون لها ما يشاءون من أسعار لضمان ربح كبير للسلطان ، ثم ان تجارة السلطان لا تخضع للمكوس والضرائب التى تخضع لها تجارات الآخرين وفى هذا ظلم على هؤلاء التجار وعلى الرعية .

وروى عن البخارى أنه قال : ما اشتريت منذ وليت من أحد بدرهم ، ولا بيعت أحدا شيئا . فسئل عن الورق والخبر فقال : كنت أمر انسانا فيشتري لى (٤) .

وكما حرمت التجارة حرم ما فى معناها مما يجلب ربحا للوالى بسبب ولايته كالمؤاجرة والمساواة والمزارعة (٥) .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٥٤ .

(٢) اقرأ البيان كله فى ابن عبد الحكيم ص ٩٣ - ١٠٠ .

(٣) المقدمة ص ١٩٧ - ١٩٩ .

(٤) النووى : تهذيب الاسماء القسم الاول ج ١ ص ٦٨ .

(٥) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ٤٧ .

لا هدايا للحاكم وأعواته :

ومن أوضح المحرمات على الوالى الهدايا ، روى عن الرسول أنه قال : هدايا الأمراء غلول . وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال هدايا العمال غلول ، وقد وضع الرسول أن الهدايا للعمال أو الولاة يقصد بها شئ من ورائها ، فقد استعمل عليه السلام رجلا من الازد على الصدقة فلما عاد وأخذ يقدم ما جمعه من مال للرسول ، احتجز بعضه وقال هذا أهدي لى : فقال الرسول : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لى ، فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا (١) .

وروى أن رجلا أتى عمر بن عبد العزيز بتفاحات فأبى أن يقبلها ، فقليل له : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية . فقال عمر : هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ، وهى لنا رشوة (٢) .

ويرى الفكر الإسلامى أن قلة مرتب العامل قد تدفعه الى الشطط ، ولذلك اتجه المفكرون المسلمون الى اعطاء العامل مرتبا فيه نوع من السخاء ، حتى يرتفع بذلك عن الشبهات وفى ذلك يقول الامام على : « ان على ولى الأمر ان يفسح لواليه فى البذل لتزول بذلك علتة وتقل معه حاجته الى الناس ، ويخاطب الامام على ولى الأمر بقوله : أسبغ على ولاتك الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو نقضوا الأمانة ، (٣) .

عزل الحاكم :

ويجوز عزل الحكومة الإسلامية اذا ثبت عجزها أو فسادها ، ومن هنا فائنا نتساءل :

متى تعد الحكومة عاجزة ؟

متى تعد الحكومة فاسدة ؟

نحب أن نؤكد أولا أن الأخطاء اليسيرة لا يمكن أن تكون سببا فى التفكير فى عزل الحكومة فالعصمة لله وحده ، ومركز الامام أو مركز الحاكم أعز شأنا من أن نهزه من حين الى آخر بسبب الهفوات التى ليست بذات خطر على كيان

(١) انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٢ .

(٣) نهج البلاغة : ص ٣٤٠ .

الأمة ، وقد أحطنا هذا المنصب بهذا الاهتمام وارتفعنا به عن التحدى ، لأنه
« المنصب الذى تتعلق به حماية الدولة وحقوق الأمة » (١) .

فاجلال هذا المنصب ليس من أجل شأغله ، بل من أجل التوقير اللازم
لمنصب إذا عز المسلمون ، وإذا ذل ذل المسلمون وكانوا عرضة لهجوم
الأعداء وعريضة الضالين .

ومن أجل هذا اهتم الفكر الإسلامى الذى أباح العزل بالا يكون ذلك الا
لضرورة قصوى روى أن عبادة بن الصامت قال « بايعنا رسول الله على السمع
والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى
أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ويروى أن الرسول صلى
الله عليه وسلم قال « لا تنازعوا الأمر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من
الله فيه برهان » .

وقال الرسول كذلك « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر ، فانه
ليس أحد يقارق الجماعة شبرا فيموت الامات ميتة جاهلية » .
وإذا فما هى الأمور التى توجب عزل الامام ؟ أو مرة أخرى : متى تعد
الحكومة عاجزة ؟ ومتى تعد فاسدة ؟

فى الإجابة عن ذلك نقرر أن الأمور التى تستحق الحكومة أن تعزل
بسببها ، لا يمكن أن نضعها فى إطار واحد ، فانها تختلف باختلاف الظروف
والأحوال ، على ان هناك ضابطا عاما يمكن ان يشمل أهمها ، فمن المعروف
ان أهم أعمال الحكومة هو اتباع النظم الإسلامية ، وضمان الأمن فى الداخل
وحراسة الوطن الإسلامى من أى اعتداء خارجى فإذا ضعفت الحكومة عن احتمال
ذلك العبء فهى عاجزة ، وان كانت تستطيع ولكنها أهملت فهى فاسدة .

الحكومة الإسلامية بين الحكومات المعروفة :

بقى بعد ذلك أن نورد مقارنة بين الحكومة الإسلامية وبين الحكومات فى
النظم الأخرى المعروفة كالحكومة الديكتاتورية والحكومة الديمقراطية ، والحكومة
التيوقراطية ، ولنبدأ حديثنا متسائلين :

هل الحكومة الإسلامية ديكتاتورية ؟

هل الحكومة الإسلامية ديمقراطية ؟

هل الحكومة الإسلامية ثيوقراطية ؟

(١) عباس العقاد : الديمقراطية فى الاسلام ص ١٧ .

ان الاجابة عن هذه الأسئلة ليست عسيرة بعد ما قدمنا من دراسات ، ويمكن القول دون تردد أن العناصر التي أوردها الاسلام للحكومة الاسلامية ، والتي سقناها في هذا البحث ، تقودنا الى نتيجة حاسمة ، هي ان النظام الاسلامي له طابعه الخاص ، وله مميزاته وخصائصه التي تجعله لا ينضوي تحت أى من النظم الأخرى لأية حكومة من الحكومات وسنسوق فيما يلي بيانا :
شيء من التفصيل لهذا الاجمال .

الاسلام والنظام الديكتاتورى :

ولعل أكثر النظم بعدا عن النظام الاسلامي هو النظام الديكتاتورى ، فعناصر النظام الاسلامي هي - كما سقنا آنفا - حق الشعب فى اختيار حاكميه ، وحقه فى نقدهم ، وواجب الشورى ، وحقه فى عزلهم . وهذه العناصر لا يتيحها النظام الديكتاتورى .

الاسلام والنظام الديمقراطى :

وتأتى بعد ذلك الحكومات الديمقراطية ، وهي - ان صححت فيها الديمقراطية قربية الشبه بالنظام الاسلامي ، فكلاهما يجعل الاختيار أساس قيام الحكومة ، ويحتم الشورى فى الحكم ، ويبيح للشعب عزل الحكومة لو وجدت ظروف تستدعى العزل . ولكن تبقى نقاط تفرق بين النظام الديمقراطى والنظام الاسلامي ، وهذه النقاط هي :

١ - تضع الحكومة الديمقراطية للناس مقاييس الرذائل والفضائل ، ولكن الحكومة الاسلامية لا تضع هذه المقاييس ، بل ان الشرع الاسلامي هو الذى وضعها وعلى الناس اتباعها ، وقد جعلت الديمقراطية الغربية الاستعمار فضيلة ، والتفرقة العنصرية فضيلة وجعلت العدالة مع الشعوب المستعمرة رذيلة وهكذا .

٢ - تشرع الحكومة الديمقراطية للناس فى مختلف الشئون ، ولكن الحكومة الاسلامية ليس لها أن تشرع فيما شرع الله فيه ، فليس لها مثلا أن تغير فى نظام الميراث الذى ورد به نص صريح ، ويكون تشريعها فيما لم يرد فيه نص دائرا فى نطاق التفكير الاسلامي العام .

٣ - يختار الشعب رئيسه فى النظام الديمقراطى غير مقيد بقيد ، ولكن الشعب فى الاسلام لا يجوز له أن يختار الا من اجتمعت فيه شروط معينة سبق ذكرها .

الاسلام والنظام الشيوقراطى :

بقى بعد ذلك الحديث عن الحكومة الشيوقراطية ، ويخيل لبعض الناس أن النظام الاسلامى نظام ثيوقراطى ، ومرجع هذه الشبهة أن كلا منهما له صلة بالدين ، ولكن الحقيقة أن الفرق بينهما شاسع ، لأن الشيوقراطية حكم رجال الدين الذين يدعون الصلة بالله وتلقى الوحي منه على مر الزمن ، ومن هنا لا يقبلون مناقشة أحد ، أما الحاكم المسلم فلا يتلقى وحيًا من الله ويلزمه الشورى ويوضح Sir Thomas Arnold (١) هذا الفرق بقوله :

ان البابا مميز بسلطاته الروحية ، ووظائفه الدينية ، وهو يقود أرواح الناس ، وليس شخصا مسيحيا عاديا بل ان له سلطة دينية خاصة يستطيع بها أن يشرع وأن يغفر السيئات . أما الخليفة فلا يوحى اليه ، ولا يشرع وليس الا منفذا لأحكام الدين ، وان سلطة تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء وان الامامة فى الصلاة التى تعود للخليفة أن يتولاها كان من الممكن أن يقوم بها أقل فرد من المسلمين .

والبابا عند المسيحيين له سلطان الهى فهو ينفرد بتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الاثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بمقتضى الايمان ، فليس للمسيحي ما دام مسيحيا أن يخالفه (٢) .

أما تلقى الشريعة فى الاسلام فعن القرآن والحديث بدون توسيط أحد من سلف أو خلف ما دام المسلم قد حصل على الوسائل الثقافية التى تؤهله للفهم ، فان لم يكن قد حصل على هذه الوسائل فما عليه الا أن يسأل العارفين بها من المسلمين ، وله أن يطالب المسئول بالدليل (٣) .

الاسلام والاقتصاد

إذا نظرنا الى العالم قبل الاسلام من الناحية الاقتصادية وجدنا ان الاقتصاد كان مرتبطا بالحكم فما لك الأرض فى النظام الاقطاعى كان هو حاكم المقاطعة ، وشيخ القبيلة فى الجزيرة العربية كان هو محورها فى السياسة والاقتصاد .

(١) The caliphat pp. 10-14.

(٢) الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ٦٧ وانظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(٣) المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٥ .

واذا تعدد الملاك وكثر السادة في بلد ، فان ارسطقراطية رأس المال تفرض الحكم على الشعب ، بمعنى ان الرأسماليين اذا لم يحكموا بأنفسهم فانهم يختارون الحاكم ليسير في حكمه على هواهم .

وكانت هناك ضرائب ، ولكن الفقراء هم الذين كانوا يدفعون الضريبة للأغنياء ، فقد كان الفقراء عبيدا للأغنياء ، وكانوا يدفعون الضريبة من عرقهم وجهدهم تنمية لثروة الأغنياء الزراعية أو التجارية ، أو يعملون في الخارج ويقدمون أجورهم لسادتهم الأغنياء .

وجاء الاسلام فعزل بين الثروة والحكم ، ولأول مرة أصبح بعض الحكام فقراء كما كان أبو بكر وعمر وعلى .

وقد حاولت ارسطقراطية رأس المال أن تفرض الحاكم في الاسلام ، ولعلها نجحت أحيانا ، ولكن الخليفة الذي كان يتبع الفكر الاسلامي رفض هذا التدخل من رأس المال ، فيروى ان سليمان بن عبد الملك ولي عهده عمر بن عبد العزيز يدون أن يستشير ، فلما مات سليمان جمع وزيره مزاحم القادة والسادة فوافقوا على اختيار الخليفة ، وبايعوا لمن ارتضاه سليمان بن عبد الملك ، وكادت البيعة تتم بذلك لعمر بن عبد العزيز ولكن عمر الذي كان يمثل التفكير الاسلامي الصحيح اعتلى المنبر ، وصاح في الحاضرين : أيها الناس ، اني ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان مني فيه ، ولا طلبه لي ولا مشورة من المسلمين ، وقد اعطاه لي من لا يملكه ، واني قد خلعت في أعناقكم من بيعتي فاختراروا لأنفسكم (١) .

وقد اختار الناس عمر بن عبد العزيز عقب ذلك ، ولكن لا لأنه مرشح الرأسمالية بل لأنه كفء توسم فيه المسلمون الصلاح والصلاحية فارتضوه ، وكان عمر عند حسن الظن به ، فأعاد للفكر الاسلامي قوته في كل اتجاه .

ولم يوقف الاسلام الضرائب ، ولكنه جعلها على الأغنياء للفقراء ، وجعلها الاسلام حقا لمستحقيها أي ليست عطاء أو منحة ، وحددها بحيث لا يخضع تقديرها لرغبة الأغنياء أو مقدار سماحتهم ، كما ألزمهم ان يقدموها في أوقات محددة دون تأخير ، والآيات الكريمة التالية توضح هذه الأمور ، قال تعالى :

— وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (٢) .

(١) البري : ج ٥ ص ٣٠٧ ، وابن الجوزي : عمر بن عبد العزيز ص ٥٥ .

(٢) سورة الداريات الآية ١٩ .

- ١- والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (١) .
- ٢- واتوا بحقه يوم حصاده (٢) .

مراحل الملكية كما يراها الاسلام :

للفكر الاسلامى تنظيم خاص فى موضوع ملكية الأشياء ، ويرى هذا الفكر أن ملكية الأشياء تتدرج خلال مراحل ثلاث :

ففى المرحلة الأولى وهى المرحلة الأساسية يقرر الاسلام ان الله سبحانه وتعالى هو مالك كل شئ ملكية حقيقية أبدية ، قال تعالى :

- ١- ولله ملك السموات والأرض وما بينهما (٣) .
- ٢- لله ملك السموات الأرض وما فيهن (٤) .
- ٣- ولم يكن له شريك فى الملك (٥) .

ثم تجيء المرحلة الثانية ، وفى هذه المرحلة نجد المالك الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى يمنح المجتمع البشرى ملكية الانتفاع أو ملكية الظاهر لبعض ما هو فى الحق والواقع ملك له ، قال تعالى :

- ١- ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٦) .

- ٢- وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه (٧) .

- ٣- وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه (٨) .

- ٤- وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٩) .

ونؤكد ان هذه المرحلة فيها منح كل النعم التى أراد الله أن يمنحها لكل البشر ، فهى منح الكل لكل ، ومعنا آية أخرى تؤكد هذا المعنى ، وهى قوله

(١) سورة المارج الايتات ٢٤ - ٢٥ .

(٢) سورة الانعام الآية ١٤١ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٧ .

(٤) سورة المائدة الآية ١٢٠ .

(٥) سورة الاسراء الآية ١١١ .

(٦) سورة لقمان الآية ٢٠ .

(٧) سورة الجاثية الآية ١٣ .

(٨) سورة الحديد الآية السابعة .

(٩) سورة النور الآية ٣٣ .

تعالى » وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، سواء للسائلين » (١) فألفاظ الآية توضح ان الرزق في الأرض قدر لكل سكان الأرض لأن قوله تعالى « سواء للسائلين » تفيد الشمول للخلق جميعا ، فكلمة « سواء » تلغى اختصاص أحد على أحد وكلمة « السائلين » معناها المتطلعون لعمونه المحتاجون اليه ، أى جميع الخلق .

وتجىء المرحلة الثالثة وفيها يملك الأفراد بعض ممتلكات المجموع . ويعتبر الانسان المالك فى هذه المرحلة نائبا عن المجتمع فى ادارة ما يملك .

ويلتزم المجموع فى المرحلة الثانية والأفراد فى المرحلة الثالثة بحسن ادارة ما وكل لهذا أو ذاك ، فإذا كانت هناك دولة منحت المعادن أو المواد الخام ، ودولة منحت الأرض الزراعية ، ودولة منحت ثروة حيوانية أو سمكية وهكذا فإن هذه الدول يلزم أن تتعاون لقضاء حاجة الجميع ، ويلزم كذلك أن تشكر كل دولة صاحب النعمة وان تؤدي التزاماتها لله وللناس ، فإذا نكلت دولة عن التعاون والشكر . وأداء الالتزامات فقد تنزل بها نكبات تضيق ثراءها وتعيد الملكية للمالك الحقيقى الذى يهبها لجماعة جديدة ، وهذا ما نراه من قيام حروب تسقط بعض الدول ، أو ظهور ثروات لجماعة لم تكن تتوقع هذه الثروات لتدوم عملية المنح والاسترداد التى عبرت عنها الآيات الكريمة :

— ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل قائما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم (٢) .

— وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها (٣) .

— كذلك وأورثناها قوما آخرين (٤) .

ومثل هذا يحدث بالنسبة للمرحلة الثالثة ، فالفرد الذى يملك بعض ما منح للملك ، أى الفرد الذى يملك عمارة أو عمار أو الذى يملك أرضا زراعية أو نحو ذلك هو فى الواقع يقوم بوظيفة اجتماعية كتلك التى ينوب فيها مدير مؤسسة عن المساهمين بإدارتها فى حدود نظام معين ، وكما يعزل مدير مؤسسة

(١) سورة فصلت الآية العاشرة .

(٢) سورة محمد الآية ٣٨ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٧ .

(٤) سورة الدخان الآية ٢٨ .

لو أساء التصرف فإن المالك في الاسلام يفقد سلطته على المال لو لم يسر حسب النظام الذى وضعه المالك الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، وتعود السيطرة على هذا المال من الفرد للمجموع أى من المرحلة الثالثة للمرحلة الثانية ، ومعنا آية كريمة توضح هذا المعنى هى قوله تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم » (١) فالله سبحانه وتعالى لم يقل : ولا تؤتوا السفهاء أموالهم ، وإنما قال « أموالكم » لبيان ان السفه الذى حدث من المالك أفقده السلطة على المال وأعاد الأموال الى المجتمع ، ولا يبقى للمالك السفه الا ما قرره الآيه من رزق أو كسوة ، وتكمل المقارنة لو استعرضنا الآيه الكريمة التى تتلو الآيه السابقة ونصها « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » (٢) .

ففى هذه الآيه نسبت الأموال لأشخاص محددين وهم اليتامى ، ولكن بعد ان وضح الرشد فيهم ، وهذا يدل على ما ذكرناه من قبل وهو ان من نسميه المالك هو فى الحقيقة انسان يقوم بوظيفة اجتماعية فان انحرف فقد سلطته على المال وعادت السلطة على المال للمجموع ، وذلك هو ما يسمى « الحجز » فى الفقه الاسلامى اذ يقوم القاضى الذى يمثل المجموع بالحجز على السفه ، ويكل ادارة المال الى من يحسن هذه الادارة .

وقد يقصر المالك فى هذه المرحلة (المرحلة الثالثة) فى أداء واجباته الاسلامية والتزاماته فلا يعطى حق الفقير أو لا يشكر مانح النعمة وهو الله سبحانه وتعالى وتكون النتيجة زوال هذه النعمة بطرق مختلفة ، ويقول الرسول عليه السلام فى ذلك : ان الله عند قوم نعماء أقربا عندهم ما كانوا فى حوائج الناس ما لم يملوهم ، فان ملوهم نقلها الى غيرهم . وهذا هو السر فيما نراه دائما من فقر بعد غنى عند بعض الناس وغنى بعد فقر عند آخرين وذلك عقوبة فى الأولى واختبارا فى الثانية .

ويقص علينا القرآن الكريم نماذج من ذلك ، فقارون بأمواله الباهظة يدعى ان هذه الأموال أمواله وانه حصل على الغنى بجهده وقدرته ويقول فى هذا « انما أوتيته على علم عندى » وتكون العقوبة ما ذكرته الآيه الكريمة « فخشفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (٣) .

(١) سورة النساء الآيه الخامسة .

(٢) سورة النساء : آية السادسة

(٣) سورة القصص الآيه ٨١ .

وصاحب الجنتين الذى ورد ذكر قصته فى سورة الكهف ، يغتر بماله وجأه وينسى ربه ويشك فى قيام الساعة فتصبح جنته وهى خاوية على عروشها ، وتختتم هذه القصة بقوله تعالى « هنالك الولاية لله الحق » (١) أى أن مثل هذه الأحوال تبرز أن المالك الحقيقى هو الله لا سواء .

وأصحاب الحديقة اليانعة التى أقسم أصحابها أنهم سيتسلمون لجنى ثمارها مبكرين ولا يعطون أحدا من خيراتهم ، ولكن الله قضى عليها ، فلما ذهبوا مبكرين وجدوها خاوية على عروشها ، ويحكى القرآن الكريم قصتهم بقوله : انا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة ، اذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن أغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون (٢) .

مبادئ اسلامية فى الاقتصاد :

للاسلام مبادئ اقتصادية مهمة تحقق الغاية التى يسعى الاسلام لتحقيقها ، وسنلم بهذه المبادئ فيما يلى :

أولا : المال مال الله :

وقد شرحنا هذا المبدأ فى حديثنا آنفا عن « مراحل الملكية فى الاسلام » ونريد هنا أن نعطي بعض التفاصيل عن التزامات هذا المبدأ ، وبصفة اجمالية يتحتم على الفرد المالك لبعض المال والمتاع أن يتبع فى ادارة هذا المال تعليمات المالك الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، فاذا أردنا بعض التفاصيل لهذه التعليمات ذكرنا ما يلى :

١ - لا يجوز لهذا المالك أن يكنز ماله بل لا بد أن يطلقه للتعامل به لينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، فاذا كنزه استحق غضب الله قال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٣) .

٢ - لا يستعمله فى رشوة فان استعمله فى رشوة فقد عصا المالك الحقيقى

(١) سورة الكهف الآية ٤٤ .

(٢) سورة القلم الآيات ١٧ - ٢٧ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٣٤ .

واستحق غضبه قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بلائيم » (١) وقال صلى الله عليه وسلم : الراشى والمرتشى فى النار .

٣ - لا يسرف فى استعماله ، فان أسرف تعرض لمقت الله وغضبه قال تعالى : ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين (٢) . وقلم مدح الله المعتدلين وذم المسرفين فى قوله : والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٣) .

٤ - لا يستعمل المال فى الاحتكار وانتهاز الفرص ، والا تعرض لسخط الله ، وبرىء الله منه ، فقد ورد فى الحديث : من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه .

ثانياً : الاعتراف بالملكية الفردية وبالتفاوت فيها :

يقر الاسلام حق الملكية الفردية للمال الذى حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة كما يقر التفاوت فى الغنى بقدر الجهد الذى يبذله الشخص ، وبقدر ما يصادفه من توفيق .

والطرق المشروعة أساسا للحصول على المال هى : العمل والميراث ، فالعمل وسيلة طبيعية للحصول على المال ، وبقدر ما يبذل الانسان من جهد بقدر ما ينال من نتائج ، وقد حث الفكر الاسلامى على العمل وجعله عبادة ، وحث على المثابرة عليه ، يقول الله تعالى : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وأما الميراث فهو أيضا وسيلة طبيعية للحصول على المال لأن الانسان يرث عن أهله ما يفوق المال ، فكيف لا يرث المال ؟ اننا نرث عن آبائنا لو أنهم وقامتهم وكثيرا ما نرث مواهبهم وصحتهم أو مرضهم ، وغير ذلك مما يدل على أن الابن بعض أبيه واستمرار له وكثيرا ما يكون عوناً له فى جمع هذا المال ، ومن أجل ذلك فرض الاسلام الميراث وجعله طريقاً مشروعاً من طرق الحصول على المال .

ومما يدل على أن الاسلام يقر الملكية الفردية أن القرآن الكريم نسب الملكية

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤١ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٦٧ .

للأفراد فى بعض الآيات ، قال تعالى : « انما أموالكم وأولادكم فتنة (١) وقال : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار (٢) وفى هذه الآية وما قبلها نسب القرآن الأموال الى الناس ، وهى الملكية الظاهرية التى تحدثنا عنها .

ويقر الاسلام التفاوت فى الملكية الفردية ، تبعا للجهد الذى يبذله الانسان وللتوفيق الذى يصادفه ، وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن هذا التفاوت ، قال تعالى :

- والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق (٣) .
- يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (٤) .
- الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (٥) .
- نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (٦) .

ولا نزاع فى أن التفاوت فى المال طبيعى لأن الناس متفاوتون فيما هو أعظم من المال وأنفس منه ، انهم متفاوتون فى الصحة والذكاء والجمال والصوت ، ومتفاوتون فى مقدار توفيقهم فى الزواج أو الجوار أو الصحبة ومتفاوتون فى مدى صلاح الأولاد ونجاحهم . . . وكل هذه الأشياء أنفس وأهم من الأموال ، فمحااربة التفاوت فى الملكية تصرف يتنافى مع طبيعة الحياة .

ولكن ليس معنى التفاوت فى الغنى أن يوجد أغنياء وبجانبهم فقراء معوزون ، فالغنى المباح فى الاسلام هو ذلك الذى يجىء بعد قضاء حاجات الناس ، ولا يمكن أن يوجد فائض عند واحد وجوع عند آخر فى الاسلام ، ويقول الرسول فى ذلك : من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له .

والملكية الفردية التى يقرها الاسلام ويقر التفاوت فيها تشمل الملكية الزراعية كما تشمل ملكية التاجر والصانع والمباني والمساكن والمدرجات . . . ويحرس الاسلام هذه الملكية بقوانينه الحازمة التى تعاقب السارق وقاطع الطريق ، ولا يجيز الاسلام للحكومة أن تتدخل فى ادارة هذه الملكية أو تعتدى عليها الا اذا تعارضت مع الصالح العام .

(١) سورة التغابن : الآية ١٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٤ .

(٣) سورة النحل : الآية ٧١ .

(٤) سورة الشورى : الآية ١٢ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٢٦ .

(٦) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

وهناك حديث ينسب لسيدنا رسول الله ونصه : الناس شركاء في ثلاث ؛ الماء والكلا والنار . وهو حديث يتخذ بعض الناس دليلا على الاشتراكية أو على الشيوع في العناصر الثلاثة الرئيسية في الجزيرة العربية وقيسون عليها أى عناصر رئيسية أخرى فى أى مجتمع ، وعندما يؤخذ الحديث بهذا العموم يتنافى مع حق الملكية الفردية الذى شرحناه آنفا ، وأميل الى الاعتقاد بأن المفصود بهذه العناصر هو :

١ - مصادرها الأصلية قبل أن تدخل فى نطاق الملكية الفردية ، كالماء فى النهر ، والكلا المباح الذى ينبت أثر نزول المطر فى أرض لا يملكها أحد . والخطب فى الغابة فهذه المصادر الأصلية ملك للجميع ، لكل واحد ان يفسد الى النهر ليشرب أو ليحلب الماء ، أو يذهب بماشيته ليرعى هذا الكلا ، أو يحتطب من الغابة ، أما الماء الذى حمله انسان من النهر الى بيته ، والكلا الذى أنبته الانسان وأشرف عليه ، والنار التى أحتطب انسان عيوانها وأشعلها لحاجته ، فهذه كلها ملك خالص لصاحبها .

٢ - عند الحاجة القصوى كالعطشان أو الجائع فان من حقه ان يروى عطشه أو يسه رمقه من أى ماء أو من أى طعام وليس ذلك تملكا أو مشاركة فى ملكية وإنما ذلك يدخل فى باب حق الفقير فى مال الغنى وهو ما سنشرحه فيما يلى :

ثالثا : حق الفقير فى مال الغنى :

سبق أن تحدثنا عن حق الفقير فى مال الغنى وذكرنا أنه حق وليس منحة وأن الشرع حدده ، وعين وقت اخراجه ، ونريد هنا أن نذكر أن هذا الحق الذى أشرنا اليه هو الزكاة وهو مقدار يتحتم أن يدفعه الغنى الى من يحتاجه ، فإذا لم يوجد محتاج قدمت الزكاة الى بيت المال لتبقى رصيذا به لأية حاجة طارئة تحدث ، وتعتبر الزكاة أقل ما يقدمه الغنى ، وبجانب الزكاة هناك حق آخر يؤخذ من مال الغنى ولكنه ليس معين الوقت ولا محدد القدر ، وإنما يؤخذ عند الحاجة ، وبقدر ما تستدعيه هذه الحاجة ، والدليل على وجوب هذا القدر قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم » وقوله « ان فى المال حق سوى الزكاة » وقوله « ما آمن بى رجل بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » .

ومما يدل على هذا أيضا أنه عندما دهمت المجاعة الجزيرة العربية فى عهد عمر قال عمر : لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم

فيقاسموهم أنصساف بطونهم ، فعلت ، فان الناس لن يهلكوا على أنصساف بطونهم (١) .

وأجمع على ذلك العلماء المسلمون كالقرطبي وابن تيمية وابن حزم والغزالي والشاطبي (٢) .

وقد حددت المراجع القديمة نصاب الزكاة فيما يتعلق بالزروع والثمار فجعلته العشر فيما سقى بماء السماء ونصف العشر فيما سقى بالآلات كما حددت هذه المصادر الزكاة في التجارة فجعلته ٢٥ ٪ من قيمة التجارة كلها ومثلها المدخرات التي يمضى عليها عام وهي مدخرة وحددت هذه المصادر ما يلزم اخراجه من الماشية والأنعام التي كانت كثيرة في الجزيرة العربية في صدر الاسلام ، وقد برزت مصادر جديدة للمال لم تذكرها المراجع القديمة لأنها لم تكن موجودة آنذاك ، ومن هذه المصادر العمائر التي تؤجر شققها والمصانع وأرباح الأطباء والمحامين والمهندسين والأسهم والسندات وقد تعرض الباحثون المحدثون لتحديد ما يجب فيها ، وقد عقدت لذلك حلقة للدراسات الاجتماعية في دمشق سنة ١٩٥٢ تحت اشراف جامعة الدول العربية وقدمت في هذه الحلقة بحوث حول هذا الموضوع ورأى الباحثون لزوم الزكاة في الانتاج الصناعي والدور المستغلة في الايجار وما مائلها من أرباح المحامين والأطباء والمهندسين وتكون نسبة الزكاة هي العشر لصافي الفائض بعد خصم مرتبات العمال والموظفين ، ويدخل في ذلك نفقات الطبيب نفسه أو المحامي ٠٠٠٠ وكذلك بعد خصم أجور المكاتب وما تحتاجه العمائر والمؤسسات من وسائل الاصلاح والتجديد وما تدفعه من ضرائب فالعشر الواجب يجيء في فائض الربح بعد كل التكاليف وضرورات المعيشة (٣) .

الاقتصاد الاسلامي بين النظم الاقتصادية المعروفة :

اتضح من الدراسة التي أوجزناها أنفا أن للاسلام في موضوع المال فلسفة خاصة ليست بالشيوعية ولا بال رأسمالية ولا بالاشتراكية الغربية وسنعطى في السطور التالية ملامح سريعة توضح الفرق بين الاسلام وبين هذه النظم :

الاقتصاد الاسلامي والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الاسلامي عن الشيوعية بعدا واسعا ، فالاسلام - كما قلنا -

.....

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) اقرأ مقترحات من كلامهم في « السياسة والاقتصاد » في « التفكير الاسلامي » للمؤلف

ص ٢٠٧ وما بعدها .

(٣) اقرأ عن هذه الحلقة في كتاب « السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي » للمؤلف

ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

يقر حق الملكية الفردية ويقر التفاوت فيها ، ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعية والمتاجر والمصانع ، ولا يجيز الاسلام التدخل في هذه الملكية الا اذا تعارضت مع الصالح العام ، ويحرس الاسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والاسلام بذلك بعيد عن الشيوعية كل البعد .

الاقتصاد الاسلامي والرأسمالية :

الاقتصاد الاسلامي والرأسمالية يبيحان الملكية الفردية والتفاوت فيها ، وارثها ولكن الهوة بعد ذلك واسعة بين النظامين ، فالملكية في النظام الرأسمالي مطلقة وكاملة ولكنها في النظام الاسلامي ظاهرية وخاضعة لتوجيهات المالك الحقيقي وهو الله ، وعلى هذا يكثر في الرأسمالية الاحتكار والاسراف ، وهو لا يقره الاسلام .

والرأسمالية تدار بطرق تضاعف الثروات الرأسمالية على حساب المجتمع الذي تعده الرأسمالية سوقا لها تغريه وتخدعه لتتشرب ثرواته وتأخذ دخله بطريق أو بآخر أما الثروة في الاسلام فتدار لخدمة المجتمع ، وتعتمد الى انتاج ما يحتاجه المجتمع وان كان قليل الربح وليست كذلك الرأسمالية .

وتحرص الرأسمالية على نظام سياسي معين يبيح لها الحركة المطلقة ، أما المال في الاسلام فلا يتدخل في السياسة .

الاقتصاد الاسلامي والاشتراكية :

تبعد كذلك الاشتراكية عن الاسلام ، فالاشتراكية تنبنى على تأمين مصادر الانتاج وترمي للقضاء على الثروات الكبيرة بالاكتثار من التأمين ، وليس كذلك الاسلام فهو لا يتصدى لمصادر الانتاج ما دامت هذه تدار لصالح وطبقا لحاجاته ، ولا يتصدى للثروات الكبيرة ما دامت قد حصل عليها مالكيها بطريق حلال وتؤدي حق الله ، وفي كلمة موجزة مهمه نذكر ان الاشتراكية تحارب الغنى ولكن الاسلام يحارب الفقير ، وذلك يبعد المسافة بين الاشتراكية والنظم الاسلامية .

وبعد ، لقد اتجهنا الى الاطناب بعض الشيء في مجال الحديث عن اتجاهات الاسلام فهو لا يتصدى لمصادر الانتاج ما دامت هذه تدار لصالح الشعب وطبقا للسياسة والاقتصاد يتحتم في هذا البحث المحدود الصفحات أن نلجأ للإيجاز في حديثنا عن الجوانب الأخرى من « الحضارة الاسلامية الأصيلة » وحسبى أن أذكر أنني كتبت في الحضارة الاسلامية موسوعة من عشرة أجزاء يمكن من يرغب في التفاصيل أن يقرأها ، فلنعمد الى الإيجاز في الجوانب الأخرى من هذه الحضارة .

الاسلام والتعليم

وفى مجال التربية أعلن الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية أن العلم حق للجميع ، وكان العلم قبل ذلك خاصا بالكهنة ولا حق لسواهم فى طلبه ، فارتفع هذا التخصيص بالآية الكريمة « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » (١) فأصبح المسلمون جميعا ما بين معلم ومتعلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ولم يكن المقصود بالعلم العلوم الاسلامية فقط لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث آخر « اطلبوا العلم ولو فى الصين » والمقصود مهما بعدت المسافة ومهما كان نوع العلم ، ما دام مفيدا للبشرية وقد أشرنا لذلك من قبل .

واهتمت المصادر الرئيسية فى الاسلام اهتماما كبيرا بالتربية الاسلامية ، وكان مفهوم التربية عند المسلمين يشمل فلسفة التربية كما يشمل النظم التعليمية ، والحضارة الاسلامية واسعة الثراء ، فى مجال التربية ، وهى تهتم بالإنسان فى هذا المجال من المهد الى اللحد ، فهناك أخلاق وعلوم تقدم لكل جيل من الأجيال ، وقد اسعت معاهد العلم عند المسلمين فشملت القصور وحوانيت الوراقين ، ومنازل العلماء ، والصالونات الأدبية بالإضافة الى المعاهد والجامعات ، كما كانت البادية والمسجد معهدين مهمين ، وفى البادية ازدهرت علوم اللغة العربية ، وفى المسجد ازدهرت شتى الدراسات ، واهتمت التربية الاسلامية بالكتاب اهتماما عاليا ، فأعلنت قدره ، ورفعت مكانته ، كما كانت المكتبات معاهد للعلم فى كثير من البلدان .

وعنيت التربية الاسلامية ، بأن يتلقى الطلاب العلم من المعلمين ، لا من الصحف والكتب ، كما اهتمت بضرورة تقديم فن التربية للمدرسين بحيث لا يكون عالما فقط ، بل بحيث يستطيع فى يسر توصيل أفكاره الى مريديه .

وتحدثت التربية الاسلامية أحاديث فياضة عن التعاون بين البيت والمدرسة فى تربية التلميذ ، وعن الاجازات العملية ، والعقوبات والجوائز والمكافآت وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين ، وتوجيه التلاميذ حسب مواهبهم ، كما تحدث الفكر الاسلامى عن الأوقاف على التعليم ، وعن مراحل التعليم ، ونظام الداخلية بالمدارس ، والرحلات لطلب العلم ، والتعليم المرأة .

واهتم الفلاسفة المسلمون بالحديث عن رباضة الأطفال ، والوسائل التى

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٣ .

نتخذ لغرس الخلق الطيب في قلب الطفل الذي يمثل جوهرة نفيسة ساذجة ينقش عليها المعلمون أفكارهم وثقافتهم ، كما اهتموا اهتماما واسعا بالسلوك وبلغ من اهتمامهم به أن فضلوهُ على العلوم (١) .

الاسلام والحياة الاجتماعية

حفلت الحياة الاجتماعية في مصادر الاسلام الرئيسية بمباحث اجتماعية ترتبط بالأسرة وبالمجتمع وبالمال ، ومن المباحث الاجتماعية التي عنى بها القرآن والحديث وشيوخ المجتهدين لدينا دراسات مفيدة عن الزواج ودوافعه وأهدافه ، وعن الخطبة والمهر والعقد ، وعن الأولاد والتسوية بينهم في العطاء والمعاملة ، وعن زوجة الأب والحماة ، والختان ونحديد النسل ، والتلقيح الصناعي والتكافل بين أفراد الأسرة .

وعن المباحث الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، تقدم الحضارة الاسلامية رأى الاسلام في رعاية المال العام وحمايته ، ورأيه في الأعياد والأفراح والمآتم والأولياء والموالد وصناديق النذور ، وفي الحمر والمخدرات والدخان ، وغير ذلك من الأبحاث المهمة .

ومن المباحث الاجتماعية في نطاق المال ، تقدم الحضارة الاسلامية دراسة رائعة عن الربا والبنوك ، والشركات والأسهم ، وما شابه ذلك .

وفي مجال التشريع الاجتماعي كذلك حدد الاسلام عدد الزوجات ولم يكن عدد الزوجات قبل الاسلام محددًا ، ووضع الاسلام نظام الميراث الذي انصف كل الأطراف .

الاسلام في مجال السلم والخرب

كان العالم قبل الاسلام يعاني حروبًا مستمرة ، ومعارك متصلة ، وكانت القوة هي دستور الحياة ، فكان من حق القوى أن يأكل الضعيف ، فجاء الاسلام فوضع للسلم والحرب نظاما دقيقة أنقذت البشرية من أهوال الصراع والدماء ، ومن الأسس التي وضعها أن جعل السلام أساس الحياة ، قال تعالى « يا أيها

(١) انظر في ذلك « التربية الاسلامية : نظمها - فلسفتها - تاريخها » للمؤلف .

الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (١) .

وأوصى بالتعاون والمودة حتى مع المخالفين في العقيدة مادام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين ، قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢) . وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٣) .

وحدد الاسلام الحرب بالدفاع ، قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٤) ووضح أنه بعد قيام المعركة يمكن التوقف عن الاستمرار فيها لو عاد العدو للسلم ومستلزماته قال تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٥) .

وقد جاء الاسلام في نظام الحرب بقواعد لم تعرفها البشرية من قبل بل لم تستطع أن تأخذ بها حتى الآن ، اذ حرم قتل الشيوخ والنساء والأطفال الذين لم يشتركوا في المعركة كما حرم قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار

القانون والقضاء في الاسلام

وفي مجال القانون قدم الاسلام تشريعا صالحا لكل زمان ومكان ، تشريعا عام المصدر أى لم تقم بعمله جماعة خصصت لذلك بالجنس أو الدم وترك لها أن تشرع للناس ، والتشريع الاسلامي كذلك عام التطبيق ، أى أنه ينفذ على الملك وعلى السوق دون تفرقة ، وهذا الموقف كان الأول من نوعه في تاريخ البشرية .

وقدمت الحضارة الاسلامية نظاما قضائية تكفل العدالة المطلقة لكل الناس ، وتقرر مبادئ لم يكن الجنس البشري يعرفها قبل الاسلام ، كالمساواة بين المتخاصمين في مجلس الحكم وكالشروط الحاسمة التي يجب أن يتحلى بها القاضى ، وكالعلنية في القضاء ، تلك العلنية التي تجعل من رأى العام حارسا للعدالة وقواما على الانصاف .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .

(٢) سورة المتحنة : الآية ٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٠ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٥) سورة الانفال : الآية ٦١ .

حرية التدين وحقوق المرأة والقضاء على الرق :

وقرر الاسلام حرية التدين ، ولم يكن ذلك معروفا قبل الاسلام ، قال تعالى « لا اكراه فى الدين » (١) وقال تعالى يطلب من الرسول أن يقول لغير المسلمين « لكم دينكم ولي دين » (٢) .

وقرر الاسلام حقوق المرأة وأعطاهها نصيبا من الميراث ، ولم يكن للمرأة فى العالم حقوق تذكر آنذاك ، وكان ما جاء به الاسلام أساس ما حصلت عليه المرأة من حقوق بعد ذلك .

ووضع الاسلام الأسس للقضاء على الرق الذى كان شائعا قبل الاسلام فى العالم كله وجاء فى ذلك قول الرسول : شر الناس من باع الناس .



تلك لمحة سريعة عن الحضارة الاسلامية الأصيلة اقتبسناها من الدراسات الواسعة التى كتبناها عن هذه الحضارة فى موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، وقد قدمت هذه الحضارة للمجتمع البشرى ما لم يكن معروفا وقتها ، وإذا كنا ننعم بها أو ببعضها الآن فلنتذكر ان الناس عارضوا هذه الهبات الطيبة عندما جاءت لأنهم لم يكن لهم بها عهد ، ولكن الاسلام ظل يدافع عنها حتى استقرت واشتد عودها ، وقد اقتبسها العالم كله من الاسلام كما سنرى ذلك فيما بعد .

المسيرة التاريخية للحضارة التجريبية

وعندنا فى مطلع هذا البحث ان نقدم كلنة موجزة عن الحضارة الاسلامية التجريبية عقب حديثنا عن الحضارة الاسلامية الأصيلة ، والآن حان الوقت للوفاء بهذا الوعد استكمالا للفائدة :

الحضارة التجريبية كانت موجودة قبل الاسلام ، فقد ازدهرت ألوان هذه الحضارة فى مصر ، ولدى الفينيقيين ، وفى آشور وبابل ، وفى جنوب الجزيرة العربية وفى بلاد فارس والهند والصين ، وابتداء من القرن السادس قبل الميلاد بدأت حضارات الشرق تغزو اليونان ، ثم أصبحت اليونان مركز إشعاع للحضارة التى نبتت جذورها فى الشرق ، يقول جورج سارتون : ان من السذاجة ان نفترض ان العلم بدأ فى بلاد الاغريق لأن الفكر الاغريقى سبقته جهود علمية.

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الكافرون : الآية ٦ .

عديدة في مصر وفي بلاد النهرين ٠٠٠٠٠ وكان العلم اليوناني احياء أكثر منه اختراعا ، وكفى الغربيين سوءا أنهم أخفوا الأصول الشرقية المصرية البابلية . تلك التي لم يكن التقدم الهليني مستطاعا بدونها (١) .

وعندما سيطر الرومان خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد على أوروبا وعلى سوريا ومصر ، بدأت شعلة الحضارة تخبر في هذه البقاع اذ لم تكن روما راغبة في حماية الفكر كما كانت عين شمس والاسكندرية واثينا تفعل .

وابتداء من القرن الرابع الميلادي بدأت الكنيسة نسيطر على شئون النفاة والفكر في الامبراطورية الرومانية ، واتجهت الكنيسة الى الكتاب المقدس ترى فيه كل ما يحتاجه الانسان في الدنيا والآخرة ، وترى كل ما عداه هرطقة وضللا ، وأخذت لذلك تحارب العلوم وتحارب العلماء ، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية بعد ان أخضعتها لنصوص الكتاب المقدس ، وقاومت المجالات الفكرية الأخرى مقاومة شديدة ، وكان الطب والرياضة والفلك من النوع الأخير ، فأعدمته الكنيسة بعض كتبها ، وألقت بالبعض في مغارات لا يطلع عليها أحد حتى يأكلها الزمان (٢) . وبذلك خبا ما كان قد نبقي من حضارات مصر والفينيقيين واليونان .

وعندما أهل القرن السادس الميلادي كانت حضارة بلاد فارس والهند والصين قد تم ذبولها أيضا ويقول Dinson : (٣) .

في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التي كانت تعين على اقامة الحضارة قد انهارت ، ولم يكن ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها آلاف السنين أصبحت مشرفة على التفكك والانحلال ، لا قانون ولا نظام ، وانتهت النظم التي خلفتها المسيحية الى نشر الفرقة والانهيار ، وأصبح الناظر للمدنية العالمية يراها كشجرة ضخمة وقفت تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب .

الاسلام والحضارة التجريبية :

وجاء الاسلام الى المجتمع البشرى ، وقد اختفت الحضارات على هذا النمط ، فقدم الاسلام حضارته الأصيلة في المجالات التي أشرنا اليها من قبل ، واذا

(١) انظر تفاصيل ذلك ونماذج لاقتباس اليونان من مصر في كتابنا « الفكر الاسلامي متاعا وآثارة » ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) ابن نباتة المصري : سرح العيون ، ص ٦٦ والفهرست لابن الديم ، ص ١١٢
Emotions as the Basis of Civilization.

(٣)

كان القرآن الكريم وأحاديث الرسول قد قدما فيضا من الفكر لخلق ثقافة اسلامية رفيعة الشأن ، فإن هذين المصدرين أعانا على التقدم العظيم في مجالات العلوم التجريبية بالحث على طلب العلم والمعرفة في مختلف فروع العلم والمعرفة ، ثم بالحث على استغلال هذا العلم في خدمة الانسان وعمران الكون الذي سخره الله لنا . ومن أدلة الحث على طلب العلم نذكر ما يلي :

- هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) .
 - انما يخشى الله من عباده العلماء (٢) .
 - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٣) .
 - يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء .
 - اطلبوا العلم ولو في الصين .
- وليس المقصود بالعلم في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة هو العلوم الدينية فقط بل كل العلوم التي تنفع الانسان بدليل الحديث الأخير ، اذ لم يكن بالصين علوم دينية يطلبها المسلم ، وقد أشرنا لذلك من قبل .
- وهن أدلة استغلال هذا العلم في عمران الكون وخدمة الانسان نورد ما يلي :
- هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه (٤) .
 - وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها (٥) .
 - وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه (٦) .
 - قيل للرسول أرايت دواء نتداوى به ، هل يرد قدر الله ؟ فقال : هو من قدر الله .
- ووردت في القرآن الكريم آيات تشير الفكر ، وتدفع للبحث والدرس للتعرف على أسرار الانسان والكون مثل قوله تعالى :

-
- (١) سورة الزير الآية التاسعة .
 - (٢) سورة فاطر الآية ٢٨ .
 - (٣) سورة المحادلة الآية ١١ .
 - (٤) سورة الملك الآية ١٥ .
 - (٥) سورة النحل الآية ١٤ .
 - (٦) سورة الجاثية الآية ١٢ .

- وفي أنفسكم أفلا تبصرون (١) .
- يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي (٢) .
- يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (٣) .
- ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (٤) .

واستجابة لكل هذه الآيات اتجه المسلمون بحماسة للدراسة والمعرفة والتدوين فكتبوا الحضارة الإسلامية الأصيلة أى دونوا وشرحوا رأى الإسلام فى السياسة والاقتصاد . . ثم اتجهوا للتراث الضخم فى العلوم التجريبية ، ذلك التراث الذى تركه الأوائل والذى كان سجين الدهاليز والمغارات ، وكان الخليفة المأمون يشترط عند توقيع الهدنة مع الروم أن يسلموا للمسلمين هذه الكتب التى كتبها اقليدس وجالينوس وأبقراط وأرشميدس وسواهم من المفكرين وأحضر المسلمون مجموعات من الكتب من البلاد التى استولوا عليها كالشام ومصر وفارس ، ومجموعات من قبرص ومن الاسكندرية وعكفوا عليها يترجمون ويعلقون ويشرحون (٥) .

ويقول Philip Hirri (٦) انه بينما كان الرشيد والمأمون يخرجان كنوز الفلسفة القبطية واليونانية والفارسية ، كان معاصروهم فى أوربا من أمثال شارلمان وسادة مملكته يتعشرون فى كتابة أسمائهم .

وانتقل المسلمون من الترجمة والتعليق الى الابتكار والخلق ، ومن بين عشرات الأوربيين الذين اعترفوا بمكانة المسلمين فى هذا المجال نقتبس من واحد منهم كلماته يقول Bulus (٧) : ان المسلمين أخذوا كثيرا من علوم البيزنطيين والمصريين والهنود والفرس ، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوروا فيها وصبغوها صبغة جديدة ، ولم يكن العرب مترجمين فقط أو معلقين بل انهم اخترعوا كثيرا ، ففى الفلك اخترعوا

(١) سورة الذاريات الآية ٢١ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٥ .

(٣) سورة النحل الآية ٦٩ .

(٤) سورة المؤمنون الآيات ١١ - ١٤ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٣ .

History of the Arabs p. 312.

(٦)

The Influence of Islam Chapter x I.

(٧)

الاسطرلاب لقياس الارتفاع ، واستطاعوا أن يعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات
الاذناب ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفي الطب استطاع المسلمون
أن يكشفوا مرض الجدري الذي لم تعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة
في كشف صنوف الأدوية ، وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاعجاب
والتقدير ، ونجحوا بهذا في تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات
الكيمائية الجوهرية التي نقلت الى أوربا .

وفي مجال الحضارة العمرانية حقق المسلمون أهدافا عالية ، ففي التجارة
عنى المسلمون بالطرق والجسور والأسواق والأمن ، وفي الزراعة وجهوا عناية
كبيرة الى الري وإصلاح الأرض وشق الأنهار والترع والخجان ، وقد استطاعوا
بذلك أن يقيموا دورة ثلاثية للزراعة في كثير من البلدان ، ومن أخلد ما حققة
المسلمون في نواحي العمران المنشآت البنائية العظيمة من مدن وقصور ومساجد
وقلاع ومدارس ومستشفيات ، ولا يزال الكثير منها باقيا حتى الآن ينطق
بعظمة هذه الأجيال كالجامع الأموي بدمشق والأزهر بالقاهرة ومدرسة نور الدين
زنكي بدمشق وقصر الحمراء بغرناطة وغيرها .

تلك هي الأصول العميقة للحضارة الاسلامية الأصيلة والحضارة الاسلامية
التجريبية ، وقد عدت الحضارة التجريبية حضارة اسلامية لأن احياءها واعادة
الروح لها جاء بدافع القرآن والحديث اللذين حثا على العلم وطلبه وتطويره ،
ولأن هذا الاحياء كان في بيئة اسلامية وبتشجيع الخلفاء المسلمين ، ذلك التشجيع
الذي وصل الى أن يعطى الخليفة المأمون اكل من يترجم كتابا للغة العربية زنة
هذا الكتاب من الذهب الخالص ، فاذا تذكرنا سمك الرقاع التي كانت الترجمة
تسود عليها أدركنا مدى سخاء الخليفة وحرصه على خدمة العلم مهما كانت
التضحية ، ويروى أن خازن بيت المال تردد مرة في أن يزن للمترجم حقه
واحتكما للخليفة فقال الخليفة لخازن بيت المال : اعطه ما يشاء انه يعطينا الباقي
ويأخذ الفاني .

حاجتنا الى بعث حضارى جديد :

ان الحضارة الاسلامية الأصيلة بما فيها من أخلاق ونظم سياسية واقتصادية
 واجتماعية هي حضارة كل زمان ومكان ، وقد غابت هذه الحضارة
عن المجتمع الاسلامي منذ عصور الظلام فأصبحت خصائص الاسلام لا تعيش
في أرض الاسلام ، وأصبح المسلمون لا يمثلون الاتجاهات الاسلامية ، ومن
واجبنا أن نعود للاسلام الصحيح باحياء حضارته والتخلق بها ، وبدون ذلك
يكون اسلامنا بعيدا عن الكمال ، وقد كان من أهم العوامل التي أدت الى اختفاء

الحضارة الإسلامية استبعادها عن المناهج الدراسية بالمعهد الإسلامي . فنشأ عن ذلك جيل من المتعلمين لا يعرفون هذه الحضارة ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام أصبحت الحضارة الإسلامية بعيدة عن المجتمع ولم تعد الا مجرد ذكرى أو لم يعد لها وجود على الاطلاق .

ومن هنا فان البحث الحضارى ينبغى ان يبدأ باعادة الحضارة الإسلامية الى المناهج الدراسية لتدرس اجمالا فى المدارس والمعاهد الثانوية وفى جميع كليات الجامعة ، ثم ليدرس بالتفصيل فى كل كلية ما يناسب الدراسة فى هذه الكلية ، أى أن ندرس الفكر السياسى فى الاسلام مفصلا فى كليات العلوم السياسية والفكر الاقتصادى فى كليات التجارة والاقتصاد والفكر التربوى فى كليات التربية والفكر الاجتماعى فى كليات الخدمة الاجتماعية ، والفكر المرتبط بالسلم والحرب بالكليات العسكرية . وهكذا .

أما بالنسبة للحضارة التجريبية فيلزم ان يعرف طلاب الكليات العملية جهود المسلمين الأوائل فى مجالات الدراسة بكلياتهم وأن يعرفوا كذلك نبذة عن كل اسم من أسماء العلماء الذين أسهموا بجهودهم فى خدمة هذه العلوم ، وبعد هذا يحاول الطالب المسلم أن يتعرف على ما وصلت له الحضارة العالمية فى فرع مادته ، ويبذل الجهد ليضيف الى ذلك اضافة جديدة كما فعل المسلمون السابقون ، وكما يفعل كثير من المسلمين الذين تلتقطهم الولايات المتحدة وغيرها من دول الغرب ، وهناك يجدون الطريق ممهدا للخلق والابتكار ، فيخلقون ويبتكرون ما يدعو للفخر بهم والاعتزاز .

ان الحضارة الإسلامية منارة ارتقت يوما من الربوع الإسلامية واذا كانت قد اختفت حيناً فان احياءها من جديد لا يزال أملا يطمح فيه كل من المخلصين للمدين الإسلامي والأمة الإسلامية .

الحضارة الإسلامية خلال الأربعة عشر قرناً الماضية

التعليم والتربية عند المسلمين
أحمد جاب الله شلبي

مقدمة

ان الباحث فى الدراسات الاسلاميه يدرك بوضوح اهتمام الاسلام بالتربيه والتعليم ، فقد رفع القرآن الكريم شأن العلم ووضع فى مكانة سامية جليله ، واكبر دليل على ذلك ان أول سورتين نزلتا من الذكر الحكيم تقرران قيمة الكلمة المقروءة والكلمة المكتوبة ، والسورة الأولى التى تتكلم عن الكلمة المقروءة هي سورة اقرأ ، قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ... » والسورة الثانية التى نزلت بعد سورة اقرأ بناء على رأى الاكثرين (١) هي سورة « ن » التى مطلعها : « ن والقلم وما يسطرون » وعلى هذا فالآيات الأولى تتكلم عن القراءة والآيات الثانية تتكلم عن الكتابة .

وبعد ذلك تجيء فى القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت جلال العلم ومكانة العلماء ومنها قوله تعالى :

- شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط (٢) .
 - هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) .
 - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٤) .
- ويقول الرسول صلوات الله عليه فى هذا المجال :**
- اطلب العلم من المهد الى اللحد .

(١) انظر الاتقان فى علوم القرآن للسبوطى ج ٢ ص ٤٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٣) سورة الزمر الآية التاسعة .
(٤) سورة المجادلة الآية ١١ .

- من عظم العالم فقد عظمى .
- يؤزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء .

وقد أعلن الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية أن العلم حق للجميع ، فقد كان العلم قبل الاسلام خاصا بالكهنة ، وكانوا هم الذين يستطيعون كتابة العهود والمواثيق والمعاهدات ، ولم يكن لسواهم حتى الملوك والأمراء نصيب يذكر فى طلب العلم ، ويقول Philip Hatti ان معاصرى هارون الرشيد والمأمون من أمثال شارلمان وسادة مملكته كانوا يتعثرون فى كتابة أسمائهم (١) ، وقد ارتفع هذا التخصيص بالآية الكريمة : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » (٢) .

فأصبح المسلمون جميعا بين معلم ومتعلم ، وقال صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وينبغى أن يكون واضحا أن العلم المشار اليه لم يكن محصورا فى العلوم الاسلامية ، بل شمل كل العلوم التى تفيد المجتمع بدليل القول المأثور : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، ومن الواضح انه لم يكن فى الصين علوم اسلامية .

ومن أجل هذه الدوافع نال التعليم وإنجازات التبرية عند المسلمين أعظم مكانة على ما سيبدو من الدراسات التالية :

محو الأمية فى الكتابة والأمية فى الفكر

إذا كانت الدول تعنى الآن بمحو الأمية وتعليم القراءة والكتابة لكل السكان ، فقد اهتم الاسلام منذ أربعة عشر قرنا بالعمل على محاربة الجانبين المهمين فى مجال الأمية ، وهما الأمية فى القراءة والكتابة والأمية فى الفكر ، ومن عهد مبكر أنشأ الرسول مؤسسات لمحو أمية القراءة والكتابة من جانب ومؤسسات أخرى لمحو الأمية الفكرية من جانب آخر ، ولم يقف الفكر الاسلامى عند محاربة أمية القراءة والكتابة ، بل أدرك المسلمون أنه كثيرا ما يوجد من يجيد القراءة والكتابة ولكنه لا يستعمل ذلك لرفع مستواه الفكرى ، مما يقلل من قيمة القراءة والكتابة ، فاتجه الفكر الاسلامى بجعل القراءة والكتابة وسيلة للنهوض بالعلم وتزويد الفكر بما يرفع شأنه .

History of the Arabs p. 315.

(١)

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

وسنعطى فيما يلى بعض التفاصيل لذلك :

محو أمية القراءة والكتابة :

عندما جاء الاسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلا فقط (١) ، وقد استخدمهم الرسول كلهم أو جلهم للكتابة بين يديه (٢) ، ولم يكن هذا العدد كافيا لأن الدين الجديد والنظام الذى نشأ فى أحضانه جعل القراءة والكتابة ضروريتين ، ومن هنا نجد الرسول يهتم بنشر القراءة والكتابة ، فقد جعل للقارئ من أسرى بدر أن يفتدوا بتعليم القراءة والكتابة من أبناء المسلمين (٣) .

وقد فتح هذا التصرف الباب ليشغل غير المسلمين بمهمة تعليم القراءة والكتابة للراغبين فى تعلمها ، لأن المسلمين الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة كانت أمامهم مهام أوسع مدى ، تحول دون اشتغالهم بهذه المهنة ولم يشغل المسلمون بها الا بعد أن كثر عددهم بحيث أمكن أن يتوافر منهم من يتولى هذه المهمة ، وبخاصة أن المسلمين حرصوا على أن يجعلوا من آيات القرآن الكريم وسيلة للقراءة والكتابة والمطالعة مما جعل مهمة تعليم القراءة والكتابة تنتقل للمسلمين .

واتجه اهتمام أكثر فى هذا المجال للنشر ، بحيث يجيدون القراءة والكتابة فى مطلع العمر ليتفرغوا الى أعمال أخرى عندما يصبحون فى نطاق الشباب ، ويروى ان « الكتاب » قد أنشئ لهذا الغرض فى عهد مبكر ويذكر Goldziher أن أم سلمة إحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أرسلت مرة الى معلم الكتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى نواف الضوف (٤) .

ومن يوم الى يوم كثر الاهتمام بتعليم القراءة والكتابة ، فقد كانتا ضروريتين للذين رغبوا فى أن يكونوا رواة لأحاديث الرسول ، اذ اعتبر المكفوفون من المحدثين غير ثقات ، لعدم استطاعتهم القراءة والكتابة اللتين تعينان على الضبط والدقة (٥) ، ولما تقدم العهد بالاسلام وترجمت الدواوين الى اللغة العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ظهرت وظائف كثيرة ولكن لهؤلاء الذين

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٧ ، ٤٥٩ .

(٣) الكامل للمبرد ص ١٧١ .

Encyclopaedia of Religions and Ethics.

(٤)

(٥) النووى : تهذيب الاسماء ص ٧٣ .

يجيدون القراءة والكتابة ، ثم ظهر بعد ذلك الجاحظ وهو فى القمة من الأدباء- الكبار الذين رفعوا شأن القراءة والكتابة وأعلوا قدرها . اسنمغ اليه وهو يقول فى رسالة المعلمين (١) : « ولولا الكتاب (الكتابة) لاحتلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين ، وانما اللسان للشاهد لك ، والقلم للغائب عنك ، والماضى قبلك ، والغابر بعدك ، فصار نفعه أعم والدواوين اليه أفقر ، والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه . وسد ثغوره ، وتقويم سكان مملكته الا بالكتاب ، ولولا الكتاب لما تم تدبير ، ولا استقامت الأمور ، وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا انما يعتدل فى نصابه ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب » .

كل هذا جعل الناس يتجهون نحو تعلم القراءة والكتابة ، وقد بدأ ذلك منذ مطلع الاسلام ، وكلما تقدم بهم الزمن جد دافع جديد يحسن لهم اجادة هذا الفن بل الابداع فيه .

تعليم الاطفال :

ومع الاهتمام بتعليم النشء القراءة والكتابة اتجه الاهتمام كذلك لتعليمهم القرآن الكريم ومبادئ الدين الاسلامى ومبادئ الحساب . وكان هذا النوع من التعليم يتم فى أول الأمر بواسطة الآباء ، أو بواسطة معلمين خصوصيين يحضرون للمنازل للالتقاء بالصبيان وتعليمهم ، ومن أجل هذا كان عمر بن الخطاب يوصى الآباء بتعليم أبنائهم كذا وكذا من ألوان المعرفة كما سنرى فيما بعد ، وكان الآباء يباشرون تقديم هذه العلوم لأبنائهم بأنفسهم ، أو بواسطة المعلمين الخصوصيين ، ثم تكون بعد ذلك كتاب لتعليم الصبيان بوجه عام ، ويبدو أن الحاج بن يوسف كان يمثل مرحلة الانتقال من التعليم الخاص الى التعليم العام ، فقد كان أولا يعلم اولاد الخاصة ثم فتح كتابا لتعليم الجميع ، يروى القزوينى (٢) أن الحاج كان فى أول أمره معلما لوشاقية سليمان بن نعيم وزير عبد الملك بن مروان ، ثم فتح كتابا للجميع (والوشاقية كلمة فارسية معناها الأولاد والاتباع) .

ويتحدث ياقوت (٣) عن كتاب أبى القاسم البلخى الذى كان به ٣٠٠٠ تلميذ ويبقى فى الكلام عن هذا الكتاب أن نتحدث عن المكان الذى يوجد به وعن المنهج الذى يدرس فيه :

أما المكان الذى كان يوجد به الكتاب من هذا النوع ، فقد وردت توصيات

(١) مخطوط ورقة ٨ ب (بالمتحف البريطانى رقم ٣١٢٨) .

(٢) أخبار البلاد وآثار العباد ص ٦٥ .

(٣) معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٨٢ .

كثيرة بالألا يكون فى المسجد ، ومن ذلك ما قاله الامام مالك حينما سئل عن ذلك :
« لا أرى ذلك يجوز ، لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » (١) .

وقد ورد فى كتب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه « لا يجوز تعليم
الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان
والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتخذ لتعليمهم
حوائيت فى الدروب وأطراف الأسواق (٢) » .

وأضاف الحصان (٣) قوله « ويمنع المعلمون من التعليم فى المساجد » .
ولكن على الرغم من كل هذا التحذير اتخذ المعلمون لهم زوايا بالمساجد ،
وغرفا ملتصقة بها لتعليم الأطفال ، مهملين لسبب أو لغيره هذه التوصيات
الواضحة . والذي يقرأ رحلة ابن جنير ، ورحلة ابن بطوطة ، يجد ذاكرا لكثير
من الحلقات التى التف فيها الأطفال فى المسجد حول معلم يعلمهم القرآن ، وقد
ذكر ابن حوقل (٤) أمثلة أخرى لهذا النوع .

وبجانب الكتاتيب التى اتخذت بالمسجد أو التضيقت به نجد كتاتيب
أخرى قامت مستقلة تمام الاستقلال يحدثنا الامام الشافعى عن أحدها فيقول :
كنت يتيما فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتاب . . فلما ختمت القرآن دخلت
المسجد (٥) . وهناك كتاب مهم شتبت الإشارة اليه ، وهو كتاب أبى القاسم
البلخى ، وكان يتعلم به . . . تلميذ ، وتدل رواية ياقوت (٦) على أن هذا
الكتاب بجانب استقلاله عن المسجد كان فسيحا جدا ليتسع لهذا العدد الكبير
ولهذا كان يحتاج البلخى أن يركب حمارا ليردد بين هؤلاء وأولئك ، ويشرف
على جميع تلاميذه . . . وكان هناك بلخى آخر اسمه أحمد بن سهل (٣٢٢ هـ)
وكان فاعلا قائما بجميع العلوم القديمة والحديثة يسلك فى مصنفاة طريقة
الفلاسفة الا أنه بأهل الأدب أشبه ، وكان معلما للصبيان ثم رفعه العلم الى
مرتبة عالية (٧) . . . وأزداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين فى القرن الثانى الهجرى
وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب

(١) التعليم عند القايى ٦٧ ب (مخطوط) .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ ، القرشى : معالم القرية ص ١٧٠ .

(٣) الحسبة ص ١٢٤ .

(٤) كتاب صورة الأرض ١٢١ ، ١٢٧ .

(٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ ، ٦٨ .

(٦) معجم الأدباء ٤ ، ٢٧٢ .

(٧) المرجع السابق ١ ، ١٤١ - ١٥٢ .

بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب ، وقد ذكر ابن حوقل (١) أنه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلزم فى صقلية (٢) .

أما المنهاج المبكر الذى وضع لتعليم الأطفال فقد كتبه عمر بن الخطاب وبعث به الى ساكنى الأمصار وهو : أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر (٣) وكان ابن التوأم يقول : من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلموهم الكتاب والحساب والسباحة (٤) .

ولما أنشئت الكتاتيب وتولى حفظ القرآن العمل بها ، أصبح القرآن الكريم نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة الابتدائية ، وتبعته بعض المواد الأخرى ، فيوصى الغزالي بأن يتعلم الطفل فى المكتب القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الأحكام الدينية ، فالشعر ، على أن يحفظ الطفل من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله (٥) . ويضيف ابن مسكويه (٦) مبادئ الحساب ، و قليلا من قواعد اللغة العربية ، ويضع الجاحظ (٧) منهاجا مفصلا هاك بعضه : « ولا تشغل قلب الصبى بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام ، فى كتاب ان كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشيء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، كرواية الخبر الصادق ، والمثل الشاهد ، والمعنى البارع ؛ ويعرف بعض الحساب دون الهندسة والمساحة ، ويعلم كتابة الانشاء بلفظ سهل وعبارة حلوة ، ويحذر التكلف ، ويحثه - فى قراءة كتب البلغاء - أن يستفيد المعانى لا الالفاظ » .

وما ذكرناه هنا عن منهاج تعليم الأطفال ، هو المنهاج العام ، ولكن اختلافاً جزئياً كان يحدث تبعاً لاختلاف الأمكنة ، وللعناية ببعض العلوم وتقديرها على البعض الآخر ، وقد أوضح ابن خلدون ذلك فى فصل عقده بالمقدمة (٨) وعنوانه

(١) العقد الفريد ١ : ٣٦٣ .

(٢) واضح ان هؤلاء المعلمين كانوا يعلمون فى أقل من ٣٠ كتاب ، فقد ذكر ابن حوقل نفسه ص ١٢٩ انه رأى كتابا واحدا يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ومن المحتمل ان يكون ذلك متكررا فى كتاتيب أخرى ؟ وعلى هذا فيحذر أن يصحح ما ذكره EARNST Diez فى 'مقالة بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان (مسجد) من أن ابن حوقل عد فى بلزم ٣٢٠ كتاب .

(٤) المصدر السابق .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٩٢ .

(٥) الغزالي : الاحياء ٣ : ٥٧ .

(٦) تهذيب الاخلاق ص ٢٠ .

(٧) رسالة المعلمين مخطوط ورقة ١٣ ، ١٤ .

(٨) ص ٣٩٧ - ٣٩٩ .

« تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية فى طرقه » ويمكن تلخيصه فيما يلى تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات ، واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان ، فأما أهل الغرب فمذهبهم فى الولدان الاهتمام على تعليم القرآن ، مع العناية برسمه .

وأما أهل الأندلس ، فلا يقتصرون على القرآن ، بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وتجويد الخط .

وأما أهل افريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم (أى العلوم الدينية) ، وتلقين بعض مسائلها ، إلا أن عنايتهم بالقرآن ؛ واستظهار الولدان اياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك .

هذا وقد كان المعلمون يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور (١) .

تأديب أبناء الخلفاء والعظماء :

كان من الجلى الواضح عند المسلمين منذ العصور الأولى أن تتلون مناهج التعليم تبعا لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام (٢) ، وفى ضوء هذه الفكرة وجد نوع من التعليم الابتدائى بقصور الخلفاء والعظماء ، يجد أبناء هؤلاء فيه ما يؤهلهم لتحمل الأعباء التى سينهضون بها فى المستقبل ، فهذا النوع من التعليم مرتبط بالنوع الذى سبقه ، إذ أن كلا منهما مهمته تغذية الصبيان بنوع من الثقافة وقسط من المعرفة ، ولكن التعليم الاولى بالقصور ينبسط ويجاوز هذا الحد ، فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك الأب فى وضعه ليكون ملائما لابنه . والمعلم هنا لا يسمى معلم الصبيان أو معلم كتاب ، وإنما يطلق عليه لفظ « مؤدب » وقد اشتق اسم المؤدب من الأدب والأدب إما خلق وأما رواية ، وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك ، إذ كانوا يتولون الناحيتين جميعا (٣) ، ثم ان المتعلم هنا يظل يتلقى العلم حتى يجاوز عهد

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ : ص ٩٢ .

(٢) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٣٦٣ ومخاضرات الأدباء للأصفهاني ج ١ ص ٢١

(٣) رسالة المعلمين للجاحظ (مخطوط) ظهر الورقة رقم ١١ .

الصبا ، فينتقل به من مستوى تلميذ الكتاب الى مستوى الطالب في حلقات المساجد أو المدارس .

ويمتاز هذا التعليم بلون آخر ذي أهمية كبرى ، ذلك هو أن المؤدب كثيرا ما يخصص له جناح في القصر يعيش فيه ، ليكون اشرافه على الأمير أحكم وأشمل .

وتتضح من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده الأهداف التي حفزت الوالد أن يمهّد لمؤدب ولده أن يعيش معه ، تلك الأهداف التي تتجاوز التعليم لتشمل أن يربى المؤدب عقل الولد وقلبه وجسمه . يقول عبد الملك : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رعة (١) ، وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشمة فانهم لهم مفسدة ، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقروا ، وعلمهم الشعر يمجّدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصا ولا يعبوه عبسا ، وإذا احتجت الى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر ، لا يعلم به أحد من الحاشية فيهنّوا عليه (٢) .

أما منهاج التعليم لهذه الطبقة فانه يلتقى في أسسه العامة بمنهاج التعليم الذي وضع لجميع الصبيان ، مع بعض الحذف أو الاضافة استجابة لتوجيه الوالد ، وتمشيا مع الرغبة في اعداد هذا الصبي اعدادا خاصا يناسب الأهداف والمسئوليات التي ستواجهه في مستقبل حياته كما قلنا ، وفيما يلي أمثلة للمناهج والارشادات التي وضعها الآباء بين أيدي المؤدبين ليسيروا في ضوئها وليعملوا على تحقيقها :

١ - قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء (٣) .

٢ - قال هشام بن عبد الملك لنسيان الكلبي لما اتخذه مؤدبا لابنه : ان ابني هذا هو جلدة ما بين عيني ، وقد اليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به في أحياء العرب فتخذ من صالح شعرهم ، وبضره طرفا من الحلال والحرام ، وطرفا من السيرة والمغازي (٤) .

(١) يقال سوء الرعة اذا كان قليل الورع .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢ : ١٦٧ .

(٣) المقد الفريد ١ : ٣٦٣ .

(٤) الاسفهانى : محاضرات .

٣ - ومن أحسن المناهج التربوية التي قدمها الآباء للمؤدبين ذلك المنهج الشامل الذي تقدم به الرشيد للآمر معلم ولده الأمين ولئ عهدہ والخليفة من بعده . وفيه يقول : يا آمر ، إن آمر المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمره قلبه . نصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك آمر المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ؛ وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنع من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة (١) .

وقد خطا الفاطميون في هذا المجال خطوات أوسع ، فأنشأوا في قصورهم مدارس خاصة يلتحق بها أولاد علية القوم وسرااتهم ، ويسير المؤدبون في تثقيف هؤلاء الصبيان على منهاج خاص ، يرمى الى اعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية في دولة الخلافة (٢) .

وكانت هذه الوظيفة (وظيفة المؤدب) جذابة للغاية ، تضع من يشغلها في مكانة عالية وتخلع عليه حلة من الجلال .

تربية السلوك عند الاطفال :

اهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالتربية الاسلامية ، وكان مفهوم التربية عند المسلمين يشمل العناية بالسلوك كما يشمل العناية بالعلوم ، وفي مجال السلوك يقدم الامام الغزالي دراسة واسعة في كتابه « احياء علوم الدين » نقتبس منها سطورا قليلة :

يقول الغزالي : الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ومائل الى كل ما يمال اليه ، فان عود الخير وعلمه ، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاؤكة في ثوابه كل معلم له ومؤدب ، وان عود الشر ، أو أهمل شقى وهلك ، وبكأن الوزر في رقبة القيم عليه ، ورقبة من أهمله ، ويتحتم أن يصاب الصبي عن الآثام وأن يعلم محاسن الأخلاق ، ويحفظ من قرناء السوء ، ولا يعود الزوال التمتع ، ولا يحجب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر .

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٩٩ والبيهقي : المحاسن والمساوي ٦١٧ .

(٢) القرطبي ١ : ٤٤٣ - ٤٤٤ .

ويقرر الغزالي أن تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم ، وإنما تشمل ألواناً أخرى لا تقل أهمية عن التعليم ، ويذكر الغزالي منها المراقبة ، وتقوية خلق الحياء لدى الصبي عند ظهوره فيه ، وأن يعلم الطريق المستقيم في الطعام والشراب واللباس ، ويفصل الغزالي ذلك تفصيلاً دقيقاً ، ثم يذكر أن الصبي ينبغي أن يجازى إذا ظهر منه خلق جميل ، أما إذا ظهر منه انحراف فينبغي أن يتغافل عنه أول مرة ، فإن كرر ذلك عوتب ، ثم عوقب ، ويعود على المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويمنع أن يفتخر على أقرانه ويمنع اليمين صادقاً كان أو كاذباً إلا لضرورة (١) .

ويتحدث ابن سينا أحاديث فياضة عن سلوك الطالب ، ويجعله أهم من العلوم بالنسبة إليه ، وإلى المجتمع حوله ، فهو يقول : ان الفضائل الخلقية اسمى من الفضائل العقلية ، لان الجاهل بالعلوم قد لا يضر ، ولكن الجاهل بالآداب والسلوك لا يتوقف ضرورة (٢) .

وجاء في كتاب منهاج المتعلم (٣) : وعلى الأب أن يؤدب ابنه ويسلمه إلى معلم ، فإن لم يفعل ظهر الانحراف في جميع أعضائه ، وبخاصة في لسانه .

المنشآت الثقافية والعلمية عند المسلمين

رأينا فيما سبق عناية الاسلام والمسلمين بتربية النشء ، ونريد الآن أن نصور اهتمام المسلمين بالتعليم في مراحلهم المتقدمة بعد مرحلة الصبا ، والذي يدرس تاريخ التعليم عند المسلمين يجد أن المسلمين أقاموا منشآت ثقافية وعلمية متعددة ومتنوعة لخدمة العلم ورفع شأن الانسان ثقافياً وعلمياً ، وسنعيش مع هذه المنشآت فيما يلي :

المسجد :

تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد ، ولهذا فالحديث عنه حديث عن المكان الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية ، وقد قامت حلقات الدراسة في المسجد منذ نشأ ، واستمرت كذلك على مر السنين والقرون ، وفي

(١) احياء علوم الدين ج ٣ ص ٥٧ - ٥٩ .

(٢) مخطوط مجهول المؤلف : ظهر الورقة ٩ .

(٣) القانون : ج ١ ص ٧٩ وما بعدها .

مختلف البلاد الاسلامية دون انقطاع . ولعل السبب فى جعل المسجد مركزا ثقافيا هو أن الدراسات فى سنى الاسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال ، ثم ان المسلمين فى عصورهم الأولى توسعوا فى فهم مهمة المسجد ، فاتخذوه مكانا للعبادة ، ومعهدا للتعليم ، ودارا للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ، ومنزلا لاستقبال السفراء (١) .

وعندما هاجر المسلمون من مكة الى المدينة كان أول ما اهتم به الرسول بناء المساجد ، فقد توقف وهو فى طريقة الى المدينة بقاء بضعة أيام ، أسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الاسلام ، ويقال ان فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا » (٢) .

ثم ان الرسول لما دخل المدينة بنى مسجده بالمربد ، وعمل فيه بنفسه ، ليشجع المهاجرين والأنصار على النشاط والسرعة فى العمل (٣) .

وكانت تعقد حلقات العلم فى مسجد قباء (٤) كما كان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم (٥) .

وكثرت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسع الاسلام ، وأصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان فتحه المسلمون ، أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها ، فلقد روى أن عمر لما فتح البلدان كتب الى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك (٦) .

وبمرور الزمن زاد عدد المساجد زيادة كبيرة مطردة فى كل مكان .

ولم يختلف الحال فى مصر عن غيرها ، وأول جوامع القاهرة هو جامع عمرو بن العاص الذى يحمل اسمه حتى الآن ، وقد بناه عقب فتح مصر ثم كثرت

(١) انظر مادة مسجد فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٨ وأنظر فى ذلك ابن هشام ٢ : ١١ ، الطبرى ١ : ٣ : ١٢٣٩

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢ - الطبرى ١ : ٣ : ١٢٥٩ - البلاذرى ٢٠ : ٢ وفتح البلدان ص ١٧

(٤) الاحياء ١ : ٥٢ .

(٥) البخارى : باب الصلاة .

(٦) الخطط ٢ : ٢٤٦ - حسن المحاضرة ٢ : ١٤٩ .

المساجد في مصر بعد ذلك حتى أصبحت القاهرة تعرف بأنها مدينة الآلف
مئذنة .

وفي سنة ٣٦٠ هـ بنى جوهر الصقلي الجامع الازهر ، ولكنه خصص منذ
سنة ٣٧٨ هـ للدراسات والابحاث العلمية ، وظل من ذلك التاريخ حتى العهد
الحاضر جامعة من الجامعات الأولى في العالم الاسلامي (١) . وقد بدأ العزيز
بالله يبنى جامعا آخر ، ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكماله ابنه الحاكم ، ومن
ثم أصبح يطلق عليه جامع الحاكم ، وقد بنى الحاكم أيضا جامع المقس وجامع
رشيدة ، وكل هذه المساجد كانت امكنة للدرس والتعليم .

وسنتحدث فيما يلي عن التعليم في الجوامع فنختار ثلاثة منها لنعطى فكرة
سريعة عن التعليم فيها ولنصف بايجاز حلقات العلم التي تكونت بها :

جامع المنصور : اتخذ المنصور أهبطه لبناء عاصمة جديدة للعالم الاسلامي ،
وقد بدأ العمل سنة ١٤٥ هـ لتشييد عاصمة تزدان بقصر الذهب وجامع
المنصور (٢) ، وهي مدينة بغداد وقد كلفه ذلك نقلا عن ياقوت (٣) ثمانية عشر
مليوناً من الدينار ، وقد جدد ذلك الجامع في عهد الرشيد ، كما زيد فيه
بؤناله كثير من الاصلاح والتعمير بعد ذلك (٤) .

وقد كان ذلك المسجد قبلة أنظار الاساتذة والطلاب في ذلك العهد ،
ومما يدلنا على أنه كان يحتل مكانة سامية في نفوس العلماء أن الخطيب البغدادي
لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات كان من بينها
أن يتاح له أن يملأ الحديث بجامع المنصور (٥) . ويبدو أن الحنابلة كانت لهم
السيطرة على هذا الجامع في منتصف القرن الخامس الهجري حتى انهم اعتدوا
سنة ٤٥١ على الخطيب البغدادي وآذوه وهو يدرس فيه (٦) . وكان الكسائي
يجلس في مسجد المنصور ليقرا في علوم اللغة ، وكان الفراء والاحمر وابن السعدان
بعض تلاميذه (٧) ، كما كان أبو العتاهية يملأ في ذلك المسجد من شعره ،

—————

Lane-Poole : Cairo pp. 123-124.

(١)

(٢) معجم البلدان ٢ : ٢٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ٢ : ٢٣٥ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١ : ١٠٨ .

(٥ ، ٦) ياقوت : معجم الأدباء ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٧) معجم الأدباء ٤ : ٢٤٣ .

حدث شيخ من أهل الكوفة أنه دخل ذلك المسجد فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على ورق الشباب وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب وبان عنى غير منتظر الايساب
فلأبكين على الشبسا ب وطيب أيام التصابي
ولأبكين من البلى ولأبكين من الخضاب

وكان ينشدها ودموعه تسيل على خديه ، فلما رأى الكوفى ذلك انضم الى الحلقة وكتب الابيات ، وسأل عن الشيخ فعرف أنه أبو العتاهية (١) . وفى مسجد المنصور أملى أبو عمر الزاهد كتابه « الياقوت » ، وقد بدأ يحاضر فى موضوع ذلك الكتاب فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ، ولما أتمه استعداد قراءته فهذه وزاد عليه (٢) .

جامع دمشق : كان مسجد دمشق كما يحكى ابن الفقيه (٣) يعد واحداً من عجائب الدنيا الأربع فى ذلك العهد ، ولنقتطف بعض النصوص التى أوجت الى الناس أن يضعوا هذا الجامع فى ذلك الوضع :

— أنفق الوليد بن عبد الملك على بناء هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين ، وحمل للوليد حساب النفقات على ثمانية عشر بعيراً .

— ظل العمل يجرى فى بناء هذا المسجد مدة ثمانية أعوام ، حتى بلغ ثمن البقل الذى أكله الصناع فى مدة أيام العمل ٦٠٠٠ دينار .

— فيه ٦٠٠ سلسلة من الذهب للقناديل .

— قالوا ان من عجائب مسجد دمشق أنه لو بقى الرجل فيه مائة سنة لرأى فى كل وقت أعجوبة لم يرها من قبل (٤) .

ولا يزال هذا البناء الشامخ يبعث الاعجاب فى النفس وينبىء عما كان له من جلال وعظمة فى تلك الأزمان الخالية .

(١) الأغاني ص ٣ : ١٤٣ .

(٢) الفهرست ص ١١٣ .

(٣) كتاب البلدان ص ١٠٦ .

(٤) المرجع السابق ١٠٧ - ١٠٨ وانظر أيضا معجم البلدان ٤ : ٧٦ - ٧٧ .

وقد كان ذلك المسجد مركزا هاما من مراكز الثقافة في العالم الاسلامي ،
يحدثنا ابن جبير عنه فيقول (١) :

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع ، وللمالكية
زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم ،
ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، وأغرب ما به أن سارية
من سواريه وهي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذ منه
المستند اليها للذاكرة والتدريس ٠٠٠٠ وعن يمين الخارج من باب البريد
مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه .

وفي الجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة الحنفية يجتمعون فيها للتدريس
وبها يصلون ٠٠٠

وفي الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام
الناس وهي من جملة مرافق الطلبة .

وكان للخطيب البغدادي بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ وكان الناس
يجتمعون اليه في بكرة كل يوم فيقرأ لهم ٠٠٠ وكان اذا قرأ الحديث في جامع
دمشق سمع صوته في آخر الجامع (٢) .

جامع عمرو : بناء عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ثم جدد وزيد عليه بعد ذلك
عدة مرات (٣) ، وفي عهد مبكر جدا جلس فيه سليمان بن عنز التجيبي ليعظ
الناس عن طريق ذكر القصص ، وكان قد جمع له القضاء والقصاص ثم عزل عن
القضاء وأفرد بالقصاص ، وقد بدأ عمله سنة ٣٨ هـ ومنذ ذلك التاريخ ظل هذا
المسجد مركزا ثقافيا ومحكمة للقضاء ، وقد أدرك به محمد بن عبد الرحمن
الحنفي قبل وباء سنة ٢٤٩ بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح
منه (٤) . وقد سجل لنا المقرئ (٥) بعض التفاصيل عن زوايا ثمان كانت
تدرس فيها شتى العلوم بهذا الجامع ، وفيما يلي مقتطفات قصيرة عن ثلاث منها :

(١) الرحلة من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٧٢ بتقديم وتأخير .

(٢) ياقوت . معجم الأدباء ١ : ٢٥٥ .

(٣) المقرئ . المخطوط ٢ : ٢٤٦ - ٢٥٦ .

(٤) المرجع نفسه ٣ : ٢٥٦ .

(٥) المرجع نفسه ٢ : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

زاوية الامام الشافعي : يقال انه درس بها الامام الشافعي فغرفت باسمه ، وعليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين ، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء .

الزاوية المجدية : بصدر الجامع ، رتبها مجدد الدين أبو الأشباك وزير الملك الاشرف ، وقرر في تدريسها قريية قاضي القضاة عبد الوهاب البهنسي وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة ويعمد التدريس بها من المناصب الجليلة .

الزاوية الصاحبية : رتبها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وجعل لها اثنين من المدرسين : أحدهما مالكي والآخر شافعي وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة . ولما وفد محمد بن جرير الطبري على مصر بان فضله في القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقبه أبو الحسن بن سراج فوجده فاضلا في كل ما يذاكره به من العلم ، ويجيب في كل ما يسأله عنه ، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلا بارعا فيه ، فسأله عن شعر الطرماح فاذا به يحفظه ، فسئل أن يمليه ، فاستجاب وجلس بجامع عمرو لاملأته (١) .

أنواع الدراسات بالمساجد :

ويتضح من الأمثلة السابقة أن الحلقات العلمية بالمساجد لم تكن مقصورة على الدراسات الدينية ، وإنما تعدتها الى سواها من معارف ذلك العصر ، ولا نزاع أن الدراسات الدينية كانت أهم ما يجذب الطلاب ويعنى به المدرسون ، ولكن مع هذا فإن النصوص التي أمامنا تدل على أن المسجد اتسع للعلوم الدينية وليسواها ، وسنشير فيما يلي الى غير العلوم الدينية من المواد التي كانت تدرس بالمساجد :

اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري ، وكان يعنى هو وأتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام ، وقالوا ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين ، فكان واصل يجلس لاتباعه في مسجد البصرة . ليدرس لهم مبادئ علم الكلام الذي كان حديث الظهور في ذلك الحين (٢) .

وكانت الدراسات اللغوية والأدبية تجد طريقها الى المسجد ، وقد تحدثنا فيما سبق عن أبي عمر الزاهد وأبي العتاهية ، ونضيف اليهما مجلس نفطويه

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٣٢ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٢٥٢ .

فى مسجد الانباريين (١) ومجلسا آخر فى جامع قرطبة كان لغوى شهير (لم يذكر المقرئ اسمه) يجلس فيه ليدرس قواعد اللغة العربية الى جمهور كبير من التلاميذ (٢) . وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يلتقيان فى مسجد الكوفة فيتذكran أشعار العرب وأيامهم ، فاختلفا مرة فى شئ ، فقال الكميت لحماد : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ فقال حماد : هذا والله هو اليقين . وما زال يناقشه ويسأله حتى أفحمه (٣) .

وفى مسجد البصرة كان يجلس مسلم بن الوليد ليملى من شعره ، وفى إحدى الجلسات كان يملى قصيدته الدالية :

لا تدع بى الشوق انى غير معمود

اذ أقبل أبو نواس ، فاستشرف له القوم ، فدنا فسلم ، فقطع مسلم الاملاء ، ورفع فى المجلس ، وأقبل عليه يسأله أن ينشده من شعره ، وأبو نواس يابى ذلك ، ثم سأل أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها فقبل (٤) . وكان العروض أيضا يدرس بالمسجد ، روى أن أعرابيا دخل مسجد البصرة فانتهى الى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار ، فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم أخذوا فى العروض ، فلما سمع الفاعل والمفعول ظن أنهم يأترون به ، فخرج مسرعا وهو يقول :

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست أعرفه كأنه زجل الغربان والبوم
وليت منفلتا والله يعصمني من التقحم فى تلك الجرائم (٥)

ودرس فى المساجد الطب والميقات ، يروى السيوطى (٦) أن دروسا مختلفة رتبت فى الجامع الطولونى ، وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات . ويقول عبد اللطيف البغدادى ان درسا فى الطب كان يلقي فى الأزهر فى منتصف النهار من كل يوم (٧) .

(١) الفهرست ١٢١ .

(٢) نفع الطيب ٢ : ٢٥٢ .

(٣) الأغاني ١٥ : ١١٣ - ١١٤ .

(٤) المرزبانى : الموشح ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٥) الاصفهاني : محاضرات الأدباء ١ : ٢٠ .

(٦) حسن المحاضرة ٢ : ١٣٨ .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأبياء ٢ : ٢٠٧ .

المدارس :

فى عهد السلاجقة ابتداء من النصف الثانى للقرن الهجرى الخامس بدأ انشاء المدارس فى العالم الاسلامى ، وكان ذلك على يد الوزير العظيم نظام الملك الذى وزر لالب ارسلان ، وملكشاه ، ونسبت هذه المدارس الى منشئها (نظام الملك فعرفت باسم « المدارس النظامية » وكانت غاية فى الجمال والروعة ، ثم كانت كثيرة العدد بحيث حفلت بواحدة منها كل مدينة ، بل كل قرية .

واقتردى بنظام الملك سلاطين السلاجقة الذين جاءوا بعد ملكشاه كما اقتفى أثرهم الشاهات والاتابك الذين أقاموا امارات على أنقاض السلاجقة .

وفى الشام انطلق البطل نور الدين زنكى فى هذا المجال فبنى مدارس متعددة فى مدن مملكته وقراها .

وسار الايوبيون سيرة نور الدين فأنشأوا المدارس لأول مرة فى فلسطين ومصر ، وكانت كثيرة العدد رائعة المظهر ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار أسهموا فى انشاء المدارس وفى رعاية العلم .

واذا كانت المساجد قد قامت بدور التعليم كما ذكرنا فان المدارس كانت تمتاز عن المساجد باحتضان العلوم التى يكثُر فيها الجدل والنقاش كعلم الكلام ، وعلم المناظرة ، ثم كان بها مدرسون معينون من قبل الحكومات ، ويتقاضون مرتبات محددة وذلك بخلاف المساجد التى كان يفد لها الفقهاء والشيوخ دون إذن من أحد ، وبالتالي كانوا لايتوقعون اجرا ولا مرتبا .

ومن الفروق كذلك أن المدارس كانت بها مناهج معينة ، وأنه كان بها مساكن غالبا ليعيش بها الطلاب والمهندسون ، وبالتالي كان بها المرافق اللازمة لحياة هذه الجماعات .

حوافيت الوراقين :

لعل من الممكن أن نربط بين أسواق العرب فى الجاهلية : عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وبين دكاكين بيع الكتب فى الاسلام ، ففي تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية ، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع فى الناحية الأدبية ، فينشدون الأشعار ، ويعقدون المناظرات ، ويلقون الخطب الرنانة (١) . وحاكتها فى ذلك دكاكين

(١) انظر الاغانى ٤ : ٣٥ وانظر كذلك ابو الفدا ٢ : ٢٣

بيع الكتب ، هذه الدكاكين التي فتحت في الأصل أعمال تجارية ، ثم اذا هي
تصير مسرحا للثقافة والحوار العلمى ، عندما أمها المثقفون والأدباء ، واتخذوا
منها مكانا لاجتماعاتهم وأبحاثهم .

ولم تكن دكاكين بيع الكتب محاكاة تامة لأسواق العرب فى الجاهلية ،
بل كانت هناك نقاط خلاف بين هذه وتلك ، ومن أبرز هذه النقاط أن الاجتماعات
الثقافية كانت يومية فى دكاكين بيع الكتب ، ولكنها فى أسواق العرب كانت
ترتبط بعمران هذه الأسواق التى ما كانت تعمر الا فى مواسم خاصة .

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية (١) ، ثم انتشرت
بسرعة انتشارا ملحوظا فى العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الاسلامى ، وحفلت
كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها ، ذكر اليعقوبى (٢) فى جملة كلامه عن
أرباض بغداد ٠٠٠ ثم ربض وضاح مولى أمير المؤمنين ٠٠ وبه أكثر من مائة
حانوت للوراقين ، وكان فى مصر فى عهد الطولونيين والاشيدين سوق عظيمة
للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات (٣) وقد
تعرض المقرئى فى مواضع كثيرة من كتابه الخطط للحديث عن هذه المحال (٤) .

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح ، وانما كانوا - فى أغلب
الاحايين - أدباء ذوى ثقافة ، يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التى
كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع ، وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء ، وعلى هذا
فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة ، كابن النديم صاحب
الفهرست (٥) ، وعلى بن عيسى المعروف بابن كوجك وقد ذكر عنه ياقوت (٦)
أنه كان وراقا ، وكان أدبيا فاضلا ، وقد ألف عدة كتب ، وياقوت مؤلف
معجم الأدباء ومعجم البلدان (٧) .

ولم تكن مهنة الوراق فى عهد الدولة العباسية تقف عند حد الصفقات
التجارية وبيع الكتب ، وانما كانت تتعدى ذلك الى مهام بالغة الأهمية فى ذلك
الحين اذ كان الوراقون هم الذين ينسخون الكتب الهامة ويعرضونها للراغبين

Hitti : History of the Arabs p. 414.

(١)

(٢) البلدان ص ١٧ .

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ٣٣ ، ٤٤ خط ١٤٦١ تاريخ تيمور بدار الكتب .

(٤) ١ : ٣٦١ ، ٢ : ٩٦ ، ١٠٢ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٠٨ .

(٦) معجم الأدباء ٥ : ١٧٩ .

(٧) ابن خلكان : ٣١١٢ - ٣١٢ .

فيها ، ويتقاضون على ذلك أجرا متواضعا متوسطه دينار عن كل كتاب (١) .
وكان الجاحظ - كما حدث بذلك أبو هفان الراوية - يكتري دكاكين الوراقين
ويبيت فيها للنظر (٢) .

وهكذا كانت حوانيت بيع الكتب مدارس عالية المستوى يؤمها العلماء
والطلاب فيجدون فيها لذة عقلية ومكانا لخدمة الفكر والثقافة .

منازل العلماء :

لم يعد المسلمون المنازل مكانا صالحا للتعليم العام ، اذ أن السكان والطلاب
جميعا لا يجدون الراحة واليسر في التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله ، وبين حلقة
الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط ، وقد أشار الى ذلك كتاب الله في
الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى
طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتهم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ،
ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي
من الحق » (٣) .

وقد شرح العبدري في كتابه « المدخل » (٤) هذه القضية ذاكرا أن
« أفضل مواضع التدريس هو المسجد ، لأن الجلوس للتدريس انما قائده إن
تظهر به سنة ، أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى
والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافرا ، لأنه موضع لاجتماع الناس ، رفيعهم
ووضيعهم ، وعالمهم وجاهلهم ، بخلاف البيت ، فإنه محجور على الناس الا من
أبيح له ، والبيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع » . ويقرر العبدري
في مكان آخر (٥) « ان المنازل مكان للدرس عند الضرورة فقط » .

واذا فاستجابة لالحاح الضرورة وتحت ضغط احوال معينة قامت حلقات
علمية تعليمية بالمنازل الخاصة على ما يأتي :

جری التعليم الاسلامی بالمنزل في عهد الاسلام المبكر ، وقبل نشأة
المساجد ، فلقد اتخذ الرسول عليه السلام دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزا

Amir Ali : A Short History of the Saracens p. 480.

(١)

(٢) ياقوت معجم ٦ : ٥٦ .

(٣) سورة الاحزاب الآية ٥٣ وانظر أيضا تفسير الفخر الرازي لهذه الآية ج ٧ ص ٣٤٧

وتفسير أبي السعود على هامش الفخر الرازي ج ٦ ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

(٤) ١ : ٨٥ .

(٥) ٣ : ٩٧ .

يلتقى فيه بأصحابه ومن تبعه ، ليعلمهم مبادئ الدين الجديد ، ويقرئهم ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان الرسول يستقبل في هذا المنزل من جنحووا الى الاسلام ومالوا اليه ، ليغمر الرسول قلوبهم بارشاده وتعليمه ، فيعتنقوا الاسلام وينضموا الى جماعة المسلمين (١) .

وبالإضافة الى دار الأرقم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل انشاء المساجد أيضا يجلس بمنزله بمكة والمدينة ، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم ، وقد ظنوا كذلك الى أن نزلت بالمدينة الآية الكريمة السابقة وكان نزولها بعد انشاء المساجد ، وقد خفف الله بها عن الرسول ما كان يعاني من تدفق الجموع على بيته تدفقا يكاد يكون متصلا ، مما لا يدع له وقتا للراحة والاستجمام .

ومن الواضح أن منزل الرسول فقط هو الذي أشارت اليه الآية الكريمة ، وقد فهم من هذا عدم الرغبة في اتخاذ البيوت مكانا للدرس ، غير أن ذلك لم يرق الى درجة المنع ، فلظروف خاصة أصبحت بيوت متعددة ملتقى للطلاب والمدرسين ، ومركزا هاما على الرغم من انتشار المساجد .

ومن أهم هذه المنازل منزل الرئيس ابن سينا يقول الجورجاني صاحبه : « كان يجتمع كل ليلة في دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرئ غيري من القانون نوبة ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير (شمس الدولة) ، وقضينا على ذلك زمنا ، (٢) .

ومن الدور الهامة التي كان يلجأ اليها الطلاب والمدرسون فيستفيدون منها استفادة بالغة ، دار الإمام الغزالي (٥٠٤ هـ) التي كان يستقبل فيها تلاميذه بعد أن اعتزل العمل بنظامية نيسابور (٣) .

ولما اتهم على بن محمد الفصيح (٥١٦ هـ) بالتشيع ، وسئل عن ذلك الاتهام فلم ينكره ، فصل من النظامية حيث كان من مشاهير مدرسيها ، ولكن أفواجا من المتعلمين راحوا يقصدونه في داره ليواصلوا القراءة عليه (٤) .

وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي على معرفة واسعة بالمدن الاسماعيلية ، وقد كتب في فقه الاسماعيلية كتابا كبيرا ضمنه كل ما سمعه

(١) انظر الطبري ٣ : ١٣٣٥ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤ التفتي ٤٢٠ .

(٣) انظر ترجمته في صدر كتابه هذا ص ٣ .

(٤) ياقوت ٥ : ٤١٥ .

من المعز والعزیز ، وكان منزله كل يوم جمعة مأوى للعلماء والطلاب ليقروا لهم من هذا الكتاب ومن سواه (١) .

وكان السلفی أحمد بن محمد أبو طاهر (٥٧٦ هـ) من العلماء الفقهاء ، وطاف البلاد حتى وصل الى الاسكندرية ، فتزوج امرأة ذات مال واتخذ من بيته بالاسكندرية مكانا للتعليم .

تلك أمثلة قليلة تعد نماذج فقط لسواها مما حفلت به كتب الأدب والتاريخ وهي تبين توضوح أن منازل العلماء أسهمت بنصيب كبير في نشر الثقافة وبخاصة قبل انتشار المدارس ، ولما كان البيت مكانا خاصا يحس رواده بالوحشة والانقباض كان على صاحب البيت - وقد جعل منه ملتقى للطلاب - أن يقابل رواده ببشاشة وترحيب ، ويسرى عنهم ، والا فقد يتسبب عن ذلك انقطاعهم عن الحضور (٢) مما يجعل الدرس قليل الجدوى محدود الفائدة ، ويتحتم على الطلاب كذلك أن يتسموا بالوقار والهدوء حفاظا على حرمة البيت وجلاله .

الصالونات الأدبية :

يبدو لي أن الصالونات التي ظهرت ساذجة في العصر الأموي ، وانتشرت رائعة غنية في العصر العباسي ، ليست الا تطورا لمجالس الخلفاء الراشدين ، فالخليفة في الاسلام ينظم أعمال الدنيا ويفتي في شئون الدين ، ومن أجل هذا كان من أهم شروطه العلم المؤدى الى الاجتهاد (٣) .

وعلى ذلك كان الخلفاء الراشدون - وهم الذين اختيروا اختيارا شرعيا - يجلسون الى الناس بالمسجد أو خارجه ليفتوهم فيما يعن لهم من مشكلات ، فاذا لم يستطع الخليفة أن يهتدى بنفسه الى الحل استدعى الصحابة ليشاورهم في الأمر ، وليستعين بهم وبآرائهم للحصول على جواب سديد (٤) .

وهكذا تلبقى مجالس الخلفاء الراشدين مع الصالونات الأدبية في أن كلا النوعين خدم التطور الثقافي وعمل على نشر المعرفة ، في ظل الخليفة وحضرته وفيما عدا ذلك تظهر فوارق شاسعة بين تلك المجالس وهذه الصالونات ، ففي المجالس كان لكل واحد الحرية الكاملة في أن ينضم الى المجلس أو يدعه وقتما

(١) المخطوط ٢ : ٤٣١ .

(٢) العبدري ٢ : ٩٧ - ٩٨ .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٥ ، الفخرى ٢٠ - ٢١ .

(٤) انظر « الماسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي » للمؤلف .

يشاء تبعاً لرغبته ، وكان الخليفة ينادى باسمه الخالص أو بعبارة « يا خليفة رسول الله » التي استبدل بها فيما بعد عبارة « يا أمير المؤمنين » وكان الحشد يجلس على سجادة متواضعة ، أو على حصير ، وأحياناً على الأرض الجرداء (١) .

أما الصالونات الأدبية فقد وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التي اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التي خضعت لسلطانهم ، فأصبح الصالون يؤثث أثاثاً رائعاً ، تحدث عنه ابن عبد ربه (٢) ، والمقرئ (٣) . والمقرئ (٤) . ولم يكن الصالون يستقبل كل الراغبين ، وإنما كان يسمح لطبقة معينة من الناس بالدخول (٥) ، ولم يكن الحاضرون أحراراً في اختيار الموعد الذي يحضرون فيه أو ينصرفون عنده ، وإنما كانوا يحضرون في موعد محدد ، وينصرفون عند إشارة خاصة يشير بها الخليفة ، وقد اتخذ كل خليفة إشارة عرف بها ، فكان معاوية إذا قال « ذهب الليل » قام سماره ومن حضره ، وكان عبد الملك إذا ألقى المخصرة قام من حضره ، وكان الوليد إذا قال « استودعكم الله » قام من حضره ، وكان الهادي إذا قال « سلام عليكم » قام من حضره ، وكان الرشيد إذا قال « سبحانك اللهم وبحمدك » قام سماره ، وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل قام من حضره ، وكان الواثق إذا مس عارضيه وتشاءب قام من حضره (٦) . وكان الخليفة ولا أحد سواه يفتتح النقاش في الصالونات (٧) ويروي ابن خلكان (٨) أن أحمد بن أبي داود كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكان لا يبدوهم أحد حتى يبدأوه ، وأخيراً فإن الموضوعات التي تعرض للبحث والنقاش والمناظرة في الصالونات الأدبية كانت أوسع وأعمق من تلك التي كانت تعرض في مجالس الخلفاء الراشدين .

وللصالونات الأدبية آداب خاصة ، وتقاليد معينة ، يجب أن يرعاها أولئك الذين كان يسمح لهم بحضورها ، وقد سجلها مفصلة الصابي في كتاب « رسوم دار الخلافة » (مخطوط) وكشاجم في كتابه « أدب النديم » ونحن نقتبس منها طرفاً يتحتم إيرادها في هذا المقام :

-
- (١) انظر التمدن الاسلامي ٥ : ١٣١ .
 - (٢) العقد الفريد ٤ : ١٠١ - ١٠٨ .
 - (٣) نفع الصيب ٢ : ١١٣٨ .
 - (٤) الخطط ١ : ٣٨٥ - ٣٨٦ .
 - (٥) التاج للجاحظ ص ٢١ .
 - (٦) التاج ١١٩ - ١٢٠ .
 - (٧) التاج ٤٩ - ٥٠ .
 - (٨) الوفيات ١ : ٢١ .

« فالداخل الى حضرة الخليفة ، أو الى مجلس سمره ، يجب أن يكون نظيفا في بزته وهيئته ، وقورا في خطوه ومشيته ، متبخرا بالبخور الذى تفوح روائحه . . وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه (١) . فاذا دخل الداخل الى حضرة الخليفة قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . وربما تقدم الداخل اذا كان وزيرا أو كبيرا فأعطاه الخليفة يده مغشاة بكمه اكراما له بتقبيلها ، وأما ولاية العهود والأهل من بنى هاشم والقضاة والفقهاء فلا يقبلون يد الخليفة ويقتصرون على السلام (٢) .

« ويأخذ الداخل مكانه المناسب لترتيبه من غير أن يتجاوزه الا استجابة لدعاء الخليفة ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات الى جانبيه وورائه ، والتحريك ليده أو شيء من أعضائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرئى الا شخص الخليفة وحده والا يسار أحدا فى مجلسه ولا يشير اليه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتابا بين يدي الخليفة الا ما احتاج الخليفة الى قراءته وأذن له فيه ، ولا يخاطب من يخاطبه فى تعرف أمر منه أو اقامة حجة عليه الا بأخف الألفاظ وأشد الاستيفاء ، وأن يمتنع من الضحك وان جرى ما يوجب . . وليعلم أن أجل ما يكون الانسان فى عين صاحبه اذا كان شخصا صامتا . وجسما صلدا ، لا يخرج منه شيء كاللبصاق والمخاط ، ولا يدخل اليه شيء كالطعام والشراب ، على أن الثانية تجوز مع الاخوان والجلساء ، وتحرم من الرؤساء ، وأما الأول فتقبح مع الجميع (٣) .

« وليس لحاضر مجلس الخليفة أن يذكر شيئا الا ما يسأل عنه ، أو يورد قولا اختيارا أو مطالعة الا ما استأذن فيه ، وسبيله أن يخفض صوته فى حديثه ومحاورته ، ولا يرفعه الا بقدر السماع الذى لا يحتاج معه الى استفهامه واستعادته (٤) وأن يتجنب ايراد حكاية تستمحل أو لفظ يسترذل ، وليصغ الجالس الى الخليفة اذا تحدث حتى يفهم قوله دون أن يستعيده ، فاستعادة الخليفة ليست من الآداب الثلاثة (٥) .

ويوصى كشاجم (٦) الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع امهال المتحدث حتى ينقضى حديثه ، والاقبال عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ،

(١) الصابى ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) ملخص من صفحتى ٤٥ ، ٤٦ من رسوم دار الخلافة .

(٣) رسوم دار الخلافة ملخص من صفحة ٥٠ - ٥١ - ٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٦) أدب التدبير ٣٢ - ٣٥ .

ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه الى حديث يبدأ به ، لمعرفة السامع بذلك الحديث بل يريه من الارتياح له ، والتعجب منه ، ما يوهمه أنه لم يخطر بباله ، ولا وقر في سمعه . ويضيف كشاجم (١) قوله : ومن أدب الحديث ألا يقتضب اقتضابا . ولا يهجم عليه ، وأن يتوصل الى اجتراره بما يشاكلة ، ويسبب له ما يحسن أن يجرى معه في غرضه . . وأحلى للحديث وأحسن لموقعه أن يتنكب منه الطوال ، ذوات المعاني القلقة والألفاظ الوحشية ، فإنهم لم يزالوا يمدحون الأحاديث بالقصر قال عبيد الله بن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام

وقل آخر :

إذا هن حدثن الحديث قضيته ومنيتنا أن الحديث يعاد

ومن أدب الحديث الا يكثر المتحدث التبسيم والقهقهة ، قال نجاح بن سلمة للمتوكل لما دعاه الى منادمته : في خصال لاتصلح معها منادمة الخلفاء ، قال : وما هي ؟ قال : سلس البول ، وابتسم اذا حدثت ، ولا أقدر من الشرب على أكثر من رطلين . فقال له : من حق صدقك أن نسامحك فيها (٢) .

وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزا تشع منه الثقافة والعرفان ، ومثابة يلتقى فيها العلماء والأدباء .

وقد بدأ نشاط الصالونات الادبية مع قيام الدولة الاموية ولكن صالونات الأمويين كانت ساذجة باهتة فلما قامت الدولة العباسية واستقرت بدت الصالونات الأدبية بمعناها الصحيح تظهر في العالم الاسلامي ، واتخذت هذه الصالونات أهميتها العلمية ، لتناسب ذلك العصر الذي يرزت فيه الحضارة الأجنبية ، وبخاصة مدنية الفرس ، وأصبحت هذه الصالونات تعقد في أوقات منتظمة وشملت مع قصور الخلفاء قصور الأمراء والعظماء ، واتخذ لها الأثاث الفاخر والرياش لتناسب السعة والرفاهية اللتين نعمت بهما الدولة في ذلك الحين . ثم تنوعت الصالونات فأصبحت للآداب أو العلوم أو الفنون (ومنها الغناء والموسيقى) لتناسب الحياة الثقافية المتنوعة الأطراف آنذاك ، ولكن مجالس العلم والأدب ظلت أرفع هذه المجالس قدرا ، وأعظمها قيمة ، يدل على ذلك ما ورد في الأغاني (٣) أن اسحاق الموصلي سأل المأمون أن يكون دخوله

(١) أدب النديم ٣٣ - ٣٤ .

(٢) كشاجم : أدب النديم ص ٢٥ .

(٣) ج ٦ ص ٦٠ .

اليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين ، فاذا أرادته الخليفة للغناء غناه .
فأجابه الى ذلك ، ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء ، فأذن له .

وقد بدأ النشاط الواسع يظهر فى عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)
اذ كان الخليفة نفسه فى درجة عالية من الثقافة والمعرفة ، ثم كانت الدولة قد
وصلت الى حياة الاستقرار بعد أن اجتازت مرحلة الخطورة التى تواجه الدول
عند قيامها ، ففى مجلس الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ، ومناقشات
بين الفقهاء ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء .

وكانت هالة الرشيد فى بغداد تتكون من أسماء لامعة ، جمعها الرشيد
حوله ممن لهم باع طويل فى ناحية من نواحي الثقافة ، ومن هؤلاء ، من الشعراء :
أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ،
ومن الموسيقيين : ابراهيم الموصلى ، وابنه اسحاق ، ومن اللغويين : أبو عبيدة ،
والأصمعى ، والكسائى ، ثم ابن السمان الواعظ ، والواقدي المؤرخ ، وكثير
غير هؤلاء (١) .

ومن أهم المناظرات التى حدثت فى مجلس الرشيد تلك المناظرة اللغوية
الشهيرة التى حدثت بين سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب
تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياها ، فقال سيبويه :
بل الصحيح فاذا هو هى ، فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربى خالص
لا يشوب كلامه شئ من كلام أهل الحضر . وكان الأمين شديد العناية بالكسائى
لكونه معلمه ، فاستدعى عربيا وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد
أن تقول كما قال الكسائى . فقال : ان لسانى لا يطاوعنى على ذلك ، فانه ما يسبق
الا الى الصواب ، فقررنا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا وقال الكسائى
كذا فالصواب مع من فيهما ؟ فيقول العربى : مع الكسائى . فقال العربى
« هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس ، واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربى
وقيل له ذلك ، فقال : الصواب مع الكسائى وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه
أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد (٢) .

أما عهد المأمون فكان كما يصفه Hughes (٣) أزهر فترة فى تاريخ
النهضة بالعالم الاسلامى ، اذ كان الخليفة نفسه عالما من أساطين العلماء ،

(١) Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 261.

(٢) ابن خلكان ١ : ٥٤٥ ، ومجالس مخطوط ٢ ب ، ١٣ .

(٣) Dictionary of Islam pp. 295-296.

واختار أصحابه ورجال دولته من الصفوة الآفاذ في الشرق والغرب ، هذا الى جانب الأساتذة والمستشارين والمترجمين والمفكرين الذين حل بهم بلاطه وزين ملكه . ويضيف سيد أمير علي (١) : أن بلاط المأمون كان يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب ، والشعراء والأطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدن ، وشملهم جميعا بعنايته ، مهما اختلفت مشاريهم أو جنسياتهم .

وكثيرا ما أخذ المأمون نفسه دورا رئيسيا في المناظرات التي كانت تدور في مجلسه ، فقد روى أنه قال مرة لمن حضره من جلسائه : أنشدوني بيتا لملك ، يدل البيت وان لم يعرف قائله أنه شعر ملك ، فأنشده بعضهم قول امرئ القيس :

أمن أجل أعرابية حل أهلها جنوب الملا عيناك بتدران (٢) ؟

قال : وما في هذا مما يدل على الملك ؟ قد يجوز أن هذا سوقة من أهل الحضر ، فكأنه يؤنب نفسه على التعلق بأعرابية : ثم أجاب المأمون عن السؤال بقوله : الشعر الذي يدل على أن قائله ملك قول الوليد :

لى المحض من ودهم واليهيم نائلى

فهذا قول من يقدر بالملك على المنح الغامر ، ولا يطلب من الممنوح الا الولاء ومحض الود (٣) .

وفي الممالك المستقلة أو شبه المستقلة التي انقسم لها العالم الاسلامى ، قامت أسر حاكمة ، وكانت هذه ينافس بعضها بعضا في حماية العلم والمتعلمين ، فأضحت القصور الجديدة في العواصم المتعددة مراكز ثقافية خصبة ، وكانت تلك القصور وما فيها من مجالس في ذلك العهد تقوم مقام الجامعات اليوم .

ولا يتسع المقام هنا بطبيعة الحال أن نلم بهذه العواصم جميعا ، وأن نتتبع كل قصر من هذه القصور لنرى ما أسداه للعلم والتعليم من فضل ، وعلى هذا سنعطى نماذج قصيرة لهذا الموضوع عن مصر ، يقول ابن زولاق (٤) .

« في عهد الطولونيين والاختشيديين لم تكن هناك مدارس ، فكانت الدروس

A Short History of the Saracens p. 278.

(١)

Dictionary of Islam pp. 295-296.

(٢) الملا : موضع .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ١١٥ طبعة الساسي .

(٤) أخبار سيديوية مصرى ص ١٩ .

تلقى في قصور الأمراء والوزراء وفي منازل العلماء « . وفي بلاط الاخشيد كانت تلقى أبحاث تاريخية كل مساء ، وقد تربي كافور في هذا البلاط وترقى الى أن جعله الاخشيد « أتابك » ولديه ومعلمهما (١) فلما تسلم كافور الأمر أدنى الشعراء وأجازهم ، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية (٢) . وأصبح كافور حاميا للعلم والعلماء ، وامتاز صالونه بأن ازدهى بوجود المتنبي بين جماعته ينشد من شعره الخالد :

ولكن بالقسطاط بحرا أرزته	حياتي، ونصحي، والهوى، والقوافيا
وجردا مددنا بين أذائها القنا	فبتن خفاقا يتبعن العوالييا
قواصد كافور ، 'توارك غيره .	ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه	وخلت بياضا خلفها وماقيا
نجوز عليها المحسنين الى الذي	نرى عندهم احسانه والأياديا
فتى ماسرينا في ظهور جدودنا	الى عصره الا نرجى التلاقييا (٣)

وعلى كل حال فان مجالس الطولونيين والابخشيديين لتدبل وتتضاءل بالقياس الى صالونات الفاطميين الباهرة . فلقد سار الفاطميون ، كما يقول سيد أمير على (٤) على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين إلى آخر ، وفي هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون الى جماعات تبعا لمواد دراساتهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل ، وهناك الفقهاء والمحدثون . وفي مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكانا رابعا ، وهكذا ، كل واحد من هؤلاء يرتدى الخلعة الجامعية التي تشبه (الروب) الذي يرتديه حملة الدرجات العلمية العليا في العهد الجاضر .

ورتب يعقوب بن كلس مجلسا في داره في يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يجتمع فيه العلماء والفقهاء والقضاة ، وتجرى بينهم المناظرات وتصرف لهم المنح والأرزاق (٥) .

البادية :

تركزت ثقافة العرب في العهد الجاهلي في الأدب العربي من شعر ونثر وخطابة ، فكان الرجل يعد مثقفا ، ما كان شاعرا جزلا ، أو ناثرا حكيما أو خطيبا

(١) ابن خلكان ١ : ٦١٤ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٤ : ٦ .

(٣) ديوان المتنبي شرح العكبري ٤ : ٢٨٥ - ٢٨٨ .

(٤) A. Short History of the Saracens p. 614.

(٥) المقرئزي المخطوط ٢ : ٣٤١ .

مفوها ، وكانت عواطف الجماهير تتأثر بالأدب تأثرا عميقا ، فهي تنقاد للحرب بقصيدة حماسية ، أو خطبة ملتهبة ، كما تجنح الى السلم بأبيات للموادعة ، وعبارات للصفح والاخاء . واعجاب العرب في العهد الجاهلي بلغتهم ، وتقديرهم لها ، استمر بل زاد بظهور الاسلام ، اذ كان الرسول نفسه عربيا بارعا في القول ، ثم كان القرآن الكريم في أرقى درجات البلاغة العربية .

وكانت اللغة العربية حتى عصر صدر الاسلام فصيحة سليمة ، الا أن اتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة سبب وجود لحن قليل بينهم ، وكان ارتكاب ذلك اللحن عارا لا يغتفر وزلة لا تمحى ، فلقد روى أن رجلا لحن في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرسول لأصحابه : أرشدوا أخاكم فقد ضل .

ومنذ عهد عمر زاد الاختلاط بين العرب والأعاجم ، اذ انتشر الاسلام واقتحم بلاد الفرس وبلاد الروم ، وكانت اللغة العربية تسير مع جيوش المسلمين ، فكان انتصار الجيش يتبعه انتصار اللغة ، ثم أصبحت عواصم الامبراطورية الاسلامية (المدينة فدمشق ثم بغداد) مدنا عامة يهرع الناس لها من كل فج ، مهما اختلفت لغاتهم وجنسياتهم ، وحفلت مدن أخرى كالكوكة والبصرة بعدد كبير من الأجانب ، وبخاصة جماهير الايرانيين الذين كانوا أسرى حرب ، ثم اعتنقوا الاسلام (١) ، وأقبل العرب على التزوج من الأجنبيةات اقبالا ملحوظا ، وفي الأمكنة المقدسة كان يجتمع فيها من اعتنقوا الاسلام من العرب وغيرهم في موسم الحج ، حيث يقضون بضعة أسابيع .

وكانت اللغة العربية هي لغة التفاهم بطبيعة الحال سواء في البيوت والقرى ، أو في المدن والعواصم ، أو في موسم الحج . ولكن غير العرب لم يستطيعوا أن يسيطروا على القوانين المعقدة للغة العربية ، ولم يستطيعوا أن ينطقوا بها معربة اعرابا صحيحا ، ففسد اللسان العربي وظهرت لغة يسميها الجاحظ لغة المولدين أو البلديين (٢) . ولم يقف الخطأ عند غير العرب ، بل تعداهم الى العرب أنفسهم ، الذين ظهر هذا اللحن بينهم وقشا .

وكان اللحن - حتى بعد انتشاره - ينظر اليه على أنه شيء مستهجن ، يدعو الى النفور والامتهان ، روى أن كاتبا لابي موسى الاشعري كتب الى عمر : « من أبو موسى » . فكتب عمر الى أبي موسى : عذمت عليك لما ضربت كاتبك

Wellhausen : Arab Kingdom and its Fall p. 71.

(١)

(٢) البيان والتبيين ١ : ٦٨ .

سنوفا (١) . ودخل أعرابي السوق مرة فسمع الناس يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ؟ ونحن لا تلحن ولا نربح (٢) . وهناك حكايات كثيرة من هذا اللون نمسك عن ذكرها تحاشيا للاستطراد (٣) . ولكن الموقف زاد خطورة عندما تعدى اللحن عامة الناس الى خاصتهم ، فوقع فيه الوليد ابن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف وأبو حنيفة النعمان ، وبشر المريسي ، وشبيب بن شيبه ، وغيرهم من الخلفاء والعظماء (٤) . ثم كان اللحن أكثر خطرا وأدعى لاشمئزاز النفس عندما وقع في القرآن فغير المعنى تغييرا يؤدي بصاحبه الى الكفر لو كان مقصودا ، كاللحن الذي وقع في الآية الكريمة « هو الله الخالق البارئ المصور » (٥) اذ قرأها قارئ المصور بفتح الواو ، وكالاعرابي الذي أقرأه رجل سورة براءة ولحن في تعليمه الآية الكريمة « ان الله برئ من المشركين ورسوله » (٦) فأقرأها له « ان الله برئ من المشركين ورسوله » بكسر اللام فقال الاعرابي : لا يمكن أن يبرأ الله من رسوله (٧) .

ويقول ابن خلدون (٨) . متحدثا عن تاريخ اللحن في اللغة العربية ما يلي : واللغة ملكة في السنة القوم ، يأخذها الآخر من الأول ، كما تأخذ صبياتنا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الاسلام ، وفارق العرب الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي للمتعرين ، والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى ليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتبار السمع .

وبينما كان اللحن يفسد في الحضر حيث اختلط العرب بالاعاجم ، بقيت اللغة سليمة تماما في الصحراء التي لم تجذب اليها الاعاجم ولا من فسدت لغتهم ، وقد سبق ايراد قصة البدوي الذي جرى به ليكون حكما فاصلا بين سيبويه والكسائي في الخلاف اللغوي الذي نجم بين الاثنين حول صحة النطق بجملة معينة ، وقد أغرى الأمين البدوي أن يثني للكسائي ، وقبل البدوي

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ٤ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ، ابن عبد البر : أدب المجالسة مخطوطة طرقة ٥٥

(٣) انظر البيان ٢ : ٥ ، ٦ وابن قتيبة عيون الأخبار ٢ : ١٥٨ وابن عبد البر : أدب المجالسة ٥٥ : العقد الفريد ١ : ١٨ .

(٤) العقد الفريد ١ : ١٨ - ٢٠ ، ابن قتيبة ١ : ١٥٩ البيان ٢ : ٣ - ٥ .

(٥) سورة الحشر الآية ٢٤ .

(٦) سورة التوبة الآية الثالثة .

(٧) طبقات الأدباء ص ٨ .

(٨) المحتمة ص ٤٠٣ .

فكرة التحيز . ولكنه قال : ان لسانى لا يطاوعنى على ذلك . فانه لا يسبق
 الا للصواب (١) . وعلى هذا أصبح البدو هم الذين تؤخذ عنهم اللغة الصحيحة ،
 وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس .
 ويعطينا ابن النديم فكرة واضحة عن البدو الذين جاءوا الحضر ، واتخذوا
 التعليم مهنة لهم ، ومن هؤلاء أبو لبيد الرياحى (٢) وأبو جاموس ثور بن يزيد
 الذى تعلم الفصاحة منه عبد الله بن المقفع (٣) ، وأبو العميثل عبد الله خلود (٤)
 وعبد الله بن عمرو بن أبى صبيح (٥) .

وبينما قنع بعض الناس بالجلوس الى البدو فى القرى والمدن ليتعلموا
 منهم ، نجد آخرين لا يكتفون بذلك وانما يهجرون الحضر ويضربون فى البادية
 ليتعلموا اللغة فى منبعها الأصيل ، وليتجاشوا سماع لغة المولدين والبلديين ،
 وعلى هذا نجد البادية فى القرنين الاولين للهجرة تقوم بدور المدرسة فى الوقت
 الحاضر (٦) ويقول Hitti فى ذلك (٧) : ان صحراء سورية كانت مدرسة
 الأمراء الأمويين ، فاليها أوفد هؤلاء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية ، وليتذوقوا
 فنون الشعر والأدب ، وقد أرسل معاوية اليها ابنه وولى عهده يزيد . ولما
 كان الوليد بن عبد الملك لم يرسل للبادية ايثارا لراحته وهناءة عيشه فانه لم
 يتقن اللغة وقواعدها ، وكان كثير الأخطاء فيها (٨) . ومن أجل هذا أثر عن
 أبيه أنه كان يقول : أضربنا حيننا للوليد فلم نرسله للبادية (٩) . ولم تقتصر
 هذه السنة على الأمراء الأمويين فان المعتصم بن هارون الرشيد أرسل أيضا الى
 البادية للغرض نفسه (١٠) .

**ولم تكن الصحراء مدرسة الأمراء فحسب وانما قصدها عدد كبير من
 العلماء الأعلام نذكر منهم :**

-
- (١) ابن خلكان ١ : ٥٤٩ .
 - (٢) الفهرست ص ٦٦ .
 - (٣) الفهرست ص ٦٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ص ٧٢ .
 - (٥) المصدر نفسه ص ٧٣ .
 - (٦) Encyclopaedia of Education 3 : 1112.
 - (٧) History of the Arabs p. 253.
 - (٨) العقد الفريد ٢ : ١٨ .
 - (٩) العقد الفريد ٢ : ١٩ .
 - (١٠) العقد الفريد ١ : ٣٦٥ .

– الخليل بن أحمد (٦٠ هـ) الذى سأل الكسائى مرة : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة (١) .

– بشار بن برد (١٦٧ هـ) وقد قيل له مرة : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب وشك فيه ، وأنه ليس فى شعرك ما يشك فيه » قال : « ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت ، الى أن أدركت » فمن أين يأتينى الخطأ ؟ »

– الكسائى (١٨٢ هـ) خرج الى البادية وأنفذ خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه .

– الشافعى (٢٠٤ هـ) وهو يقول فى وصف حياته الأولى : « ... ثم انى خرجت من مكة فلزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها وأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما زجعت الى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الأدب والاخبار ، وأينام العرب .

ابتكارات المسلمين فى مجال التربية والتعليم

لا يتسع هذا البحث الموجز للحديث المفصل عن ابتكارات المسلمين فى مجال التربية والتعليم ، فان هذه الابتكارات كثيرة رائعة ، وقد ضمنتها كتابى « التربية الاسلامية : نظمها – فلسفتها – تاريخها » وحسبى أن أذكر فيما يلى بعض عناوين البحوث التى تضمنها هذا الكتاب :

– عناية المسلمين بتلقى العلم من معلم لا من الصحف والكتب

– المسلمون الأول أدركوا ضرورة فن التربية للمدرس

– تعاون البيت والمدرسة فى تربية التلميذ

– أخلاق المدرسين وواجباتهم

– الاجازات العلمية

– العقوبات

(١) ابن الانبارى ص ٨٣ .

- الجوائز والمكافآت
 - ملابس المدرسين
 - نقابة المعلمين
 - تكافؤ الفرص في التعليم عند المدرسين
 - توجيه التلاميذ حسب مواهبهم
 - سن التعلم
 - العقل والجسم
 - أخلاق التلاميذ وواجباتهم
 - صلة التلميذ بالتلميذ
 - جهود التلاميذ لتحصيل العلم
 - الرحلات لطلب العلم
 - تعليم المرأة
 - الاوقاف على التعليم
 - حلقة التعليم
 - مراحل التعليم
 - الداخلية في المدارس
- وبعد ، هذه جولة قصيرة في رحاب التربية والتعليم كما أرادها الفكر الاسلامي ، وعندما جعل الاسلام العلم للجميع فتح باب نور ومعرفة للبشرية ، ووضع الجذور لأي تطور فكري يحققه المجتمع البشرى على مر العصور .

وسائل التسلية عند المسلمين

للدكتور أحمد عبد الرازق أحمد

لكل شعب من الشعوب وسائل التسلية الخاصة به ، التي يقبل عليها في أوقات الفراغ ، والتي كثيرا ما تتلاءم مع عادات أهله وتتشاكل مع أخلاق أمته . ورغم اختلاف هذه الوسائل من حيث الشكل والمضمون وحسب الزمان والمكان ، إلا أنها كانت تتفق عادة من حيث الغرض منها ألا وهو تريض العقول والأبدان . وعلى ذلك فلم يكن حظ العرب من وسائل التسلية أقل من غيرهم من الشعوب إذ تفننوا في إيجاد الوسائل التي شغلوا بها أوقات فراغهم . حقيقة أن بعض هذه الوسائل كان معروفا لديهم في الجاهلية كمجالس الشعر والأدب (١) ، ومجالس الشراب والطرب (٢) ، والصيد والسباق (٣) . بيد أنهم أخذوا عن الشعوب التي احتكوا بها بعد الفتح الاسلامي العديد من وسائل التسلية الأخرى كاللعب بالكرة والصولجان ، والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها (٤) .

والدارس للتاريخ الاسلامي على مر العصور يستطيع أن يميز بسهولة بين أنواع متعددة من المجالس أهمها مجالس الأدب والشعر ، ومجالس الوعظ والقصص ، ومجالس الشراب والطرب .

أما عن مجالس الأدب والشعر فقد أقبل الخلفاء عليها لترويح النفس من مشاغل الدولة وخصصوا لها المجالس للاطلاع على آداب العرب وأخبارهم وضموا اليها فحول شعراء العصر ولم تكن هذه المجالس لتخلو من النوادر والمداعبات من قبل الخلفاء في الأدب والأدباء كما يبدو من المجلس الذي جمع بين الخليفة معاوية بن أبي سفيان وبين ليلى الأخيلية ، وغيره من المجالس حتى يزول ما في

-
- (١) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، القاهرة ١٩٠٤ ، ج ٣ ، ص ٣٢ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .
(٣) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٥ ، ص ١٥٦ .
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، بيروت ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٩٥ ، ٤٢٦ .

نفس الخليفة وينشر صدره (١) . ورغم مناداة بعض الكتاب بتخصيص أوقات معينة من النهار للهو وقضاء أوقات الفراغ (٢) ، فقد كانت هذه المجالس تعقد في بعض الأحيان في أواسط الليل والناس نيام (٣) . وكان بعض الخلفاء والأمراء يقيمون أناسا يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس وكذا أخبار الدول وحوادث الشجاعة ونحوها بهدف الاستفادة منها والتوسع بأسباب الدهاء وأفانين السياسة (٤) . وتشير المصادر الى الخلفاء الذين جلسوا الى الشعراء وخصصوا لهم المجالس من أمثال يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن يزيد ، كما تتضمن أيضا أسماء البعض الآخر من بين هؤلاء الذين عملوا على إبعاد الشعر من مجالسهم مثل عمر بن عبد العزيز الذي يروى عنه أنه كان يكره الاستماع الى الشعراء وكذا منحهم الصلوات لصلاحه وورعه ، ومثل هشام بن عبد الملك لما اشتهر به من الشج والبخل ، والوليد بن عبد الملك الذي انشغل عنهم بالفتوحات واقامة العمائر المختلفة . هذا ويجب ألا ننسى أيضا أن بعض مجالس الشراب والطرب قد صرفت بعض الخلفاء عن مجالس الشعر والأدب .

وهناك أيضا مجالس خصصت للوعظ والارشاد أقبل الناس عليها في أوقات فراغهم وكانت أشبه بمدارس شعبية أخذت على عاتقها تثقيف العامة خلال العصور الإسلامية . وقد ظلت المساجد تؤدي هذه الوظيفة حتى أنشئت المدارس خلال القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كالنظامية فى بغداد سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م (٥) ، ومدرسة أبى حنيفة سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م . وكانت هذه المجالس تعج بالناس كافة دون قيد أو شرط ، وتميزت بمعالجة المسائل الدينية والدينية ، ومن ثم فقد كان لها أثر واضح فى حفظ بعض معالم التراث الإسلامى خاصة ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا (٦) . وكان عمل الواعظ يقتصر غالبا على تخويف الناس من عذاب الله ويحضهم على التمسك

-
- (١) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ١٣٩ ، على حسنى الحروبولى ، الحضارة العربية الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٣٢ .
- (٢) الجاحظ ، التاج فى اخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ١٥١ حيث نخص طرف النهار للهو وقضاء الأشغال .
- (٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .
- (٤) الذهب ، ج ٢ ، ص ٥١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .
- (٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ج ٦ ، ص ١١ ، المسعودى مروج (٥) ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ، ١٣٥٧ - ١٣٥٩ هـ ، ج ٨ ، ص ٢٣٨ .
- (٦) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج ٤ ، ص ٦٥٣ .

بأهداب الدين ، وكان الناس بدورهم اذا ما أعجبوا بأحد الوعاظ تعصبوا له وأقبلوا على مجالسه ، بل كثيرا ما كانوا يقفون الى جانبه ضد بقية الوعاظ الذين يخالفونه الرأي فى وعظه أو تفسيره حتى ولو اقتضى الأمر الى استخدامهم للقوة (١) . ولقد ترك لنا الفنان المسلم بعض تصاوير مجالس الوعظ هذه من بينها واحدة ترجع الى حوالى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م من مقامات الحريرى المحفوظة بالمتحف البريطانى بلندن تمثل أبا زيد يعظ فى مسجد سمرقند .

وارتبط بمجالس الوعظ هذه نوع آخر من المجالس عرف بمجالس القصص وهى حسب رواية أحد المؤرخين نوعان ، قصص العامة ، وقصص الخاصة (٢) . وكان القاضى يجلس عادة فى الطرقات (٣) ، أو فى المقابر (٤) ، أو فى الجوامع (٥) ، أو فى الأسواق (٦) ويذكر للناس شيئا من الآيات والأحاديث وأخبار السلف (٧) ويقص عليهم الحكايات والسير كسيرتى عنتره وبببرس اللتين تعدان الى الآن سلوى الجماهير فى بعض مقاهى الشرق الاسلامى (٨) . كما اشتهر أيضا بعض القصص بتفسير القرآن الكريم ومن ذلك ما يرويه الجاحظ عن موسى الأسوارى الذى كان يجلس فى مجلسه المشهور ، ابان القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، ثم يقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين (٩) .

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٣٥ ، الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٢) المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ، آدم متز الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ١٢٣ ، السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ ، ص ١١٣ .

(٤) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس أو نقد العلم والعلماء ، نشر محمد منير الدمشقى ، القاهرة ، ص ١٢٢ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ١٠ .

(٦) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

(٧) السبكي ، معيد النعم ، ص ١١٣ .

(٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ١٦١ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٥١ ، ج ٤ ، ص ٨١٥ .

(٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ١٣٣٢ هـ ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

وعلى الرغم من أن الخليفة معاوية قد منع قصص العامة ، وسمح بقصص الخاصة حيث ولى رجلا عليه (١) ، فإن قصاص العامة قد انتشروا واستمروا في مواصلة نشاطهم على مر العصور الاسلامية وأقبل على مجالسهم الرجال والنساء على السواء (٢) ، وكانوا يقضون الأوقات الطوال في الاستماع اليهم (٣) .

أما عن الطرق التي كانوا يلجأون اليها للاستحواذ على انتباه العوام فقد كانت كثيرة ومتنوعة منها انشادهم الأشعار الغزلية في العشق ، أو اظهارهم التواجد والتخاشع (٤) ، عن طريق طلاء وجوههم بما يجعلها صفراء تشبها بالنسك الصائمين . أو عن طريق اتخاذ بعض الوسائل لاسالة دموعهم متى أرادوا ، ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر أو يضربها برجله ، ايهاا للناس بشدة انفعاله بل عمد بعضهم أيضا الى تسليية العامة عن طريق اختراع الأحاديث ونشرها بينهم وكذا تشويه القصص الدينية وتحويلها الى أساطير تروى أثناء هذه المجالس (٥) .

وفي الوقت الذي كانت فيه غاية العامة من حضور هذه المجالس هو قضاء أوقات الفراغ والتلذذ بسماع القصص والأساطير ، كانت غاية أغلب طبقة القصاص هي الحصول على المال . لذلك كثيرا ما تلاعبوا بعواطف الجماهير واستخفوا بهم ومن ذلك ما روى عن كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر ، الذي عاش في أيام الخليفة الرشيد وابنه المأمون ، فقد قيل انه كان يأكل يوما خبزا على الطريق ببغداد ، فرآه عثمان الوراق ، فقال له ويحك ! أما تستحي ! فقال له كلثوم : أرأيت لو كنا في دار فيها بقر ، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل ، وهي تراك فقال : لا ، قال فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقص حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال للناس : روى لنا غير واحد ان من بلغ لسانه أرنبه أنفه لم يدخل النار ، فكأنما كان ذلك اشارة منه للناس ، فلم يبق أحد منهم الا وأخرج لسانه يومئذ به نحو أرنبه أنفه ، ليرى ان كان يبلغها أم لا (٦) .

٤٢

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٢ ، ص ١٠١ ، المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص ١٢٢ .

(٣) السيوطي ، تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ، القاهرة ١٣٥١ هـ ، ص ٥٤ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

(٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨ هـ ، ج ٢ ،

ص ٢٣٠ .

(٦) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ١٢ ، ص ٥ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

والحق ان لغة القصاص السهلة كانت أشد استهواء للعامة من أسلوب العلماء الجامد ، ومن ثم كان هؤلاء القصاص خطرا على الدين والخلق بل وعلى الثقافة أيضا طالما أنهم كانوا يسلكون في سبيل المال وجمعه شتى السبل والوسائل . وعلى ذلك فقد كان طبيعيا أن يعتمد الحكام الى اتخاذ بعض الاجراءات ضدهم كما حدث في سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م عندما أمر الخليفة المعتضد بالنداء في مدينة السلام بألا يجلس في الطريق ولا في المسجد قاص ولا منجم ولا عراف الا أن هذا المنع لم يستمر طويلا بدليل أننا نقرأ في المصادر المعاصرة عن عودة الخليفة في سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م الى تجديد هذا النداء (١) . وتحدث المصادر أيضا عن نداء ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م عندما أمر عضد الدولة البويهى بمنع القصاص من الجلوس في الأماكن المشار اليها واعتبرهم من مثيري الفتنة المذهبية (٢) . كما جمع ابن الأثير بينهم وبين المشعبدن في عبارة واحدة أثناء القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى (٣) . ومع ذلك فقد كانت طبقة القصاص أكثر تقديرا لدى العامة من العلماء أنفسهم وحسبنا دليلا عن ذلك ما رواه ابن الجوزى عن أم أبى حنيفة من أنها احتاجت مرة الى معرفة مسألة من مسائل الشريعة الاسلامية فاستفسرت ابنها في ذلك فأجابها ، بيد أنها لم تقتنع فذهبت معه الى زرعة القاضى ، فلما أقر رأى أبى حنيفة اقتنعت الأم (٤) .

والنوع الرابع من المجالس هو مجالس الشراب والطرب التى كانت تعقد فى البساتين والمتنزهات وأبهاء القصور وتدار فيها كثوس الخمر التى حلت محل ماء الورد المذكور فى قصائد العرب (٥) رغم نهى القرآن عن تناولها (٦) ، ويفهم من المصادر أن يزيد بن معاوية كان أول من شرب المسكر من خلفاء بنى أمية (٧) ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاحى وجاهر الناس

-
- (١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٧١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ج ٣ ، ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .
- (٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٧ ، ص ٨٧ ، متز الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١١١ .
- (٣) ابن الأثير ، المثل السائر ، ص ٣٥ .
- (٤) ابن الجوزى ، كتاب القصاص ، ص ١٢٤ .
- (٥) الاصفهاني ، الاغانى ، ج ١٥ ، ص ٨ ، فليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .
- (٦) من المعروف ان تحريم الخمر تم فى السنة الرابعة أو الخامسة بعد الهجرة أنظر القرآن الكريم ٢/٢١٩ ، ٤/٤٣ ، ٥/٩٠ - ٩١ ، نهاية الآرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٨ ، ج ٤ ، ص ٧٦ ، الجاحظ ، وسائل فى الشارب والمشروب ، نشر حسن السنلوبى ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ٢٨٢ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٣٤ .
- (٧) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٧ ، النويرى ، نهاية الآرب ، ج ٤ ، ص ١٠٨ ، جورجى زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

بالشراب وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضر مجلس منادته فيلاعبه حتى قيل
له يزيد الخمر (١) .

أما عبد الملك بن مروان فكان يسكر فى كل شهر مرة حتى لا يعقل فى
السما أو فى الماء وكان يبرر تناوله للخمر قائلا : « انما أقصد فى هذا الى
اشراق العقل ، وتقوية منة الحفظ ، وتصفية موضع الفكر » غير أنه كان اذا
بلغ آخر هذا السكر أفرغ ما كان فى بدنه حتى لا يبقى فى أغصانه منه شيء ،
فيصبح خفيف البدن ، زكى العقل والذهن ، نشيط النفس قوى المنة ، ومع
هذا فقد كان يسمى بحمامة المسجد لاجتهاده فى العبادة (٢) . أما ابنه الوليد
فكان يشرب يوما ويدع يوما (٣) . على حين خصص ابنه هشام يوم الجمعة
للشراب وذلك بعد الصلاة . وتتحدث المصادر أيضا عن يزيد الثانى الذى شغف
بائنتين من القيان هما سلامة وحبابة التى قيل ان الأخيرة قد ماتت من حبة
عنب أو رمان التهمتتها أثناء مداعبته لها ، فبلغ من جزعه وحزنه عليها أنه هلك
بعدها ببضعة أيام (٤) . غير أن ابنه الوليد قد فاق الجميع فى الشراب والتهتك
وبعث فى طلب المغنين من شتى البلدان الى دمشق (٥) رغم أنه القائل : « اياكم
والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر
ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية
الزنا » (٦) . ومع ذلك فقد قيل عنه انه اتخذ بركة فى قصره كان يملؤها خمرا
ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها وكان يظل هكذا حتى يظهر النقص
فى البركة (٧) . كما صور لنا كتاب الأغاني مجلسا من مجالس شرابه سجله
شاهد عيان ووصف فيه ما كان يمارسه هذا الخليفة من التهتك والمجون (٨) .

-
- (١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ٤٦ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٤ ، ص ٩١ .
الملاحظ ، التاج ، ص ١٥١ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .
(٢) الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٢ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٤ ، ص ٩٢ .
(٣) الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٢ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .
(٤) كتاب العيون والحداث ، نشر دى جويه ، لندن ١٨٦٨ - ١٨٧١ ، ص ٤٠ - ٤١ ،
الاصفهاني ، الأغاني ، ج ١٣ ، ص ١٦٥ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٤ ، ص ٩٢ .
(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ،
ص ٢١٣ ، الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٢ .
(٦) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٦ ، ص ١٣٤ ، جورجى زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ٣٦ .
(٧) النواجى ، حلبة الكميت ، القاهرة ١٢٢٩ هـ ، ص ٩٨ .
(٨) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

والدارس للتاريخ العباسي سوف يلاحظ بوضوح مدى انتشار مجالس الشراب والطرب رغم تناقض روايات مؤرخي هذا العصر بصدد استجازة بعض الخلفاء للخمر وشربهم اياها ولقد حاول النواجي حصر أسماء كل الخلفاء والوزراء والكتاب الذين أقبلوا على احتساء الخمر الا أنه لم يجد الى ذلك سبيلا لكثرة عددهم (١) . ومع ذلك تحدثنا المصادر بأن الخليفة المنصور كان يكره أن يوضع الشراب على مائدته ، ويجبر من يطلب شرابا على احتساء ماء دجلة (٢) . كذلك كان المهدي لا يشرب الخمر (٣) في الوقت الذي كان يشرب فيه النبيذ من عنده من الجلساء والندماء بالطاسة (٤) . أما الهادي فقد أشارت بعض الروايات الى تناوله الخمر والى عينيه الحمراوين من كثرة الشراب والسهر طوال الليل (٥) . ويفهم من المصادر أيضا أن الرشيد كان يتناول نبيذ التمر (٦) وان كان ابن خلدون قد نفى عنه هذه التهمة وأشار الى أن اجتنابه للخمر كان معروفا وشائعا عند بطانته وأهل مائدته (٧) . وتحدث المصادر أيضا عن الخليفة القاهر الذي أمر في سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م بتحريم الغناء والخمر رغم انه كان يشرب المطبوخ ولا يكاد يفيق من شدة السكر (٨) . كما تروى أن الخليفة المستكفي كان قد ترك شرب النبيذ فلما أفضت اليه الخلافة عام ٣٣٣هـ / ٩٤٤م دعا به من وقته وعاد الى شربه من جديد (٩) .

كذلك كانت مجالس الشراب والطرب من الأمور المألوفة في العصر الفاطمي حيث أقبل عليها الخلفاء ووجوه القوم . وكان معظم المغنيات من الجوارى ، فيحكى انه اشترى من بغداد جارية رائعة الحسن تجيد الغناء للمعز لدين الله فغنت له ولجلسائه حتى أطربته ، ولم يزل غناؤها يزيد طربا ، حتى أفرط جدا وقال لها تمنى ما شئت ، فتمنت ان تغنى ما غنت ببغداد ، فلم يجد الخليفة بدا من

(١) النواجي ، حلبة الكعب ، ص ٢٦ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ، ص ٣٠٩ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسي ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٨٥ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٦ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٤٢٥ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسي ، ص ٢٣٥ .

(٥) الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج ١٠ ، ص ٣٩ ، ٤٤ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ ، ص ١٤ ، الجاحظ ، التاج ، ص ١٥٣ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٨ .

(٨) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، لندن ١٨٦٩ ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ ، ابن تغرى بردى ،

النجوم ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٩) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٩٠ .

الوفاء لها وأرسلها الى بغداد (١) . ويروى أيضا أن الخليفة الحاكم بأمر الله لما عن له أن يعيد العمل بأحكام الشريعة الاسلامية نهى الناس عن شرب المسكر وتشدد في ذلك حتى استتطب في احدى المرات بها يعقوب اسحق بن ابراهيم ابن انسطاس ، فأشار عليه بشرب النبيذ ، وذكر له ما فيه من المنافع ، فاستجاب الى مشوره وتغاضى عن تحريمه للخمر وعن منعه اياها ، بل استدعى بالمغنى وأصحاب الملاهي الى مجلسه ، وشرب على غنائهم وأحسن اليهم ، كذلك رجع الناس في أمر الشراب الى ما كانوا عليه من قبل الى أن مات ابن انسطاس ، فعاد الحاكم من جديد الى النهي عن الخمر والتشديد فيها ، حتى وصل به الأمر الى منع بيع الزبيب والعسل وأحرق متهما وأغرق في النيل شيئا كثيرا للتجار يقدر بمال عظيم ، كما كسر الضروف التي يوعى فيها النبيذ ومنع من عملها (٢) . غير ان هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا خاصة وقد حرص أغلب خلفاء هذا العصر على عقد مجالس الشراب والطرب بدليل ان معظم المنتجات الفنية التي وصلتنا من هذه الفترة تتضمن بعض صور هذه المجالس وحسبنا ان ننوه هنا بتلك الألواح الخشبية التي ترجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، التي عثر عليها فى مارستان قلاوون التي يزين بعضها صور رجال يمسون فى اليد اليمنى كأسا والى يسار كل منهم ساق يقوم بصب الخمر فى الكؤوس ، هذا فضلا عن رسوم المطربين والمطربات والعازفين والعازفات والراقصين والراقصات (٣) (لوحة ٢ شكل أ) .

ومن الواضح أيضا ان مجالس الشراب والطرب كانت من الظواهر المألوفة فى المجتمع الأندلسى وانها لم تكن محرمة ، اذ يشير الشقندى ان الوادى الكبير يمتاز عن غيره من الوديان « بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لانه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر الى شر وعريضة ، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا ازالته » (٤) . وكان أمراء الأندلس وملوكها يعقدون مجالس الشراب والطرب فى ظاهر المدن أو فى البساتين والبنيات وأبهاء القصور والمتنزهات ، ويصف

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ص ١١٤ .

(٢) ابن سعيد ، تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ١١٨ ، متر ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٧٢ .

(٣) Marçais. Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés époque fatimide conservés au Musé Arabe du Caire, Mélanges Maspero, I. M. Herz, Boiserles fatimides aux sculptures figurales, Orientales Archiv., III, (1912-1913).

(٤) المقرئى . نفع الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ج ٤ . ص ١٩٩ .

لنا ابن بسام حفلا أقامه المأمون بن ذى النون فى مجلس خلوته بقصر الناعورة
أحضر فيه عددا من المغنين وجميع آلات الطرب وبالسغ فى تأنيس الحاضرين
بالنبيد (١) ، كما يصف لنا ابن خفاجة البلسى مجلسا آخر من تلك المجالس
فى بالنسية بقوله :

فكم يوم لهو قد أدركنا بأفقه نجوم كؤس بين أقمار ندمان
وللقضب والأطيار نلهى بجرعه فما شئت من رقص على رجع الحان (٢)
ويمكننا ان نتصور بعض هذه المجالس من خلال ما وصلنا من تحف عاجية
أندلسية من عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف (٣) كعلبة المغيرة
ابن عبد الرحمن الناصر المؤرخة بسنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، والمحفظة حاليا
بمتحف اللوفر ، نشاهد عليها صورة مجلس شراب وطرب يتألف من رجلين
جالسين على وسادة ، أمسك أحدهما بمروحة مستديرة على هيئة الوريدة ، على
حين أمسك الثانى فى يده اليسرى بزهرة على هيئة كوز الصنوبر ، فى الوقت
الذى يحتفظ فيه بقدح أشبه بالقارورة فى يده اليمنى . هذا ويتوسط الرجلين ،
شخص ثالث حافى القدمين وقد أمسك بعود بين يديه يقوم بالعزف عليه (٤)
(لوحة ٢ شكل ب) .

كذلك شغف كثير من سلاطين المماليك بمجالس الشراب والطرب حتى
جرت العادة زمن المؤرخ ابن تغرى بردى بأن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة
من المغانى فى داره (٥) ؛ كما دفع ذلك ببعض سلاطين المماليك الى تقريب أرباب
الموسيقى والغناء الى مجالسه ، فاذا سمع بمغن أرسل فى طلبه وكلفه بتعليم
جواريه الغناء ، كما فعل الناصر محمد بن قلاوون مع المغنى كتيلة
ابن قرانغان (٦) .

-
- (١) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٦ .
(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات
الطوائف من خلال النقوش المخفورة فى علب العاج ، الكتاب الذهبى عدد خاص من مجلة الآثار ،
القاهرة ١٩٧٨ ، ج ١ ، ص ١٢٣ .
(٤) D. et J. Sourdel, La civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968
p. 348, no. 147 ; G: Marçais, L'art musulman, Paris, 1962.
pl. XVII.
(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .
(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، حيدر آباد ١٩٢٩ ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ .

وكان يكره فى مجالس الشراب هذه جلوس الاثنين وحدهما ذلك خوفاً من انسحاب أحدهما لقضاء حاجته فيصير الآخر واجماً ، ومن ثم فقد كان الثلاثة يعتبرون أتم مجلساً (١) ، ولا بأس أن يصل عدد أعضاء مجالس الشراب والطرب الى خمسة أفراد كما يفهم من قول الشاعر أبى نواس اذ يقول :

ثلاثة فى مجلس طيب وصاحب الدعوة والضارب
فاذا تجاوزت الى سادس أذاك منهم شغب شاغب (٢)

وكان من مستلزمات الشراب والغناء ، الرقص الذى كان يسمى بأسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الأول أحياناً أو يسمى بأسماء خاصة من رقص الجمل أو رقص الكرة ونحوها ، وكان يقوم به فى الغالب السميريات (٣) وهن القيان البارعات فى فنون الغواية من غناء ورقص ، حتى أنه كانت لهن تماثيل خيل مسرجة من الخشب تعرف باسم الكرج (٤) تعلق بأطراف أقبية يلبسونها ويحاكين بها امتطاء الخيل من كر وفر (٥) . ويذكر ابن خلدون أن أمثال هذه الرقصات كانت تقدم فى مجالس الفراغ واللهو وكذا فى الأعراس والأعياد ، كما أشار الى انتقالها عن بغداد وأمصار العراق الى غيرها من الأقطار (٦) . هذا وقد حفظت لنا المتحف الاسلامى العديد من مناظر الرقص والراقصات من بينها واحدة تزين صحناً من الخزف ذو البريق المعدنى تمسك فى يديها بوقين تضربهما ببعضهما ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وينسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (لوحة رقم ٣ شكل أ)

وفى هذا المجلس كان لابد أيضاً من وجود العازفين لمصاحبة المغنى أو المغنية ولأجل استثارة همم الراقصين والراقصات . ولم يكن هؤلاء العازفون من الرجال فقط بل يكونوا أيضاً من النساء وكانت كل واحدة منهن تشتهر باسم الآلة التى تعزف عليها كالطبالة والصانجة والعبودة والزمارة

(١) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٢) ديوان أبى نواس ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

(٣) الاصفهاني ، الاغانى ، ج ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٣٧ ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٣ .

(٤) الكرج يضم الكاف وفتح الراء المشددة معرب كرة الفارسية وهو تمثال مهر من الخشب ، أنظر تيمور ، التصوير عند العرب ، اخراج زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ٨٣ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٧ - ١٣٨ ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٣ ، بدرى محمد فهد .

العامية ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، رسالة ماجستير - جامعة بغداد ١٩٦٥ ، ص ١٨٦ .
Dozy, Suppl, dict. art. II, pp. 453-454.

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٧١ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٩ .

والطنبورية (١) . كذلك كانت الآلات الموسيقية كثيرة ومتنوعة نذكر منها: الدف والناي والطبل والعود والصنوبر والمعزفة والمزمار ، والبربط والجنك والقضيب (٢) ، وان اقتصرت أغلب المجالس على أربعة منها فقط هي الجنك والعود والقانون والمزمار (٣) .

وكان من مستلزمات هذه المجالس أيضا ، المضحكون والماجنون (٤) الذي وصلنا بعض أسمائهم كأشعب من دولة بنى أمية ، وأبو دلالة (٥) ، مضحك السفاح الذي بلغ من مجونه أنه خصص قصيدة لبغلته ، وأبو الحسن الخليع الدمشقي ، وابن أبي مريم المدني (٦) مضحك الرشيد ، وأبو العبر مضحك المتوكل ، وإبراهيم المعروف بالهفتي مضحك المعتصم قبل ان يتقلد أمور الخلافة (٧) ، وغيرهم كثيرون (٨) . وكانوا اذا عقدت مجالس الشراب ودارت الأقداح وطرب الخليفة ارتدوا ملابس مضحكة يقلدون بها بعض الحيوانات كالديبة أو القروء ، كما كانوا يعلقون في أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى . ويفهم من المصادر أن بعض الخلفاء كان اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المضحكين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم ، اذ يروى ان المتوكل كان اذا طرب أمر بأبي العبر المجان أن يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا في الهواء صاح الطريق الطريق ، ثم يقع في الماء فيخرجه السباح وكان يجلس في احيان أخرى فوق زلاقة ثم ينحدر عليها بسرعة حتى يقع في.

(١) الازدي ، حكاية أبي القاسم البغدادى ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ ، ص ٥٠ ، الخوارزمي ، مفتاح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ١٣٦ ، الوشاء ، ص ٧٩ .

(٢) عن أسماء الآلات الموسيقية عند العرب انظر ، ابن سيده ، المخصص ، ج ١٣ ، ص ١١ - ١٥ .

(٣) انظر : ديوان ابن المعتز ، ج ٢ ، ص ١١٨ ، متز الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٣ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٨ ، العصر العباسي الأول ، ص ٢٤٢ ، جرجي زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ١٤٥ .

(٥) Ency. de l'Islam, 2ed., I. p: 120, art. Abû Dulâma: ١٥

النويري ، نهاية الأرب ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٧) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن ، ج ٥ ، ص ١٤٥ ، الطبري ، تاريخ الأمم ، ج ١٠ ، ص ٣١٢ .

(٨) وصلتنا أسماء بعض المضحكين زمن سلاطين المماليك كعزيز مضحك السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وولى الدين أبي اليمن مضحك السلطان برسباي ، انظر المقرئى ، السلوك المعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٣ ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ج ٤ ، ص ٩٦١ ، ١٠٧١ .

«البركة وبعدها يقوم الخليفة بطرح الشبكة ويخرجه من الماء كما يخرج السمك (١) . كذلك كان الأمين اذا طرب صاح في ندماؤه وجلاسه : « من يكون منكم حمارى » وبالطبع كان يحظى بأكثر من رد ، فيركب الواحد منهم ويصله (٢) . ويبدو أن هذا التقليد قد استمر حتى العصر العثماني بدليل انه وصلتنا تصويرة من مخطوط المهرجان « سور نامة » محفوظة بمتحف طوبقا بسراى ، تمثل السلطان أحمد الثالث فى مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين الذين يبدون فى أسفل الصورة وهم يقومون ببعض الحركات المضحكة (لوحة رقم ٧ شكل أ) .

ومن وسائل التسلية أيضا اللعب بالخيال أو ما كان يسمى وقتئذ بشخص خيال الظل أو ظل الخيال ، أو طيف الخيال أو مسرح الدمى ، (٣) وهى لعبة معروفة تتخذ شخصها من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود فيظهر خيالها فيه ، ويرجح أن أصلها من لعب الهند القديمة (٤) ، وأنها ظهرت للمرة الأولى فى العصر العباسى اذ جاء فى أحد المصادر أنه كان لأحد طهارة الخليفة المأمون ابن يسمى عبادة ، كان من أطيب الناس ، وأخفهم روحا وأحضرهم نادرة ، فقال له دعبل يوما : والله لأهجونك ، قال : والله لئن فعلت لأخرجن أمك فى الخيال (٥) . كذلك عرفت فى العصر الفاطمى بمصر فقد كان الناس يخرجون فى بعض الأعياد ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتمائيل والسماجات (٦) ، كما أشارت بعض المصادر الى أن صلاح الدين الأيوبنى أخرج

(١) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٠ ، ٩٢ .

(٢) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٦ ، ٢٠٣ .

(٣) عنى المستشرق الألماني جورج جاكوب بدراسة هذه اللعبة ، فوقف على طبع أجزاء من كتاب طيف الخيال لابن دنيال الموصلى وكتب فى خيال الظل كتابا ومباحث جاء بيانها فى البحث الذى كتبه ليتمان فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية انظر :

E. Littmann, Z.D.M. 6, Band 91-Heft 2, (1937), pp. 486-500.

انظر أيضا : أحمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٧ ، رشدى صالح ، مسرح خيال انظر فى العالم الاسلامى ، المجلة ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٢٥ . عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٥ ، محمد زكريا عنانى ، حول خيال الظل فى مصر ، مجلة الكاتب ، يناير ، فبراير ١٩٧٧ .

(٤) يرى أحمد تيمور أنها نشأت فى الشرق الأقصى ومنه انتقلت الى الهند فايران فالأقطار العربية لتركيا ثم البلاد الغربية ، انظر : أحمد تيمور ، التصوير عند العرب ، ص ٨٥ ، عبد المتعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤٤ .

P. Khale, The Arabic Shadow Play in Egypt, JRAS. (1940), pp. 31-34.

(٥) الشابشتى ، كتاب الديارات ، ص ١٨١ ، متر ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص

٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٦) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

من قصورهم من يعانى خيال الظل ليريه للقاضى الفاضل فرأى فيه « موعظة عظيمة ، ودولا تمضى ، ودولا تأتي » (١) . وكان لسلطين المماليك ولع شديد بهذه اللعبة أيضا فقد روت المصادر المعاصرة أن السلطان الأشرف شعبان حمله معه لما حج فى سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م مع ما حمله من الملاهى (٢) لا سيما وأن خيال الظل كان تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع ، ومع ذلك فقد أمر السلطان الظاهر جقمق فى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م بإبطال اللعب به واحراق شخصوصه ، وكتب على اللاعبين العهود بأن لا يعودوا اليه ، لما كان يقع فى مجتمعاته من المفاسد (٣) . بيد أن هذا المنع لم يستمر طويلا ، اذ يحدثنا المؤرخ ابن اياس بأن السلطان قانصوه الغورى كان يخرج الى بر الجزيرة ومعه خيال الظل وجوق المغانى للتسلية (٤) . كما يروى أيضا فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م بأن السلطان سليم العثمانى أحضر فى بعض الليالى بمقياس النيل بجزيرة الروضة خيال الظل حيث صنع المخايل صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه وقطع به الحبال مرتين ، « فانشرح السلطان سليم لذلك ، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مذهبيا ، وقال له : اذا سافرنا الى اسطنبول أمضى معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك » (٥) .

كذلك وصلتنا بعض الرسوم التى كانت مستعملة فى تمثيلات خيال الظل هذه من بينها واحدة من الجلد محفوظة بالقسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين وتنسب الى العصر المملوكى ، عبارة عن سفينة عليها لوتية ومحاربون (لوحة رقم ١ شكل ب) . وهناك أيضا رسم آخر محفوظ فى نفس المتحف عبارة عن فارس ممن يصيدون بالصقر مصنوع من الجلد المخرم حتى يمكن تحريكه منها حسب الحوار (٦) .

(١) الغزولى ، مطالع البدور فى منازل السرور ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) الجزيرة ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ص ٦٨٢ .

(٣) السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٣٥٣ ، ابن تفرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق وليم بوبر ، كاليفورنيا ١٩٣١ ، ج ١ ، ص ١١٧ ، ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٨٦ ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، أحمد تيمور ، التصوير عند العرب ، ص ٨٥ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٦ .

(٦) P. Khale, Islamische Schattenspielfiguren aus Agypten, der Islam, I, p. 204; II, p. 143.

من وسائل التسلية أيضا اللعب بالطيور ، والمقصود بالطيور هنا الحمام الذى يألف السكنى فى البيوت اذ أصبح الاعتناء به وتربيته من الهوايات المحببة لدى كثير من الناس ، تملأ عليهم فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة . وهذه الطيور على أشكال وأنواع متعددة (١) ، وكانت لها أسواق خاصة مثل سوق الوزارين والدجاجين بالقاهرة (٢) وسوق الطيور بدمشق (٣) وآخر بالجانب الشرقى لبغداد (٤) ، يتردد عليها أهل الهواية لشراء الطيور أو بيعها (٥) ويبدو انهم كانوا من الكثرة بحيث وصفوا ذات يوم بأنهم « قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا » (٦) .

والحق أن اللعب بالطيور لم يكن قاصرا على طبقة دون غيرها فقد شارك فيه الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية (٧) حيث كان محبو هذه الهواية يبذلون فى سبيلها الأموال الطائلة فقد أشارت بعض المصادر الى أن الحمامة قد تباع بسبعمائة دينار ، والبيضة بخمسة دنانير والفرخ بعشرين دينارا ، وان ذلك كان مألوفاً بالنسبة لسوق الطيور ببغداد والبصرة (٨) . وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب (٩) . وكان أكثر الناس شغفا بهذه الطيور فئة الحصيان (١٠) علاوة على بقية الناس . كذلك شغف الخلفاء بلعب الحمام شأنهم فى ذلك شأن العامة فالخليفة الناصر

(١) السمرى ، حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

A. Raymond et G. Wiet, Les marchés du Caire, Le Caire, 1979, p. 157; Germain Martin, Les Bazaars du Caire et les petits métiers arabes, Le Caire, 1910, p. 39.

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(٤) مجهول ، مناقب بغداد ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، بغداد ١٣٤٢ هـ ، ص ٢٦ .

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج ١ .

ص ١١٨ ، البيهقى ، المحاسن والمساوى ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٥٧٠ .

(٦) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد ، ص ٢٠٠ .

(٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

(٨) الفزولى ، مطالع البدر ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٩) يفهم من المصادر التى تحت أيدينا أن العرب فى الجاهلية وفى الاسلام حفظوا أنساب الحمام

تماما كما فعلوا مع أنساب الخيول وهم بذلك يكونون قد سبقوا كلا من العباسيين والفاطميين فى هذا المضمار أنظر ، الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ ، ابن شاهين ، زينة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٩٦ .

(١٠) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ ص ١١٨ ، البيهقى ، المحاسن ، ص ٥٧٠ .

لدين الله شغف بلعب الحمام شغفا عظيما (١) حتى حكى عنه أنه لما دخلت التتار وتملكت البلاد من ما وراء النهر الى العراق ، وقتلوا الناس وهدموا الدور دخل عليه الوزير ، فقال له يامولانا ان التتار قد ملكت ٠٠٠ وقتلت المسلمين ، فقال الناصر لدين الله : دعنى أنا فى شىء أهم من ذلك ، طيرتى البلقاء لى ثلاثة أيام ما رأيته (٢) . كما شغف بالحمام وباللعب به كل من الخليفة المعتصم بالله آخر خلفاء بنى العباس ببغداد ، والخليفة الواثق بالله ، والخليفة المتوكل على الله (٣) ، وتتحدث المصادر أيضا عن الخليفة العزيز بالله الفاطمى الذى سابق بين طائر لوزير يعقوب ابن كلس فسبق طائر الوزير طائره ، فشق ذلك على العزيز ، ووجد أعداء الوزير سبيلا الى الطعن فيه فكتبوا الى العزيز أن الوزير قد اختار من كل صنف أعلاه ولم يترك للخليفة الا أدناه حتى الحمام ، فكتب ابن كلس الى العزيز قائلا :

قل لأمير المؤمنين الذى له العلى والمثل الثاقب
طائرک السابق لكنه لم يأت الا وله حاجب

فأعجب الخليفة ذلك وأعرض عما وشى به (٤) .

كذلك شغف بعض سلاطين المماليك باللعب بالحمام وتغالوا فى ذلك فقد روى عن السلطان الكامل شعبان انه كان يعشق اللعب بالحمام وأنه « قرب من يكون من أرباب هذا الشأن بل أمر بأن ينادى فى القاهرة بألا يعارض أحد لعب الحمام أو غيرهم من أرباب الملاعب » (٥) . أما المظفر حاجى فقد أنشأ له حضيرا بأعلى الدهيشة ، ركبه على صوار وأخشاب عالية وملاه بشتى أنواع الحمام ،

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٤٥١ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، نبيل محمد عبد العزيز ، الحمام الزاجل وأهميته فى عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى والعشرون ، ١٩٧٥ ، ص ٤٦ .

(٣) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٩ ، ابن أيبك ، الدار المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٤٩ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

(٤) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٦ ، الغزولى ، مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، منز ، المضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٢٤ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٨٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ .

حتى بلغ مصروف الحضير خاصة سبعين ألف درهم (١) ، وصار له اجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف . . ومطيرى الحمام فكان يقف معهم ويراهن على الطير الفلاني والطيرة الفلانية . وبينما هو ذات يوم معهم عند حضير الحمام وقد سببها اذ أذن العصر بالقلعة والقرافة ، فجعلت الحمام على مقاصيرها وتطايرت ، فما كان منه الا أن بعث الى المؤذنين يأمرهم « أنهم اذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم » (٢) .

لذلك كان من الطبيعي أن يستنكر بعض الفقهاء اللعب بالحمام وأن تلجأ بعض الحكومات الى محاربته (٣) كما حدث في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بتدريج الحمام الطيار وترك المقصص منه (٤) ، ربما لان بعض الطيورين كانوا يتخذون من هذه التسلية وسيلة للتفرج على نساء الجيران (٥) ، وربما أيضا بسبب ما كان يرافق تدريب الطيور على الطيران من صياح وهرج أو رمي بالأحجار على الطيور التي تقع على أسطح المنازل المجاورة مما يؤدي الى إيذاء الجيران (٦) . كما أن المراهنة على اطلاق الطيور من مسافات بعيدة كثيرا ما أثارت جدلا بين الفقهاء (٧) حيث اعتبرها البعض نوعا من القمار يجب استنكاره وتحريمه (٨) .

والى جانب الولع بالطيور كان البعض مولعا بتربية أنواع أخرى من الحيوانات من أجل مهارشتها والتفرج عليها كالديوك والسمان والقبج (٩) والكباش

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٢٦ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٥٦
حيث أشار الى أن مصروف الحضير بلغ سبعة آلاف درهم فقط .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٣٩ - ٧٤٠ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ ، ٣٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٨٥ ،
الدهبى ، العبر ، ج ٣ ، ص ٣١٦ .

(٤) . . . (٤) الدميرى ، حياة الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(٥) الدميرى ، حياة الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ، ٣٣٣ ، حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام ،
ج ٤ ، ص ٦٥٥ .

(٦) البيهقى ، المحاسن ، ص ٥٧٠ .

(٧) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ .

(٨) الغزالى ، ميزان العمل ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٩٩ .

(٩) طائر يسكن الجبال ، ومن عادته اذا اجتمع ذكران على أنثى تهاشما فاذا انهزم أحدهما
تبع الآخر الأنثى ، انظر القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ص ٢٥٥ .

والكلاب (١) ، وكانوا اذا أرادوا مهارشتها جاءوا باثنين من كل نوع وجعلوا الواحد مقابل الآخر فتبدأ هذه الحيوانات بالمهارشة ، ويجد الناس عندئذ مجالا للتسلية وقضاء أوقات الفراغ ، وحسبنا أن نشير هنا الى صحن من الخزف دى البريق المعدنى محفوظ فى مجموعة شريف صبرى بالقاهرة يمثل مهارشة الديكة (٢) ، وينسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . ويعد هذا الرسم من حيث القيمة الفنية تحفة رائعة وذلك لما فيه من تعبير صادق عن الأحاسيس ، وتمثيل متقن للحركة ، وملاحظة قوية للطبيعة والواقع . حيث يتضمن رسما لشيخ مندفع غير هياب يبدو على وجهه تعبير تجد صريح ، وقد قدم ديكه بيديه بجرأة بالغة ، فى حين جلس قبالة شاب حريص جذر ، ضم اليه ديكه منتظرا لحظة البداية (لوحة رقم ٣ شكل ب) .

ويروى أيضا ان سبكتكين قائد جيوش معز الدولة ، كان لديه كبش قوى نطاح أشار اليه الحجاج فى شعره متمنيا لو ترك لينطح زوجا كرية الصورة بلغنية كان يعشقها (٣) كما أشار ابن فضل الله العمري الى أن الخليفة الواثق بالله كان شغوبا بشراء الكباش والديوك للمنافرة (٤) . كما يحدثنا المقرئى أنه عشر فى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، لدى ابراهيم بن صابر مقدم دولة المماليك البحرية على مائتى كبش للنطاح (٥) .

وغالبا ما كان يؤدى التحمس أثناء هذه المهارشات الى المعارك بين أصحاب هذه الطيور والحيوانات ، وربما كان يفضى أيضا الى العداوات (٦) ، ومن ثم فلا عجب ان عملت بعض الحكومات الى تحريم مثل هذه الوسائل للتسلية كما حدث فى سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م عندما رسم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب

(١) ابن طيفور ، بغداد ، تحقيق عزت الطار بغداد ١٩٤٩ ، ص ٣٨ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ ، ٢٧٩ ، الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٦ ، ص ٢٣٨٤ - ٢٣٨٥ ، الدميرى ، حياة الحيوان ، ج ١ ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، ٧٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٤١ ، ج ١٠ ، ص ١٦٨ .
(٢) عبد الرؤوف على يوسف ، الرسوم الأدمية على الخزف المصرى فى العصر الاسلامى ، المجلة ، سبتمبر ١٩٥٨ ، ص ٨١ ، شكل ١٢ ، حسن الباشا ، فن التصوير فى مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٧٠ .

(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٩ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٦٥ .

(٦) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٣٧٩ ، ابن الاخرة ، معالم القرية فى احكام

المسبة ، لندن ١٩٣٨ ، ص ٢٤٢ .

السلطنة المملوكية بإبطال جميع أرباب الملعب من المناطقين بالكباش والمناقرين بالديوك وغيرهم رغم ما كان يتحصل منها للدولة من مال كثير (١) - بيد أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا ، وسرعان ما تعود أصناف الملاعب الى سابق عهدها وربما أشد مما كانت عليه (٢) .

وتلهى الناس أيضا بألعاب الدبابة أى الذين يلعبون بالدببة ، والقراة الذين يلعبون بالقروء (٣) والحواة والبهلوانات وكانت لهم مناطق معينة يجتمعون فيها لعرض ألعابهم ، حيث « ينحشر هتالك من الخلائق للفرجة ... ما لا ينحصر كثرة » (٤) .

والحديث عن الحواة يذكرنا بجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر المعروف بابن خنزابة ، الذى كان يهوى النظر الى الأفاعي والحيات والعقارب وما كان يجرى منجراها من الحشرات ويقال انه كان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات ، ولها قيم ، فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يعيد له ما يقدر عليه ، وكان الوزير يثيبهم ويبدل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها ، وذات يوم انساب الى دار ابن المدير الكاتب ، وكان يسكن الى جوار الوزير ، الحية البتراء وذات القرنين الكبرى ، والعقربان الكبيران وأبو صوفة ، فكتب اليه يأمر حاشيته وصبيته بصون ما يوجد منها ، الى أن ينفذ الحواة لأخذها ، فلما وقف ابن المدير على ما فى الخطاب قلبه وكتب فى ذيله : « أتانى أمر مولانا الوزير ، أدام الله نعمته ، وحرس مدته بما أشار به من أمر الحشرات والذى يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمنى ثلاثا ، ان بت أنا أو أحد من أولادى فى الدار والسلام » (٥) . ويشير المقرئى الى خادئة أخرى مشابهة وقعت فى أيام الوزير يانس الأرمنى ملخصها أن أحد الحواة من أهل طرا يقال له أبو كريت أمسى عليه الليل فاضطر الى المبيت بجامع القرافة بمصر وكان معه سنلة بها حصيلة أسبوع من غرائب الأفاعي وأخطر الحيات التى لم يقدر على جمعها قط حاو غيره ، بيد أن هذه

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ٦٤٢ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٧٩ .

(٣) سيرة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٢٦ ، ج ٩ ، ص ٤١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٥ .

(٤) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٥) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، ياقوت ، الإرشاد ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، متر ،

المضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ .

الأفاعى استطاعت الخروج من السلة والتسرب منها مما أزعج من قضى الليل بهذا الجامع وجعلهم يهرعون إلى تسلق المنبر وكذا تيجان الأعمدة وظلوا في أماكنهم يرتعدون من شدة الخوف إلى مطلع الفجر ، حيث استطاع الحواوى المذكور أن يستعيد أغلبها ويعيدها من جديد إلى سلته (١) . مجمل القول ان حواة هذا العصر كانوا يمارسون اللعب بالحيات والأفاعى مما لا يزال باقيا في عصرنا الحديث .

• أما عن البهلوانات وألعابهم التى كان يتسلون بها فى العصور الوسطى الاسلامية ، فلا ندرى عنها شيئا خاصة بالنسبة للعصور المبكرة ، وكل ما لدينا عن هذه الفئة يرجع الى فترة متأخرة من العصور المملوكية اذ تحدثنا المصادر المعاصرة بأنه فى سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م. قام رجل من مسالملة الفرنج بنصب جبل من أعلى مدرسة السلطان تحت القلعة ، ومدته حتى ربطه بأعلى المدرسة الأشرفية من قلعة الجبل ، ومسافة ذلك تقدر برمية سنهم أو يزيد ، فى ارتفاع ينيف على مائة ذراع فى السماء ، ثم برز من رأس المئذنة ومشى على هذا الجبل ، حتى وصل إلى المدرسة الأشرفية ، وهو يبدى فى مشيه أنواعا من اللعب ، وقد جلس السلطان الأشرف برسباى لرؤيته وحشر الناس من أقطار المدينة ، « وقد عد فعله هذا من النوادر التى لو لم تشاهدها لما صدقت » .

• ويبدو أن ما قام به هذا البهلوان من سير فوق الجبل قد آثرا هم شباب أهل البلد حيث عمد أحدهم إلى نصب جبل فى دابره وقيام بالسير عليه ، ولما علم من نفسه القدرة على ذلك صعد إلى رأس نخلة ، ومد منها جبلا إلى نخلة أخرى ، وأعاد التجربة وبعدها أظهر نفسه ، ونصب جبلا على رأس مأذنة المدرسة الظاهرية برقوق ومد إلى رأس مأذنة المدرسة المنصورية بين القصرين ، وأرخى من وسط هذا الجبل المتدلي جبلا آخرى وواعد الناس حتى ينظروا ما يفعله ، فجاءوا من كل جهة وخرج اليهم من رأس مأذنة المدرسة الظاهرية ومشى قائما على قدميه ، وقامته منتصبه حتى وصل رأس مأذنة المدرسة المنصورية ، ومسافة ذلك نحو مائة ذراع ارتفاع أكثر من ذلك ، ثم نام على الجبل وتمدد ، ثم قام ومشى حتى وقف على الجبل الذى أرخاه فى وسط الجبل الذى هو قائم عليه . ونزل عليه حتى آخره ، ثم صعد عليه ، وهو يبدى فنونا تذهل العين رؤيتها ، « ولولا ضرورة الحس لما صدقت » . ويبدو أنه لم يكتف بذلك بل قام بنصب جبل من مأذنة السلطان حسن إلى الأشرفية بالقلعة كما فعل الرجل الأول ، حيث جلس السلطان الأشرف برسباى لمشاهدته ، كما أقبل الناس من كل

(١) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

ضوب وحذب ، وقد هبت رياح كادت تقلع الأشجار وتلقى الدوز ، فخرج عليهم هذا البهلوان الشاب ومشى على قدميه حتى وصل إلى جبل كان قد أرحاه في الوسط ، وأدلى برأسه ، ونزل عليه منكوسا ، رأسه أسفل ورجلاه أعلاه ، إلى أن وصل إلى آخره . ثم صعد حتى وقف على الجبل الممتد ومشى قائما عليه حتى وصل إلى قبة المدرسة الأشرفية ، فنزل من الجبل وصعد القبة وهو يجرى في صعوده جريا قويا فوق هيئة كرسى من رصاص أملس ، حتى وقف بأعلاها والرياح عمالة في طول ذلك بحيث لا يثبت لها طير السماء ، ولا يقدر على المرور لشدة هبوبها ، والشاب رغم ذلك يروح ويجيء شاقا لها ومارا فيها ، كأنما خلق من ريح ، فكان على حد تعبير أحد المؤرخين « شيئا عجبا ، لا سيما ولم يتقدم له ادمان في ذلك ، ولا دربه فيه معلم ، وإنما تأقت إليه نفسه فامتحنها ، فإذا هي متأتية له فيما أراد ، فبرز وأبدى ما يعجز عنه سواه (١) » .

نخرج من هذا بأن اللعب على الجبل والسير عليه ليس من ابتداع السيرك في العصر الحديث ، وإنما هو قديم بدليل ظهوره زمن سلاطين المماليك .

ووصلتنا من هذا العصر أيضا تصويرة من مقامات الحريري المحفوظة بالكتبة الأهلية في فينا ، تنسب إلى مصر حوالي سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م (٢) ، تمثل صورة أمير في مجلس شراب وطرب وتبيلية حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يقوم ببعض الحركات البهلوانية مما يعطينا صورة واضحة عن بعض ألعاب هذا العصر (لوحة رقم ٤ شكل أ) .

ويدخل في هذا النوع من الألعاب الرياضية التي كانت تتسم بطابع التلهي والتسلية المعالجة والمقصود بها رفع الأثقال اذ يحدثنا المقرئ في خطه بأن الأمير علاء الدين على حفيد بيبرس الحاحب ، كان مشهورا بالعلاج ، وأنه يعالج بمائة وعشرة أرتال (٣) . والمثاقفة من الثقاف ، وهو الخصام ، والجلاد والطعان بالرمح (٤) . والملاكمة (لوحة رقم ٤ شكل ب) والمشابكة والمصارعة التي عرفها العرب قبل وبعد الاسلام فقد روى ان الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى الاسلام ركائنه بن عبد يزيد بن هاشم ، وكان ركائنه معروفا بقوته الفائقة ، وبأنه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولكن ركائنه طلب معجزة واضحة من الرسول ليقبل دعوته « فقال محمد : رأيت ان صرعتك ؟ » قال ركائنه : أومن . وتصارعا

(١) المقرئ ، سلوك ، ج ٤ ، ص ٧١٣ - ٧١٤ .

(٢) ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وطه التكريتي ، بغداد ١٩٧٤ .

ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) المقرئ ، خطط ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٤) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٣٩ ، حاشية (٢) .

فصرعه الرسول ، فتعجب ركانة وطلب الاقالة والعودة ، فصرعه الرسول مرة ثانية وثالثة ، فأسلم وحسن اسلامه (١) . واستمرت هذه اللعبة على مر العصور الاسلامية كوسيلة من وسائل التسلية وقضاء أوقات الفراغ ، اذ وصلنا من العصر الفاطمي صحن من الخزف ذي البريق المعدني ينسب الى قرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، قوام زخرفته رسوم تمثل صراعا بين اثنين ملتحيين ، ويرتدي كل منهما سروالا طويلا فقط يحيط بهما جمهور المتفرجين حيث يغلب على بعضهم الحماس الذي يتجلى من خلال ايماءات الأذرع (لوحة رقم ٥ شكل أ) . مما يشير الى أن هذه اللعبة أصبحت من الأهمية بمكان بدليل انها استحدثت أن تكون موضوعا تصويريا على اناء يستعمل بكثرة في المنازل وغيرها (٢) .

كذلك يحكى أن معز الدولة لما جاء الى بغداد اشتهى رؤية الصراع ، فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان ، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديباج والمروزي ونحوهما ، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم ، ويقف على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور ، وعلى الباب أصحاب الدباب ، ثم يؤذن للعامة في الدخول الى الميدان ، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم ، ثم دخل في ذلك أحداث بغداد حتى صار بكل موضع صراع ، فاذا برع أحدهم صار بحضرة معز الدولة ، فإن يغلب أجريت عليه الجرايات ، « فكم من عين ذهبت بلطمة ، وكم من رجل اندقت » (٣) . وتروى المصادر المملوكية أيضا أن السلطان المظفر حاجي كان يمازس المصارعة بنفسه مع العوام ، حيث كان يلبس تبان جلد ، أى سراويل قصيرة ، ويتعري من جميع ثيابه ويصارعهم (٤) ، لذلك كان من الطبيعي أن تشتمل مخطوطات الفروسية التي وصلتنا من هذا العصر على بعض التصاوير التي توضح طريقة ممارسة هذه اللعبة ، من بينها تصويرة من مخطوط محفوظ في متحف طوبقا ببراى باسطنبول (٥). تمثل أربعة أوضاع مختلفة للتدريب على هذه اللعبة (لوحة رقم ٥ شكل ب) .

(١) عبد الحى الكنانى ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٢) ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ص ٥٦ .

(٣) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص

١٦٩ .

(٥) M. Mostafa Miniature Paintings in some Mamluk Manuscripts

BIE, LII, (1971), p. 6.

وكثر فى هذا العصر أيضا جرى السعاة ، أى مسابقات الجرى بين المشهورين بسرعة العدو (١) . وعن الجرى حدثتنا كتب السيرة النبوية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسابق زوجته السيدة عائشة ، اذ جاء على لسانها ما نصه : « سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم عاد وسابقنى بعد أن أرهقنى اللحم ، فسبقنى ، فقال : هذه بتلك » (٢) .

ومن الألعاب التى تلهى بها العرب فى أوقات فراغهم لعبة اللبخة (٣) التى عرفت بعدة أسماء متعددة منها التبخطيب والمطر والجريد وغيرها (٤) ، والتى فسرنا لنا الشعراى فى طبقاته الكبرى فذكر فى ترجمة عثمان الخطاب انه « كان شجاعا يلعب اللبخة » ، فيخرج له عشرة من الشطار يهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع فلا تصبه واحدة ، ويبدو أن هذه اللعبة كانت من الأهنية بمكان بدليل أنها سجلت على آنية من الخزف ذى البريق المعدنى ، تنسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، نشاهد عليها رسما لرجلين يتبارزان بالعصى ، أحدهما قد رسم رسما جانبيا، بينما يبدو الآخر فى وضعه ثلاثية الأرباع (لوحة رقم ٦ شكل أ) . ويذكرنا هذا المشهد ببعض التضاوير التى وصلتنا من عصر المماليك الجراكسة ضمن مخطوط فى ألعاب الفروسية من بينها رسم محفوظ بمتحف الفن الاسلامى أيضا ينسب الى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى يمثل مبارزة بين رجلين (٥) ، وقد وقف خلفهما رجل ثالث يمسك بعصا أو بعمود فى إحدى يديه ، هذا ويبدو أحد المتبارزين وقد أمسك بعصا

-
- (١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٧٣٩ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٦٨ .
 (٢) أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، الحياة الاجتماعية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ج ٥ ، ٢١٥ .
 (٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٠٣ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ .

(٤) أحمد تيمور ، لعب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٧ ، محمد مصطفى ، مخطوط مصور فى تعليم فنون القتال والفروسية من أواخر عصر المماليك الجراكسة ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٥١ ، ١٩٦٩ / ١٩٧٠ ، ص ١٣ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ ، حسن الباشا ، التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٧٦ .

(٥) زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، بغداد ١٩٥٦ ، شكل ٨٩٧ ، ٥١٨ ، محمد مصطفى ، الوحدة فى الفن الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٦ ، شكل ٣٦ ، حسن الباشا ، التصوير الاسلامى ، شكل ٢٢ ، ص ١٧٧ ، M. Mostafa, Miniature Paintings in some Mamlūk Manuscripts, BIE, LIT, (1970 / 1971), pl. 35.

زميله (لوحة رقم ٦ شكل ب) . كما وصلنا رسم آخر مشابه ضمن مجموعة آدموند دي أونجر بلندن ، يمثل لعبة التحطيب هذه أو كما يسميها المخطوط بلعبة المطزوق (١) . ويفهم أيضا من تصاوير بعض مخطوطات الفروسية التي تنسب الى هذا العصر . ان هذه اللعبة لم تكن تمارس على الأرض فقط ، بل كانت تمارس كذلك من على ظهور الخيل (٢) .

ووصلتنا أيضا اشارات عن ألعاب أخرى أقبل المسلمون عليها كوسيلة من وسائل التسلية في أوقات فراغهم ، نذكر منها على سبيل المثال لعبة القراح التي شبهها البعض بلعبة الكريكت الحالية (٣) ، ولعبة الطبطاب التي قيل أن هارون الرشيد كان يمارسها (٤) والتي رجح فيليب أنها كانت تمثل لعبة التنس الحالية ولكن في شكلها البدائي (٥) ، على حين زعم البعض الآخر انه ربما كان المقصود بها لعبة الكرة أو الصولجان (٦) التي سنشير اليها في الصفحات التالية . والحق ان قلة المعلومات التي وصلتنا عن هاتين اللعبتين كانت السبب الرئيسي في عدم إلقاء الضوء الكافي عليها .

بيد أنه في الوقت الذي ضنت علينا فيه المصادر العربية وغيرها بمعلوماتها عن لعبتي القراح والطبطاب ، الا أنها قد أفاضت بصدد لعبتي الكرة والقبق . أما الكرة أو الأكرة ، فقد عرفت بأسماء متعددة أغلبها فارسي الصوالة مفرد صولجان (٧) أو الجوكان (٨) نسبة الى العصا الذي تلعب به ، وهي عبارة عن

(١) محمد مصطفى ، مخطوط مصور في تعليم فنون القتال والفروسية ، مجلة المجمع العلمي المصري ، المجلد ٥١ ، ١٩٦٩ / ١٩٧٠ ، لوحة ٩ ، ص ١٣ .

(٢) M. Mostafa, Miniature Paintings, BIE, LII, pls. 32, 33 ;
Mercier, La chasse et les sports chez les arabes, Paris, 1927, pp. 206-210;

حسن الباشا ، التصوير الاسلامي ، شكل ٢١ ، ص ١٧٨ .

(٣) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ .

(٥) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤٣ ، أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص

٥٤ - ٥٥ .

(٧) الصولجان هو العصا الذي تضرب به الكرة وهو معكوف في جزئه العلوي انظر :
M. Quaremère, Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte Paris, 1844-845, I, p. 124; D. S. Rice, Studies in islamic metal work, BSOAS. XIV/111, (1952), p. 372.

(٨) أما الجوكان فهو أيضا المحجن الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه خطأ بالصولجان وهو عبارة عن عصا مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع وبرأسها خشبية مخروطية معقوفة تزويد عن نصف ذراع انظر : الخالدي ، ديوان الانشاء ، مخطوط محفوظ بال مكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٤٤٣٩

كرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين ونحوه ، وتلقى فى أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقاطها بالصولجان أو الجوكان حيث يرسلون الكرة فى الهواء وهم على ظهور الخيل ويرجح أنها ظهرت للمرة الأولى فى بلاط الفرس حوالى القرن الرابع قبل الميلاد (١) ، حيث انتقلت منه الى بلاد العرب (٢) بيد أننا لم نسمع عنها فى بلاط بنى أمية (٣) ، فى الوقت الذى يحدثنا فيه المسعودى بأن هارون الرشيد هو أول من لعبها من خلفاء بنى العباس (٤) كذلك كان الخليفة المعتصم شديده الرغبة فيها ، ومن لطيف ما روى عنه أنه قسم أصحابه يوماً للعب بها فجعل الافشين فى جهة ، وهو فى جهة ، فقال الافشين « يعفينى أمير المؤمنين من هذا » فقال : ولم ، قال : « لأنى ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين فى جدل وهزل » فاستحسن ذلك منه وجعله فى حربه (٥) .

كذلك أقبل أمراء بنى طولون على ممارسة هذه اللعبة وشغفوا بها ، اذ شيد لها أحمد بن طولون ميداناً خاصاً ، خارج فسطاط مصر (٦) على نمط الميدان الذى ألحقه الخليفة المعتصم بقصر الخلافة بمدينة سامراء (٧) ، كما شغف بها خلفاء الدولة الفاطمية ووزراؤهم . فقد ذكر ابن ميسر فى تاريخه بأن الخليفة العزيز كان أول خلفاء هذه الدولة وأكثرهم اقبالاً على لعب الكرة (٨) ،

ورقة ١٢٩ أ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، حاشية (١) ، القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ ، ج ٥ ، ص ٤٥٨ ، السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ ، ص ٣٥

Quatremère, Sultans, I, p. 122 ; Rice, Studies, BSOAS, XIV/111, p. 572; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, ds. Annales Islamologiques, XII, (1947), p. 107.

(١) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٣ ، ص ١٠١ .

(٢) من المعروف ان هذه اللعبة وجدت أيضاً منذ عصر متأخر فى كل من بلاد التبت والهندالا أنه من الصعب علينا تحديد الوطن الاصلى لها أنظر :

Mercier, La chasse, p. 223.

(٣) زعمت بعض الكتابات بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مارس هذه اللعبة أنظر : ابن شاهين ، زبدة كشف المالك ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، حاشية (١) .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٦٣ ، جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ص ١٤٣ . العصر العباسى : ص ٢٤٥ .

(٥) جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ ، حسن عبد الله العباس ، آثار الاول فى ترتيب الدول ص ١٣٠ .

(٦) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٧) P. Schwarz, Die Abbassiden residenz Samarra, p. 21 ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, ds. Annales Islamologiques, XII, p. 109.

(٨) ابن ميسر ، أخبار مصر ، تحقيق مارسيه ، القاهرة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

على حين أشار المقرئى بأن الوزير شاور كان من أجل أمراء هذه الدولة وأجودهم لعبا بالكرة (١) .

وشغف أيضا ملوك بنى أيوب بلعب الكرة مثل نور الدين زنكى الذى اعتبرها نوعا من رياضة النفس والبدن (٢) ، والذى بلغ من شغفه بها أن لعبها بالليل مثل النهار (٣) . وكذا نور الدين ، الذى اعتقد كل من رآه أنه سوف يصطدم يوما بالأرض من شدة عدوه بالخيل أثناء ممارسته لها (٤) . ويفهم أيضا من المصادر المعاصرة أن ابنه صلاح الدين كان يفوق الناس جميعا فى لعب الكرة ، ومن أجل هذا قرب به نور الدين إليه وألحقه بخواصه وكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر (٥) . أما السلطان الصالح نجم الدين فقد فاق جميع أمراء هذه الأسرة شغفا بلعبة الكرة فشيد برسمها ميادانا بأراضى اللوق من بر الخليج الغربى وجعل فيه مناظر جليلة تشرف على النيل ، وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة (٦) . بل ذهب أبعد من ذلك حين نصح ابنه توران شاه ألا يدخل فى بلاطه أحدا لا يجيد على الأقل هذه اللعبة (٧) . ولقد بلغ من اهتمام هذا السلطان بلعبة الكرة أن أمر صناع التحف بنقش بعض صورها على الأوانى التى كانت تصنع خصيصا له وبزسمة ، اذ وضلنا من عصره طينيت من النحاس المكفت بالذهب والفضة يزينه رسوم تمثل لعبة الكرة تتألف من أربعة فرسان بأيدي كل منهم عصا طويلة تشير الى الجوكان يقاذفون بها الكرة فى الهواء (٨) ، من فوق ظهور الخيل التى تبدو فى حالة ركض (لوحة رقم ٧ شكل ب) كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بطست آخر يحمل اسم السلطان نفسه ، من النحاس المكفت بالفضة ويزينه أيضا بعض الرسوم التى تشير الى هذه

-
- (١) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٣ .
(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ١ ، ص ٨ .
(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، القاهرة ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ٤١ .
(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٦) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .
(٧) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ٢٦ ، ورقة ١٨٧ ب .

Kuhnel, Meisterwerke der muhammedanischen kunst, Munich, (٨)
1910 ; II, p. 147 ; Rice, Studies, BSOAS, XIV/111, (1952), pl. 9b ;
Migeon, Exposition des arts musulmans, Paris, 1927, II, pp. 51-52;
Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, ds. Annales Islamologiques, XII, pl.
XI/ A., fig. 2.

اللعبة (١) حيث نشاهد عليه مناظر لفارس يمسك في يده اليسرى عصا طويلة ترمز إلى الجوكان ، داخل جامة مفصصة ، فوق أرضية من الزخارف النباتية (لوحة رقم ٨ شكل أ) .

كذلك شغف سلاطين المماليك بهذه اللعبة وأنشأوا لها الميادين كالميادين الظاهري الذي شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بعد ما انحسر ماء النيل وبعد عن الميدان الصالحى وجعله يرسم لعبة الكرة (٢) ، حيث ظل كذلك حتى سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م فهدمه السلطان الناصر محمد بن قلاوون وشيد مكانه الميدان الناصري فيما بين مدينة مصر والقاهرة . وخصصه أيضا لهذه اللعبة ، وكان يركب إليه دائما يوم السبت فى قوة الجر بعد وفاء النيل مدة شهرين من السنة (٣) . ويفهم أيضا من المصادر المعاصرة ان هذا السلطان أنشأ عدة ميادين أخرى يرسم لعبة الكرة نذكر منها ميدان القلعة الذى ابتدأ فى عمارته سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م فوق بقايا الميدان البطولونى وجعله فسيح المدي يسافر النظر فى أرجائه ، ولما اكتمل نزل اليه ولعب فيه الكرة مع إمرائه ، واستمر يلعب فيه يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع (٤) ، وميدان المهازى الذى شيده سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م - بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى ولعب فيه الكرة مع الحاضكية (٥) ، وكذلك ميدان سرياقوس الذى شيده بالقرب من خانقائه سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م ، والذى كان يتوجه اليه فى كل نيئة ويقيم به الأيام ، ويلعب فيه بالكرة وقد ظل هذا التقليد مستمرا بعد وفاته الى أن أبطله السلطان الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م (٦) .

كذلك أعد سلاطين المماليك لهذه اللعبة ما يلزمها من خيول وأدوات (٧) ، بل وخصصوا لها موظفين من المماليك يشرفون عليها يسمى الواحد منهم

(١) Wafiyyah 'Izzi, An ayyubid basin of al-Salīh Najm al-Din, in Studies in Islamic art and architecture in the honour of professor K.A.C. Creswell, Le Caire, 1965, pp. 253-259, fig. 1, 2, 8 9 ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux, jeux, pl. XI/B, fig. 5.

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٥٢٥ - ٥٢٦ .

(٦) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٤٠ .

جوكندار ، أى الذى يحمل الجوكان (١) وجعلوا زنته عضوين (٢) (لوحة رقم ٨ شكل ب) ، كما اعتادوا عند الخروج للعب الكرة ان يفرقوا حوائص من ذهب

على بعض الأمراء المقدمين (٣) .

وشهد الرحالة تافور الذى زار مصر زمن المماليك الجراكسة أحد سلاطين المماليك وأمراء يلعبون الكرة فذكر ان الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء وعلى جانبي الميدان عدد كبير من فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة وفى وسط الميدان كرة ، ويكون اللعب بأن يحاول كل جانب اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى يتجح فى ذلك تكون له الغلبة (٤) . وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون (٥) ، ومن شروط اجادة اللعب ان يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه متشازرا مترفقا مترسلا ، وان يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبتها فى رفق ، وان يستعين بسوط يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره ، أو يعقروا قوائم دابته ، وعليه ان يخترس أيضا من ايداء من جرى معه فى الميدان وأن يحسن الكف للدابة فى شدة جريانه ، متوقيا من الصرعة والصدمة فى تلك الحال ، وأن يجانب الغضب ويتحفظ من القاء كرة على ظهر بيت ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لان عرض الميدان إنما جعل ستين ذراعا لثلا يجال ولا يصل من جلس على حائطه (٦) . وجرت العادة أن يقوم المهزوم فى اللعب بعمل مهم حافل أو وليمة كبيرة وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة الى مائتى ألف درهم نظرا لما كان يذبح فيها من مئات المواشى والخيول والطيور ، عدا الجلوى والمشروبات (٧) . وفى بعض الأحيان كان

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على

الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٧ ،

Gaudefroy — Demombynes, La Syrie à l'époque des mamlouks, d'après les auteurs arabes, Paris, 1923, p. LXV.

Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933, p. 5.

(٢)

أحمد عبد الرازق ، الرثوك على عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادى والعشرين (١٩٧٤) ، ص ٦٨ ، ٧١ - ٧٥ .

(٣) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٢ -

٥٥ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٧١ .

P. Tafur, Travels and adventures, London, 1926, p. 80.

(٤)

(٥) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٣٢٧ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٦) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ، كتاب علم الضرب بالصولجان ، مخطوط

بإسطنبول ، ورقة ١١٢ .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٢٤ ، ٧٨٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج ١٠ ص

السلطان يتحمل نفقات هذا المهر - رغم انه الغالب - وذلك تخفيفا عن
المغلوب (١) .

وقد حفظت لنا روائع المتحف المملوكية أيضا بعض مناظر هذه اللعبة زمن
سلاطين المماليك ، اذ عني بعض فناني هذا العصر بتسجيلها فوق منتجاتهم
الفنية ، مثال ذلك طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة باسم فاطمة ابنة
الأمير سنقر الأعسر ينسب الى أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر
الميلادى ، وم محفوظ بمتحف بناكى فى أثينا (٢) ، يزينة زخارف متنوعة من
بينها ثلاث جامات دائرية الشكل يضم كل منها نقشا لفارس وضعه ثلاثية
الأرباع ، الأول يحمل كرة فى يده اليسرى ، فى الوقت الذى ارتفعت فيه اليد
اليمنى ممسكة بالجوكان خلف رأسه ، أما اللاعب الثانى فقد رفع العصا بيده
اليمنى ، على حين استعد اللاعب الثالث لقذف الكرة بالمحجن الذى يوجد فى
يده اليسرى . ووصلنا أيضا قارورة من الزجاج الموه بالميناء المتعددة الألوان
محفوظة بمتحف الفن الاسلامى ببرلين ، وتنسب الى نفس الفترة تقريبا (٣) .
قوام زخرفتها مجموعة من اللاعبين فوق ظهور الخيل وقد أمسك بعضهم بمحجن
طويل فى يده اليمنى وأخذ وضعه استعدادا لقذف الكرة التى توجد أسفل
المحجن .

ومن الألعاب الرياضية التى اقبل المسلمون عليها وماوسونها فى أوقات
فراغهم ، لعبة القبق ، وهى كلمة تركية تعنى القرعة العسلىة ، والأصل فيها
هو اتقان علم ركوب الخيل ونجس رؤوسها باللجم ، والتدريب عليها فى الكر
والفر ، حتى يتعودها الفارس ، ويصير له ذلك عادة (٤) . وتفضيل هذه اللعبة
هو ان يجعل فى الميدان جبل معترض مرتفع على خشبتين ، ويجعل القبق فى

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٩٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ص
٨٠ - ٨١ ، ابن حجر ، ألباء الغمر بألباء العمر ، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ١٥ ،
ابن اياس ، بدائم الزهور طبعة بلاق ج ١ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) Wiet, Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, (٢)
MIFAO, LII, 11, Le Caire, 1930, p. 199 ; L.A. Mayer, Saracenic, pl.
XX/1 ; Rice, Studies, BSOAS, XIV/111, (1952), pp. 564-573, fig. 3-5,
pl. 6 ; Ahmad, Abd ar-Raziq, Deux jeux, figs. 6-8, pl X111/A.

(٣) Diez, Die kunst der islamischen volker, Berlin, 1915, p. 151, fig. (٣)
254 ; Kühnel, Meisterwerke, 11, pl. 167; Lamm, Mittelaterlich gläser,
Berlin, 1929, 1, p. 368 ; II, pl. 158/2 ; Museum für Islamische kunst,
Berlin, Katalog 1917, p. 134, pl. 10.

(٤) طيغافا الاشرقى ، كتاب بقية المرام وغاية الغرام فى الرمي بالنشاب ، مخطوط بدار
الكتب المصرية تحت رقم ٩٣ فروسية ، ورقة ١٨ ب .

وضع متوسط بين الحشبتين ، ويكون سوق الرماة عند الرمي من تحت الحبل ، وفي بعض الأحيان كان يستعاض عن الحبل برسم دائرة اتساعها عشر باعات ، يكون القبق في مركزها ، ثم يرمى اللاعبون الى السماء لاصابته (١) . وقد ينصب أيضا خشبة عالية في ميدان اللعب ويعمل في أعلاها شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة ويكون فيها طير حمام . ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب القرعة أو إطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها (٢) وقد حذرت كتب الفروسية والرماة على القبق من لكمة الفرس واصطدامها في خشبة القبق ، وأوصتهم بأن يجعلوا ما بينهم وبينها من البعد مسافة معينة قدر باع ، كما أوصتهم بأن يختبروا الخيل قبل الرمي عليها ، وذلك بترويضها على الجري والدخول نحو الخشبة والعسلة مرات ، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه ، قبل البدء في الرمي (٣) .

وقد شاعت هذه اللعبة بصفة خاصة زمن سلاطين المماليك (٤) الذين أقبلوا على ممارستها ليس فقط في الأيام العادية ، بل أيضا في شتى المناسبات اظهارة لشعورهم كما حدثت في سنة ٦٩٢ هـ / ١٣٩٣ م عندما أمر السلطان الاشرف خليل بلعب القبق ، وذلك بسبب ظهور أخيه الناصر محمد بن قلاوون وكذا ظهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن المالك الصالح علاء الدين على ابن قلاوون ، فنصب القبق تحت القلعة مما يلي باب النصر ، وفرفت الأموال والخلع على من أصاب رمية (٥) . وتروى المصادر المعاصرة أن الأمير بدر الدين بيسرى قد رماه ما لم يرمه غيره قبله ، إذ اقترح له سرجا وطىء الرادفة جدا ، ثم صار نحو صاري القبق ، والعادة جارية أن الرامي لا يرميه الا اذا صار بجانب الصاري ، بيد أن الأمير بدر الدين ساق الى أن تعدى الصاري ، فاعتقد الناس أنه قد فات الرمي ، الا أنه استيقظ على ظهر فرسه حتى صار رأسه على كفل

(١) طبغا الاشرفي ، بغية المرام ، ورقة ٢١ ب .

(٢) المقرئزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ١٦ .

(٣) طبغا الاشرفي ، بغية المرام ، ورقة ٢١ ب .

(٤) عن تاريخ هذه اللعبة انظر التفاصيل في :

J. T. Reinaud, De l'art militaire chez les Arabes au Moyen-Age, JA, X11, (1848), pp. 219-221 ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, Annales Islamologiques, XII, (1974), pp. 96-107.

(٥) المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٩ ، ج ١٣ ، ص ٣٣٢ ، زهير شتين ، تاريخ سلاطين المماليك ، لندن ١٩١٩ ، ص ٢٣ .

الفرس ورماء وهو كذلك بعد أن تعداه ، فأصاب القرعة وكسرها ، فصرخ الناس لذلك واستعظموه وظهرت للسلطان فائدة السرج . فأنعم عليه بخمسة وثلاثين ألف درهم وعظم في صدر الناس » وعلموا عجزهم بما أتى به وفعل ما فعل ، (١) .

وبلغ من اهتمام سلاطين المماليك بلعبة القبق أن شيد لها السلطان بيبرس البندقدارى ميدانا خاصا خارج القاهرة من شرقيها ، عرف بميدان القبق ، وبميدان العيد ، وبالميدان الأسود ، وبالميدان الأخضر ، وأيضا بميدان السباق (٢) ، وصار ينزل إليه كل يوم من الظهر الى عشاء الآخرة ، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان . فما بقي أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمي الشباب . وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ليس فيه بنيان الى أن كانت سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون ، فترك النزول إليه ، وبني مصطبة برسم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش وصار ينزل هنالك . ثم ترك تلك المصطبة في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م وعاد الى ميدان القبق هذا وصار يركب إليه للرمي على القبق على عادة من تقدمه من الملوك الى أن بنيت فيه التربة شيئا بعد شيء حتى انبسطت طريقه ، واتصلت من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج البرقية ، وبطل السباق منه ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون (٣) .

بقي أن نشير الى أن مخطوطات الفروسية التي تنسب الى هذا العصر قد اشتملت على بعض التصاوير التي توضح طريقة الرمي على القبق وكيفية الدخول فيه (٤) من بينها تصويرة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس (٥) تنسب الى

(١) تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ ، ج ٣ ، ص ١٥٨ ، النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ٢٩ ، ورقة ٣٠٤ ب ، المقریزی ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨٦ ، الذي يشير الى حصوله على خمسة وثلاثين ألف دينار ، خطط ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٢) المقریزی ، خطط ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٩٢ .

(٣) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ ، خطط ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٤) M. Mostafa, Miniature Paintings in some Mamluk manuscripts, BIE, LII, (1972), pls. 24-25; An illustrated manuscript on chivalry from the late circassian (Mamluk period, BIE, LI, (1970), pl. XIV ; Ahmad Abd ar-Raziq, Deux jeux, pl. VIII-IX.

نبيل محمد عبد العزيز ، الحيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٨٢ ، شكل ٤ .

(٥) De Slane, Catalogue des manuscrits arabes, Paris, 1883-1895, p. 508, no. 2824.

عصر السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م ، تمثل فارسين متواجهين يعدوان بجواديهما فى وضعة ثلاثية الأرباع ، حيث يحاول كل منهما اصابة هدف على هيئة قرعة ، مرفوع فوق صارى طويل عن طريق اطلاق سهم من قوس فى يده (لوحة رقم ٩ شكل ب) .

وكانت السباحة أيضا من أهم أنواع التسلية عند المسلمين ، فقد أشارت المصادر العربية الى اقبال شباب بغداد على عهد الخليفة المستكفى بالله على تعلم المصارعة والسباحة حتى صار الواحد منهم يسبح وعلى يده كانون وفوقه قدر ، ويستمر فى سباحته حتى ينضج اللحم (١) ونقرأ أيضا عن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقدارى الذى عرف بولعه الشديد بالسباحة لمسافات طويلة . أنه سبح مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ، ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة (٢) .

ومن وسائل التسلية التى أقبل المسلمون عليها ، والتى يمكننا أن نضعها فى مرتبة الألعاب الرياضية ، سباقات الخيل ، التى حظيت بعناية الخلفاء واهتمامهم لما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم من حبه للخيل ، حتى قيل انه كان يمسح فرسه بثوبه ، ويجرى الخيل ويسابق بها ، بل ويраهن عليها أيضا (٣) لما فى ذلك من فوائد « على التمرن على القتال والحدق فيه ورياضة الأعضاء » (٤) . ويروى أيضا أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر بالسباق فى الكوفة (٥) . كذلك عنى بنو أمية بسباق الخيل ، وأقاموا الحلبات للسباق

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٩٧ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٤٦٠ ، منز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٨ ، محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٥٢ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٧٤ .

(٣) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان ، ص ١٤١ - ١٤٢ ، واصف بطرس غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة أنور لوقا ، ص ١٦٩ ، عبد المتعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٩ ، أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ، ج ٥ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ، النويرى ، نهاية الأوب ، ج ٩ ، ص ٣٧١ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٨٩ ، السبكي ، معيد النعم ، ص ٤٦ ، ابن قيم الجوزية ، الفروسية ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ٣ ، نبيل محمد عبد العزيز ، الخيل ورياضتها ، ص ٧٢ .

(٤) السخاوى ، القول التام فى الرمي بالسهم ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢ م فنون خربية ، ورقة ٢٤ ب .

(٥) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان ، ص ١٤٣ .

مثل الوليد بن عبد الملك (١) وأخوه سليمان الذي ذكر عنه أنه أعد العدة لسباق عظيم تشترك فيه خيول الأمة ولكنه مات قبل أن تجرى الحلبة (٢) .
 أما أخوهما هشام فقد اجتمع له فى إحدى الحلبات من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ، « ولم يعرف ذلك فى جاهلية ولا اسلام لأحد من الناس » (٣) .
 وكانت أحب بناته اليه ، ولوعة مثله باقتناء الخيل للسباق (٤) ، ويفهم أيضا من المصادر التاريخية أن الوليد الثانى كان مغرما بالخيل وجمعها وكذا اقامة الحلبة ، حتى اجتمع له فيها ألف قارح ، كما أنه جمع بين الفرس المعروف بالزائد ، والفرس المعروف بالسندى وكانا قد برزا فى الجرى على خيول زمانهما (٥) .

وكان سباق الخيل أيضا من أجمل وأمتع أنواع التسلية عند خلفاء بنى العباس وأمرائهم ووزرائهم ، لدرجة أنهم تنافسوا فيما بينهم على تربية خيل السباق ، اذ يحدثنا الجهمشيارى بأن الخليفة هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكى أن يتخذ خيلا يجريها فى الحلبة ، فأجرى جعفر خيله يوما بالركة ، فسبقت خيل الرشيد (٦) . وأنه كان من عادة هذا الخليفة أن يسير الى مجلسه فى صدر الميدان المخصص للسباق حيث تتوافد عليه الخيل ، وان خيله كانت تتميز عادة عن خيل ابنه المأمون ، حيث اشتهر منها فرس له اسمه الربذ كان يسر به (٧) كثيرا .

كذلك عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه المنظر ، واعتبره القضاعى أحد عجائب الاسلام الأربعة (٨) ذلك أن حلبة السباق عند الطولونيين لا سيما فى أيام خمارويه - كانت بمثابة الأعياد لما يصحبها من اقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد

-
- (١) السعوى ، مروج الذهب ، ج ٦ ، ص ١٣ - ١٧ .
 (٢) ابن الجوزى ، سيرة عمر ، ص ٥٦ ، فيليب متى ، تاريخ العرب ، ج ٢ : ص ٢٩٦ .
 (٣) السعوى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .
 (٤) كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ليدن ١٨٦٨ - ١٨٧١ ، ص ٦٩ .
 (٥) السعوى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢١٧ - ٢١٩ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ١ ، ص ٥٤٩ .
 (٦) الجهمشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الايبارى ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٠٧ .
 (٧) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان ، ص ٦٤ ، عبد النعم ماجد ، العصر العباسى الاول ، ص ٢٤٠ .
 (٨) أشار القضاعى الى أن عجائب الاسلام الأربعة هى : هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرموس ، والجمعة ببغداد أنظر : المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

الكاملة والأسلحة التامة (١) . وجرت العادة في مثل هذه الحلبات أن يجلس الناس لمشاهدة السباق ، حيث تطلق الخيل على غايتها ، فتمر متفاوتة ، يقدم بعضها بعضا حتى نهاية الشوط ، بل بلغ من شغف الناس بسباق الخيل وتقديرهم له ان السابق كان يستولى على الحصان المسبوق في بعض الأحيان (٢) .

وشرع الأخشيدي أيضا في اجراء حلبة السباق في سنة ٣٢٤ هـ / ١٦٣٦ م على رسم أحمد بن طولون (٣) . كما أصبح عرض الخيل جزءا من رسوم الخلافة الفاطمية (٤) فكان يخصص يوم قبل الموكب الرسمي ، لعرض الخيل يحضره الخليفة وكبار رجال دولته . وتمدنا المصادر العربية أيضا بصورة حية عن سباق الخيل في زمن سلاطين المماليك . فالسلطان بيبرس البندقداري مثلا كان يأمر العسكر بالركوب الى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل في أحسن زى للتريض على ظهور الخيل حيث يزدحم الناس بالميدان للفرجة عليهم على مدى خمسة أيام (٥) . ويبدو أن هذا التقليد قد استمر الى أيام السلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ، اذ يحدثنا المقرئى بأن الأمراء والمماليك السلطانية كانت تسابق بالخيل في هذا الميدان أمامهم (٦) . وأثر عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون حبه أيضا للخيل وللسباق اذ بلغت عدة خيول الجشارات في أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس ، عدا أربعة آلاف وثمانمائة أخرى في الاصطبلات (٧) وكان يدفع في الفرس العشرة والعشرين والثلاثين ألف درهم ، بل قيل انه اشترى بنت الكرماء (٨) بمائتي ألف درهم (٩) وهذا شيء لم يقع لأحد من قبله ولا من بعده ، لان المائتي ألف هذه كانت تساوى حينذاك عشرة آلاف

-
- (١) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، منز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .
- (٢) منز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .
- (٣) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق ، ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، ص ١٨ .
- (٤) الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٨١ .
- (٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .
- (٦) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ .
- (٧) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٠ .
- (٨) ذكرتها المصادر تحت أسماء متعددة منها بنت الكردى ، وبنت الكرشاء ، أنظر : ابن .
- (٩) اشار المقرئى انه اشتراها بمائة ألف درهم ، عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

دينار (١) . كما رسم للأمراء أن يضمروا الخيول في كل سنة ، وألزم كل واحد منهم بتضمير أربعة أفراس ، في الوقت الذي أوصى فيه أمير أخور أن يضمّر له عدة منها على أن يكتّم خبرها ، خشية أن يسبقها فرس لأحد الأمراء . فلا يحتمل ذلك . فاتفق أنه كان عند الأمير قطلوبغا الفخري حصان أدهم سبق خيل مصر كلها ثلاث سنين متوالية . فبعث إليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها ان سبقت خيل مصر فهي للسلطان وان سبقها فرس ردت إليه شريطة ألا يركبها أثناء السباق « الا بدوى قادها » ، فركب السلطان الناصر للسباق في أمرائه على عادته ، ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا ، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها فيها هذه الفرس ، وقد قادها البدوى المذكور عريا بغير سرج ، فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدوى : « السعادة لك اليوم يا مهنا ، لا شقيت » فشق على السلطان أن تسبق خيله ، خيل الأمراء وأبطل التضمير على خيله ، وصارت الأمراء تضمّر على عادتها (٢) .

وتتحدث المصادر المعاصرة أيضا عن السلطان الظاهر برقوق الذي عرض في سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م خيل السباق وفرقها على الأمراء ، « كما كانت العادة يوم ذاك » (٣) . كما ذكرت أنه مات عن سبعة آلاف فرس ، وخمسة عشر ألف جمل (٤) . ونقرأ كذلك عن السلطان المؤيد شيخ ، الذي ما أن نصل من مرضه في سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م حتى ركب ونزل للفرجة على سباق الخيل ، وكان قد أعد له أربعين فرسا ، فأطلق اعنتها من بركة الحاج ، فأجريت منها حتى أتته ضحى النهار « فحصل له برؤيتها النشاط » (٥) لذلك من الطبيعي ان تشتمل بعض مخطوطات الفروسية والبيطرة المنسوبة الى هذا العصر على رسوم تمثل سباق الخيل ، من بينها واحدة من مختصر كتاب البيطرة لابن

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٦٧ .

(٢) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٢٩ ، ابن تغرى بردى ،

النجوم ، ج ٩ ، ١٦٩ .

(٣) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ٩٢ ،

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٢ .

(٤) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٠٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٨٨ ،

الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ -

١٩٧٤ ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

الأحنف (١) المحفوظ بدار الكتب المصرية ، تمثل فارسين يتسابقان (لوحة رقم ١٠ شكل أ) .

ويعتبر الصيد والقنص أيضا من أهم أنواع التسلية عند المسلمين ، « لما فى ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جديد » (٢) . ولهذا الغرض اهتم العرب بالصيد فى الجاهلية وفى الاسلام ، حيث اتخذوا من الطير وهى الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور (٣) ، وغالوا فى اقتناء الكلاب والفهود (٤) ونحوها للاستعانة بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش وغيرها وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفا بالصيد ، حتى قيل انه كان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلاجل المنسوجة منه ، كما قيل أيضا انه عين لكل كلب عبدا يقوم على خدمته ، وأنه شرع فى تعليم الفهود طريقة الجلوس على أكفال الجياد (٥) .

وكان العباسيون يتسلون أيضا بالصيد حيث تفننوا فى تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا فى انتقائها ، وبذلوا الأموال فى اقتنائها بل وأقاموا عليها أناسا ينظرون فى شئونها كالبيازرة والحجالون ، والفهادون ، وأصحاب الصقور والكلاب ، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة ، وأقطعوهم الأقطاعات السنية ، ومن ثم فقد تسابق الشعراء فى وصف هذه الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها (٦) ، وكتبوا فى فنون الصيد وأساليبه كتباً عدة مثل كتاب البزاة والصيد ، وكتاب مصائد الشوارد (٧) . كما أشارت المصادر المعاصرة الى

(١) ابن الأحنف ، مختصر كتاب البيطرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٨ طب ، خليل أغا .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١١٦ .

(٣) من الصيد بالصقر أنظر : Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au faucon ds. Annales Islamologiques, IX, pp. 109-121 ; F. Viré, Le traité de l'art de volerie, (Kitab al-Bayzara), Arabico, XII, (1965), pp. 277-278;

سعاد ماهر ، البيزرة فى التاريخ الآثار ، مجلة الدارة ، العدد الأول (١٩٧٧) ، ص ٩٢ - ١١٥ .
(٤) من الصيد بالفهد أنظر :

Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au guépard d'après les sources arabes et les oeuvres d'art musulman, Arabica, XX-1, (1973), pp. 11-24.

(٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٧٦ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٧ ، جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ٥٦ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤١ .

(٦) ابن العباس ، آثار الأول فى ترتيب النول ، ص ١٣٦ ، انظر أيضا ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ، الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ١١٦ ، الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ .

(٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، ج ٤ ص ٧٤ ، ج ٦ ، ص ٦٢ .

ولع الأمين بصيد السباع بصحبة الفرقة المعروفة بأصحاب اللبابيد (١) ، وإلى أخيه صالح الذى شغف بصيد الخنازير (٢) . ويفهم أيضا من المؤلفات العربية القديمة ان الخليفة المهدي كان ولعا بالصيد ، حتى أنه ربما مات أثناء حادثة صيد (٣) . أما المعتصم فقد ذكر أنه بنى فى أرض دجيل قرب بغداد حائطا على هيئة نعل الفرس ، طوله فراسخ كثيرة ، وجعل طرفيه جهة نهر دجلة ، حيث يقوم رجاله بمطاردة الصيد حتى يتم حصره بين الحائط والنهر ، ولا يبقى مجال للنجاة ، فيقبل الخليفة وأولاده وأقاربه وخواصه وحاشيته ويتألقون فى القتل والصيد ، ويتفرجون ثم يطلقون الباقي (٤) . وذكر عنه أيضا أنه كان بقصره فى مدينة سمراء مكان يحفظ فيه الحيوان يعرف باسم « حير الوحش » شأنه فى هذا شأن الخليفة المقتدر الذى اشتمل قصره فى بغداد على دار كان بها قطعان من أصناف الوحوش (٥) .

كذلك أولع خمارويه صاحب مصر زمن الطولونيين بالصيد ولعا شديدا حيث كان يخرج الى الأهرام وغيرها بحثا عن السباع ، وأنه « لا يكاد يسمع بسبع الا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون الى الأسد ويتناولونه بأيديهم عنوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم » ، فاذا عاد من صيده سار القفص وفيه السبع بين يديه حيث تجتمع العامة لمشاهدته (٦) .

كذلك كان خلفاء الدولة الفاطمية ، ونخص منهم بالذكر الخليفة العزيز بالله ، الذى اعتاد الخروج الى الصيد وفى رفقته عشرون جملا عليها محامل فيها كلاب الصيد ، حتى عرف بالخليفة الصياد (٧) . وضرب المثال أيضا بمهارة السلطان السلجوقى ملكشاه ، الذى بلغ مجموع ما اصطاده فى إحدى الجولات عشرة آلاف طير ، تصدق عنها بعشرة آلاف دينار (٨) ، بل بلغ من شغفه بالصيد أنه أمر بأن يحفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده ، شاهد الراوندى صاحب

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٢) الاصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ٩٧ .

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٦٣ ، عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الاول ، ص ٢٤٠ .

(٤) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

(٦) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

(٧) ابن الحسين ، كتاب البيروزة ، تحقيق كرد على ، دمشق ١٩٥٢ ، ص ٧ ، ٢٤٠ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٧٩ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٤١ .

كتاب راحة الصدور أحدها بخط الشاعر أبى طاهر الخانوني (١) ، وقيل عنه أيضا انه بنى فى السبعينى بطريق مكة مناراة من جماجم الحيوانات التى اصطادها كما بنى أخرى مماثلة فى بلاد ما وراء النهر (٢) .

واشتهر أيضا بنو أيوب والمماليك بولعهم الشديد بالصيد حيث أعدوا لها الأحواش فى مختلف أقاليم الديار المصرية وزودوها بالشباك والصيادين (٣) ، كما اهتموا بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها . فأنشأوا لها المطاعم وعينوا لها البازدارية والخولة والكلابزية يشرفون عليها تحت رقابتهم ، حيث وصل اقطاع بعضهم زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قرابة الألف دينار (٤) . وكان هذا الأخير يعشق الصيد ولم يدع أرضا تعرف بصيد الجوارح الا وأقام بها صيادين مقيمين فى البرية فى أوان الصيد . كما جلب الجوارح من الصقور والشواهين والسناقر والبزاة حتى كثرت فى أيامه ، فصار كل أمير عنده منها عشرة سناقر وأقل وأكثر ، وقيل انه ترك بعد وفاته مائة وعشرين سنقرا لخاصه ، ولم يعهد مثل هذا الملك قبله بمصر ، بعكس الحال زمن أبيه المنصور قلاوون اذ لم يكن هناك سوى سنقر واحد ، كما ترك من الصقور والشواهين ونحوها ما لا ينحصر ، وترك أيضا ثمانين جوقة من كلاب الصيد بكلابزيتها (٥) وكان قد اتخذ لها موصعا بقلعة الجبل (٦) . وأثر عن الأمير تنكز نائب الشام حبه أيضا للصيد اذ كان يركب له فى السنة ثلاث مرات آخرها تعديه الفرات فى الشتاء ، وكان اذا ضرب الحلقة فانها تشتمل على ثلاثمائة غزال ونيف ، وعلى مائتى رأس من بقر ونعام وغير ذلك (٧) . أما السلطان اينال فقد اعتاد أن ينزل بين حين وآخر الى مطعم الطيور ، حيث تطلق البازدارية (٨) طيورا أعدوها ، ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها

(١) BroWne, History of Persia from Firdawsi to Sa'di, London, 1906, II, pp. 183-184.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٧٩ ، جرجى زيدا ، التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٧ . حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٦٥٥ .

(٣) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٨ .

(٤) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣١ .

(٥) الكلابزيرة جمع كلابزرى وهو الشخص الذى يركب بكلات الصيد عند السلطان او الأمير

أنظر : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، حاشية (١) ، Dozy, Suppl.

(٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٠ - ٥٣١ .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥١١ - ٥١٢ .

(٨) المقصود بهم هم حملة البزاة أثناء الصيد ، انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ،

ص ٤٦٩ .

حتى يتسلى السلطان برؤية هذا المنظر (١) . وجرت العادة عند خروج السلاطين الى الصيد أن ينعموا على أكابر أمراء الدولة بالأموال والخيول ، وكذا حوائص الذهب والسيوف والقماش وغير ذلك (٢) ، وأن يصطحبوا معهم كل من تدعو الحاجة اليه من أطباء وكحالين وأشربة وعقاقير ، ، فضلا عن عدد كبير من الحيام . فقد شهد ليناردو في سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م أكثر من خمسة آلاف خيمة في موكب السلطان الظاهر برقوق عند عودته من إحدى سرحات الصيد (٣) . وكثيرا ما انتهز بعض سلاطين المماليك فرصة الخروج الى الصيد للتححرر من قيود الملك فارتكبوا في هذه المناسبة كثيرا من المعاصي وتجاهروا بالفواحش . وحسبنا دليلا على ذلك ما كان يفعله السلطان الأشرف شعبان اذ كان يستصحب معه عند خروجه الى الصيد عددا من الغواني وجرار الخمور وأرباب الملاعب والملاهي (٤) .

والحق ان اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة بالصيد وولعهم به قد تجلى بوضوح من خلال روائع التحف الاسلامية التي وصلت الى أيدينا ، اذ حرص الفنان المسلم على تسجيل بعض صور هذه الرياضة المحببة على منتجاته الفنية (لوحة رقم ٩ شكل أ) . الا أن كثرة هذه التحف يجعل من الصعب علينا التعرف على أغلبها ، لذلك سوف نقتصر هنا على بعض أمثلتها البارزة . ولعل أقدم هذه الأعمال صورة مائية عثر عليها في قصر الحير الغربي في تدمر ، الذي شيده الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك حوالي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م ، يشاهد في قسمها الأوسط صورة فارس قد امتطى صهوة جواده الراكض ، وشرع يرمي غزالا بسهم ، على حين سقط آخر جريحا على الأرض (٥) . ويعتقد البعض ان موضوع هذا الرسم ربما كان يمثل النصف الأول من قصة بهرام جور مع محظيته التي ذكرتها الشاهنامه وغيرها من القصص الفارسية (٦) والتي كثيرا ما صور في الفن الاسلامي .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٢٩ ، حوادث الدهور ، ص ٤١٦ - ٤٨٤ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٤٧ ، ج ٨ ، ص ١٤٢ .

(٣) Dopp, Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen Age, BSRGE, XXIII, (1950), p. 131.

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ .

(٥) زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، شكل ٨٠٧ ، حسن الباشا ، التصوير الاسلامي

ص ٦٤ ، اتينجهاوزن ، التصوير عند العرب ، ص ٣٤ ، لوحة ٣٧ .

(٦) ملخص هذه القصة ان بهرام جور أراد يوما ان يثبت لمحظيته براعته في الصيد فرمى غزالا بقطعة من الطين المتجمد في أذنه فرفع الغزال حافره ليحك أذنه فضربه بهرام جور بسهم ربط بين الحافر والأذن . انظر التفاصيل في حسن الباشا ، التصوير الاسلامي ، ص ٦٣ .

ومن هذه التحف أيضا اثناء من الخزف ذى البريق المعدنى ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، ينسب الى القرن السادس عشر الهجرى / الثانى عشر الميلادى (١) . قوام زخرفته رسم لفارس على جواد وفوق يده اليسرى طائر من الطيور الجارحة التى تستخدم فى الصيد (لوحة رقم ١٢ شكل ب) . وهو رسم مألوف فى الطراز الفاطمى ، كما نراه فى سقف الكلابلا بالاتينا بمدينة بالرمو وفى بعض التحف الاسلامية الأخرى مثل علبة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس والتى تنسب الى حوالى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ، وعلبة زيادة بن أفلح المحفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن من حوالى سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وغيرها من التحف العاجية الأندلسية (٢) ولعله من المناسب أن نشير هنا الى بعض ملاحظات أسامة بن منقذ أثناء رحلة صيد بصحبة ملك الأمراء الأتابك زنكى اذ يقول : « وكان له جوارح كثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجارى العادة فتصيد منها ما تصيد وتخطىء ما تخطىء ووراءهم الشواهين الكوهية على أيدي البازدارية ، فاذا اصطادت البزاة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور فتلحق وتصيد ، وترسل على الحجل فى طلوعها فى سفح الجبل ، فتصيدها فانها من سرعة الطيران على صفة عجيبة » (٣) .

كذلك وصلتنا بعض التحف التى يزينها نقوش تمثل بعض مناظر الصيد بالفهد (لوحة رقم ١٠ شكل ب) ، ومن المعروف أن القنص بهذا الحيوان يعتبر عادة هندية قديمة ، يبدو أنها انتقلت الى العرب (٤) منذ عصر مبكر فقد قيل ان كليب بن وائل يعتبر أول من صاد بها (٥) ، وأن يزيد بن معاوية أول من شرع فى تعليمها الركوب على أكفال الجياد كما سبق أن نوهنا من قبل (٦) .

(١) زكى حسن ، تحف جديدة من الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى ، ص ٩٧ - ٩٨ ، زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٤٠٨ ، شكل ٤٣ ، Zaki Hasan Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages, pl. 3; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au faucon, p. 110, pl. IX/A.

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الاسلامى الأندلسى ، الكتاب الذهبى ج ١ ، ص ١٣١ .

(٣) نقل عن سعاد ماهر ، البيزرة فى التاريخ والآثار ، الدارة ، العدد الأول ، (١٩٧٧) ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) José Ferrandis, Marfiles arabes de Occidente, Madrid, 1935, II, p. 56.

(٥) الفاكهى ، منازل السرور والرشاد فى الرمى والصيد والجهاد ، مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٢٨٤٣ ، ورقة ٦٥ ب .

(٦) ابن المنجلى ، انس الملابوحش الفلا ، تحقيق فرعون ، باريس ١٨٨٠ ، ص ٧١ ، الفاكهى ، منازل السرور ، ورقة ٦٥ ب ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٧٦ .

ولقد وصلتنا بالفعل مجموعة من التحف تمثل هذا المنظر أى الفهد جالسا على مؤخر جواد الصياد من بينها علبة من العاج محفوظة بمتحف اللوفر فى باريس من حوالى القرن السادس أو السابع الهجرى / الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ، يرجح انها من صناعة الأندلس أو صقلية ، وان كانت رسومها غير واضحة المعالم (١) ، الا أنه يمكننا مشاهدة هذا المنظر من خلال تصويرة تنسب الى المدرسة الهندية (٢) . يزينها رسم لفارس على صهوة جواد ، جلس على مؤخرته فهد ملتفت جهة الصياد ، يتقدمه تابع أمسك بيده سيفاً مرفوعاً الى أعلى على حين يحتفظ بيده اليسرى على جبل ينتهى بحيوان لعله غزال (لوحة رقم ١١ شكل أ) . ومن أجمل التحف المعدنية التى يزينها رسوم صيد بالفهد طست من النحاس مكفت بالفضة محفوظ بمتحف اللوفر فى باريس ، يعرف بمعدانة سانت لويس ، لانه استعمل فى تعميد لويس الثالث عشر ثم نسب الى لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى قيل أنه أحضره اليها عند عودته من الحروب الصليبية ، وهو من صناعة مصر فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٣) قوام زخرفته مناظر مختلفة من البلاط المملوكى للصيد والقتال والحياة اليومية ، من بينها رسوم لمجموعة من الصيادين يحمل ثلاثة منهم الباز ، على حين يمسك الرابع بمقود فهد فى يده اليمنى (لوحة رقم ١١ شكل ب) . ويفهم من المصادر المملوكية ان سلاطين هذه الدولة اقتنوا الفهود للصيد بها وعينوا لها الفهادة لحراستها والاشراف عليها . حيث أقام هؤلاء بالقاهرة فى حى خاص بهم ، فيما بين الجوانية والمناخ ، عرف بخط الفهادين نسبة اليهم (٤) . ومن التحف الاسلامية ما اشتمل أيضا على بعض النقوش التى تمثل الصيد بالكلاب التى كان أشهرها سلوق اليمنية (٥) . التى وردت بكثرة فى الاشعار القديمة كشعر أبى النواس اذ قيل أنه لعب بها زمانا ، وأنه عرف منها ما لا تعرفه الأعراب (٦) ويتضح من دراسة التحف الاسلامية التى يزينها بعض

(١) زكى حسن ، اطلس الفنون الزخرفية ، شكل ٤٣٣ ،

Exposition Arts décora — tifs, 1903, no 26 ; Exposition Arts de l'Islam, Paris, 1971, no. 262 ; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au guépard, Arabica, pp. 22-23, pl. V/A.

(٢) Mercier, La chasse, fig. 3; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse, au guépard, Arabica, X , (1973), p. 23, pl. V/B

(٣) D. S. Rice, Survey of Persian Art, Oxford, 1939, III, p. 2480 ; The Blasons of Baptistère de Saint Louis, BSOAS, (1951), pp. 367-380; T. Rice, L'art de l'Islam, p. 159, fig. 138 ; G. Migeon, Manuel d'art musulman, II, p. 56; Ahmad Abd ar-Raziq, La chasse au guépard, p. 22, pl. IV/A.

(٤) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٥) ابن الحسين ، كتاب البيزرة ، ص ١٤٠ .

(٦) الماحظ ، كتاب الحيوان ، ص ٢٧ .

رسوم الصيد أن الكلاب كانت تشترك عادة في رحلات الصيد المؤلفة من البازدارية والفهادة ، حيث يبدو هذا بوضوح في الجزء العلوى من صورة محفوظة بالمكتبة الوطنية في فينا ، تنسب الى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من كتاب الدرياق المنسوب الى جالينوس (١) ، يشاهد فيها مجموعة من الصيادين على ظهور الخيل وقد حلفت البزاة فى السماء ، على حين قامت الكلاب بمطاردة بعض الغزلان أسفل الصورة (لوحة رقم ١٢ شكل أ) هذا ويمكن ملاحظة الصيد بالكلاب أيضا على الطست المعروف بمعمدانة سانت لويس السابق الاشارة اليه (لوحة رقم ١١ شكل ب) .

والحديث عن الصيد كاحدى وسائل التسلية يحتم علينا أيضا الاشارة الى الرمي بالبندق ، الذى كان يستعمل فى الرمي على الطيور وغيرها (٢) وهو عبارة عن كرات كانت تصنع من الطين أو الحجارة ، وأحيانا من الرصاص أو الفضة ، بل وأيضا من الذهب (٣) وكان لرمي البندق شأن عظيم فى العصور الوسطى الاسلامية ، حيث يرجح أن العرب أخذوه عن الفرس زمن الخليفة عثمان ابن عفان ومن ثم فقد عدوا ظهوره فى المدينة منكرا (٤) ، بيد أنهم سرعان ما ألفوا اللعب به حتى قيل ان الخليفة هارون الرشيد كان عنده فرقة تعرف بالنمل كانت تسير بين يديه للرمى بالبندق على من يقف فى طريق الموكب . وكان رماة البندق يؤلفون اباّن هذا العصر طائفة كبيرة كانت تخرج الى حصصواحي المدن للتسابق على رمي الطير ونحوه (٥) اتخذت لنفسها زيا خاصا عرف بسراويل الفتوة . وقد جعل الخليفة الناصر لدين الله العباسى رمي البندق فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، وكتب فى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م الى ملوك الأطراف الذين يعرفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها وأن ينتسبوا اليه برمي البندق ، وعلى من أراد الانتظام فى سلك هذه الطائفة أن يأتى الى بغداد ليلبسه الخليفة السراويل بنفسه . وقد أجابه الناس فى العراق وغيره الا شخصا يدعى ابن السفى هرب من بغداد

(١) عبقرية الحضارة العربية ، كمبردج ١٩٧٨ ، ص ١٢٧ ، ايتنجهاوزن ، التصوير عند العرب ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) سبط بن التعاويذى ، ديوان سبط بن التعاويذى ، القاهرة ١٩٠٣ ، ص ٢٢٥ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

(٤) ابن العباس ، آثار الاول ، ص ١٣٠ ، جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٩٠ .

الى الشام قائلا : « يكفينى فخرا أنه ليس فى الدنيا أحد لا يرمى للخليفة
الا أنا » (١) .

ولقد أصبح من رسوم دار الخلافة ببغداد انه اذا جلس الخليفة جلوسا عاما
حمل خادم بيده قوس البندق ليرمى به كل غراب أو طير يقع قريبا من الموضع
الذى يجلس فيه الخليفة ويحدث أصواتا (٢) ويبدو أن استعمال البندق أصبح من
الكثرة بحيث دخل فى أمثال العوام فقالوا « من كثرت بنادقه رمى طير الماء » (٣) ،
لذلك ليس بعجب أن يصير لرمى البندق شأن كبير بمختلف البلاد الاسلامية
ومنها مصر حيث أفرد لصناعة أقراصه حتى خاص بالقاهرة عرف بحى
البندقانيين كانت تباع فيه أيضا الأقواس الخاصة برمى البندق (٤) والتي
عرفت كذلك باسم الجلاهق (٥) .

ومن وسائل التسلية الهادئة التى أقبل المسلمون عليها فى العصور
الوسطى ألعاب الورق ، والنرد ، والشطرنج ، التى لا شك أنهم أخذوها عن
غيرهم من الشعوب التى احتكوا بها بعد الاسلام ، لأنها كانت تجرى والقوم
جلوس بعضهم الى جانب بعض وذلك على النقيض من عادات العرب، اذ ان العربى
اللقح كان يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه (٦) .

والنرد لعبة فارسية الأصل تعرف بنرد شير وضعها أردشير بن بابك (٧)
ويستعمل فى اللعب به ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم عليها اتنا عشر
منزلا ، وفى بعض الأحيان أربعة وعشرون منزلا . ومن المعروف ان أساس هذه
اللعبة كان يقوم على الصدفة والاتفاق ، لذا يقول أبو النواس فيها .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٠٢ ، أبو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، القاهرة
١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٤٢ ، ابن خلدون ، العبر وديوان المبدأ والخبر ، ج ٣ ،
ص ٣٥٥ .

(٢) الصابى ، رسوم الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٨٢ ، ٩١ .

(٣) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٢٠٧ .

(٤) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣١ ، ١٠٦ ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٥) ابن طيفور ، تاريخ بغداد ، ص ١٢ ، الجوالقى ، العرب من الكلام الاعجمى على حروف

المعجم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٧١ هـ ، ص ٦٩ ، ٩٦ .

(٦) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، أحمد شلبى ، موسوعة النظم والحضارة

الاسلامية ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٧) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٩٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص

١٤١ - ١٤٣ ، أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص ٦٢ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ٣ ،

ص ٤٦٠ عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ص ١٣٨ .

ومأمورة بالأمر تأتي بغيره ولم تتبع في ذاك غيا ولا رشدا
إذا قلت لم تفعل ، وليست مطيعة وافعل ما قالت ، فصرت لها عبدا(١)

ولقد شبه بعض الحكماء النرد هذه بالأرض الممهدة ، لساكنها ، ومنازل
الرقعة ، بساعات النهار وسواد الليل ، وبيادتها أى احجارها ، بعدد أيام
الشهر ، وما يخرج من القصين اذا رمى بهما ، بالقضاء الجارى على العباد ، ولذا
فقد حرّمه الرسول صلى الله عليه وسلم اذ قال : « من لعب بالنرد فكانما صبيغ
يده فى لحم خنزير ودمه » ، كما قال : « من لعب بالنرد فقد عصى الله
ورسوله » (٢) كما اعتبره البعض « من عمل الشيطان » (٣) لما كان يقصد به
من ابتغاء الكسب والمقامرة ، ومع هذا فقد شاع اللعب بالنرد حيث أقبل عليه
الخلفاء والأمراء وغيرهم ، حتى قيل ان هارون الرشيد قدم اللعاب به وأجرى
عليهم الأرزاق (٤) ، وان الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان ، حاكم هراة لعب
بالنرد مع البديهي الشاعر على عشرة آلاف دينار ، ولما أوشك اللعب على الانتهاء
« كان عند الأمير حجران فى بيت الشيش ، ولأحمد البديهي حجران فى بيت
اليك ، واللعب للأمير فاحتاط كثيرا ، ثم رمى ليأتى بالدش ، فجاء الزهر هبيك ،
فغضب الأمير غضبا شديدا واشتد به الغضب ، فكان يمسك السيف فى كل
لحظة ، وارتعدت فرائص الندماء ، فقد كان أميرا حدثا » ومقمورا ومخرجاً » (٥) .

أما الشطرنج فيبدو أنها كانت معروفة عند قدماء المصريين وعند حكماء
الهند ، حيث رسموا لها رقعة مربعة تتألف من ثمانى خانات طولاً وعرضا ،
ورسموا عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى ، وجعلوا فيها ثمانى قطع ومثلها
من البيادق وطلوها بلونين من كلا الطرفين ، وأجلسوا الملك والوزير فى القلب
وأوقفوا فيلين على الميمنة والميسرة ، ووضعوا بجانب الفيلين حصانين من الجانبين ،
وجعلوا الرخين فى الزاويتين ، وصفوا أمامهم صفا من العساكر ، وعلى هذا
النحو يستعد المتنافسان من الجانبين للمباراة . ثم تطورت هذه اللعبة على أيدي
الفرس الذين جعلوها قائمة على أصول رياضية ، لا سيما زمن بزرجمهر ، الذى
أحضر رقعة مستطيلة ورسم عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى طولها ستة

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٩٥ ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ .

(٢) منز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص ٦٢ ، أحمد شلبي ، موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ،
ج ٥ ، ص ٢١٨ ، يوسف القرضاوى ، الحلال والحرام فى الاسلام ، ص ٢١٧ ، أبو بكر
الخوارزمي ، كتاب مفيد العلوم ، ومبيد الهموم ، القاهرة ، ١٣١٠هـ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ .

(٥) نظامى عروضى ، جهار مقالة ، الترجمة العربية ، ص ٥١ - ٥٢ .

عشر مربعا ، وعرضها أربعة مربعات كما جعل عدد أدوات اللعب ست عشر أداة
أيضا (١) .

ويبدو أنه انتقل منهم الى العرب حيث ظهر فى زمن الصحابة ، الذين
اختلفوا فى شأنه فوصفه ابن عمر بأنه « شر من النرد » ، على حين اعتبره على
ابن أبى طالب نوعا من الميسر ، وعلى هذا فقد كان طبيعيا ألا يزوج أهل المدينة
لاعب الشطرنج ، كما زعموا أن سبب وضع العجم له ، انهم كانوا اذا اجتمعوا
تلاحظوا تلاحظ البقر ، ومن ثم فقد جعلوا من الشطرنج مشغلة لهم (٢) . ورغم
هذا فقد أباحه عدد جم من الصحابة والتابعين شريطة خلوه من القمار ، لأنه
مبنى على اعمال الفكر ورياضة الذهن (٣) على النقيض من النرد الذى كان يبنى
دائما على الحظ ، كما أجازوا لعبه فى أوقات الفراغ بشرط أن يحفظ اللاعب
لسانه من الفحش وردى الكلام أثناء اللعب والا اعتبر حراما (٤) . وتجمع
الكتب القديمة على أن هارون الرشيد يعتبر أول خليفة عباسى لعب به ودعا الى
لعبه (٥) وأنه أرسل شطرنجا رائعا فيما أرسله من الهدايا الى شارلمان ملك
الفرنجة بأوربا (٦) . كما يروى ان الخليفة المأمون اشتهى لعب الشطرنج بعد
قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة ، فاستحضر كبار أهله ، فكانوا يتوقرون
بين يديه ، حتى ضاق بذلك ، وقال « ان الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ، قولوا
ما تقولون به اذا خلوتم » (٧) .

وكان الشطرنج يلعب فى ذلك الوقت على رقعة مربعة من آدم أحمر اللون
قيل فيها :

أرض مربعة حمراء من آدم	ما بين الفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبيها	من غير ان يسعيا فيها بسفك دم
هذ يغير على هذا ، وذاك على	هذا يغير ، وعين الحرب لم تنم

(١) الراوندى ، راحة الصدور راية السرور ، ترجمة ابراهيم الشواربى وآخرين ، القاهرة

١٩٦٠ ، ص ٥٦٧ - ٥٧٠ .

(٢) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، محاضرات الادباء ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

(٣) السعوى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

(٤) يوسف القرضاوى ، الحلال والحرام فى الاسلام ، ص ٢١٧ ، ابن تيمية ، مجموع فتاوى ،

القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ج ٢ ص ٥ .

(٥) السعوى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ١٦٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ،

ص ٨٦ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٠١ ، القلقشندى ، صبح

الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤١ - ١٤٣ ، فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤١٦ ، عبد المنعم

حاجد ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٤ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٨ .

(٧) السعوى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، محاضرات الادباء ، ج ١ ، ص ٤٤٩ .

فإنظر الى الخيل قد جاشت بمعرفة فى عسكريين بلا طبل ولا علم (١) .
كما ظهر فى زمن الخليفة المعتضد فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع
الميلادى نوع جديد يسمى الجوارحية وهى عبارة عن سبعة أبيات فى ثمانية ،
وأمتلتها اثنا عشر فى كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى جارحة
من جوارح الانسان التى بها يميز ، وينطق ، ويسمع ، ويبصر ، ويبطش ،
ويسعى ، وهى سائر الحواس ، والحاس المشترك هو الذى من القلب ، (٢) .
كما يصور لنا الجاحظ بعض مباريات الشطرنج فى حضرة عبد الله
ابن طاهر ، حيث كان المتنافسون فى هذه اللعبة يناظر كل منهما الآخر ، بالجد
والهزل . والأمير مستمتع بهذه المناظرات الهزلية حتى أنه فى إحدى المباريات
فحص برجليه من شدة الضحك (٣) . ويبدو ولع المسلمين بالشطرنج من خلال
لعب الحجاج به للتسلية وهم فى طريقهم الى الحج على ظهور الشقاديف (٤) .
لذلك لا عجب ان أمر الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى بمنع اللعب به ، بل وضرب
جماعة بسبب اللعب بالشطرنج ، وأحرق ما وجد منه (٥) فى محاولة منه
للتخفيف من شدة الاقبال عليه لما يترتب عليه من ضياع الوقت .

كذلك أقبل سلاطين الأيوبيين والمماليك على الشطرنج وعلى اللعب مع
المقربين اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء (٦) بل حرص بعضهم اذا خرج فى
أسفاره أن يحمل معه كمية ضخمة من العاج يرسم خراط الشطرنج ، حتى اذا
لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان (٧) .
وجرت العادة أيضا بأن تصنع أدوات الشطرنج من سائر أنواع الجواهر والذهب ،
والفضة والأبنوس برقاع الحرير المذهب (٨) ، كما صنعت من الببلور الصخرى
حيث وصلتنا منه بالفعل بعض القطع ضمن مجموعة الكونتس دى بهاج فى
باريس تنسب الى أواخر العصر الفاطمى (٩) . لهذا كان من الطبيعى أن نعتبر

-
- (١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ابن طيفور ، تاريخ بغداد ،
ص ٢٩٣ .
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ ، مبتز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ،
ص ٢٥٧ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .
(٣) الجاحظ ، كتاب التاج ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، فتحى أبو سيف ، المشرق الاسلامى بين التبعية
والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .
(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٨ - ٣٩ .
الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٥٧١ ، عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية ، ص ١٣٨ .
(٥) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، ٣٤٣ .
(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ١٠١ .
(٧) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٦٧ .
(٨) المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .
(٩) زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩٣ .

نعبة الشطرنج من الألعاب الأرستقراطية الخاصة بالملوك والأمراء « لا الفقراء والأراذل » ، وقالوا أيضا في ذلك « مثل الفقير الذي يلعب الشطرنج ، كمثل أعمى ينظر في النجوم » (١) . ورغم هذا فقد شاع الشطرنج بين مختلف الطبقات ، حيث لعبه السلاطين والأمراء ، والتجار والفقهاء وغيرهم (٢) . بل نسب بعض الأشخاص إليه (٣) ، كما صنف في هذه اللعبة وقواعدها العديد من المؤلفات .

أما عن لعبة الورق ، فالحق أننا لا ندرى عنها شيئا فيما عدا اسمها ، خاصة أن المصادر التي تحت أيدينا وغيرها من الكتب القديمة لم تتعرض لها في شيء من التفصيل ، وربما كان المقصود بها تلك اللعبة التي أشار إليها الادفوى في عصر متأخر أثناء ترجمته لمحمد بن اسماعيل السفطى ، وملكها ان يجلس جماعة ويكتبون أوراقا في بعضها صورة شخص صاحب متاع ، وفي البعض الآخر صورة لص ، فإذا حصلت الورقة التي فيها صاحب المتاع لأحدهم قال : « يا جماعة ضاع لى كذا وكذا وأريد فلانا يحضر لى اللص ٠٠٠ » (٤) . وبعد فإن الألعاب السابقة ليست وسائل التسلية الوحيدة التي عرفها المسلمون في العصور الوسطى ، فكثيرا ما تضمنت المؤلفات القديمة أسماء بعض الألعاب الخاصة بالصبيان مثل الأسن ، والبقرى ، والتدبيج ، والخدروف ، والكبكب والدورباكة (٥) وغيرها مما أضربنا عن ذكرها هنا لقلّة المعلومات الواردة عنها ولصعوبة تفسيرها . وعلى هذا فقد بات واضحا ان وسائل التسلية عند المسلمين كانت على ثلاثة ضروب ، الضرب الأول يمثله المجالس بأنواعها المختلفة من قصص ووعظ وشراب وطرب ، والضرب الثانى يمثله الألعاب الرياضية بشتى أنواعها من ركض وقنص ، أما الضرب الثالث والأخير فهو يختص بالألعاب الهادئة التي اصطلح على تسميتها أيضا بالألعاب المنزلية كالنرد والشطرنج والورق ونحوها ، حيث أقبلت جميع طبقات المجتمع الاسلامى على الاشتراك والمساهمة فى جميع ضروب التسلية المتاحة لها ولم يتخلف عنها أحد من كبير أو صغير .

(١) أبو زكريا الحكيم ، كتاب فى الشطرنج ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧ ، ورقة ١٤ ١ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٩٦ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٣٠ ، زهير شتين ، تاريخ الممالك ، ص ٥٠ ، سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى زمن سلاطين الممالك ، ص ١٠٧ ، كما جرت العادة بأن يشتمل شوار العروس على الشطرنج ، انظر تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٣٤ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة فى مصر المملوكية ، ص ٧٦ .

(٣) أنظر : ترجمة أحمد بن محمد الشطرنجى فى ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

(٤) الادفوى ، الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٢٧٨ .

(٥) أحمد تيمور ، لعب العرب ، ص ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٥٦ .

اللغة العربية

تاريخها وخصائصها وآثارها
في الحضارة العالمية
للدكتور أحمد الحوفي

عضو مجمع اللغة العربية

وأستاذ بكلية دار العلوم

ومقرر لجنة التراث بالمجلس الأعلى للثقافة

اللغة مفردات وجمل ، أو ألفاظ وعبارات ، تلفظ حيناً ، وتكتب حيناً ، وسواء أكانت مكتوبة أو ملفوظة فهي وعاء التفكير ووسيلة اظهاره ، ولا يستطيع أحد أن يفكر بغير لغة • ولغتنا العربية سامية قديمة موغلة في القدم •

اللغات السامية هي لغات الجنس السامي الذي اتصلت شعوبه اتصالاً وثيقاً ، واتحدت في النشأة ، والبيئة ، واللون ، وارتبطت بروابط طبيعية واجتماعية جعلتها جنساً من البشر متميزاً ، سواء رجعنا الى تقسيم التوراة أم الى التقسيم الطبيعي (١) •

وأول من أطلق على لغات هذا الجنس (اللغات السامية) المستشرق الألماني شلوتزر ١٧٨١ م ولكن هذه التسمية على ذيوعتها أو خفتها غير جامعة وغير مانعة ، لأن بعض من يتكلمون بها ليسوا من الجنس السامي ، مثل الأحباش فلغتهم سامية وهم حاميون (٢) •

اللغة العربية سامية :

واللغة العربية المستعربة سامية ، ولا بد أنها استمدت كلمات من أخواتها الساميات كالحبشية والحميرية والعبرية والآرامية القديمة •

ذلك أن اسماعيل عليه السلام تعلم العربية من جرهم الثانية التي كانت

(١) التوراة ترجع النوع الانساني كله الى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافت فتقسمه الى ثلاثة أجناس • والتقسيم الطبيعي يعتمد على طبيعة الناس من اللون ، والفطرة ، والبيئة • الخ والجنس السامي في رواية التوراة هو نفسه في رأى العلم •

(٢) بعد أن تفرعت من اللغة الأثيوبية الحبشية لهجات سامية امتزجت بالعربية السامية امتزاجاً محالاً وأبقى الثانية حتى صارت اللغة الأثيوبية أو الحبشية تعد من اللغات السامية ، كما أن اللغة المصرية القديمة امتزجت باللغات السامية حتى خرجت من طبيعتها الأولى وعدها بعض اللغويين من السامية (مقدمة الأساس في الأمم السامية ولغاتها) :

قد هاجرت من اليمن الى مكة ، وامتزج بهم وأصهر فيهم . ويقال انه كان لاسماعيل لغة أخرى عبرية أو كلدانية ، فقد كانت أمه هاجر مصرية ، وأبوه يعرف الكلدانية ، ومن البعيد أن ينسى اسماعيل لغة أبيه ولغة أمه ، بل القريب أن تمتزج لغة أبويه بلغة أصهاره ، ونشأ من اسماعيل ومن ذرائه جيل عربى جديد هم العرب المستعربة .

وانتسب المضرىون - العرب المستعربة - الى أبيهم لا الى أمهم القحطانية ، وإن كان النسب الى الأم شائعاً فى العصر الجاهلي ، ولذلك رفض النبى صلى الله عليه وسلم أن ينسب المضرىون الى آكل المرار ، وذلك أن وفد كندة قدم على النبى برياسة الأشعث بن قيس ، وقال الأشعث للنبى : « يا رسول الله نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار ، فتبسم النبى وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس ابن عبد المطلب وربيعه بن الحارث » وكانا تاجرين يوغلان فى بلاد العرب ، فاذا سئلا ممن هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار . يتعززان بذلك - لأن كندة كانوا ملوكا - ثم قال لهم : « لابل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفوا أمنا ، ولا ننتفى من أبينا (١) » .

ويقال ان القحطانيين كانوا قد هاجروا من الفوات أو الحبشة الى اليمن وعمروها وأضافوا الى لغتهم من لغة أسلافهم المعينيين الذين هم من بدو الآراميين أو بقايا البابليين ، عبروا الى اليمن قبل القحطانيين ، وكانت لهم بها دولة سبأ وحميز ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التى تطورت الى الخط المسند أو القلم الحميرى .

فاللغة العدنانية استرقدت من هذه كله ، وقد تطورت الى المصرية الفصحى فى الوقت الذى زالت فيه الدولة الحميرية حوالى أوائل القرن السادس للميلاد ، وفى الوقت الذى بسطت فيه سلطاتها على أكثر أرجاء الجزيرة ، وتوحد اللسان العربى الا ما ينبج عن طريقة النطق ، ويسميه العلماء اختلاف اللهجات .

وعلماء اللغات يفضلون اللغات السامية على الحامية والآرية بكثرة مفرداتها وتنوع أساليبها ، واطراد قياسها ، ووضوح مخارج حروفها ، وهم أنفسهم

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٤/٤ واكل المرار : الحارث بن عمرو بن حجر الكندى ، والمرار نبات مر اذا أكلته الابل تقضت مشافرها ، وسمى الحارث بذلك لأن عمرو بن الهبولة النسائي اغار عليهم والحارث غائب ، فغنم وسبى ، وكان فى سببه امرأة الحارث فقالت لعمرو فى سيره : لكأنى برجل أدلم - مسترخى الشفتين - أسود كان مشافره مشافر بعير آكل مرار قد أخذ برقبتك تعنى الحارث ، فسمى آكل المرار ، ثم تبعه وقتله واستنقذ امرأته وما كان أصاب (سيرة ابن هشام ٢٥٥/٤) .

يقدمون العربية على اخواتها السامية بهذه المميزات وبغيرها ، حتى رأى كثير منهم قدما ومحدثون شرقيون وغربيون أن العربية أصل اللغات السامية أو أقربها الى السامية الأولى ، لنشأتها في أقدم موطن للساميين ، وبقائها بمعزل عن الاحتكاك باللغات الأخرى .

وهم قد وازانوا بين العربية والسريانية والعبرية ، فاتضح أنهما متأثرتان بها ، بدليل أن الكلمات النى بها ضاد - وهو حرف خاص بالعربية - نقلت الى العبرية بالصاد والى السريانية بالعين ، ولو كانت العربية هى الناقلة لبقيت الصاد أو العين على أصلهما لأن الحرفين فى العربية فلا مدعاة للابدال .

أطوار تهذيبها وتقارب لهجاتها :

لسنا نستطيع أن نزعّم أن اللغة العربية قد ولدت ناضجة كما وصلت إلينا ، لأن هذا مخالف لقوانين التطور ، وطبيعة اللغات تأباه ، فلا بد أن مرت بهذه اللغة أطوار ومؤثرات رقتها وأنضجتها وأوصلتها الى درجة الكمال جعلتها خليفة أن ينزل بها كتاب الله .

وأهم أطوار التهذيب هى :

(أ) نزل ابراهيم بالحجاز وترك هنالك ابنه اسماعيل عليهما السلام ، وأصهر اسماعيل فى جرهم الثانية وهى قحطانية ، فكان لسانه ولسان نسله متأثرا بلغة أبيهم وبلغة قحطان .

وكان من الطبيعى أن تمتزج لغة اسماعيل بلغة جرهم ، وأن ينطلق لسانه فى مجال أوسع ، ويشتق عبارات أوضح ، لكماله الفطرى الذى لا يفتقر الى تلقين ولا تعليم ، وجرى على لسانه بنوه من بعده ، وامتد الزمن باللغة ينميتها ويكملها ، حتى ظهر عدنان أبو العرب المستعربة ، فنشأ جيل جديد ذو لغة أعظم ثروة ونموا ، أسهم فيها الجميع ، لأن دارهم وبيئتهم وأخلاقهم وشيمهم واحدة ، وبينهم تصاهر وتشابك واجتماع لا ينقطع (١) .

(ب) ثم انشعبت قبائل من أولاد اسماعيل ، وجعلت لغتها تنمو وتتطور ، وساعدها أنها لم تكتب فتتأتى فى تطورها أو تجمد ، لأنها لغة قوم أحرار ذوى فطر سليمة يصرفون لغتهم كما يصرفون أزمّة نوقهم وأعنة خيلهم ، وكان

(١) راجع البيان والتبيين للجاحظ ٢٩٠/٣ - ٢٩٦ طبعة هارون .

يأخذ بعضهم عن بعض بالمخالطة والمجاورة والتلاقى فى الأسواق ، فتنتقل الكلمات من قبيلة الى أخرى كما تنتقل العروض .

(ج) ولقريش وحدها فى هذا المضمار نصيب عظيم من الجهد والفخر ، فان التطور الأول كان عمل القبيلة الأولى ، والثانى كان من صنع القبائل جميعا ، أما هذا فجهد قریش ، وقد أعانتها على ذلك أهـور :

١ - أعانها الدين ، فالقرشيون يقيمون بواد غير شى زرع ، وهم مفتقرون الى أن تهوى أفئدة الناس الى البيت الحرام ، وقد استجاب الله دعاء سيدنا ابراهيم ، فجعل الكعبة الشريفة وجهة العرب أجمعين يحجون اليها أو يعتمرون ، وكانت القبائل التى تفد على مكة للحج ذات لهجات منها الجيد ومنها الردى ، وقریش تستمع الى الوافدين وتستصفى من لهجاتها ما يروقها ، وكان النازلون ينقلون عن قریش ويبتون فى الجزيرة ما نقلوا .

٢ - وساعدتها التجارة ، فقد كان القرشيون يرتحلون فى كل عام رحلتين : رحلة فى الشتاء الى اليمن ، ورحلة فى الصيف الى الشام ، وكانوا أحيانا يضربون فى الأرض ويمشون فى مناكبها الى فارس والى الحبشة . وهم قوم صناعتهم الكلام ، يضيفون الى لغتهم ما يغذيها ، ويزودونها بما ينميها ويرقيها .

وقد ساعدهم على التجارة موقع بلادهم الجغرافى ، وأنهم أهل الكعبة التى يدين العرب لها ، فلا يعتدى عليهم أحد فى رحيلهم ، وان اطمئنانهم على حياتهم وأموالهم ، وان امتيازهم بالرحلات التجارية لجدير بأن يكونا نعمة يذكرهم الله بها ، قال تعالى : « لا يلاف قریش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ، قال الزمخشري : انهم كانوا آمنين فى رحلتهم ، لأنهم أهل حرم الله وولاية بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ، ويغار عليهم ، قال الله تعالى :

« أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) .

٣ - وظاهرتها المكانة السياسية التى استمدتها من نفوذها الدينى والاقتصادى ، حتى قال أبو بكر فى رده على الأنصار يوم السقيفة مؤيدا حق المهاجرين فى الخلافة : « ... وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر

(١) الكشاف ٥٦١/٢ .

من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الا ظالم » وقال فى خطبته الثانية « لا تدين العرب
الا لهذا الحى من قريش » .

٤ - وكانت لهجة قريش أغنى اللهجات وأطوعها وأقدرها على التعبير ،
لأن أهلها أرقى ، ولأنهم أغنوها بما أضافوا اليها .

٥ - على أن الأسواق المشهورة - وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز - كانت
على مقربة من مكة ومن موسم الحج فقد اليها القبائل . وعكاظ خاصة مجتمع
العرب جميعا يتوافدون اليها من كل حذب وصوب ليتفادوا أسراهم ، ويتحاكموا
فى خصوماتهم الى بنى تميم ، ويتفاخروا بأحسابهم ومحامدهم وشجاعتهم ،
ويتباهوا بالبليغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويخطب الخطيب
خطبته ، فى عكاظ أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرب للنايعة
قبة من آدم ليتحاكم اليه الشعراء ، وقد أنشده الأعشى والخنساء وحسان فى
قصة مشهورة (١) ، وفيها خطب قس بن ساعدة خطبته التى سمعها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ورواها ، ذلك أن وفد بكر بن وائل قدموا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من حوائجهم قال : هل فيكم أحد يعرف قس بن
ساعدة الايادى ؟ قالوا : كلنا نعرفه . قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأنى به على جمل أحمر بعكاظ قائما يقول :
« أيها الناس اجتمعوا ، واستمعوا ، وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات
فات ، وكل ما هو آت آت ، ان فى السماء لخبرا ، وان فى الأرض لعبرا ، مهاد
موضوع ، وسقف مرفوع ، وبحار تموج ، وتجارة تروج ، وليل داج ، وسماء
ذات أبراج ، أقسم قس حقا لئن كان فى الأرض رضا ليكونن بعده سخط ،
وان الله عزت قدرته هو أحب اليكم من دينكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس
يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ » ثم أنشد أبو بكر
رضى الله عنه شعرا حفظه له وهو :

فى	الذاهبين	الأوليين	من القرون	لنا بصائر
لما	رأيت	مواردا	للموت	ليس لها مصادر
ورأيت	قومي	نحوها	يسعى	الأصاغر والأكابر
لا يرجع	الماضى	الى	ولا	من الباقين غابر
أيقنت	أنى	لا محال	لما	حيث صار القوم صائر (٢)

(١) الأغاني ٣٥/٤ ساسى .

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٩٩/١ .

وكانت عكاظ ملتقى الجميع ، حتى ان من أراد أن يثأر ولم يعثر على واثره طلبه في الموسم ، ومن أراد أن يعمل عملا تعرفه العرب ويشهدها عليه عمله في عكاظ (١) وقد عمرت من ٥٤٠ م الى أن نهبها الحوارج الحرورية (٧٤٦) (١٢٩ هـ) .

وكانوا يجتمعون (بسوق عكاظ) من أول القعدة الى العشرين وفي (مجنة) قرب مكة بقية القعدة ، وفي « ذى المجاز » بجانب عرفة أول ذى الحجة ، ومنها ينصرفون الى عرفات حيث الموقف الأعظم .

وكانت لهم أسواق بين بلادهم وبلاد العجم ، يلتقون فيها للتسوق والبيع ، وهي أوسع أبواب الدخيل والمغرب ، ذكر منها الجاحظ سوق الأبله وسوق الأنبار وسوق الحيرة .

وكانت لهم أسواق آخر تتوالى ، مثل دومة الجندل (٢) بقرى كلب وهي في النصف بين العراق والشام ، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكان يعشرهم أكيدر دومة (٣) وربما غلبت على السوق كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم الى آخر الشهر .

ثم ينتقلون الى سوق هجر (٤) في شهر ربيع الآخر ، فتقوم أسواقهم ، وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم .

ثم يرتحلون نحو عمان (٥) ، فتقوم سوقهم بديار دبا (٦) ثم بصحار (٧) .
ثم يرتحلون فينزلون أرم (٨) وقرى الشحر (٩) فتقوم أسواقهم أياما .

(١) الأغاني ١٣/٢ .

(٢) دومة الجندل : حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طبرية بينها وبين دمشق سبع مراحل ، وكانت منازل لكثانة من كلب .

(٣) صاحب دومة .

(٤) مدينة هجر قاعدة البحرين . وقيل ناحية البحرين كلها هجر قال ياقوت وهو الصواب .

(٥) كورة عربية على ساحل البحر شرقي هجر .

(٦) سوق بعمان .

(٧) بلدة بعمان على البحر .

(٨) فلاة قرب عدن .

(٩) على ساحل البحر بين عدن وعمان .

ثم يرتحلون فينزلون عدن ، ومن سوقها تشتري اللطائم (١) وأنواع الطيب ٠٠٠٠ ثم يذهبون الى الرابية من حضرموت ، ومنهم من يجوزها ، ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها ، ومنها كانت تجلب آله الخرز والأرم والبرود ٠٠٠ ثم يرتحلون الى عكاظ وذى المجاز فى الأشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ٠٠٠٠٠ ثم يقفون بعرفة ، ويقضون مناسكهم ، ثم يتجهون الى أوطانهم .
وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة ، فيحضرها من قرب من العرب ومن بعد (٢) . وكان (بدر) موسما من مواسمهم يجتمعون فى سوقه كل عام (٣) .

فالسباب التى كانت تقرب بين لهجات العرب أثرت وأنتجت قبل أن تصير لقريش السيادة فى الاسلام .

وللشعر نصيب فى هذا التقريب قال الدكتور شورتز والأستاذ ليونارد كنج فى تاريخ هارمزورث العالمى ص ١٨٩٢ : « وقبل أن تؤسس مكة بزمان طويل كان من عادة الحجاج أن يجتمعوا فى بعض الأماكن فى الأشهر الحرم يقيمون أسواقا يتبادلون منتجات القرائح ، وكان أشهرها عكاظ ، يجتمع فيها من قبائل العرب شجعانهم وفصحاؤهم يتنافسون فى الأشعار ، ينشدونها فخرا بعشائرتهم وإشادة بأعمال رجالهم ، أو اجتهدا فى الفوز بالجائزة التى كانت تعطى لأحسنهم غزلا ونسيبا ، وكان مشايخ القبائل يرأسهم من ينصبونه (أمير الشعراء) يحكمون فى تلك المسابقة التى كانت تقام فى أشهر السلم ، والتى كان يتشوق الى نتيجتها فى جميع أنحاء بلاد العرب .

وقد عرض هذا الكاتب نفسه لسوق عكاظ وبين أثرها فقال :

« وفى أيام ما قبل الاسلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السوق والمجتمع السنوى العظيم : سوق عكاظ ، نسبة الى السهل الذى كان يقام فيه ، كان يأتية الناس من جميع الطبقات من كل فج فى الجزيرة ، ويستمر شهر ذى القعدة الذى كان يسبق شهر الحج فى الجاهلية كما يسبقه فى الاسلام ، فيه كانت المسابقات بين الخيل ، والألعاب ، وتنشد الأشعار ، وجميع أنواع الملاحى تروح على الناس عناء الأعمال التجارية فى سوق عام يكاد فى شموله

(١) نوافح المسك .

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٨٣/١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢٧٦/٢ .

واتساعه يكون معرضا قوميا ، وفيه أيضا كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم في أمهات الأمور من حرب وسلم ، وحلف وتعاهد ، وتأثر ويقاض ، فكان أولاد نزار - كما كانت العرب المسنعة تحب أن يدعى - يجتمعون في نوع من منتدى عام لا يقل عراقة في القدم عن منتدى طيبة ، وإن كان أثره ما دام قائما أكبر في بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أنيح لمندى طيبة في قديم اليونان ، وكان لرؤساء قریش المقام الأول في ذلك المجتمع ، لقربه من ديارهم ، ولما كان لهم من تروة وشجاعة وحسن خطاب « (١) » .

فلا بد أن لهجات العرب في ذلك الوقت كانت منقاربة يسهل التفاهم بها . ونستطيع أن نتصور زحمة الأسواق بالوافدين عليها وكثرتهم اذا ما نظرنا الى أسواقنا في الأقاليم ، والى اجتماعات الناس في الموالد كالمولد الأحمدي والدسوقي ، ثم اذا ما علمنا أن للهنود سوقا يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج في كل سنة ، ويجتمع فيها نحو ثلاث مائة ألف نفس ، وقيمون حجا في ذلك المكان مرة كل ١٢ سنة يبلغ فيه عدد الحجاج نحو مليون نفس .

وسأنا العرب في أسواقهم شأن اليونان القدماء في الجمناسيوم (الملعب الرياضي) اذ كانوا يجتمعون للألعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء ، فيغنمون فرصة الاجتماع ويتباحثون ويتناظرون ، كما كان يفعل العرب في عكاظ .

وبعد ، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة ، والعرب جميعا يدينون لقریش بسيادة دينية ولغوية كما قدمنا ، فهم يحاكون لهجتها ، ويتأثرون منطقتها .، وقریش أيضا تنتقى من لهجاتهم أفصحها ، ومن كلماتهم أعذبها .

فليس فيها شيء من معيب اللهجات . قال معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات : وتيامنوا عن عننة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغة قضاة ، ولا ططممانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قریش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم (٢) .

(١) النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) البيان والتبيين ٢١٢/٣ لخلخانية الفرات أو العراق : لهجة لأعراب الشجر وعمان باليمن يحذفون بعض الحروف اللينة كقولهم مشاء الله يريدون ما شاء الله ، والظاهر أن بعضهم نزلوا بشط الفرات بعد الاسلام . العننة : قولهم في موضع أن عن الكسكسة : لهجة لبنى بكر ابن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلحقون بعد كاف الخطاب للمذكر أو مكانها سينا . الغمغة : الكلام المبهم . الططممانية : لهجة لحمير يبدلون لام التعريف ميما مثل أمصيام في الصيام .

وقالوا أيضا بأن لغتهم سلمت من عنعنة ثميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء (١) .

وبذلك كله بلغت اللغة درجة من الرقي والوحدة أعدتها لأن ينزل القرآن الكريم بأسمى لهجاتها وهي لهجة قريش ، فتمت به الوحدة اللغوية ، وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرء لهذه اللغة ، يصونها من أن تمحوها النوازل ، أو تتشعب منها لهجات مختلفات تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف .

اللغة العربية واللهجات

ذكر الدكتور طه حسين في شكه في الشعر الجاهلي أن لغة الشمال غير لغة الجنوب ، معتمدا على كلمة لأبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم كعربيتنا » ، ومعتمدا على أن الكشف الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغتين ، فكيف جاء الشعر الجاهلي كله بلغة أهل الشمال ؟ ثم نفى أن يتخذ القحطانيون لغة الشمال ترجمانا عن عواطفهم ولغة أدبية لهم ، مع أن السيادة السياسية والاقتصادية والحضارية - وهي أمور من شأنها أن تفرض اللغة على شعوب - قد كانت للقحطانيين لا للعدنانيين .

ورد على من يقول ان أهل الجنوب هاجروا الى الشمال وتأقلموا واصطنعوا لغة الشمال ، بأنه يشك في صحة نسب الذين هاجروا ، بل يشك في الهجرة نفسها : متى كانت ؟ ومن المهاجرون ؟ وإلى أين هاجروا ؟ (٢) .

ثم قرر أن العدنانيين أنفسهم كانت لهم لهجات ، فكيف جاء الشعر المروى كله بلهجة قريش ، مع أن في الشعراء يمينيين وقيسيين وربيعيين النخ ؟ وقد قرأ العرب القرآن الكريم بلهجاتهم ، فأمالوا حيث لم تكن تميل قريش ، ومدوا حيث لم تمد النخ . وعجب من أنه لم يحدث مثل هذا في الشعر المروى .

ورد على من اعترض عليه بأن اللهجات كانت قائمة بعد الاسلام ولم تظهر

(١) مجالس نعلب ١٠٠/١ - ١٠١ كشكسة ربيعة : أن تجعل بعد كاف الخطاب مشينا .
تضجع : تباطؤ وتقمع . عجرفية : جفوة في الكلام . تلتلة بهراء كسرهم التاء في الفعل تفعلون
كما قيل .

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٨٨ - ١٠٢ .

فى الشعر الذى قيل بعده بأن العرب قد اتخذوا بعد الاسلام لغة قريش
دستورهم (١) .

اختلاف اللهجتين طبيعى :

ولا يمارى أحد فى ان لهجة الشمال كانت مغايرة للهجة الجنوب ، ولا يدفع
أحد أن لهجات القبائل فى الشمال كانت تختلف الى حد ما ، لأن هذا وذاك راجعان
الى طبيعة المنطق وتأثير الوراثة والبيئة ، فليس بعجيب أن اختلفت اللهجات ، بل
كان العجيب لو أنها اتحدت ، فما زالت اللهجات تتشعب من اللغات وتتباعدها
وتتقارب حسب العوامل المؤثرة فى الناطقين بها وفى اللغة نفسها .

والأمتلة على ذلك كثيرة جدا ، فالأمة العربية تصطنع لهجة قريش الآن
وتتخذها لسانها الأدبى والرسمى ، ولكننا نجد أن لهجة المصرى مغايرة للهجة
السورى والعراقى والحجازى ، وهذه المغايرة قائمة حتى فى النطق باللغة الفصحى
شعرا وخطابة .

بل اللغة المصرية العامية ذات لهجات ، مع أن أصلها واحد ، فللصعيد
لهجة وللدلتا أخرى ، ولقد تختلف لهجة الناس فى قريتين من (مركز) واحد على
قرب ما بينهما .

كانت اللهجتان مختلفتين اذا ، ولكنه خلاف بين لهجتين أو لهجات من لغة
واحدة ، وقد تقاربت اللهجات فى أواخر العصر الجاهلى حتى كان أهل الحجاز
ونجد يفهمون عن أهل اليمن ويفهمونهم ، كما يتفاهم الآن سكان الصعيد وسكان
الوجه البحرى ، أو سكان السودان وسكان مصر ، وكما يتفاهم أهل باريس
وسكان بروكسل .

أريد من هذا أن أقرر أنه لا عجب فى أن يروى الرواة أن لهجة الشمال
كانت غير لهجة الجنوب ، وأن هذا لا يطعن فى صحة ما قرره التاريخ أن لغة
الشمال وليدة لغة الجنوب .

وقد جلى ابن خلدون هذه الفكرة فى قوله : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا
اللسان العربى لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية
فى دلالتها بأمر أخرى ... ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى
لغة مصر ... ولقد كان اللسان الحميرى بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير

(١) فى الادب الجاهلى ص ١٠٤ - ١٢٣ .

من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الأنقال (النقوش) الموجودة لدينا ٠٠٠ ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها ، وتصاريفها وحركات اعرابها ، كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر ، (١) .

لم ير ابن خلدون اذا فى اختلاف اللهجتين دليلا على أن العدنانية لم تنشأ من القحطانية ، بل احتج لهذا الخلاف بأنه يشبه ما بين لغة عصره ولغة مضر التى نزل بها القرآن الكريم .

وذكر ابن خلدون أيضا أن اللغة المستحدثة هى لغة العرب المستعربة « وانما سمي أهل هذه الطبقة بهذا الاسم العرب المستعربة ، لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت اليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة ، بمعنى أنهم صاروا من حال لم يكن عليها أهل نسبهم ، وهى اللغة العربية التى تكلموا بها ، فهو من استفعل بمعنى الصيرورة ، من قولهم : استنوق الجمل واستحجر الطين . وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة ، وقيل العاربة ، (٢) .

اللغة واحدة وان اختلفت اللهجة :

اللهجات :

لم يكن غريبا أن وصل اليها الشعر الجاهلى بلهجة قريش ، لأن قريشا كانت قد سادت قبل الاسلام سيادة دينية وتجارية ، وكانت الأسواق الكبار - عكاظ وذو المجنة وذو المجاز - تقام على مقربة من ديارها ، فتفد اليها القبائل فى موسم الحج ، وكانت عكاظ بخاصة مجتمع العرب ، يقبلون اليها من كل فج ، ليحققوا منافع لهم ، وليتباهوا بالبليغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويخطب الخطيب خطبته . فى هذه السوق أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرب للنايعة قبة من جلد ليتحاكم اليه الشعراء ، وفيها خطب قس بن ساعدة خطبته التى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر (٣) ، فمن الطبيعى اذا - وهذه الأسواق تقام قريبة من مكة - والعرب يقرون لقريش بالسيادة ، ولقريش رحلات تجارية تساعد على تهذيب لغتها وتنميتها - أن تحاكي القبائل قريشا فى لهجتها ، وتتأثر منطقتها ، وأن تنتقى قريش من لهجات القبائل أفصحها ، ومن ألفاظها أعذبها .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧٥ .

(٣) الجعفرى : لبى بن ربيعة الجعفرى .

فلا عجب فى أن اصطنع الشعراء لغة قريش لغة أدبية لهم ، شأنهم فى ذلك شأن أدباء العربية المعاصرين ، ففيهم المصرى والسورى والعراقى والسعودى والسودانى الخ . . ولكل منهم لهجة خاصة فى حديثه اليومى المعتاد ، لكنهم اذا ما كتبوا أو خطبوا أو شعروا اصطنعوا العربية الفصحى ترجمانا عن مشاعرهم وأفكارهم .

وهنا ملاحظة جديرة بالالتفات اليها ، هى أن الشعر المروى يرجع الى عهد غير بعيد من الاسلام ، لأن الرواة والمدونين لم يسجلوا منه ما قدم به العهد قبل أن تسود لهجة قريش ، وقبل أن يتعارف الشعراء على اصطناعها لغة أدبية لهم .

على أننا لا نغفل أمرا آخر ، هو أن الشعراء الذين يمتنون الى أصل يمنى كانوا قد أقاموا فى الشمال وتربوا هناك ، وتعلموا لغته الأدبية ، وانقطع أو كاد ينقطع بالجنوب عهدهم ، فهم فى هذا يشبهون الأسر التركية التى وفدت الى مصر فى العصر الحديث وأقامت بها ، ثم لم تلبث الا جيلا أو جيلين حتى نسيت تركيتها ، وانطلقت بالعربية ألسنتها ، مع ما بين التركية والعربية من بعد ، وما بين لغة الجنوب ولغة الشمال من قرب .

وكيف ننسى أن اليهود الذين عاشوا فى الحجاز ، وكانت لغتهم عبرية ، ما لبثوا أن حذقوا العربية وصاروا من شعرائها ، ولا يتبين فى شعرهم ما يشف عن مخالفة للشعر العربى الذى وصل الينا بلهجة قريش .

ولم يكن العرب بدعا فى وحدة اللغة الأدبية ، ففي الجزر البريطانية سلالات من ايقوسيا ومن ايرلندا ومن ويلز وغيرها ، ولكل منها لهجة خاصة تختلف أحيانا الى حد أن أهل الشرق يكادون لا يفهمون عن أهل الغرب ، وسكان الجنوب يكادون لا يفهمون لهجة ايقوسيا ، ولكنهم جميعا يرتبطون بلهجة أدبية واحدة ، والمدارس والجامعات تحرص على أن تكون الدراسة بالانجليزية الموحدة .

ومثل هذه الحال فى فرنسا ، فلكل اقليم لهجته التى يكاد يصعب فهمها على الاقليم الآخر ، ولكن للأقاليم كلها لغة أدبية واحدة ، هى وسيلة العلم والتعليم والثقافة .

بقيت حقيقة لا بد من التنبيه عليها ، وهى أن بعض الشعر الذى وصل الينا يمثل بعض لهجات القبائل المختلفة ، وقد دونها العلماء لحاجتهم اليها فى تصارييف الكلام ، أو التدليل على قاعدة أو نطق ، وان لم يكن من أغراضهم تسجيل اللهجات كلها .

على أن النقوش التي تظهر اختلافا بين لهجة الشمال ولهجة الجنوب غير القديمة ليس تاريخها محددا ، والخلاف في جملته قليل طفيف لا يقطع الصلة بين اللغتين ، بل انه يعززها ، لما بينها من كثير من وجود الاتحاد . وليس معنى الخلاف أن لغة الجنوب ليست أصلا للغة الشمال ، فلغتنا العامية انشعبت من العربية ولكنها تباينها ، والانجليزية الحديثة تولدت من الأنجلوسكسونية وهي تباينها ، وفي فرنسا لغات لها خصائصها ومع ذلك فانها لا أثر لها في انتاج الأدباء من أبناء هذه الأقاليم ، فلهذا النقوش محلية ليست بذات صبغة أدبية ، والنوبيون يكتبون اليوم بالعربية مع أنهم يتكلمون غيرها فيما بينهم ، والأمة العربية الآن تتكلم لغة وتكتب أخرى ، وما من شك في أن اللغة الانجليزية واحدة ، ولكن البون عظيم بين انجليزية تشوسر وانجليزية ماکولي ، وبين انجليزية ألفرد وانجليزية تشوسر .

وربما كانت لهجة الشمال في ذلك الوقت أيضا مقاربة جدا لل لهجة الجنوب، ولو عثرنا على نقوش بلغة الشمال من عهد نصوص الجنوب لوجدنا اللغتين متشابهتين ومتقاربتين تقارب الفرع وأصله ، لأن الموازنة بين لهجة عدنان التي رويت قبيل الاسلام بقرن ونصف قرن وبين لهجة قحطان التي كانت قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرنا (١) موازنة تغفل البيئة والزمن وأثرهما في اللغة ، وتهمل ما تعرض له سكان الجنوب من اختلاط بالأحباش والفرس ، ثم هي موازنة بين لغة عدنان في الشمال وبين لغة من بقوا من قحطان في الجنوب ولم يرتحلوا الى الشمال ، ونحن نعلم أن كثيرا من القحطانيين قد هاجروا الى الشمال ، وتربوا في بيئة أخرى ، ولهجت بلغة الشمال أسنتهم ، وانقطع بلغة الجنوب عهدهم ، شأنهم شأن الأسر التركية الكثيرة التي وفدت على مصر ، وأقامت بها في العصر الحديث ، فما هو الا ربح من زمن حتى نسوا تركيتهم ، وانطلقت باللغة العامية والعربية أسنتهم . ولم يعد لهم بالتركية الا نسب يحفظونه ، وكثير منهم ينسونه ، هذا مع البون الشاسع بين التركية والعربية العامية ، ومع القرابة الوثيقة بين لهجة الجنوب ولهجة الشمال ، وفي تاريخ اللغات مثل كثيرة تعزز هذا الرأي .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يتفاهمون ، ولا يجدون مشقة في تفاهمهم ، سواء التقوا فرادى أم جماعات في نواديهم أو أسواقهم أو مواسمهم أو حروبهم ،

(١) يرى جلاز أن أقدم النقوش هي المعينية وأن أقدمها يرجع الى القرن الخامس عشر او السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع الى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . ويرى مولر أن أقدمها يرجع الى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد . (النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي ص ١٧٢) .

فمئلا كانت قريش ترحل الى الشمال والى الجنوب قبل الاسلام ، فتخالط هؤلاء هؤلاء فتفهم عنهم ، ويفهمون عنها . ثم استهل الاسلام وعرض النبي عليه الصلاة والسلام الدين الجديد على القبائل ، ووفدت عليه وفودهم من أنحاء الجزيرة فتكلموا وتكلم دون حاجة الى ترجمان ، ونجد تفصيلا عن وفد كندة برياسة الأشعث بن قيس ، وعن وفد همدان وما دار بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام من قول ، ولا نجد اشارة الى صعوبة في التفاهم (١) وبعث النبي كتبا الى جهات كثيرة بلغة قريش ، وأوفد الى اليمن على بن أبى طالب ومعاذ ابن جبل فلم يحتاجا في التفاهم الى وسيط ، وأتاب عنه بعض المسلمين ليفقهوا القبائل في الدين ويجمعوا الزكاة . ولم يرو التاريخ أن صعوبة في التفاهم نشأت في حالة من هذه الحالات .

حقا كان لأهل اليمن لهجة تختلف عن لهجة الحجاز ، ونجدها في بعض مظاهر الصوت والدلالة ، والقواعد والمفردات ، فالنقوش التي قرئت تدل على أن لغة الجنوب أقدم من لغة الشمال ، وعلى أن الأولى أصل الثانية وليس بينهما فرق كبير .

فمن حيث الهجاء ترسم التاء المربوطة مفتوحة في اليمن كما في (كلبت) الحميرية وكتابة العدنانية ، ويحذف حرف المد غالبا من أواسط الكلمات وأواخرها كما في (ذ) الحميرية بمعنى (ذو) العدنانية و (ذن) بمعنى « ذان » .

على أن هذه المغايرة الهجائية ليست فرقا حاسما ، لأن الكتابة رمز للغة ، وقد تقصر عما ترمز اليه ، ونحن الآن نكتب « ذلك » بدون ألف بعد الذال « وهذان » بدون ألف بعد الهاء ، ونكتب اسماعيل وابراهيم أحيانا بغير الألف الوسطى ، وكان العرب في صدر الاسلام يكتبون بغير نقط ولكنهم يقرأون ما يكتبون .

ومن حيث القواعد بعض الخلاف صغير كرسم القحطانيين نون التنوين ميما مثل (نعمتم) في (نعمة) والنون والميم متقاربا المخرج ، وبعضه كبير مثل اثبات حرف العلة في الفعل الناقص اذا اتصل بواو الجماعة كما في (هقنيوا) الحميرية وأقنوا العدنانية بمعنى أعطوا في اللغتين .

ومن حيث المفردات بعض الخلاف طفيف كما في (هقنيوا) السابقة اذ قلبت الهاء همزا في لغة الشمال ، وهذا القلب شائع عندهم نحو هراق وأراق وهيا وأيا ، وكما في عدو بمعنى اجتاز ، وبعضه كبير كوجود كلمات في اليمنية ليست في العربية الشمالية مثل (حجن) بمعنى لأن .

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٤/٤ ، ٢٦٨ .

ومن المستطاع رد هذا الخلاف كله الى أنه تطور فى اللغة •

أما اختلاف الدلالة فانه تطور أيضا ، وتمش مع الزمن والاستعمال والتجوز ، فمثلا (بعل) معناها فى الجنوب صاحب وفى الشمال زوج ، و (وقه) معناها فى الجنوب أجاب وفى الشمال أطاع ، وبين المعنيين ارتباط وثيق كما ترى •

وأما التغاير المبني على التخفيف فكثير كإبدال الهاء همزا فى أفعل الرباعى ، وكحذف آخر الفعل الناقص المسند الى واو الجماعة كما سبق ، وكحذف الاشباع من الضمير المتصل الغائب نحو (أخوه) فى لغة الشمال و (أخهو) فى لغة الجنوب ، وهذا التخفيف دليل واضح على أن عربية الشمال تطورت من عربية الجنوب ، لأن التطور يجنح دائما الى التخفيف والتسهيل ، ونحن نرى ذلك فى لغتنا العادية المولدة من العربية ، ونراه فى الانجليزية فمثلا farge كانت تنطق فى عصر تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠ م) بتحريك الآخر و Have كانت تنطق فى عصر مارلو وشكسبير بتحريك الآخر أيضا ، وكانت علامة المضى تنطق متحركة فى الأفعال الضعيفة فيقال loved

أما التشابه بين اللغتين فقوى وكثير جدا ، كاتحاد الضمائر واسم الإشارة واتحاد بعض الكلمات لفظا وان لم يتفق المعنى تماما ، واتحاد بعضها معنى وان تغاير اللفظ بعض التغاير ، واتحاد بعضها لفظا ومعنى (١) ، وهذا الاتحاد وهذه المغايرة الناشئة عن التطور تعزز رأى العرب القدماء فى أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب ، وتعزز ما قاله ابن خلدون من أن المضرية نشأت من الحميرية كما نشأت لغة العرب فى عصره من اللغة المضرية •

ومن الأمثلة على الاتحاد (بورك وتبارك اسم الرحمن الذى بالسماء) و (نذرت للذى بالسماء نذرا لأنها أخطأت ببيته ومحرمه ، ولأنها وطئت موطنها غير طاهر) وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين فى أقدم النقوش مثل أخ وأخت وركب ووثن وشبل وأسد وسبع وشهر وشيب وقلب وقليل وحادثة وغلام وثمان وفرس وابل وحررة وخميس وخريف ومقتو بمعنى مساعد الخ (٢) • وإذا كانت اللغات السامية متقاربة فى أول أمرها فأحرى بلهجة الشمال ولهجة الجنوب أن تكونا متقاربتين بصورة أوضح وأقوى ، يقول الأستاذ جرجى زيدان : « وقد ساعد العرب على التوسع فى وسائل التجارة فضلا عن توسط بلادهم أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة فى

(١) النقد التحليل لكتاب الأدب الجاهلى ١٨٢ - ١٨٦ •

(٢) النابغة الذبياني عمر الدسوقي ١٢ •

ذلك الحين ، لأن اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظا ومعنى ، فالعربي والكلداني والأشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة ، لقرب عهد تلك اللغات من التشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى ، فكان العربي من حمير أو مضر اذا جاء العراق لا يحتاج فى مخاطبة الكلداني أو البابلي أو الأشوري الى ترجمان ، وكذلك اذا يمم فينيقية أو الحبشة فانه يفهم لسان أهليهما كما يفهم الشامى لسان أهل مصر اليوم ، ويؤيد ذلك ما جاء فى التوراة عن ابراهيم الخليل ، فانه تزوج من بلاد الكلدان فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، فاجتاز سورية وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ، ولم يفتقر فى مخاطبتهم الى مترجم ، وكذلك بنو اسرائيل فى تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم قضوا أربعين سنة فى أعالي جزيرة العرب ، ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين أهلها (١) .

لكن لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات فى أكثر الشعر المروى ؟

وهذا سؤال يدور بالخلد ويسترعى النظر ، معتمدا على ما سبق من تقرير المخالفة بين اللهجات ، ولكن الاجابة عنه ميسرة ، ومستمدة من حقائق مقررّة :

١ - علمنا فى تهذيب أطوار اللغة أنها بتراخى الزمن وتطاوله وجهود أبنائها واختلاط بعضهم ببعض تقاربت ، حتى كادت تمحى فروقها قبيل الاسلام ، الا ما بقى من لهجات خاصة لم تستطع الألسنة أن تنفلت منها . وقد نبه عليها العلماء . ولو كان هناك خلاف جوهرى ما استطاع الاسلام فى سنوات قليلة أن يلوى ألسنة الحميريين الى لسان قريش ، ولما استطاع أن يستلغى العرب كافة بلهجة قريش .

٢ - والتاريخ يحدثنا بأن سيادة اليمن كانت منذ أواخر القرن الرابع الميلادى قد زالت ، وتناوشتها الفتن والمنازعات الداخلية ، ومنيت بالاحتلال الأجنبي الحبشى ثم الفارسى ، وفى ذلك الوقت شرع نجم الفرشيين يتألق ، وشرع سلطانهم التجارى والثقافى والدينى يمتد على جيرانهم وعلى اليمن ، ولغة العدنانيين كانت حينئذ أرقى من لغة القحطانيين ، وقد خلفهم الحجازيون فى مكانتهم التجارية منذ القرن السادس للميلاد .

على أن انتصار لغة على أخرى ليس ناشئا عن الغلب السياسى وحده ، بل يرجع أيضا الى عوامل أخرى منها رقى اللغة ، وثروتها الأدبية والعلمية ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ١٠/١ .

فالرومان أخضعوا اليونان سياسيا ، ولكنهم خضعوا لهم أدبيا وثقافيا ، والأتراك لم يستطيعوا أن يشبّثوا لغتهم في بلد من البلدان التي فنحوها .

٣ - ثم ان الرواة والعلماء لم يرووا الشعر ، ولم يدونوا اللغة على نطق القبائل قبل تهذيب قريش للغة ، بل تناقلوا ما كان قبيل الاسلام ، وفي صدر الاسلام ، اذ الأدب بلغة قريش في الأعم الأغلب « ولم تحفظ العرب من أشعارها الا ما كان قبيل الاسلام » (١) وهم أرادوا من جمع اللغة وتدوينها تسجيلها وتسهيل تعلمها ، وتخليد أدبهم ، وخدمة علوم القرآن والحديث ، واللغة الكفيلة بتحقيق ذلك كله قرشية وهي مصرية راقية ، يقل فيها الاختلاف .

وأقدم ما وصل اليينا عن الأدب الجاهلي لا يعدو قرنين قبل الاسلام ، وكانت لغة الشمال قد تغلبت على لغة الجنوب ، واستأثرت بالمحادثة مع بعض تحريف ، وبالأدب دون تحريف . والموازنة بين لغة الشعر الجاهلي الذي وصل اليينا منذ أول القرن الخامس الميلادي وبين لغة النقوش التي ترجع الى قرون قبل ذلك موازنة فيها تعسف ، وليس من الصواب أن يحكم باحث - بناء على ما بين اللهجتين المتباعدتين الزمن من بعض الفروق - أن شعر امرئ القيس كله منحول لأنه بلهجة قريش ، وامرؤ القيس يمني الأصل .

وكيف ينسى أن لغة اليمن في عهد امرئ القيس كانت غير لغة اليمن التي ترويه النقوش وهي قبلة بقرون ، وأن امرأ القيس وأضرابه قد اصطنعوا لهجة الشمال لغة أدبية لهم ؟ .

وليس شأن امرئ القيس وأضرابه من شعراء اليمن بأغرب من شأن اليهود ، فقد دخل اليهود الحجاز وهم يتكلمون الآرامية والعبرية ، ثم تعلموا العربية وصاروا من أهلها ، وفيهم شعراء لا يختلفون عن شعراء العرب في شيء .

فمن الطبيعي أن يتم الاتحاد بين لهجة العرب في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق وفي الغرب أسرع وأقوى مما تم بين لغة العرب ولغة اليهود ، لأن وحدة اللهجات من لغة واحدة أدنى من وحدة لغات ترجع الى أم واحدة .

٤ - أضف الى ذلك أن اللغة العربية الشمالية جاورت اليمنية القديمة وصارعتها صراعا انتهى في أواخر العصر الجاهلي بانتصار العربية الشمالية ، لأنها كانت أرقى ثقافة وأدبا ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وكان نفوذ عرب الشمال التجاري والسياسي والأدبي والديني قد شرع يتغلغل في اليمن التي

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ١٢ .

كانت ضعيفة في ذلك الوقت ، فكانت جميع الظروف الملائمة للتغلب اللغوى عونا للغة الشمال على لغة الجنوب ، وهذه الحالة شبيهة بحال اللغة الالمانية في صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وبحال اللغة الفرنسية في صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا ، فقد انتصرت الألمانية والفرنسية كما انتصرت لغة العدنانيين على لغة القحطانيين ، لأن الظروف متشابهة ، بل ان القرابة القوية بين العربية الشمالية والجنوبية قد سلحت الأولى بسلاح لم يكن للألمانية والفرنسية ، لأن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تدل لأرقاهما سبل الانتصار (١) .

وقد صرعت العربية الفارسية ، واستعرب كثير من الفرس ، وكان من ذراريهم أدباء شعروا ونثروا بلسان عربى مبين كما شعر ونثر العرب الخالص . وكان للدوريين من اليونان شعر وأوزان ، ولليونانيين شعر وأوزان ، فلما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية ذاع الشعر اليونانى والأوزان اليونانية ، وجرى عليهما الدوريون اذا شعروا أو نثروا ، وعدلوا عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم الى لغة الاثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم .

ولم يكن اصطناع اللغة السائدة للتعبير الشعري نهج الشعراء وحدهم بل شاركهم رعاة هذيل الضاربون قرب مكة ، فاصطنعوا فى شعرهم لغة تغاير لغة التخاطب ، على أنها مستمدة من جميع اللهجات ، والعرب يفهمونها فى كل مكان، ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية لم تسد فى الحجاز ونجد وحدهما ، بل امتدت الى قلب البلاد العراقية أيضا ، وصارت بعد أم العربية الفصحى (٢)

وقد اتخذ شعراء الجزيرة فى شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، تدل سماتها على لغة شعرية وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات أدبية فى الأمم البدائية مع وجود لهجات مختلفة للقبائل الشمالية لم يحدثنا النحاة الا عن قليل منها (٣) .

تغلبت لغة الشمال فى ميادين الأدب كما تغلبت فى الخطاب ، غير أن لغة الأدب دامت خالصة فصيحة ، لأن طبيعة اللغات المنتشرة فى كل عصر وكل أمة أن يصيبها التحريف فى لغة الحديث ولا يكاد يمسه فى لغة الأدب . فاللغة اللاتينية تطورت تطورا كبيرا فى لغة المحادثة فى البلاد التى دانت لها ، فنشأت منها

(١) فقه اللغة على عبد الواحد بتصرف ص ٦٠ - ٦٣ .

(٢) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ٣٢ .

(٣) النابغة الديان ص ١٧ . عن بروكلمان .

لهجات مغيرة لأصلها : الفرنسية ، والايطالية ، والاسبانية ، والبرتغالية الخ ، ولكنها ظلت لغة أدب وكتابة حتى فاتحة العصر الحديث دون أن يعثر بها تغيير كبير ، واللغة العربية القرشية مازالت لسان الأدباء الى اليوم ولم تتأثر باللهجات المحلية ولكنها فى لغة المحادثة خاضعة لتأثير البيئة والنطق .

ولم يكن العرب وحدهم بدعا فى وحدة اللغة الأدبية ، فان لها أشباها من الأمم القديمة والحديثة .

« قال سترابون انه وجد الأقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآرايين والطورانيين والساميين ، ويقال فى روايات شتى ان الحاميين وصلوا اليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون اليها ويتجمعون فيها بعد الاسلام بعدة قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عاداتها الترحل والانتقال من مرعى الى مرعى ومن جوار الى جوار .

وقد كتب مارتن لوثر باللهجة السكسونية ، واستخدمها فى ترجمة الانجيل ، فصارت لغة ألمانيا الأدبية القومية ، وكذلك فعل دانتى حينما كتب باللهجة التسكانية ، وفرضها على سائر اللهجات الايطالية ، وصارت بفضلها لغة ايطاليا الأدبية .

وهذا يذكرنا بما تم على يد شوسر فى انجلترا ، حين أنشد شعره باللغة الشائعة فى جنوبى انجلترا بالقرب من لندن ، فسرعان ما طغت على سائر اللهجات فى البلاد ، واعترف بها الجميع لسانا قوميا (١) .

وفى العصر الحديث - من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين - لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة ، ومنهم الايرلنديون والايقوسيون والغالليون ، وفى كل أمة من الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومثورة ، ولا نرى أحدا يستغرب ذلك فى بلاد الأسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون (٢) .

وفى انجلترا اليوم عشرات من اللهجات التى يشق على كثير من الانجليز

(١) قصة الادب فى العالم ٦٩/٢

(٢) مطلع النور ٧٨ عباس العقاد .

فهمها ، والاحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو يتعلمون أو يكتبون ، وهى لغة الأدب والصحافة ولغة الطبقة الراقية .
واسمها لهجة المدارس الخاصة .
Public School Dialect

بعض الشعر المروى يسجل اللهجات :

على أنهم دونوا لهجات شافهم بها الأعراب فى البادية ، وهى بقايا من اللهجات المتباينة التى كانت فى الجاهلية ، وقد اقتصروا فى تدوينهم على ما يحتاجون اليه فى تصارييف الكلام ، أو اقامة الدليل على قاعدة أو منطق ، ولم يتوسعوا ليدونوا اللهجات كلها وتاريخها ، ولو فعلوا ذلك لجاءنا علم كثير .

وقد وصل اليينا كثير من اللهجات المختلفة حفظها التاريخ على أنها مناح من النطق اختصت بها بعض القبائل ، وقررها كثير من العلماء ، ورووا عليها شواهد ، ويمتد بنا البحث لو تفصيلنا كل ما قيل ، فنجتزى ببعض اشارات لتكون مثالا لهذا الاختلاف الذى قال الدكتور طه انه لا أثر له فيما روى من شعر .

وكتب اللغة والأدب والنحو حوافل بهذا الاختلاف .

وسنضرب امثلة لبعض أنواعه معتمدين على نصوص تمثل هذه الأنواع :

١ - قد تختلف دلالة اللفظ على معنى ، كهذه الأبيات من قصيدة خنافر الحميرى التى رواها أبو على القالى :

ألم تر أن الله عاد بفضلـه	فأنقذ من لفع الزخيج خناقرا
وكشف لى عن جحمتى عماهما	وأوضح لى نهجى وقد كان دائرا
دعانى شصار للتى لو رفضتها	لأصليت جمرا من لظى الهوب واهرا

وفسر الزخيج بالنار ، والجحمتين بالعينين ، والهوب بالنار ، والواهر بالساكن مع شدة الحر ، وقال انها كلها كلمات يمانية .

وأورد لشاعر يمنى أيضا قوله فى اهـ التى آكلها الذئب :

فيا جحمتا بكى على أم واهب أكيلة قلوب ببعض المذائب .

وفسر القلوب بالذئب ، وهو القلب أيضا ، والكلمتان يمانيتان (١) .

(١) الامالى ١٣٥/١ - ١٣٦ .

وقال ابن منظور في لساب العرب : القليب والقيلوب والقلاب
الذئب ، يمانية ، وذكر البيت السابق (١) .

وقال القالي في موضع آخر : السرجان الأسد بلغة هذيل ، والذئب بلغة
غيرهم من العرب (٢) .

وتستعمل ذو اسما موصولا عاما في لهجة طيء ، قال بجير بن عنمة
الطائي :

وان مـولاي ذو يعيرني لا احنة عنده ولا جرمة
ينصـرنـي منك غير معتذر يرمى ورائي بالسهم والسلـمـه (٣)

وفي رواية لسان العرب بأسهم وامسلمه .

وقال سنان بن الفحل الطائي :

فان الماء ماء أبي وجدى وبثرى ذو حفرت وذو طويت (٤)

وأهل الجنوب يعرفون بأم لابال كما في رواية اللسان لبيت بجير .

٢ - وتختلف القواعد النحوية نفسها اختلافا كان له ضجيج وعجيج ،
فمثلا بعض اللهجات على اعراب المثني بالالف ، ومنه :

تزود منا بين أذناه طعنة دعتـه الى هابى الثراب عقيم (٥)

وبعضها على لزوم الأسماء الخمسة الألف ، ومنه قول أبي النجم العجلي
أو رؤبة (٦) .

ان أبـأها وأبـأ أبـأها قد بلغنا في المجد عايتها

وهذيل تستعمل متى بمعنى من ، ويجرون بها ، ومنه قول أبي ذؤيب :

شـربـن بماء البحر ثم ترفعت متى لجيج خضر لهن نثيج

(١) لسان العرب مادة قلب .

(٢) الأما ١٠٦/١ .

(٣) المؤلف والمختلف للآمدى ٥٨ جرمة : جريمة . سلمة : حجارة .

(٤) حماسة أبي تمام ٢٣٦/١ .

(٥) فقه اللغة لابن فارس وتاريخ آداب العرب للرافعي ١٤٥/١ .

(٦) الدرر اللوامع ج ١ ص ١٢ .

وبعض القبائل لا يجزمون الفعل بلم ، ومنه :
لولا فوارس من نعم واخوتهم يوم الصليفاء لم يوفون بالجار (١)
وبعضها تحذف النون من المضارع المرفوع ، ومنه :
أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى (٢)
والطائيون يحذفون آخر الفعل الناقص فى غير اسناد الى ضمير بارز ومنه :
نستوقد النبل بالحضيض ونصب طاد نفوسا بنت على الكرم (٣)
وقد وردت كلمة (أملوك) دالة على الجمع فى مدح حجية بن المضروب
يعفر بن زوعة ملك ردهان - قبيلة من عرب اليمن :
فان كنت سآلا عن المجىء والعلأ وأين العطاء الجزل والنائل الفمر
فنقب عن الأملوك واهتف بيعفر وعش جار ظل لا يغالبه الدهر (٤)
وقالوا ان الأملوك اسم جمع بمعنى الملوك ، ولكن الراجع انها ليست اسم
جمع بل هى جمع للملك ، وهذه الصيغة اليمينية ومثيلاتها متأثرة بصيغة حبشية
مماثلة لها ، فالأحباش يستعملون (أفعول) للدلالة على الجمع ، والعرب قد
ضموا أول الجمع ، على أنه نادر فى العربية ، فلم يذكر السيوطى منه الا ثلاث
كلمات : أمعوز للقطيع من الظباء ، وأحبوش لجبل الحبش ، وأركوب لجماعة
الركاب (٥) .

القراءات واللهجات

على أن قراءات القرآن الكريم مظهر لتسجيل هذه اللهجات ، وهى أمثلة
تاريخية لا ريب فيها .

ذكر المبرد أنه قد قرئ « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين » بدل رأفة (٦)
وقرئ « أفتمرونه على ما يرى » بمعنى أفندفعونه بدلا من أفتمارونه (٧) وذكر

(١) الخصائص لابن جنى ٣٩٣/٢ والمغنى والاشموني .

(٢) الخصائص ٤٩٤/١ .

(٣) شرح حماسة أبى تمام للمرزوني ١٦٥/١ .

(٤) الأمل ٥٣/١ .

(٥) المزهر ٨٣ .

(٦) الكامل ٣٢٤/١ .

(٧) الكامل ٣٥١/١ .

أن فى مصحف ابن مسعود (ودوا لو تدهن فيدهنوا) (١) والقراءة فيدهنون على العطف ، وقرأ عبد الله بن مسعود (ما ينظرون الا زقية) والقراءة الا صيحة والمعنى واحد (٢) .

وذكر الطبرى أن قراءة زيد بن ثابت (ان آية ملكه أن يأتكم التابوه) وأن قراءة أبان بن سعيد وعثمان (التابوت) ، وقرأ عيسى الثقفى قوله تعالى : (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون) (على هوان) وقرأ الأعمش (على سوء) (٣) .

اللغة واللهجات :

ولم تتمثل اللهجات فيما روى من شعر فحسب ، بل تمثلت أيضا فى اللغة المروية نفسها ، فالتضاد ، والترادف ، وكثرة الجموع للكلمة الواحدة ، وتغيير بنية الكلمة بتقديم حرف وتأخير حرف - هذه كلها آثار من اللهجات .

فمن أسباب الترادف فى اللغة أن اللهجات امتزجت فصارت أشبه ببخيرة ، امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت اليها من جداول كثيرة ، وإلى هذا يشير ابن جنى فى كتابه الخصائص اذ يقول : وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات لجماعات اجتمعت لانسان واحد من هنا وهناك ، ويشير اليه ابن فارس فى كتابه الصحبى اذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة أسنتها ، فاذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلامتهم التى طبعوا عليها » (٤) وكذلك التضاد ناشئ من اجتماع لغات لقبايل عدة مثل جون للأبيض والأسود ، وجلل للعظيم والحقير .

وكثرة صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة كعبد وناقاة ناجمة عن اختلاف اللهجات ، وأن لكل قبيلة وزنها القياسى المطرد غالبا ، وشبيه بهذا اختلاف أوزان الأفعال الثلاثية ، وتعدد مصادر الفعل الثلاثى ، وليس من الصواب فى شئ أن يعدد قوم جموع الكلمة الواحدة ويعدّدوا مصادر الفعل الواحد ، ويختلفوا

(١) الكامل ٢/

(٢) تفسير الطبرى والكامل للمبرد .

(٣) القرطبى ١١٧/١٠ .

(٤) فقه اللغة ص ١١٠ .

هذا الاختلاف فى بنية الفعل نفسه ، لأن اللغات وسائط للافهام لا للتعمية والابهام .

ثم ان الكلمة قد تكون واحدة فى الأصل ولكن اللهجات تختلف فيها بتقديم حرف أو وضع حرف مكان حرف ، كأن تقول قبيلة فاط وتقول أخرى فاض ، وتقول قبيلة عاث وتقول أخرى عاث الخ ، وواضح أن أصل الكلمة واحد .

وفى كل هذه الأحوال التى أسلفنا جمع مؤلفو المعاجم مفردات اللغة جمعاً لا مراعاة فيه لنسبة كل كلمة لقبيلتها ، فخيّل إلينا أنها كلها لهجة واحدة .

على أن جامعى اللغة من النصوص ومن مشافهة العرب فى البوادي قد توخوا العرب الفصحاء الخلفى الذين لم يفسد لسانهم بخلاط ولا حضارة ، وآثروا أن يرووا عن قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يأخذوا عن غيرهم من بقية القبائل ، أو ممن تأثروا بالحضارة أو ممن كانوا يتأخمون الأمم المجاورة .

رحلات القحطانيين الى الشمال :

أما أن القحطانيين نزحوا من الجنوب الى الشمال حتى قبل عصر ابراهيم عليه السلام فإن التاريخ يثبتته ، فقد كانت قبائل يمنية الأصل فى شمالى الجزيرة قبل الاسلام مثل : لخم وغسان والأزد ، وقد ذكر هوجو فنكلر وليونارد كنج فى الفصل الذى كتباه عن بلاد العرب قبل الاسلام فى المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث العالمى : « أن نفس سبل الأمم الممكن تتبعه فى العصر الاسلامى من جنوبى شبه الجزيرة الى الممالك المتمدينة حول البحر الأبيض المتوسط كان جارياً فى الوقت الذى طغى فيه الكنعانيون ثم الآراميون على الشرق » ، والذى كتب التاريخ العرب القديم فى المجلد الثامن من تاريخ المؤرخ العالمى يقول : « ان اللوحات الأولى المنبعثة من أول شئ يستحق أن يسمى تاريخاً تكشف لنا عن بلاد العرب خاضعة جلها أو كلها تقريباً لحكم جنس جنوبى الأصل هم العرب الصرحاء أو العرب القحطانيون » والأستاذ سيس A. H. Sayce العالم الأثرى الكبير يقول فى الفصل الذى كتبه عن الامبراطوريات الأولى فى العراق ومصر فى المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث : « ان تاريخ الشرق القديم الذى كان منذ أقل من قرن لا يملأ الا صفحات ، قد كشف البحث الأثرى الآن عنه ، فصار المؤرخون يعرفونه كما يعرفون تاريخ القرون الوسطى ، وان أول ذلك التاريخ المعروف سابق على الألف الثالث قبل المسيح . . . ونحن نستطيع أن نقرأ الخطابات التى كتبها الملك البابلى الذى جاهده ابراهيم ، وعصر موسى بل ابراهيم أخذ يبدو لنا

فى أدق تفاصيله ، كما يبدو منظر طبيعى من خلال تلسكوب ٠٠٠ وبعض ما كتبه الأقدمون تخليداً لمجد بابل يذهب الى ما وراء عصر حمورابى معاصر ابراهيم ٠٠٠ وكثير من خطابات حمورابى وخلفائه من بعده محفوظ اليوم فى متاحف أوربا ٠٠٠ وكانت مصر خاضعة للهكسوس وكان الساميون الكنعانيون يعبرون الصحراء ذاهبين آيين ، ويجدون لدى بلاط قوسهم الهكسوس ما وجده ابراهيم من الترحاب ، ولم يكن عجباً أن يرقى عبرى مثل يوسف الى مقام وزير (١) .

ونحن نعلم أن الهكسوس قد حكموا مصر مدة حتى أخرجهم أحمر الأول حوالى ١٦٠٠ ق.م وأن عهد ابراهيم جد يوسف عليهما السلام كان قبل المسيح بما لا يزيد على ألفى عام .

والعرب العاربة كانوا يسودون شبه الجزيرة قبل ذلك كما اتضح من قبل ، وإذا فما يقوله تاريخ الأدب عن أصل اللغة العدنانية متفق مع الحقائق التاريخية ، وسيادة القحطانيين على البلاد العربية ، كانت قبل عهد ابراهيم عليه السلام بأمد بعيد .

والتوراة تحدثنا بصلة الجنوب بالشمال ، فتذكر أن ملكة سبأ وفدت على سليمان عليه السلام حوالى ٩٥٠ ق.م ، والقرآن الكريم عرفنا هذه الوفادة . ثم ان المراجع التاريخية الافرنجية تقرر أن فى العلا شمالى بلاد العرب نقوشاً معينة تدل على صلة المعينيين بهذه الجهة .

« وكان اليمنيون يحترفون التجارة ، وينقلون متاجر الهند الى مصر والشام ، مارين فى طريقين من الجنوب الى الشمال ، أحدهما يجوب الحجاز ، وقد أقامت قبيلة جرهم بالحجاز وفادة اسماعيل ، وقيل انها وفدت عليه وكان ذلك قبل الميلاد بنحو ألفى عام .

« وقد ثبت من النقوش التى كشفت أواخر القرن الماضى أن قبائل معينة هجرت الجنوب ويممت الحجاز وشمالى الجزيرة فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وهى القبائل التى عرفت فى التوراة باسم (معونيم) وفى الكتابة الهيروغليفية باسم (معين مصران) وغزت بطونا منهم جنوبى فلسطين وأنشأوا لهم دولة فى منطقة غزة ، وظلوا الى عهد الاسكندر الأكبر (٢) .

(١) النقد التحليلى لكتاب (فى الأدب الجاهلى) للفرأوى ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) النابغة الذبياني ص ١ .

ولما انهار سد مأرب حوالى ١١٥ ق.م وغمر الماء البلاد هاجر كثير من سكان اليمن الى الشمال ، والقرآن الكريم يسجل هذا . وكان من المهاجرين بنو ثعلبة (ومنهم الأوس والخزرج) وخزاعة وقد جاؤوا الحرم ، وأجلوا عنه قبيلة جرهم الأولى ، والأزد وقد استوطن بعضهم عمان ، وبعضهم استوطن تهامة ، وهم أزد شنوءة ، وأقام جفنة بن عمرو وأبناؤه بالشام ، ومنهم الغساسنة ، وطىء قد استوطنوا جبلى أجا وسلمى النخ .

وهؤلاء المهاجرون قد حملوا معهم لغتهم اليمنية الى المناطق التى هاجروا اليها ، ثم امتزجت اللغتان بالمجاورة ، والمصاهرة ، والمعاشرة ، والمتاجرة ، والمخالطة ، امتزاجا جعلهما لغة واحدة ، الا ما كان ينبج عن بعض العادات الكلامية .

وبعد . فليس من الحق أن ننفي هجرة اليمنيين الى الشمال ، على كثرة ما سجل التاريخ من هجراتهم ورحلاتهم فى أزمان شتى ، بتأثير الأحداث والخطوب والحروب والاختصاص والاجداب .

واذا كان انتقال اليمنيين الى الشمال وغيره صحيحا ، فصحيح أيضا أنهم تكلموا باللهجة التى يتكلم بها جيرانهم ومخالطوهم ، وصحيح أن نزول الفوارق بعد جيل أو جيلين ان كان ثم فارق فى النطق أو فى بعض الدلالة والاعراب . على حين أن المهاجرين يصطنعون لغة الشمال لغة أدبية لهم لا يحدون عنها ، لأنها تشبه اللغة الرسمية التى تعارف عليها الجميع .

معنى كلمة ابن العلاء :

أما كلمة أبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا (١) » ، فهى صالحة لأن يكون معناها :

١ - أن الحميرية الموغلة فى القدم - وكانوا كثيرا ما يعبرون عن القحطانية بالحميرية - هى التى تغاير لغة قريش ، فليست حميرية القرن الخامس الميلادى - وهو عهد الأدب الجاهلى المروى - هى المغايرة للغة قريش ، لأن النصوص التى عثروا عليها فى النقوش وفيها خلاف بين اللغتين ، معينة أو سبئية أكثرها غير مؤرخ . وفى رأى جلازر أن أقدمها هى المعينية ، وأقدم هذه يرجع الى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع الى القرن التاسع

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٨ .

أو الثامن قبل الميلاد، وفي رأى مولر أن المملكة المعينية والنسبئية كانتا متجاورتين.
وأن أقدم تلك النقوش يرجع الى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

٢ - أن اللغتين عريبتان . ولكن التطور والمكان والزمان والأحداث
والألسنة الخ قد شقت من اللغة الواحدة لهجتين ، بدليل قوله « ولا عريبتهم
بعريبتنا » والعرب يطلقون على اللهجة اللسان .

من خصائص اللغة العربية

لغة العربية صفات أو خصائص تميز بها ، منها أنها لغة ثرية بمفرداتها،
وأنها مركزة موجزة ، تجنح الى الاختصار أكثر مما تجنح الى الاطناب والتطويل ،
فمثلا :

١ - للكلمة الواحدة عدة مشتقات ، وعدة دلالات ، فالفعل ماضٍ ومضارع
وأمر ، ويحيى منه اسم فاعل واسم مفعول وصفة مشبهة واسم زمان واسم
مكان واسم آلة ومصدر ، ومصدر ميمي واسم مصدر ، ونسب وتصغير وجمع
مذكر سالم وجمع مؤنث سالم وجمع تكسير وهكذا ، وكثيرا ما تتعدد جموع
التكسير للكلمة الواحدة مثل كلمة أسد جمعها آساد وأسود وأسد ومثل كلمة
بيت جمعها بيوت وأبيات وجمع الجمع بيوتات .

وللكلمة الواحدة عدة معان ، وإن كانت لغات كثيرة تشارك اللغة العربية
في هذه الظاهرة فإن العربية في هذا أغنى .

٢ - للكلمة الواحدة عدة مشتقات ، فمثلا يحيى من :

- حرض : أحرض الحب فلانا : أشقاء .
- وحرضه على الشيء : حرضه عليه .
- وتعارضوا على الشيء : حرض بعضهم بعضا .
- والحراضة : موضع احراق الأشطان وحجر الجص .
- والاحريض : العصفور .
- ويحيى من سبج : أسبجه في الماء : عومه .
- وسبج فلان : قال سبجان الله .
- وسبج الله وسبج لله : نزهه وقدهه .
- والسابجات : السفن والنجوم .

- والسباحة : رياضة بدنية بالعوام .
- والسباح : العوام .
- والسبوح : من صفات الله تعالى ، وهو الذى تنزه عن كل سوء .
- وسبحان الله كلمة تنزيه .
- والسبحة والسبحة : خرزات منظومة للتسبيح .
- والتسبيح : الدعاء .

٢ - ومن أمثلة المعاني التى تنشأ عن زيادة السين والتاء فى الفعل قولهم :

- استفعل للطلب مثل استفهم أى طلب الفهم .
- وللصيرورة مثل استحجر الطين أى صار حجرا .
- وللمطاوعة مثل استقام أى قبل التقويم والتعديل .
- وللاستعادة مثل استرد ماله ، واسترجع الحديث الذى سمعه .
- وللصيرورة مثل استحصد النبات أى صار حصادا .

٤ - اضممار بعض الأفعال فى بعض التراكيب ، مثل : اضممار الفعل فى قولنا : تحية طيبة ، مرحبا ، أهلا وسهلا ، سمعا وطاعة الخ . والتقدير : آحييك تحية ، وأقول لك مرحبا ، وقصدت أهلا ، وحللت سهلا ، وسمعتك سمعا ، وأقول لك سمعا .

٥ - حذف بعض الجمل اعتمادا على أنها مفهومة من السياق ، نحو قوله تعالى : « فلما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون (أى يسقون ماشيتهم) ووجد من دونهم امرأتين تذودان (أى تردان ماشيتهما) قال : ما خطبكما ؟ (أى قال لهما : ما السبب فى أنكما تذودان ؟) ، قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء (أى قالتا له لا نسقى ماشيتنا حتى ينتهى الناس) وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما (أى جثنا لنسقى ماشيتنا ، لأن أبانا كبير السن) فسقى موسى لهما ماشيتهما .

٦ - حذف خبر المبتدأ كما نجد فى كثير من الآيات القرآنية ، نحو قوله تعالى : « والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (١) ، فقد حذف الخبر ، ودل عليه قوله

(١) سورة الزمر : ٢٨ .

تعالى : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » والأصل أن الذين ينفقون أموالهم مراعاة للناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر عصاة لله ، خاضعون للشيطان ، أو مستحقون عذاب الله ، ومن يكن الشيطان قرينا له جره الى هذا المصير .

٧ - حذف خبر ان ، لأن السياق يدل عليه ، نحو قوله : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (١) فقد حذف خبر ان اكتفاء بدلالة جملة التذييل عليه وهي قوله تعالى : « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ، والأصل أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم أو مقربون الى الله .

٨ - حذف المقابل في الاستفهام ، لأنه يفهم من السياق ، نحو قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » (٢) .

أى : أفمن أسلم واهتدى بنور الله واستحق ثوابه كمن أصر على الكفر فخبط في الضلال واستحق عذاب الله ؟ أيهما خير المسلم السعيد بإسلامه أم الكافر الذى قسا قلبه وضاق صدره فهو فى ظلام بدليل قوله تعالى : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

٩ - حذف جواب الشرط ، لأن فى الآية نفسها أو فيما بعدها ما يدل عليه ، ولأن حذفه يوحى بضرب من التهويل والتضخيم وأعمال الخيال .

من هذا قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » (٣) .

أى لو أن قرآنا حرك الجبال من مواضعها ، أو قطع الأرض وشققها وصدعها ، أو كلم الموتى فأسمعهم واستجابوا له ، لكان هذا القرآن ، لأنه بلغ الحد الأقصى من الترغيب والترهيب ومن الهداية والرشاد .

وهكذا نجد فى اللغة العربية ضروبا شتى من الإيجاز والتركيز . وحسبنا ، ما تقدم من بعض الأمثلة .

(١) سورة الكهف : ٣٠ .

(٢) سورة الزمر : ٢٢ .

(٣) سورة الرعد : ٢١ .

من آثار اللغة العربية فى الحضارة العالمية

١

لقد كان للتراث العظيم الذى خلفه العرب والمسلمون باللغة العربية آثار عظيمة فى الفكر العالمى وفى فنونه وحضارته ، ما زالت تثير الإعجاب ، وتستدر ثناء العلماء من الشرق ومن الغرب على السواء ، لأنها كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر ، كان لها الفضل فى نهضة أوربا من سباتها فى العصور الوسطى .

ويكفى أن نعلم أن التراث العربى لم يقتصر على ما كتب باللغة العربية أصلا ، بل كان بعضه ترجمة لكثير من كتب اليونان والفرس .

فقد نقل الخليفة المأمون الى بغداد مئات من الكتب اليونانية التى كانت فى القسطنطينية ، ولما عقد الصلح مع الامبراطور اشترط عليه أن يبيع له نقل ما يختاره من كتب العلوم القديمة المخزونة فى بلاد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع ، فأنفذ المأمون جماعة ، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ويوحنا ابن ماسويه ، فنقلوا ما اختاروه ، فلما حملوه الى المأمون أمرهم بترجمته ، فترجموه ، وكان من هذه الكتب كتاب بطليموس فى الرياضة .

ولما صالح حاكم جزيرة قبرص طلب منه أن يبعث اليه الكتب اليونانية التى بالجزيرة ، فبعثها ، وأقام سهل بن هارون قيما عليها .

وكان بنو المنجم ينفقون على جماعة من التراجمة ، منهم حنين بن اسحاق وثابت بن قرة وغيرهم .

والذى يتقصى مكتبات العالم اليوم يجدها مليئة بالكتب العربية ، فمثلا فى مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلدات كبار بأسماء الكتب العربية التى بها ، وفى مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف كتاب مخطوط .

وفى مكتبة الأسكوريال أكثر من مئة ألف مخطوطة .

وهكذا مكتبات موسكو ولندن وفيينا وغيرها .

لا شك أن اللغة العربية بتراثها العظيم كانت الأساس الذي قام عليه المذهب العلمى التجريبي ، وهو أحد الأصول التى دعمت عليها أوروبا نهضتها العلمية .

وحسبنا أن نذكر أن علم الضوء مدين للعلامة ابن الهيثم مؤلف كتاب (المناظر) .

كما أن أصول الرياضيات مدينة للعلامة الخوارزمي ، واليه ينسب علم الجبر .

كذلك ترجع أصول علم الهيئة والنجوم والفلك الى البيروني مؤلف كتاب (القانون) المسعودي فى الهيئة والنجوم ، وهو الذى أشاد به العلامة سنجاو فى قوله ان البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ .

ولقد قضت أوروبا ثلاثة قرون من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر وهى تترجم كتب العرب الى اللغة اللاتينية .

ولم تقتصر على مؤلفات ابن سينا وابن رشد والرازي ونظرائهم ، بل انها ترجمت عن اللغة العربية كتب اليونان التى كان العرب قد ترجموها ، مثل كتب جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو واقليدس وبطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من العربية الى اللاتينية على ثلاث مائة كتاب .

ولم يظهر فى أوروبا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يستنسخ كتب العرب ، ولم ينتفع بها ، مثل روجر بيكون وألبرت الكبير وسان توما وغيرهم .

قال مسيو رينان : ان ألبرت الكبير مدين لابن سينا ، وان سان توما مدين لابن رشد .

ولقد ظلت ترجمات الكتب العربية ولا سيما الكتب العلمية هى المصدر الوحيد تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة .

وحسبنا أن الدكتور لوكليز ذكر فى كتابه (تاريخ الطب العربى) أن اللغة العربية لها الفضل فى معرفة أوروبا كتباً يونانية ضاع أكثرها ، مثل كتاب

جالينوس فى الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو فى الحجارة ، وكتاب أبولونيوس فى المخروطات .

وعقب جوستاف لوبون على هذا بقوله :

إذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعامل الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى انقاذ تلك الكنوز الثمينة . قال مسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عدة قرون (١) .

٣

أما الأدب الأوروبى فقد استمد من الأدب العربى واللغة العربية ، فقد كان كثير من أبناء أوروبا يدرسون فى جامعات الأندلس ، ويصطنعون اللغة العربية لغة أدبية لهم ، حتى ان الشاعر الايطالى بترارك قال : يا للعجب ، لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين ، واستطاع فوجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس ، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها فى بعض الأحيان ، ما عدا العرب ، فيا للحماقة ويا للضلال .

على أن القصص العربية كانت ذات آثار واضحة فى القصص الغربية ، وحسبنا أن العلامة جوستاف لوبون يشهد بأن قصص الفروسية من اختراع العرب .

ومن الأمثلة على تأثير القصص العربية أن قصة حى بن يقظان لابن طفيل الأندلسى التى ألفها فى القرن الثانى عشر الميلادى ترجمتها أوربا الى اللاتينية والى الانجليزية فى القرن السابع عشر ، ثم تعددت ترجمتها الى لغات أخرى .

وانه ليسترعى النظر أنه بعد ترجمتها ظهرت فى القرن الثانى عشر قصة روبنسن كروزو للكاتب ديفو ، وقصة جلفر للكاتب سوفيت ، وبين قصة ابن طفيل وهاتين القصتين مشابهة كثيرة فى جوهر الفكرة .

كذلك عرفت أوروبا قصة مجنون ليلى وقصة عنثرة وحكايات ألف ليلة وليلة ، وكان الاعجاب بألف ليلة وليلة لا نظير له ، حتى ان فولتير قرأها

(١) حضارة العرب : جوستاف لوبون . ٦٧٥ - ٦٩٠ .

أربع عشرة مرة قبل أن يمارس كتابة القصة، وحتى ان استندال ود أن ينسى ألف ليلة وليلة ليستمتع من قراءتها من جديد .

أما شعر الفروسية والغزل العفيف والشهامة والنبيل وحماية المظلوم ،
وأما شعر التروبادور وتأثرهم بالشعر العربي فانه حقائق مقررة فرغ منها
الدارسون (١) .

٤

فاذا ما انتقلنا الى الأدب الفارسي وجدنا اللغة العربية أثرت تأثيرا عظيما
جدا في اللغة الفارسية ، اذ كان الفرس يصطنعون العربية في أول الأمر وسيلة
للتأليف وبخاصة في العلوم الشرعية .

ولهذا كانت طريقتهم في تربية الملكة الأدبية لا تغاير الطريقة التي نصح
العرب بها ، وهي الاستزادة من الثقافة العامة ، والتعلم بالبليغ من الشعر
والنثر ، وإدامة النظر في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقد بلغت الكلمات
العربية في بعض الكتب الفارسية من خمسين الى ثمانين في كل مئة كلمة .

كذلك تأثر النثر الفني والقصصى والمقامات والشعر والأوزان والقوافي
والبلاغة والحروف الهجائية (٢) .

أما بعد .. فيكفى اللغة العربية علاء ومجدا أنها اللغة التي نزل بها
القرآن الكريم على خاتم المرسلين ، فكان المعجزة الكبرى ، وما زال المعجزة
العظمى ، وكان هدى للناس ونورا ، فصلت آياته من لدن حكيم خبير ؟

أحمد الحوفي

(١) حضارة العرب : جوستاف لوبون . ٥٤٢ - ٥٤٨ .

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس . الدكتور أحمد الحوفي ٢٧٦ - ٣٠٢ .

أثر الفرس في حضارة الاسلام

للدكتور/ حسين مجيب المصرى

من الخير باديء ذي بدء أن نتمثل الحضارة في مفهومها اللغوي والاصطلاحي جميعا ، كيما نعلم على أى أساس نرسو والى أية غاية نسعى . ويمتاز بحثنا بأنه على تحديد . وإن الخاطر ليسبق الى قول ابن منظور فى لسان العرب ان الحضارة بكسر الحاء الاقامة فى الحضر ، وكان الأصمعى يقول الحضارة بالفتح . والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الامصار ومساكن الديار التى يكون لهم فيها قرار .

ويجرى هذا المجرى قولهم مدن بالمكان أى أقام ومشتق من ذلك تمدن الرجل أى تخلق بأخلاق أهل المدن وانتقل من الخشونة والهمجية والجهلاء الى الأنس والظرف وللمعرفة وقيل مولده . والمتحصل مما أسلفنا ذكره ان الحضارة والمدنية بمعنى ، والأصل فيها أن تكون المدن مستقرا ومقاما ، وذلك ما يترتب عليه أن يكون ساكنها بمنأى عن البادية ، وبالتالي يتبدل من حياة الضنك والشظف الى حياة الدين والترف ، والفارق بين هاتين الحياتين مستقيم فى الفهم . وفى حسابنا ان المدلول الاصطلاحي فى لفظة مدنية وتمدن أظهر منه فى لفظة حضارة . وقد يؤيد ذلك دخول لفظتى تمدن ومدنيت فى الفارسية والتركية والأوردية . بيد أننا نقع على المدلول اللغوي للحضارة فى عموم وشمول وتام وضوح ، فى لفظة أحلها الأتراك المحدثون محل كلمة مدنيت العربية الأصل وهى أويغارلق المشتقة فى التركية مما يفيد الاقامة والتجمع والعيش فى ونام . وقد تسمى بالاويغور شعب من شعوب الترك شرق التركستان وحوض نهر تاريم ويغايرون سواهم من شعوب الترك القديمة فى انهم لم يكونوا أهل بدائة . والعلماء يكتشفون دوما عن آثارهم الدالة على أخذهم عن الصين والهند والفرس فى حضارتهم مما هيا لهم ان يكونوا أعرق الشعوب التركية فى ازدهار حضارتهم واستبحار عمرانهم (١) .

(١) د. حسين نجيب المصرى - تاريخ الأدب التركى ص ٢٤ (القاهرة ١٩٥١) .

وكأنما استجمع الأتراك مفهوم الحضارة فى تفكيرهم واستجابوا لنزعتهم القومية فلما اهتموا الى لفظة أدل منها تصح فى بداءة التعقل من حيث تأييد الاشتقاق اللغوى للواقع التاريخى . ومن تنمة القول فى هذا الصدد بعد اذ تبينا الحضارة فى لغات الشرق الاسلامية أن نعيها ملحمة منا فى اللغات الأوروبية . وهى فيها أو فى معظمها من الأصل اللاتينى Civilis الذى يفيد النسبة الى المدنية . وليس بخاف ان لغات الشرق التى أسلفنا الإشارة اليها تطابق لغات الغرب تمام التطابق فى أصل الكلمة وصريح دلالتها .

واذا ما نظرنا فى قاموس ويبستر الانجليزى ألفيناه يورد للحضارة سبعة تعريفات ، يؤخذ منها على الاجمال انها وضع عام لثقافة الانسان الذى أخضر خصائصه التجافى عن مظاهر البربرية فى السلوك ، مع العمل جهده المستطاع على وفق القيم الخلقية والروحية ، وتطويع الفرد لأن يكون مقوما صالحا لتشكيا كيان الجماعة .

ومثل هذا فى التعريف لا يكاد يختلف ويخرج عما سبقت اليه الإشارة الا بعقد الصلة الوثقى بين الفرد والجماعة ، ولا علينا اذا عددناه من نافلة القول فى هذا المقام خاصة ان الحضارة كما عرفنا انما تقوم أساسا على سكنى المدينة ومعايشة أهلها . ومبلغ علمنا اننا لم نتعرف بعد الى من رد المسبب الى السبب . أى من تصدى لايضاح ما يجول فى خاطر وما تتطلع اليه النفس فى رغبتها - الوقوف على جليلة أمر الحضارة من حيث كونها نتيجة لها مقدمتها - أو على التوضيح لمعرفة ما تنبثق فيه الحضارة ويمدها بمقومات متعاقبة فى دوام تحفظ وجودها وتقييم كيانها . فكل ما سبق القول فيه لا يعدو أن يكون تعريفا لغويا معجميا يقتصر على التحديد اللغوى فى ضيق من نطاق ، ليتمكن من يطلب اللغة وحدها أن يدرك الحضارة فى لفظة فى أصول اشتقاقها . ونرى أن نؤيد ذلك المدلول اللغوى الصريح بمفهوم تاريخى ضمنى يؤيده ويؤكد .

فمن الباحثين من انبرى للرد على بعض علماء الغرب الذين نفوا عن العرب أن تكون لهم مدنية خاصة بهم قبل الاسلام خصوصا . وذهب الى انه لا فضل للعرب فى تمدنهم الاسلامى ، لانه فى حقيقة أمره مزيج مما أخذوا من أنقاض مدنية اليونان والفرس . وإن عدلوا بعض تعديل فيما أخذوا من دينك التمدين . فما أقاموا لهم حضارة فى الجاهلية ولا الاسلام .

ويفند هذا رأى فى العرب بقوله ان العرب من أكثر الأمم استعدادا

للحضارة وسياسة الملك لا يجاريهم في ذلك سواهم من الأمم التي تمدنت قديما
أو حديثا (١) .

ويدعم الباحث دعواه بدليلها فيقول ان سكان جزيرة العرب عدنانية
وديارهم في شمالها وهي الحجاز ونجد وما جاورهما وقحطانية سكنوا الجنوب
أى بلاد اليمن وما حولها . وقد ثمن غرب الجنوب قبل عرب الشمال لان بلادهم
أقرب الى الخصب والرخاء من عرب الشمال . ومن مدنها مأرب وصنعاء وسبأ ،
وللعرب استعدادهم للحضارة شأن اخوانهم الاشوريين الكلدانيين والفينيقيين .
بيد أنهم لم يقيموا في بيئة كبيثتهم فقد أقاموا في جزيرة جرداء قاحلة في معظم
أرجائها . ولو كانت اقامتهم في مثل ما أقام فيه الاشوريون مثلا من خصب
لأثمرت عقولهم وجادت مواهبهم .

ويعود الى قوله ان عرب اليمن كان لهم من ازدهار حضارتهم ما يكشفه
العلماء في دوام ليوفونا بالأعاجيب . وأما العرب البائدة كعاد وثمود ، فيروى
التاريخ عنهم ما يستدل منه على أصالة مدنييتهم . وكاف حق الكفاية تذكرنا
ما جاء في الأخبار عن مدينة ارم ذات العماد التي زعموا ان شداد بن عاد بناها
في الأحقاف . فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاه بصفائح الفضة الموهة
وأقام في تلك المدينة الفا من القصور .

والكلام في هذا كله طويل متسع نكتفي منه بذلك القدر لأننا انما أوردنا
لحقيقة بعينها هي مناط اهتمامنا وعليها مدار قولنا وما تخصه مشيئتنا ألا وهو
وضوح التلازم بين الإقامة في الحضر وسكنى المدن . وبين نشأة الحضارة في أمة
من الأمم - ولعل في تلك اللوحة التاريخية الدالة ما يطابق ويساوى مدلولها
اللغوى الذى تلمسناه وتتبعناه في أكثر من لغة .

ولا نصل بكلامنا الى غايته الا اذا عززنا المدلولين اللغوى والتاريخى
للحضارة بثالث هو المدلول الأدبى ونعنى به ما يستفاد من معناها أخذنا من
نص أدبى .

ونسوق لذلك مثالا من شعر بشار بن برد الذى كان معروفا بشعوبيته
وشدة تعصبه للفرس على العرب . وهو القائل فى الغض من قدر العرب والزراية
بهم .

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ص ٩ - ١١ . ج ١ (القاهرة ١٩٠٢) .

أحين كسبت بعد العرب فخرا . ونادمت الكرام على الغفيار
تفاخر يا ابن راعيّة وراع بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنّت اذا ظمئت الى قراح شركت الكلب في ولغ الاطار
وتتشج الشمال كلابسيها وترعى الضأن في البلد القفار
وفخرك بين خنزير وكلب على اذن من الحدث الكبار

فمثل هذا يتم في وضوح دلالة على ان هذا الشاعر الفارسي النسب ، وانما
يركب من يفاخره من العرب بالهزم معيرا اياه بأنه قادم من الصحراء التي سكنها
في عراء وكان يعيش في ضنك وشظف ولا ألف له بسكنى المدن حيث تتوافر
أسباب تفضي به الى أن تجرى عليه صفات الانسان المتحضر بمعنى الكلمة .
فكان المدنية انما هي لأهل المدن لا لأهل الوب .

وجار هذا المجرى ما قال الشاعر الفارسي أبو القاسم الفردوسي من أهل
القرن الرابع الهجري ، وكان شعوبيا يرى الفضل للفرس على العرب وكان
الباعث الأقوى على نظمّه تواريخ الفرس في الشاهنامه اقامة الدليل على ان
الفرس سابقة في المجد ، واحياء القومية الفارسية بعد اذ عمل العرب على تقويض
زعمائها واستئصال شأفتها وهو القائل ما ترجمته :

(بلغ بالعربي الأمر لما لديه من أسباب ، من شرب لبن النياق وأكل
الضباب أن يكون في عرش كسرى راغبا الا تبا لك أيها الفلك تبا) (١) .

فهذا الشاعر الذي أظله عصر بلغت فيه حضارة الفرس الاسلامية ما لا غاية
بعده في ازدهارها . يحط من شأن العربي ويطعن عليه . معيرا اياه بأنه يهيم على
وجهه في بادية لا يجد بها من الرزق ما يكاد يقيم أوده ويمسك عليه رقعته ولن
يكون ندا للفارسي في مدنيته متقلبا في النعم السوابغ وبمثل هذا من قوله
ندرك المقصود من تميزه بين حال العربي في بداوته والفارسي في بداونه .

ومما يجدر بنا أن نأنس به في هذا المقام قول ابن خلدون ان حملة العلم
في الحلة الاسلامية بزهم العجم . ذلك ان الحلة لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى
أحوال السذاجة والبداة ، ولما كان الرجال ينقلون أوامر الله ونواهيها في
صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما نلقوه من صاحب الشرع .
وأصحابه العرب يومئذ عرب لم يعرفوا التعليم والتدوين . وجرى الأمر على
ذلك زمن الصحابة والتابعين ومن عهد وله الرشيد فيما بعد أمست الحاجة الى

زشير شتر خـوردن وسويسمار

تفوير توى جرخ فلك تفـو

١ - عرب رابجسائی رسيدست كار

كل تخت كيمائی في كند آرزو

وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ومعرفة الأسانيد وتعديل الناقلين . وفسد اللسان فاحتيج الى وضع قوانين النحو . وأصبحت العلوم الشرعية ملكات فى الاستنباط والاستخراج والقياس واحتاجت الى علوم أخرى هى وسائل لها . وبذلك أصبحت العلوم حضرية وبعد العرب عنها .

والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معنائهم من الموالى وأهل الحواضر الذين يتبعون العجم فى الحضارة وأحوالها لان الحضارة راسخة فيهم منذ دولة الفرس . وهذا يفسر لنا لماذا كان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكل هؤلاء عجم فى أنسابهم وانما ربوا فى ذلك اللسان العربى فاكتمسبوه بمرباهم ومخالطتهم العرب كما ان أكثر حملة الحديث من العجم . وكان علماء أصول الفقه جميعا عجماء وكذلك حملة علم الكلام ومعظم المفسرين . وما حفظ العلم ودونه الا الأعاجم . ولا شك أن هذه الحقيقة مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلق العلم باكتاف الثريا لناله قوم من أهل فارس » .

وذاك القدر من كلام ابن خلدون لا يعدو أن يكون اشارة لاحقة الى حقيقة يحذافيرها فليس يذكرنا بما كنا ناسين ولا نعلم ، وان كان ايرادنا له تمهيدا لما سوف يتلوه . فهو يريد ربطا للمعلول بالعلة فيقول ان عدم مشاركة العرب الفرس فى اشتغالهم بالعلم مردود الى أن الرئاسة فى الدولة العباسية شغلتهم وصرفتهم عن العلم ، لانهم كانوا أهل الدولة وحمايتها ومن اليهم تدبير سياستها، كما أنفوا الاشتغال بالعلم آنئذ لانه صار من الصنائع ، والرؤساء يستنكفون عنها (١) .

ونحن نستوجب تلقى من رأى ابن خلدون فى شىء من تحفظ . فلو استقام فى الفهم أن ينصرف العرب عن العلم بالرئاسة والسياسة لخطر بالبال ان أهل العلم نادرا ما كانوا من الرؤساء ولا كانت لهم بالسياسة خبرة أو عليها قدرة . كما كانت أزمة الأمور فى أيدي الفرس التى قامت دولة بنى العباس بمسعى منهم وكان الرجحان لهم على العرب فى كل شأن . حتى لقد سميت الدولة العباسية الدولة الساسانية الثانية والأفضل أن يشغل الرؤساء أنفسهم بالعلم تأديبا لا تكسبا . .

ولا نقدم لذلك أكثر من مثال ، فقد كان المأمون من أهل التحقيق والنظر . وابن الوثر شاعر له المعجب المطرب وصاحب كتاب البديع ، وهذا أمير أموى هو خالد بن يزيد الذى شغف بعلم الكيمياء ، وجلس فيه مجلس التلميذ من

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ (القاهرة ١٩٣٠) .

راهب نصراني ، وأمر بترجمة كنب في هذا العلم عن اليونانية (١) وفي ذلك ما يكفي لنفي التعارض بين الرئاسة والسياسة والتوفر على النظر في العلم .

أما ان العرب لم يشغلوا أنفسهم بالعلم كراهة أن يكون ذلك من الصنائع، فدعوى تعوزها حجة لها تدعيمها . خاصة ان الصنائع في قوله مما تمس الحاجة فيه الى ايضاح لأنه لا يصح في العقل ألا تكون لعربي أو غير عربي صناعة أية صناعة للمعاش كما يلزم من ذلك أن يعيش العربي كلا على الفارسي المتخذ من العلم صناعة . وان كنا لا نعلم ما اذا كان أهل العلم من العرب أو الفرس اتخذوا من علمهم أو تأليفهم وتصنيفهم وتصنيعهم صناعة لهم تدر عليهم رزقهم . وليس لنا أن نعد قرض الشعر من الصنائع حتى لو أفاد بعض المداحين جزيل العطاء .

ذلك ما يعن لنا من شتى الفكر ويتحصل للنظر من تعليل ابن خلدون لتوفر العجم على تحصيل العلم واستبطان دخائله وتقصى دقائقه دون العرب ، فمن كان نسبهم في العرب قوم استقصوا أطراف العلوم ومحضوا حقائقها ولكننا لا نريد لابن خلدون تجريحا ، ومثل هذا من رغبتنا يفضي بنا الى الحكم بأن لكل كثير أكثر ولكل قليل أقل غير أن وجود الكثرة لا ينتفى بوجود القلة وتأسيسا على ذلك نقول انه من التحكم نفى الاشتغال بالعلم عن أبناء يعرب عهد العباسيين وقصره على أبناء فارس في قول جامع مانع بتعليل يثبت على التفكير والتدبير أو لا يثبت .

ولا نتباعد عن ابن خلدون قبل أن نقف عند قوله ان العلوم أصبحت حضرية والحضر لهذا العهد هم الأعاجم ، لان المتحصل من ذلك يؤيد كل ما سبق لنا أن أوردناه في مفهوم صفات الحضارة على انها مخصوصة بالحضر في شتى مظاهرها بيد أننا نشفع بما طوفنا طويلا وبسطنا فيه الكلام تفصيلا أن الحضارة كائنة ما تكون لا بد منبثقة من الدين والعلم والفن .

وليكن تصورنا للحضارة على هذا النحو من وضوح معالمها كيما يأتي لنا أن تكون على الحجة ونحن نطرق هذا الموضوع من أبوابه وهي أكثر مما استقر عليه الرأي في الحسابان .

واذا قطبنا نتلمس ما بين العرب والفرس من صلات ألفيناها منعقدة بطرف في ماض بعيد يجرى مع الزمان في عصور تعاقبت وتباينت وهي على

(٢) — De Boer, The History of Philosophy in Islam., p. 17. (London 1933).

التعيين عصر الجاهلية وصدر الاسلام والعصر العباسي . ولما كان لكل عصر منها الخاص من مظاهره كان بالتالي لتلك الصلوات ما يميزها في الأحياء من تشابه وتخالف واتفاق من حيث تأثر العرب بحضارة فارس .

ففي عصر الجاهلية يذكر الحارث بن كلدة طبيب العرب المتوفى في العام الثالث للهجرة وذلك لأنه مظهر ذو بال لتأثر العرب بحضارة فارس ، فقد ارتحل الى فارس يطلب علم الطب فيها ومعلوم ان كسرى انوشيروان شيد مدرسة للطب في مدينة جنديسابور لها بعيد الصيت آنئذ به يتقدم اليها الراغبون في تحصيل علم الطب وما يتصل به من أشتات العلوم . وكان مقدمهم اليها من أرجاء الأرض فتخرج فيها الأطباء من مختلف الأجناس . وفي تلك المدرسة أمضى حارث بن كلدة أعواما مكبا على الدرس وخدمة قلمه أعواما حتى تهيأ له أن يطب عظماء من الفرس مما أثار إعجاب كسرى فكافأ بمال جزيل ووهبه جارية سماها سمية وهي التي أصبحت من بعد أما لزياد بن أبيه (١) .

ثم عاد الحارث الى بلده وفيها اشتغل بعلم الطب وله الفضل في تعليمه العرب وأشاعته بينهم وجدير بالذكر أن أطباء العرب من بعده حذوا حذوه في رحيلهم الى فارس لتحصيل علم الطب (٢) .

وقيل عنه انه أثناء مقامه في فارس وصل إسبابه بكسرى وشفاه من داء بعد انقطاع رجاء من شفائه . وهنا مقام ذكر خبر له مع كسرى مجمله انه لما دخل عليه سأل ما صناعته فرد بقوله . انها الطب فقال الملك : أعربي أنت . فما كان من الجارث الا أن امتلأ زهوا وقال : نعم من صميمها وبحبوحة يسارها فسأل الملك : وما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء اغذيتها : وكان من الحارث ان أجاب قائلا : أيها الملك اذا كانت هذه صفتها ، كانت أحوج الى من يصلح جهلها ويقيم عوجها (٣) .

وهذا الحوار بين طبيب العرب وملك الفرس يستدل منه على كثير فهو صريح الدلالة على أن العرب في ذلك الزمان لم يكن لهم حظ من علم حتى عجب كسرى لوجود ذى علم بينهم حتى ولو كان طبيبا مداويا هو ذلك الذى طلب العلم في فارس التى طبقت من الآفاق شهرة العلم فيها كما يتبين من رد الحارث على سائله المتعجب المتهمك ان الحارث لم ينكر حقيقة جهل العرب بل تأذن لنفسه

(١) القفطى : اخبار السماء ص ١٩١ (بغداد) .

(٢) هماني : تاريخ أدبيات ايران ص ١٩٣٠ (نهران ١٣٤٠) .

(٣) د . نجم آبادي : محمد زكرياى وازى ، ص ٣٧٠ (نهران ١٣١٨) .

بذلك الجهل وعهد نيته على كشف ظلمته عنهم . وكان له التوفيق كل التوفيق
فى ذلك . ولكن بفضل من علم الفرس الذى لم يتلقه الا فى أرضهم وما عرفه
الامتهم دون غيرهم .

ومن حيث كان العلم مظهرا للحضارة وجوهه كان الدليل كل الدليل فى
خبر الحارث بن كilde على أن العرب اقتبسوا من الفرس ما كان من أخص
خصائص حضارتهم .

ويجىء ذكر الأعشى وهو من فحول شعراء الجاهلية المتقدين وكان الأصمعى
بقوله ما مدح الأعشى أحدا الا رفعه ولا هجاء الا وضعه (١) .

وكان كثير التطواف فى البلاد وطالما ارتحل الى أرض فارس وله خبر مع
كسرى يستظرف فقد اتفق له ان مدحه بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المورق وما بى من تعب وما بى تعشق
وسأل كسرى عن معنى قوله ولما عرفه قال هذا النص فأخرجوه .

فكان كلام الأعشى لم يرق ملك الفرس المزهو بنفسه وملكه وفى عظمته
وجبروته حقر أحد العرب فى عينه ولعله كان على ذكر من ان العرب قوم
يشنون الغارة على أهل الخفض والسعة ليسلبوا ما بيدهم ويدعوها صفرا . فهم
أهل جذب وضيق ، ففي رأى ان ملوك الفرس أقاموا اماراة الحيرة وبسطوا
رعايتهم على امرتها ليأمنوا جانب العرب ويدفعوا عادتهم عن تخوم بلادهم (٢) .

وقيل انه أول من سأل بشعره وانتجع به أقصى البلاد وكان يغنى فى شعره
فكانت العرب تسميه صناجة العرب (٣) .

الصناجة والصناج صاحب الطبخ وهو معرب (جنكك) فى الفارسية وهى معزف
ذو أوتار ولا علم لنا بشاعر عربى سواء تلقب بلقبه واذا أخذنا بالمعنى اللغوى
وتعليل أبى الفرغ الأصفهاني للقب الشاعر لم نستفد أن يكون الأعشى قد
عرف التغنى بشعره عن الفرس لاننا نعرف من شعراء الفرس ثلاثا هم باربد
وركيسا وبامشاد وكان ثلاثهم من الشعراء المعنيين وكلمة (بربط) فى العربية
معرب باربد وأول شعراء الفرس المشاهير بعد الاسلام يسمى رودكى وكان
كالأعشى يتغنى بشعره حتى قيل ان اسمه مشتق من (رود) بمعنى وتر القيثارة

(١) ابن نباته : سرح العيون ص ٢١٩ (القاهرة ١٣٢١) .

(٢) O'Leary : Arabia before Mohemmed, p. 156. (London 1927).

(٣) أبو الفرغ الأصفهاني : الأغاني ص ١٠٩ ج ٩ (القاهرة ١٩٣٦) .

في الفارسية والجزء الأهم من كتاب (الاستاق) وهو كتاب الفرس المقدس الذي جاءهم من بينهم زرادشت يسمى (كاتها) بمعنى الأناشيد لانه منظوم والفرس يسمون الشاعر المبدع (زندخوان) بمعنى المتغنى . المتغنى بكتابهم المقدس وحسبنا هذا كله دليلا قاطعا على اقتران الشعر بانشائه في فارس القديمة على نحو لا عهد لنا به عند العرب في جاهليتهم . ومن هنا نميل الى القول بأن الأعشى أنشد شعره جبريا على عادة شعراء الفرس القدامى في انشاد أشعارهم وبذلك يكون قد أثر من علمهم الحضارة الفارسية واطلع عليه العرب ولم يكن لهم به من علم .

واستفاضت للأعشى شهرته بالغناء وذلك بسبب كثرة وفادته على الحيرة واختصاصه بكسرى أنوشيروان في المدائن مما أفضى الى وجوب تأثره بالفرس في أكثر من منحى من مناحى حياتهم ومظهر من مظاهر حضارتهم التي لم يكن للعرب آنئذ الف بها وقد ضمن شعره امارات على ذلك كله مما أكسبه طابعا خاصا به يلفت اليه من تصدى لتأريخ ما وشج بين العرب والفرس من صلات وما خلف الفرس في شعر العرب من سمات يقوم بها الدليل على تأثر العرب بهم فالأعشى يصف مجالس الأنس في فارس ويذكر ما فيها مما لا يعرفه العرب ويورد أسماء لمسميات ليس للعرب بها من عهد ولا لها في بيئتهم من وجود مما يجعل لشعره غطاء خاصا ويضفى عليه لونا ما له من شبيهه مثال ذلك قوله :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا	وثمان عشرة واثنتين وأربعا
من قهوة بانة ، بفارس صفوه	تدع الفتى ملكا يميل مصرعا
بالجلسان وطيب أردانه	بالون يضرب لى بكر الأصبع
والنای زم ويربط ذو بحة	والصبح يبكى شجوه أن يوضعا

ومثل هذا من شعره يشمله حكم التأثير بحضارة الفرس في شعر العرب أما احتواؤه على ألفاظ فارسية فيعد باكورة ألفاظ لا تقع تحت حصر دخلت لغة العرب على مر الأيام أمانة على دخول الحضارة الفارسية على العرب من أبواب ما أكثرها وأوسعها .

وما دام الشيء بالشيء يذكر وقد عرفنا ما قيل من حذق الأعشى للغناء أخذا عن الفرس نصل بالكلام الى منتهاه في هذا الغناء لنتبين ما قد يكون للفرس فيه من أثر وان كنا نحفظ قبل أن نحكم في شمول بأن العرب لم يعرفوا الغناء الا عن الفرس أما باعشنا على التزامنا جانب الحيطة فقول الفارابي ان العرب كان لهم ما يعرف بالألحان الجاهلية وليس بمستبعد أن يكون ما أشار اليه الفارابي في تلك اللوحة الخاطفة بقايا من الحان اختص بها العرب قبل الاسلام (١) .

(١) مهدى برکشلی : موسیقی در دوره ساسانیان ص ۹ ، ۱۰ (تهران ۱۳۲۶)

وأيا ما كان موجودا من تلك الألحان للعرب وهي التي تعرف لها كتبها ، ولا يسعنا أن ننكرها لأن الغناء والميل اليه مركز في طبع فطرة كل انسان ودون تمييز بين جنس ولون ولكننا نقطع بأن الغناء عند قوم قل أو انعدم من التحضر حظهم كالعرب آنذاك لا يمكن أن يضاهى بقوم بلغوا من التحضر ذروته . ويلزم من ذلك حتمية أن يكون العرب قد تلقوا عن فارس ما تلقوا ليدخلوه على فن الغناء عندهم .

وفي الحيرة عمرت الحانات بالقيان وهؤلاء لم يكن جميعا عربيات والأقرب الى الفهم أن تكون كثرتهن الكاثرة من الفارسيات وذلك لسببين أولهما متاخمة الحيرة لبلاد الفرس والثاني أن امارة الحيرة كانت تابعة للتاج الكسروي ويذهب أحد الباحثين الى انهن ما كن يغنين الا بالفارسية أو اليونانية وهو فيما يذهب اليه على حجة ان العربى لا يرتضى الاستماع الى غناء عربى من فم غير عربى (١) .

والذى عندنا ان هذا ظن لا سبيل الى الادلاء فيه برأى جازم فما من سبب يمنع أن تغنى فارسية بكلام عربى فى أرض عربية ولو ارتضت لكنة أعجمية ولا ضير أن يكون الغناء فارسى اللحن مما تحسن القينة صنعته كل الاحسان وقد يؤيد هذا تذكرنا أن الأعشى كان يغنى بلغة الضاد وان قلد الفرس فى لحونهم وما عرفنا انه بالفارسية ترنم ولنا أن نلتمس لهذا رأيا تأييدا بما قيل ان النظر بن الحارث بن كلدة وفد على كسرى فتعلم ضرب العود بالأحان الفرس وحقق فن الغناء ثم قدم مكة فعلم أهلها (٢) .

وفي هذا الدليل ان العرب أخذوا صناعة الألحان عن الفرس وطوعوها لغنائهم العربى كما ان القيان فى الحيرة غنين للعرب وبطرتن فى أصواتهن الناطقة بالعربية وفى ألحان حسان للفرس الذين كان لهم كل الحقق فى علمهم بأصول تجويدها .

ولما كان الغناء والشعر صنوين من حيث كونهما تعبيراً عن النفس فى انبساطها بالفرح وانقباضها بالأسى وإذا صمت اللسان تكلمت الألحان فما من شك أن الموسيقى لها أصالتها فى الفن ، والفن كما أشرنا فى صدر كلامنا مصدر من مصادر الحضارة . وفى الامكان أن يتخذ معيارا لتقويمها فى نوعيتها وتبينها وهى تنقل خطاها فى طريق يمتد أمامها لتعلم كم مرحلة طوت وهل دنت من الغاية أو ما زالت الشقة بعيدة كيما تدنو منها .

(١) Former : A History of Arabian Music, p. 12 (London 1929).

(٢) النواجي : حلية الكميث ص ١٨١ (القاهرة ١٢٩٩) .

فالفرس قبل الاسلام كانوا أهل مدنية تنوعت عناصرها وتشكلت سماتها ولا مزية في أن عرب الجاهلية أخذوا عنهم هذا الفن الذى أمسى له بعد عندهم عظيم شأن .

ولنا أن نجمل القول بالإشارة الى أن عرب الحيرة كانوا أعلى عروجا في تقدمهم الحضارى من غيرهم لما لا يخفى من سبب هو انضواؤهم تحت سلطان الفرس وشدة تأثرهم في العموم بحضارة الفرس التى كانت من أعظم حضارات العالم القديم في ذلك الزمان فكان الكثير منهم كاتبين قارئين ونضرب لهم مثلا عدى بن زيد الذى تناول سيرته أبو الفرج الأصفهاني فقال انه من أهل الحيرة أرسله أبوه الى الكتاب حتى حذق العربية ثم أرسله المرزبان الى كتاب الفارسية فملك ناصية العربية والفارسية جميعا .

وقال الشعر وتعلم لعب الصولجان على الخيل كالعجم ولما مضى المرزبان الى كسرى حدثه عن فصاحته وانه صاحب اللسانين فرحب به كسرى وعينه كاتبا في ديوانه فكان أول من كتب بالعربية في هذا الديوان وأرسله الى ملك الروم ورسوله وهو يحمل منه هدية اليه (١) .

وموضع نظرنا في خبر عدى بن زيد ما يرشد اليه بالموضوع الأتم بنقلنا بدخول حضارة الفرس على عرب الحيرة بحيث تميزوا من أبناء جلدتهم في ارجاء جزيرتهم فما هوذا الفتى يتلقى العلم في كتاب عربى واخر فارسى ، وذلك يشهد بقيام كيان للتعليم عندهم وهو اذا طلب العلم في المكتب فأنما يجزى على سنة الفرس في تعليم بنيتهم ودليلنا على ذلك اننا لا نعرف تعليم الصبيان في الكتب عند أهل الحيرة من العرب في ذلك الزمان كما انه يلعب كما يلعب أبناء فارس بالصولجان . والصولجان في الفارسية (جوكان) وما كان للعرب ألف يمثل هنا من لعب الفرس . وفي الحيرة شاعت أخبار ملوك الفرس ، وكانما كان ملوكها من العرب أشبه ما يكونون بملوك فارس في مظاهر ملكهم .

قيل ان هرمز الرابع أهدى تاجا نفيسا تقوم قيمته بستين ألف درهم الى النعمان الثالث يوم تولى الأمر . ولاختيار تلك الهدية مغزاه ، وكلمة تاج فارسية . ولو قيل ان العمائم تيجان العرب لما تغير مدلول التاج ورمزيته ، كما ان اهداء هرمز تاجا الى النعمان قاطع الدلالة على ايثاره له بما يرفع من قدره ويعرف بمنزلته (٢) .

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ص ١٠١ ج (القاهرة ١٩٢٨) .

(٢) Rothstein : Die Dynastie der Lahmidem Al-Hira SS, 128, 129 (٢) — (Berlin 1899).

وعندنا أن ملك الفرس انما أتخف تابعه بذلك التاج كيما يرمز الى عظمة آل ساسان الذين بسطوا على عرب الحيرة سلطانهم ، وبالتالي أوجدوا واسع المجال يعلمون فيه العرب أصول مدنيتهم التي بلغت غاية الغايات في زمانهم .

ومما ينهض دليلا على أن تواريخ الفرس وما يدور على الألسنة من قصص ملوكهم ، مما كان له الشيوع والانتشار بين عرب الحيرة ، ما روى من أن من يدعى النضر ابن الحارث بن كلدة كانت له وفادات على الحيرة فعرف من أهلها أحاديث ملوك الفرس وأقاصيص الأبطال كقصص رستم واسفنديار ، فتلقن عنهم ذلك وحفظه عن ظهر قلب . وكان موغر الصدر على النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل مما يحفظ من قصص وسيلة الى مساجلة النبي ، وكان اذا حدث القوم بنقمة الله على الكافرين ، حدثهم بمحفوظ من أخبار الفرس ، مدعيا أنه أحسن حديثا من النبي (١) .

وما صنع النضر بن الحارث كان خطبا له شر مستطير وأثر شيء بدليل أن آية قرآنية نزلت فيه هي قوله تعالى في سورة لقمان (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا أولئك لهم عذاب مهين) .

ويقول البيضاوى فى تفسيره انه اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشا (٢) ، وما من حاجة تمس الى دليل يقوم على فساد قلبه وخبث سريرته أخذا من هذا الخبر المتعارف المشهور . الا ان الدليل جلى على ما نريد له تبيانا وهو فشو الأحاديث والأقاصيص عن ملوك الفرس فى الحيرة . ومعلوم ان للفرس فرط ولوع بقصص ملوكهم وأخبار أبطالهم وذكر ملاحمهم وخوارقهم . وذلك يشكل جانبا مرموق الأهمية من أدبهم الفصيح والشعبي على سواء . ويلزم من تلك الحقيقة أن يكون عرب الحيرة على دراية بأدب الفرس تتناقله ألسنتهم فى أحاديثهم وأسمائهم واستيعاب النضر للأدب الفارسى يجعله مثالا لغيره من العرب ، أما قول البيضاوى انه كان يشتري كتب الأعاجم فيعزّز ما نذهب اليه، ولا علينا، قولنا ان كتب الفرس تداولتها أيدي العرب . وما من ريب فى ان الأدب عنصر له الجليل من خطره فى تشكيل الحضارات .

ويستفاد من قول المسعودى فى تاريخه ان الفرس كانت لهم فى الجاهلية وفادات - اجتماعية على العرب . وذلك انهم كانوا يقصدون بيت الله الحرام حجاجا يطوفون به تعظيما له ولجدهم ابراهيم عليه السلام . فكان آخر من حج

(١) ابن هشام : السيرة النبوية . ص ٣٢١ ط (القاهرة ١٩٣٦) .

(٢) البيضاوى : تفسير البيضاوى ص ٥٤٢ (القاهرة ١٩٤٧) .

منهم ساسان ابن بابك جده أردشير و اذا طاف بالبيت زمزم ، وانما سميت بئر
زمزم باسمها لزمزمته عليها هو وغيره . وقد توالى هذه الزمزمة عليها وفي
ذلك يقول القائل :

زمزمت الفرس على زمزم وذاك من سالفها الزمزم

وحج الفرس بيت الله في خالى الزمان كان حقيقة لها الثبات عند الفرس
في العصور التوالى تملؤهم فخرا وعجبا . ولقد عدوه مفخرة ومحمدة ، وما ذاك
في نظريات الا لأن فيها الاشارة الى أنهم كانوا على ملة ابراهيم عليه السلام
وما هو ذا شاعر فارسى مسلم يقول :

وما زلنا نحج البيت قدما ونلقى بالأباطح آميننا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا

واذا مر بالبال ان التعارف للتآلف بين الناس من أهم وأقوى أسباب الحج
ما ترتب على حج الفرس بيت الله وجوبا أن يختلطوا بالعرب اختلاطا لا بد يقضى
الى ظاهره التأثير والتأثر . وذاك ما يزداد ويثبت في دوام على مر الأيام . وهو
ما يتقبله العقل ولا يملك له نفيا وردا . وان خلت يدنا من مصداق نوره ومثال
نقيمه مقام القلة التى هى دليل على الكثرة .

وكان الفرس تهدي الى الكعبة أموالا وجواهر . وأهدى ساسان عز الدين
من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا فقذف ذلك فى بئر زمزم (١) .

ولا نعلم صفة هذين التمثالين من الذهب . الا أننا نقطع بأن مشاهدة
العرب لهما تعد اطلاعا على مثال للفن عند الفرس المحتم أن يكون هذان التمثالان
والأسياف من حيث الفنية فى الاوج لان الهدية على مقدار من يهديها ومن تهدي
اليه فالمفترض عقلا أن يكون العرب قد عرفوا من هدية ساسان شيئا عن الفن
الفارسى التشكيلى ، أما ثائريهم به وتقليدهم له ، فلا نجد له من الواقع سنداً .

ولكن حج الفرس بيت الله وما عرفنا من خبر التحفة المهداة اليه من ساسان
ابن برمك تذكرنا بما لا يسعنا نسيانه ولا تناسيه فيما يدور حديثنا عليه ،
ففى كتاب فارسى أن البرامكة فى حاضرتهم بلغ كانوا للأصنام عابدين فى أول
أمرهم : وفى يوم جاء رجل برمك ووصف له الكعبة على التفصيل ، وملك عليه
الوصف اعجابه ، وأخبره بما تصنع قريش والعرب لصيانة الكعبة وعلى أى نحو
يعظمونها وينزلونها من نفوسهم منزلة الحرم . فشاق برمك أن يكون لقومه بيت

(١) المسعودى : مروج الذهب ص ١٥٠ جي (القاهرة ١٣٤٦) ،

على صفة بيت الله . وما صبر أن أمر بأن يبتنى له ما يقرب كل القرب في شبهه
من الكعبة (١) ،

وانما نورد هذا لكونه راجح الدلالة على حقيقتين . ذكر المسعودى أولاهما
وهى ان الفرس كانوا يحجون البيت والثانية ما اجتهدنا فيه برأينا ذاهبين الى
ان جمع الفرس والعرب حول البيت قمين بان يكون السبيل تأثر العرب
بشيء من حضارة الفرس . واذا كان الرجل الذى وصف الكعبة لبرمك من حجيج
الفرس فالأرجحية لرأينا والآخر ان يكون الحق فى الطرف الآخر ما دام التبادل
محتملا بين الطرفين .

ومما يقال توكيدا لكل ما قيل متيقنا كان أو مظهرنا - ان العرب درجوا
على النظر الى مظاهر النعمة والتمدن عند الفرس معجبين به الاعجاب كله راغبين
فى ان يكون لهم مثله ، مما يرجح حسن استعدادهم للأخذ عن الفرس . ونضرب
لذلك مثلا ما ذكر من ان عبد الله بن جدعان وهو من سادات قریش فى الجاهلية
وقد على كسرى وعنده أكل الغالود . وما كان له عهد بالحكم وسأل عن أى شيء
هو ف قيل له انه لب البربلبك مع العمل . وطلب غلاما يصنعه له وعاد به الى
مكة . وعند وصوله أمر بمد الموائد بعد ان صنع هذا الغلام هذا اللون من الحلوى .
وطلب الى مناد أن ينادى قائلا : من أراد أن يأكل الغالود فليحضر . وحضر الناس
ليأكلوا .

وبينهم أمية بن أبى الصلت الذى بلغ من إعجابه بها أكل أن ينظم فيه
شعرا :

ومالى لأحييه وعنلى مواهب يطلعن من النجاد
الى وانه للناس نهى ولا يعتل بالكلم الصوادرى (٢)

واذا ما ذكرنا ان العرب أخذوا عن الفرس فرادى - فمن الحتم ان يزيد
أخذهم عنهم وهم جماعات وهنا تجدر بنا الإشارة الى ما يقول البلاذرى من ان
أرض البحرين كانت من مملكة فارس ، وكان بها خلق كثير من العرب من
عبد القيس وبكر بن وائل وتميم (٣) .

ويقول الجاحظ ان أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر

(١) Schefer : Chrestomathie Persane, p. 3, V2. (Parts 1885).

(٢) أو الفرج الأصفهاني : الأغاني ص ٣٢٩ ح ٨ (القاهرة ١٩٣٥) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٨٩ (القاهرة ١٩٣٢) .

أخذوا عنهم بعض الفاظهم ولذلك يسمون البطيخ الخريز والسميط الرودف ،
وكذلك أهل الكوفة يسمون المسحاة بال وان علق ذلك لغة أهل البصرة اذ نزلوا
بأدنى بلاد فارس لكان ذلك أشبه (١) .

فهذان المؤلفان يلمحان الى ما نريد به تصريحاً . من ضرورة تأثر عرب
الجاهلية بحضارة الفرس ، وان وجدنا الأمثلة : تارة وعدمناها تارات . وأدركنا
ضمننا ما قد تغنى فيه اشارة عن العبارة .

أما فى صدر الاسلام فأول ما يذكر فى أخذ العرب عن حضارة الفرس تلك
الصلة الوثقى التى انعقدت بين النبى صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسى .
يقول الكاتب التركى معلم ناجى ان سليمان من كبار الأصحاب الكرام وخواص
الخدام . يروى عن النبى قوله ان الله حبيب اليه أربعة عليا وأبا ذر والمقداد
وسلمان (٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لسلمان مجلس من رسول الله
ينفرد بالليل حتى كان يغلبنا على رسول الله . كما روى عن أبى هريرة انه قال
كان سلمان صاحب الكتابين يعنى الانجيل والفرقان (٣) .

ولقد أتاح له التفقه فى الدين انه كان على النصرانية قبل الاسلام اضافة
الى المجوسية التى اتخذها ديناً واجتهد فيها ، فتحصل له من المعرفة بالدين
مالم يتحصل لغيره .

وقال الامام الكاظم رضى الله عنه : اذا كان يوم القيامة ينادى مناد : أين
حواريي محمد الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه فيقوم سلمان والمقدم
وابو ذر (٤) .

وفى هذا وضوح الدلالة على ما لسلمان الفارسى من علو القدر عند الرسول
صلى الله عليه وسلم وصحابته . وما شهد له من سعة الاحاطة بأصول الدين
وفروعه ، لقد دان بمجوسية الفارسية التى وجد عليها أباءه ثم اعتنق المسيحية
وقد انتشرت المسيحية فى بلاد الفرس على مذهب البناطرة خصوصاً . وصادفت
الفرس قبولاً . وطلب للبناطرة المقام فى فارس حيث لا وجود للنزاع المذهبى

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ص ١١ ج (القاهرة ١٩٣٢) .

(٢) معلم ناجى : أسامى ، ص ١٧ (استانبول ١٣٠٨) .

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ص ٥٧ ط ١ (القاهرة ١٩٥٣) .

(٤) الحائرى : أبوذر الفجارى . ص ١٨ (النجف ١٩٦٨) .

والجدال الدينى . فازدهرت المسيحية ومال كثير من رجال الدولة الفارسية الى اعتناقها (١) .

وبذلك يكون سلمان قد جمع بين الديانتين اللتين تشكل منهما المعتقد الدينى عند الفرس قبل الاسلام وكانتا العنصر الدينى للحضارة فى فارس . وقد رق قلب سلمان للاسلام فى العام الأول للهجرة - فيتأتى له أن يكون الحجة الثبت فى علمه بدقائق مسائل الدين . ويبنى على هذا أن يكون قد أفاد بعلمه وتجربته من سألته من رفاقه العرب عما استغلق عليه فهمه من خصائص الأديان .

ولشخصية سلمان جانبان هما أشبه شئ بكفتى ميزان ونعى بهما الجانب الدينى والجانب العلمى . فيقال انه كان يعرف الاسم الأعظم وهو الاسم الجامع لجميع الأسماء . وهو اسم الذات الالهية من حيث هى (٢) .

وكان سلمان حجة فى الرواية عن الرغبة فى معرفة الأمور كنه معرفتها ونقول فى ذلك على سبيل المثال ان أحد المؤرخين اعتمد على قول سلمان ان نوحا عليه السلام صنع سفينته فى اربعين عاما من الساج (٣) وكافينا هذا القدر من الاشارة الى انه كان على ثقافة خاصة تعددت جوانبها وقد نفع بها العرب الذين لم يكن لهم واسع اطلاع عليها .

اما اشهر ما يعرف عن سلمان فهو اشارته على النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق والخندق فى الفارسية (كنده) بمعنى المحفور ، وما كان للعرب دراية من قبل بحفر الخنادق كالفرس الذين تمرسوا بفنون الحرب وأصول القتال فى تاريخ طويل .

وفى رأى أن سلمان الفارسى كان عند النبى صلى الله عليه وسلم من يمثل حضارة فى القدم عريقة وله تلك الحيثية التى أعان بها النبى فما تخونه . وهو الذى عرف بحرب الخنادق فكانت أول فكرة فنيه تلقاها الاسلام فى أول أمره عن فارس ، الا ان سلمان عنده المسلمين - حتى من لا يعرفون منهم عن فارس ، الا النزر اليسير - رائد العرب على معرفة أصول الفن (٤) .

وهذا الراى فى سلمان يعرفنا به على الحقيقة بيد اننا لا نرى وجها لقول صاحب هذا الراى ان سلمان بذل العون للنبى صلى الله عليه وسلم ولم يتخونه

(١) Gabriel : Die Erforschung Persiens SS 25, 27 (Wiev 1957).

(٢) الجرجاني : التعريفات ص ١٩ (القاهرة ١٩٢٨) .

(٣) أبو الفضائل الحموى : التاريخ المنصورى ص ٤٧ (موسكو ١٩٦٠) .

(٤) — Massignon : L'Ame de L'otron, p. 87 (Paris 1951).

لان توقع بخونه حد بعيد لاننا لا نعرف ولا نكاد نعرف صحابيا اكثر اختصاصاته منه ولا شخصية اسلامية تردد ذكرها في شعر العرب والفرس والترك ممدوحة بكل جميل كشخصية سلمان الفارسي الذي ان ذكر اسمه وقع في الحاطر وما وشج بين العرب والفرس من صلات لم تزد من بعد الا وثاقة واستحكاما وفتح الله على أهل الايمان فارس فكان هذا الفتح فاتحة بعصر جديد من عصور الحضارة لا قبل له ولا بعد . ويقول في ذلك المستشرق الروسي اينوسترنسيف ان فتح العرب الحافظ لبلاد الفرس هو الهزيمة الماحقة لدول الساسانية ولكن ما كان لحضارة الفرس أن تتقوض دعائمها وتمحى أمام باطش من سلاح العرب وهزيمة الفرس في الظاهر ليس الا وقد وجب على العرب ان يحافظوا على حضارة الفرس وهم وان تمزق ملكهم ودالت دولتهم الا ان رجال الدين ظلوا على احتفاظهم بعظيم نفوذهم وسيطروا تمام السيطرة على أهل البلاد كما تحتم البقاء للتقاليد الفارسية المتوارثة منهم (١) .

وعندنا ان هذا الحكم صحيح جله لا كله . وقد دخل أهل المجوسية في دين الله أفواجا . وان فرت قلة ضئيلة منهم بعقيدتهم الى أطراف نائية في البلاد او ازعجت عن وطنها وزايلته الى بلاد الهند وسيطرة رجال الدين من المجوس على اتباعهم في العقيدة لا يعنى شيئا يتعلق بالمسلمين اما استمساك المجوس بتقاليدهم فمتوقع من أمرهم وان حسن التحفظ والتميز بين ما يختص منها بالدين وما يتصل بغير الدين من شتى أمور الحياة .

ومما وقع في تلك الآونة أن الهرمزان حاكم الأهواز أسرته العرب وساقته الى الخليفة عمر وفي لقائه وحواره معه قال له ان الله كان مع العرب فنصرهم وخلي عمر سبيله فأسلم وبقيّة الخبر انه قال لعمر ان الفرس يحسبون أوقاتهم بما يسمى عندهم (ماه روز) وبه يعرفون الشهور والأعوام (٢) .

قيل وتلقى الخليفة هذه المعلومة من الهرمزان بالاعجاب وعقد نيته على أن يجعل للعرب مثل ما للفرس وترتب على ذلك وضعه التاريخي الهجري وقد نوه بذلك شاعر فارسي معاصر يسمى نوبخت فقال ما ترجمته (ماه روز من الرسوم القديمة رسم كان يعرف في إيران بهذا الاسم واليوم حقيق بصاحب الدين . ان يتبع ذلك من رسوم المالكين حتى يعلم صاحب المذهب شعبان الجارى من

— Inostransiev : So sanidye Etridi. 'Str. 4. (Sonktpelelring 1909).

(١)

(٢) السخاوى الاعلام بالتوبيخ لن ذم التاريخ ص ٨١ (دمشق ١٣٤٩) .

شعبان الذي ذهب ولما سمع عمر منه هذا العجب الى من في مجلسه الراى طلب
وتقبلوا هذا الراى واستحسنوه والزمان بأول الهجرة حسبوه (١) .

وبذلك لا يخفى ان العرب أخذوا عن الفرس لازمة من لوازم المدنية كانت
لفارس وما كانت لهم ولما كان الدين الحنيف هو الأصل للحضارة الاسلامية
التي انشعبت عنه كل فروعها في بلاد الفرس بخاصة واعتنق المجوس الدين
الحق واجتمعوا مع العرب على عقيدة التوحيد فقدر الظهور لعصر جديد تألف
الفرس فيه والعرب وتكاتفوا على اقامة صرح للحضارة له الخلود على الدهر لم يكن
من نافلة القول اشارتنا الى ان الاسلام الهرمزان وقع موقع الاعجاب من شاعرية
شاعر ألماني من أهل القرن الماضي يسمى بلاتن فنظم فيه شعرا وساجله بالشاعر
الفارسي المعاصر يورد أود فنظم في ذلك المعنى عشرين بيتا أما مضمون ما قيل
من شعر فانه اسلام الهرمزان عن رضا وطواعية ورغبة لا رهبة (٢) .

وذلك دال على كثير لأنه يرشد الى ان الدين كان عمدة السبب في تعاون
الفرس مع العرب ويبين ان الحضارة الاسلامية وان تألفت من شتى المقومات الا
أنها قامت على عدم التمييز بين عربي وأعجمي الا بالتقوى . وما ميز الاسلام بين
لون ولا لسان وجملة القول ان اسلام الهرمزان بتلك الكيفية موضح لنا الباعث
الأقوى الذي أفضى الى نشأة حضارة اسلامية كان الأخذ فيها بين الطرفين متبادلا
على نحو لا ريب فيه .

وَأَخَذَ الْعَرَبُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ عَنِ الْفَرَسِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ مِنْ عَهْدٍ
فَلَقَدْ ضَرَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الدَّرَاهِمَ عَلَى نَقْشِ الْكُسْرَوِيَّةِ وَهِيَ الدَّرَاهِمُ الْفَارَسِيَّةُ
وَالدَّرَاهِمُ فِي الْعَرَبِيَّةِ مَعْرَبٌ (دَرَم) فِي لِسَانِ الْفَرَسِ وَفِي ذَلِكَ كُلِّ الدَّلَالَةِ
عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ إِنَّمَا عَرَفُوا الدَّرَاهِمَ عَنِ الْفَرَسِ وَهَذَا يَسْتَبِينُ لَنَا الْفَارِقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
وَهَؤُلَاءِ مِنْ حَيْثُ وَضَعَهُمُ الْحَضَارَى لِأَنَّ الْمُتَعَامِلَ بِالنَّقْدِ مُتَقَدِّمٌ خُطْوَةً فِي الْبَادِي
مِنْ حَالَةٍ عَمَّنْ يَتَعَامَلُ بِتَبَادُلِ السِّلَعِ غَيْرَ أَنَّ عُمَرَ فِي أَخْذِهِ الدَّرَاهِمَ عَنِ فَارِسَ
تَنَاوَلَهَا بِشَيْءٍ مِنْ تَبْدِيلٍ لِأَنَّهُ زَادَ فِي بَعْضِهَا (الْحَمْدُ لِلَّهِ) وَاضْأَفَ إِلَى بَعْضِهَا
الْآخِرَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كَمَا كَانَ الْمُتَوَقَّعُ مِنْهُ أَنْ يَضْرِبَ اسْمَهُ عَلَى غَيْرِهَا وَلَكِنَّهَا

(١) يكي رسم ديرينه باشد هنوز - نقش درایران بود ماه روز

خداوند دین راسـزد بیروی	کنون نیازان رسم کیخسروی
ازین بس بداند خداوند کیش	کم این ماه شعبان ز شعبان بیش
درین باره شدزا بخمن جاره جوی	عمر جون شنیداین شکفتی ازوی
زمان راز اغـاز هجـرت گرفت	بسندیـد ازوانجمن این شکفت

(٢) حسین کاظم ایرانـشهر : تجلیات روح ایرانی ص ٣١ (تهران ١٣٤٣) .

ظلت تحمل صورة ملك الفرس فنقشت عليها صورته ولنا ان نلمح في ذلك انها احتفظت بطابعين متغايرين اولهما الطابع الفارسي الدال على انها دخيلة على العرب مستعارة من الفرس والثاني الطابع الاسلامي المحض الذي فيه الابانة عن عقيدة أهل الايمان ويمنع نقش الصور منع كراهة . وفي مثل هذا لقاء بين مظهرين من مظاهر حضارة العرب والفرس فحضارة العرب مستمدة من الدين أصلا أما الفرس فتجلت لديهم في أكثر من ظاهرة غير الدين ومنها الفن الذي يعبرون فيه عن كل ما يعبر عنه ومن ذلك نقش الصور للوكلهم الذين ينزلونهم منزلة التقديس على انهم انما يحكمون بالحق الالهي المقدس .

ويقول المقریزی ان تلك الدراهم منقوشة بالفارسية وبقوله لا نتبين حقيقة ما كتب عليها في يقين ونتساءل عن امكان نقش ما أشرنا اليه من عباراتها العربية بلغة الفرس ثم يذكر انها ظلت على ذلك الى زمن الحجاج (١) .

واذا ذكر الفن يدر الى الفهم انه لم يكن بينه وبين العرب آصرة وما كان للفن في حياة العرب من مجال لان حياة الحل والترحال لا تتيح لمن يحيها ان يلبث مدة مديدة يشغل نفسه فيها بابداع أثر فني فضلا عن أن العرب في صدر الاسلام شغلوا بدينهم وتدبر قرآنهم ومعلوم ان الاسلام ناه في عموم عن الاشتغال بالفن وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) ولهذا قوى من أسباب تبريره وتأييده في أول العهد بالاسلام على الخصوص ولكن للفن مفهوما أوسع وأعم تندرج تحته فروع وفروع تخرج بمفهومه من الخصوص الى العموم ونضرب لذلك فن العمارة الذي لا نعرف ان العرب الذين نخصهم بالذكر في معين من عصرهم قد خلفوا فيه أثرا له الدلالة على شيء مما نقصد اليه في كلامنا فلم يبق الا حتمية ان يكون (الفن في جملته وافد على العرب مأخوذ من غيرهم وهم الفرس .

وأول ما يذكر في ذلك ان عبد الله بن الزبير في عام ٦٥ للهجرة حين أراد تجديد بناء الكعبة استخدم عمالا بنائين من الفرس فانجزوا ما وكل اليهم انجازه (٢) .

وفي ذلك واضح الدلالة على انه لم يوجد في العرب من له القدرة على أن يفي بالحاجة ولم يغب عنه ان الفرس أهل لذلك . ولا غرو ففن البناء وما يتصل به أصيل عندهم يشكل الجانب العظيم من حضارتهم فأحسن العرب صنعا

(١) المقریزی : اغانة الأمة بكشف الغمة ص ٥٢ (حصص ١٩٥٢) .

(٢) Creswell . A Short Account of early Muslim Architecture, p. 15. (London 1958).

بالاستعارة ممن لهم قدرة وخبرة ، ومن مستطرف ما يقال ان هؤلاء البنائين
الفرس كانوا يغنون وهم يبنون وتعلم العرب الغناء منهم وبذلك يكونون قد
أدخلوا على العرب من حضارتهم فنين فى وقت معا .

ونمضى مع الزمان الى عصر بنى العباسى فنستهل بقول ابن خلدون ان
العرب استخدموا الفرس وأخذوا عنهم البضائع والمباني ودعتهم اليها أحوال
الدعة والترف (١) .

ومصادق ذلك ان الخليفة المنصور حين صبح منه العزم على بناء بغداد
استعان فى تخطيطها واقامة قصره فيها بمعماري فارسى هو أبو سهل النوبختى
وتفسيح المجال للخطيب البغدادي فى وصف قصر المنصور بقوله ان فى صدره
ايوانا وفى صدر الايوان وسقفه فيه وعليه مجلس مثله فوقه قبة خضراء وعلى
رأس القبة تمثال فارسى على فرسه وكانت هذه القبة تاج بغداد ومآثره من مآثر
بنى العباس عظيمة (٢) .

وهذا مجمل وصف القصر ونذكر منه على التحقيق انه نموذج لقصور ملوك
الفرس فايوان كلمة فارسية وتمثال الفارس ربما لم تقع عليه من قبل عين عربية
أما تشبيه القبة بتاج لبغداد فتخيل لكسرى أثقل رأسه تاجه المرصع بنفيس
الجواهر فكان قصر المنصور صورة صادقة للدلالة على ما دخل على العرب من
فنون الفرس ومن قصور العباسيين يسمى الاخيفر ويحيط بفنائه الأوسط
تجويفات تنتهى فى أعلاها بحنايا معقودة ومزخرفة ذات أشكال مختلفة تعرف
فى الفارسية بهزار باف بمعنى الف نسج وهى صناعة أخذها المسلمون عن
الفرس واجمل غرف هذا القصر مغطاة باقبية تفصلها عدة عقود - وهى طريقة
ساسانية نقلها المسلمون منذ عهد الأمويين ووجدت فى أحد قصورهم ببادية
الشام (٣) .

والفن الفارسى فن زخرفى فى أساسه وقد برز الفنان الفارسى فى رسم
تلك الزخارف الهندسية المعروفة فى الغرب بالأرابسك وأضحى هذا الاسم
اصطلاحا فنيا له الأهمية وقد عبر الفنان الفارسى عن عبقريته الفنية فى حسن
استخدام لما بين يديه من مادة يشكل منها رائعة من روائع الفن الزخرفى وفى
رأى ان السبب الأول فى نشأة تلك الزخارف هو ان العرب أدخلوا على ايران

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٣٠١ (القاهرة ١٩٣٠) .

(٢) الخطيب القزوينى : تاريخ بغداد ، ص ٧٣ ج ١ (القاهرة ١٩٣١) .

(٣) د . كمال الدين سامح : العمارة فى صدر الاسلام ص ٦٦ (القاهرة ١٦٤) .

وما تاخمها من بلاد ميلا الى الحساب . وبعد ان كان الفرس يرسمون النصور
الآدمية كفوا عن رسمها ردحا من الزمن حتى لا يقعوا فى الاثم الا انهم ولدوا
الزخارف من الخط العربى فاتقنوا ذلك أيما اتقان (١) .

ونحن نورد هذا بلا تأييد ولا تفنييد وما يلفتنا اليه هو أن الفضل فى
الزخارف الهندسية منسوب الى الفرس وعليه يجدر بالذكر ان تلك الزخارف
تشكل الجانب الأهم الأعظم من الفن الاسلامى وتميزه بخاص من طابعه .
وأقدم الرسامون المسلمون على رسم صور للأشخاص بعد احجامهم عن
ذلك طويل زمان وكان هذا التصوير رغبة منهم فى تزيين الكتب ومما يلحظ
ان - العنصر الفارسى كان شديد الوضوح فى تصورههم ومن أشهر الأمثلة لذلك
فى بغداد المخطوطة من مقامات الحريري ويقول أحد الدارسين ان ما فى تلك
المخطوطة من صور يشهد للمصور بأصالة ملكته الفنية (٢) .

وتزيين الكتب بالصور فن قائم بذاته من الفنون الاسلامية يوليه كبير من
العلماء فضلا عن عنايتهم وبخصونه بعمق مستفيض من دراستهم وهم دائمو
الاشارة الى انه من الفنون التى طبعها الفرس بطابعهم .

وتزيين الكتب بالصور يفضى بنا بالحثم الى ذكر تزيين كؤوس الشراب بها
وقد درج كثير من شعراء العرب على وصف تلك التصاوير وليس أشهر من قول
أبى نواس :

قرازتها كسرى وفى جنباتها مها تدرىها بالقسى الفوارس
فللخمر مازمت عليه جيوبهم وللماء ما دارت عليه القلانس

ومن أهل الأدب من يبلغ اعجابهم بهذا من قول أبى القول بانه أحسن
ما قال وعندنا انه كان دقيقا فى وصفه لتلك الصور فى قاعها وجنباتها بل
انه جعل لها صورة منظوقة تطابق صورتها المرئية وفى هذا الكلام دلالة على
ان تلك الكأس تحوى صورة لكسرى ومشهدا من مشاهد الصيد اما من يصيدون
المها فمن الفرس وعلى رؤوسهم القلانس وقد أورد أحمد تيمور عدة أمثلة (١) .

ولكن النظر فى تلك الأمثلة يتيح لنا ان نطلق حكما خاصا وعاما فالأشعار
التي قيلت فى وصف فارس من صور فى أقداح الشراب صريح النص على ان

(١) Benjamin : Persia and the Persians, p. 222, (London 1883).

(٢) — Bingon : La Miniatura Persiana, Iran pp. 27, 28 (Roma Mc MLX).

(٣) أحمد تيمور : التصوير عند العرب ص ٢٢ (القاهرة ١٩٤٢) .

تلك الصور لكسرى مما يستخلص منه ان صناعتها صناعه عجميه ويؤيد ذلك ان ذكر صورة كسرى مشار اليها فى دوام كما ان تلك الأشعار منسوبة الى شعراء من أمصار متباعدة وفى عصور تأخر بعضها كثيرا عن عصر أبى نواس . لو اننا قلنا ان نسبه فى الفرس وبيئته البغدادية فارسية وعليه فالمستخلص من هذا وجوب ان يكون وصف كأس الشراب فنا من فنون الشعر العربى وان لم يلتفت اليه وفيه الايماء الى أنه رسم صورة ملك الفرس فى كأس الشراب وهو فن قائم بنفسه . واذا شئنا القول على التفصيل والايضاح قلنا باقران فن التصوير بفن القول قلنا ان نحكم فى شمول بان الفرس منسوب اليهم هذا الفن وله جانبان لكل منهما لا نسيان له فى تعلقه بما أمد الفرس به حضارة الاسلام من مقومات حضارتهم فى سالف الدهر ولا خير أن نقول ولو ظننا ان تزيين الكأس بصورة كسرى قد يكون منبعثا من تاريخ الفرس الأسطورى . فقد قيل ان الملك جمشيد من ملوك الفرس الأوائل الذين يمتزج تاريخهم بالأساطير . كانت له كأس رسم فيها صورة الأقاليم السبعة وقد تردد لتلك الكأس ذكر فى الشعر الفارسي الصوفي ورمز بها المتصوف الى خاص من احكامهم وتعاليمهم ليس هنا مقام ذكره .

وان ذكر دخول الفرس بفن التصوير على العرب لباحتنا على ما يشبهه التاريخ بين عصر الأمويين وعصر العباسيين فقد كان فى قصر للخليفة الأهوى الوليد بن عبد الملك صورة على الجص تسمى صورة أعداء الاسلام وهى تمثل ثلاثة رجال يبسطون أيديهم وخلفهم ثلاثة آخرون خلفهم رائعون فترتيب الأشخاص فى صفوف مستمد من تقاليد بنى ساسان لاننا نجد مثل ذلك فى مشاهد فى النقوش الفارسية القديمة وبسط الأيدي أمانة على الولاء والخضوع والاسسلام . وتلك الصورة فى قصر الوليد قريبة الشبه من النقوش الساسانية فى موضوعها والاسلوب المعبر فيها .

وفى قصر الخليفة الأهوى هشام بن عبد الملك صورة لصيد الغرلان - وربما مثلت تلك الصورة قصة الأمير الساساني بهرام جوا مع صاحبتة وهى التى تردد لها الذكر فى القصص الفارسي (١) .

وفى مصر العباسيين نشير الى تزيين الرشيد قاعة له بصور فارسية ساسانية (٢) .

(١) د. حسين مجيب المصرى : صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٥٩ (القاهرة ١٩٧٠) .

(٢) د. حسن الباشا : التصوير الاسلامى ص ٥٠ و ٥٩ و ٦٠ (القاهرة ١٩٥٩) .

ويؤخذ من ذلك ان الفن الفارسي وفد على العرب بما لا يحتمل من شك
ولا تاويل .

ومما جرت عادة الفنان الفارسي في رسمه على الحرف . صورة الفيل وفي
أقدامه حبيبات بيض ومن الباحثين من يقول ان تلك الحبيبات البيض في حافة
الطبق في مدينة سامرا والخزف الطولوني (١) .

فكأن هذا الاسلوب الزخرفي الفارسي لم يفتصر بتأثيره على صناعة الخزف
في سامرا ان قيل انها قريبة من بلاد الفرس بل تعداه الى مصر الطولونية .
مما يتأيد به اتساع مجال تأثير هذا الفن الفارسي وفن رسم الصور مذكرا بفن
نسيج الثياب . فقد استلزمت حياة الترف والبذخ التي كانت لفارس على عهد
الساسانيين ان يهتم الفرس بما يلبسون وأول ما يقال في هذا كثرة الألفاظ
العربية المصرية عن الفارسية الخاصة بالنسيج والثياب مثال ذلك لفظ ابريشم
وهو في الفارسية (أبريش) واستبرق وهو (استبره) وديباج وهو (ديبا)
ومن أسماء الملابس المصرية السروال وهو في الفارسية (شلوار) والقرطق وهو
(كرته) وما الى ذلك من الفاظ لا تقع تحت حصر وقد زينت الثياب بزخارف
هندسية ورسوم نباتية ويدل على أخذ العرب عن الفرس ان كلمة طراز العربية
معرب (تراز) فارسية بمعنى علم الثواب وموضع نسيج الثياب الفاخرة . وقد
اشتقت في العربية من تلك الكلمة كلمات وكان لفن نسيج الثياب على المعلوم
طريقة الفرس في بلاد الاسلام فهذا هو ذا الرحالة الفارسي ناصر خسرو يزور
مصر في القرن الخامس الهجري يذكر ان القصب الملون ينسج في مدينة تنيس
والأبيض منه خاصة ينسج في مدينة دمياط كما أشار الى صفوف من ثياب
النساء (٢) .

وهو وان لم يعين لتلك الثياب أسماء الا ان الأخذ عن الفرس في صنعها
وزخرفتها لا يحتاج الى تعيين وكاف ان مكان نسجها فارسي الاسم وان كثيرا
من أهل التجارة والصناعة من الفرس توافدوا على مصر منذ القرن الأول الهجري
وعند علماء الآثار الاسلامية ان الفن في عصر الفاطميين كان شديد التأثير بالفن
الفارسي كالرسوم على الزخارف النباتية والهندسية على الخشب والمعادن
والخزف (٣) .

(١) عبد الرؤوف يوسف : طبق عين والخزف الطولوني محلة كلية الآداب جامعة القاهرة
ص ١٨ ج ١ (القاهرة ١٩٥٨) .

(٢) د . ناصر خسرو : سفرنامه ص ٥١ (برلين ١٣٤٠) .

(٣) د . ذكي حسن كنوز الفاطميين ص ١٠٥ - ١٠٧ (القاهرة - ١٩٣١) .

وفى ذكر كل تلك الفنون ما نتيقن منه ان الفنون برمتها انما تلقاها العرب عن فارس . واذا آثرنا الدقة فى الحكم بحيث يكون جازما لا يحتمل نقضا عدنا الى صناعة نسج الحرير التى ألح ناصر خسرو اليها فى حديثه عن مصر وازدهار تلك الصناعة كيما يتسرب الاحتمال الى القطع بان تلك الصناعة فارسية حتى ولو أظهر النسيج المصرى غاية المهارة فيها على أن مصر اشتهرت بالقباطى مثلا وهو منسوب الى قبط مصر غير اننا قد نجد تأييدا لما أسلفنا من قول وفن واقع التاريخ .

فللفرس منذ عهد الساسانيين شهرة بصناعة الحرير وقد ازدهرت تلك الصناعة بعد الفتح العربى وكانت وسوسة من مراكز تلك الصناعة وجدير بالذكر ان الفرس المسلمين حافظوا على تقاليد اسلامهم فى تلك الصناعة ولم يغيروا من الزخارف القديمة كما ان العرب لم يضيفوا الى هذا القديم جديدا وفى عهد المأمون بعثت الولايات الفارسية التى كانت فى حوزة العباسيين كثيرا من منسوجات الحرير على انها من قبيل الجزية التى تؤديها للدولة وبعث ابن ماهان والى خراسان الى الرشيد من هذا الحرير على انه مفوض التقديم بتلك المثابة (١) .

ولعل فى هذا ما يقصر فن نسج الحرير على أبناء فارس ويكاد ينفى عن العرب مما يوضح الى أى حد بعيد كان أثر الفرس فى ذلك الفن بعينه وليس يسعنا ان نبعد عن خيالنا أهل السعة من المسلمين وهم (يرفلون فى حلل الحرير المبرقشة المزركشة عارضين بذلك مظهرا بهيجا بهيا لما قبسوه من الحضارة الفارسية .

وفى عصر العباسيين خاصة ازدهر فن الطرب واشتهر المغنون وهم معظمهم من الفرس . وقد شد رحاله الى فارس ليتعلم فن الغناء . ومن المغنين من غنى الفارسية فى أيام الرشيد وهو سلمك واستحسن لحنا من ألحان ابن محرز فغنى فيه بالفارسية (٢) .

وكانت الأغاني الفارسية معروفة فى المدينة بدليل ما قيل من ان مغنيا اسمه سائب أول من صنع العود فى المدينة وغنى بالفارسية . ومن العرب من ذهب الى ان كلمة بربط بمعنى العود كلمة فارسية بمعنى صدر البط ونحن وان كنا لا نميل الى هذا التفسير . الا أننا نتخذ شاهدنا على ان العرب أخذوا فن الغناء عن الفرس .

(١) د. سعاد ماهر : مشهد الإمام على فى النخف ص ٢٢٠ و ٢٢١ (القاهرة ١٩٦٨) .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ص ٣٧٩ ج ١ (القاهرة ١٩٢٥) .

ومن الدليل على ان اقتباس العرب الغناء عن الفرس امر متعالم مشهور -
أن النويرى عقد فصلا يستغرق قريبا من مائة صفحة على أخبار المغنين الذين
نقلوا الغناء عن الفارسية .

ونجد بعيد الأثر للفرس فى الغناء اذا ذكرنا شاهدا لغويا وهو (خنكر)
فقد قيل ان ابراهيم الموصلى مثال لخريجه فى الغناء اذا احتكرت فتحتر لمثل
(هؤلاء) يريد البرامكة وقد يكون الكلمة مولدة او من كلام العوام او من ابتكار
ابراهيم الموصلى الا ان لها صريحا من دلالتها على أثر الفرس فى الغناء لان كلمة
(خنياكر) فى الفارسية بمعنى المغنى .

وفى العصر العباسى تجلت الحضارة الفارسية فى المظهر الأوضح فقد اقام
الفرس تلك الدولة بمسعى من أبى مسلم الخراسانى الذى يعد بطلا شعبيا وله
الفضل فى احياء عادات ورسوم الأكاصرة فى قصر الخلفاء وظلت فى الاسلام
قرونا بعد قرون وتراءى أبو مسلم للمأمون ملكا من ملوك الأرض كأردشير
والاسكندر وان كان المأمون مندفعاً الى مثل تلك المبالغة بنزعتة الى الفرس لأنه
فارسى الأم ولولا أبو مسلم لما كان لدولة العباسيين من قيام ولا لمسلم عند الفرس
منزلة البطل الذى رفع عن الفرس ضير العرب وأنصفهم وأقام لهم دولة شبه
فارسية لها تأثير من مقومات دول الفرس وصفاتها .

ومما يذكر عنه مؤيدا لشدة حرصه الى احياء القومية الفارسية وبعث
حضارة فارس التى كان الفتح العربى معول هدم فى نظر الفرس لهدم دعائمها
ان امرأة من خراسان خفق قلبها له كما تخفق قلوب النساء للأبطال فى فرط
اعجاب بهم وطاف خبرها بسمعه فاستدعاها وقال لها انه يعمل ويجهد من أجل
وطنه فلا حاجة له بالنساء (١) .

ويستخلص من ذلك ان أبا مسلم كان مشبوب الحماسة وطيد العزيمة فى
نزعته العارمة الى بعث دولة الفرس بما كان لها من مجد وسؤدد قبل أن تدول
على أيدي العرب وما كان مثل هذا الشعور ولا ذلك مما تموج به نفسه وحده
دون سواء من أبناء بلدته الذين رأوا فى احياء عاداتهم والمتوارث من تقاليدهم
أهم مظهر لحياء كرويتهم ومدنيتهم .

وكان للخلافة مظهر الملكية الفارسية وتجلي ذلك فى قصورهم والتقاليد
المرعية عندهم مثال ذلك انهم فى بلاطهم كانوا يفرضون ما يفرض الأكاصرة على

(١) ميرئى : آئينة بهلوان نما ص ٩٣ (تهران ١٣٤٩) .

رعيتهم فى المنول بين أيديهم يجعلونهم يقبلون الأرض أماهم بدلا أما عظماء الناس ووجوههم فجرت العادة بأن يقبلوا يد الخليفة أو قدمه أو ذيل ثوبه (١) .

ويحضرنا النبى صلوات الله وسلامه عليه جذب يده ممن أراد لها تقبيلًا . وقال له ان هذا مما يفعله الأعاجم ويتأكد بذلك ان خلفاء بنى العباس أحيطوا بكل ما كان كسرى يحيط به نفسه من مظاهر عظمة ملكه فى تكبر وتجبّر وخيلاء لم تكن من قبل للخليفة فى محيطه العربى الاسلامى وهو خليفة رسول الله .

ومما يتصل بسبب مما يزيد الأمر توكيدا منصب الوزارة الذى طبع نظام الحكم فى الدولة العباسية بطابع لم يكن له من قبل . وحقيق بنا أن نقول ان اللغويين العرب لم يصيبوا عين الصواب فى اشتقاق كلمة وزير من الوزارة فقالوا انه سمي الوزير لحمله الوزر أى الحمل عن الملك فى حكمه . وهذا تظنن يقوله الاستدلال والصحيح ان الوزير كلمة فارسية هي Vichiro واشتقاقها من المصدر بمعنى البت فى الأمر بذلك يترجح ان الوزارة منصب كان معلوما عند الفرس قبل الاسلام وقبسه منهم خلفاء العباسيين .

يقول الطبرى فى تاريخه ان زيادا كان يسمى وزير معاوية (٢) وهذا قوله مؤيد لما نذهب اليه لان لقب الوزير فى عهد معاوية لم يكن له رسمية فى الدولة ولعل الاسم كان معروفا قبل عهد العباسيين على نحو ما عرف كثير من الألفاظ الفارسية عند العرب منذ الجاهلية .

ومما تزداد به الوزارة أصالة فى فارسيتها ان خلفاء بنى العباس كانوا يصطنعون وزراءهم من الفرس وذلك منذ بدايتهم ومنهم الخليفة السفاح الذى وزر له أبو سلمة الخلال الذى كان على الصلة الوثقى مع أبى مسلم الخراسانى مقيم الدولة وكان لأبى سلمة ميل الى آل على بن أبى طالب كرم الله وجهه يريد أن تكون الخلافة لأحد من ذريته وقتله السفاح بهذا من اتجاهه السياسى (٣) .

وان كانت تلك نزعتها فانها نزع فارسية ما ازدادت من بعد الأئمة عند الفرس على الأخص . وبعد مقتل أبى سلمة كانت الوزارة لخالد بن برمك جد البرامكة الذى ظل فى منصبه وزيرا من بعد للمنصور وعلى ذكر البرامكة الذين

(١) — Arnold : The caliphate ; p. 29 (Oxford 1924).

(٢) — Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 256. (Cambridge 1930).

(٣) خوندمير : دستور الوزراء ص ٢٦ (طهران ١٣١٧) .

دامت لهم الوزارة طويلا من بعد نقول ان البرامكة كانت لهم فى الوزارة كتب
قديمة يلزمون أبناءهم بمضاهاتها وتمحيص مضمونها وهم فتية يطلبون العلم (١) .

وفى هذا كل الدليل على أن العرب انما عرفوا الوزارة عن الفرس وأمسست
من بعد مقوما له الملحوظ من عظيم خطره لدى الشعوب الاسلامية .

ولما عايش العرب الفرس جرى مجرى الواقع ما يترتب من حتمية أن يستعير
كل من الطرفين ألفاظا من الطرف المقابل وقد انسرب الى العربية ما لا يقع تحت
حصر من ألفاظ فارسية عربها العرب وطوعوها لأحكام لغة الضاد وجلها أسماء
لأدوات وألوان من المطعوم والمشروب ومواد ونباتات وعقاقير ونوعية المستعار
من لغة الفرس مما يشهد على ان العرب انما تلقوا ما لم يكن لهم . كما انه يشير
الى انه خاص بقوم لهم مزدهر من حضارتهم وأسلوب مخالف من حياتهم غير ان
العرب ما استعاروا من الفرس الا لىفى بحاجتهم فى تطبيقه على عصر
جديد لهم تأثروا فيه بالفرس فالعرب عنوا بحقيقة لا ريب فيها هي ان العرب
أمسوا فى طور جديد من أطوار تاريخهم وطابعه اللغوى صادق الدلالة عليه
ولا نسيان لان هذا المعار من لغة فارس زود العربية بكثرة من الألفاظ كان
اندراجها فيها ثراء لمتنها وعنصر لا سبيل الى فصله عنها والعجب ان كثيرا من
المعرب دخل على لغة الفرس من بعد كأنما نسيت فارسيتها ونضرب لذلك مثلا
الخنديق . فالفرس لا يذكرونه فى أصله الفارسى واذا أخذ العرب عن الفرس
الكهرباء بمعنى جاذب القش لا يستردها الفرس منهم بل يستخدمون البرق فى
لغة العرب والفرس قد يعرفون ألفاظا عربية دخلت لغتهم عن معانيها فنشاط
عندهم معنى سرور وحصار بمعنى حصن ومثل هذا لا شك تطور للغتين على سواء
وارتقاء بهما وتوسع لهما فى المعنى والمبنى .

ومن علماء العرب القدامى من عرض لذكر المعرب الا انه عجز عن رده الى
أصله على الصواب ومنهم من اكتفى بقوله وهو ما أظنه غير عربى . كما فى كلمة
ورد التى جرت عليها أحكام العربية وكان مفردة ورده والكلمة فى الفارسية
Wroden ومن الدليل على أصالتها فى آريتها انها فى الأزمنية Vart
ومنهم من اجتهد بالرأى فى تفسير بعض الألفاظ تمام وما ورد كأبى العلاء المعرى
فى كتابه « عبث الوليد » مفرض لكلمة جلنار وهى فى الفارسية كلنار ومعناها
الحرفى زهر الرمان الا انه جاء بتخريجات تبعد بالكلمة غاية البعد عن
معناها (٢) .

(١) نظام الملك : سياست نامه : ص ١٥١ (باريس ١٨٩١) .

(٢) أبو العلاء المعرى : عبث الوليد ص ٨١ (دمشق ١٩٣٦) .

ونتيجه لتلك المقدمة أخرجت كتب وانعقدت فصول وظهرت بحوث أقامت جانباً من عدة جوانب لعلم اللغة عند العرب .

وفى عهد العباسيين بخاصة ظهرت نزعة قومية عند الفرس هي الشعوبية والآخذون بها من الفرس الذين أظهروا شديداً تعصبهم لأهل فارس بما لها من عظيم مجدها وبعد صيتها بمدىنتها فى القديم وسلوكوا السبل للتعبير عن كراهيتهم للعرب وتعصبهم عليهم والغض من قدرهم . لانهم قوم ينحطون عن الفرس فما كان من الخضرة مثل أو حتى بعض ما كان للفرس فى كثير ولا قليل وجدها الفرس فرصة حانت لهم ليستردوا ما سلبهم العرب من حقهم بعد أن تلوا عرشهم الكروى وأذهبوا ريحهم وأصبح لهم السلطان فى الأرض بعدهم وكانت الشعوبية بكل ما وسعت من مآربها حركة تمس الحاجة فيها الى من يتولى التعبير عنها داعياً اليها مرغبا فيها ورافضاً لها مرغبا عنها وأدى الأمر الى وقوف بلغاء وعلماء من الفرس والعرب فى صفين متقابلين هما فى واقع الحال متجادلان متخاصمان يبرز كل منهما ما فى حقيبتة من قواطع البراهين لتكون له الحجة والبينة فاقتضاه هذا الموقف أن يحاول البلاغة ما وسعه أن يحاولها ويقيم بالنقل والعقل كل دليل جدلى ويقينى ومن شأن ذاك أن يكون باباً قائماً بذاته من أبواب العلم والأدب . وما كان له أن يوجد لولا أن أوجده الفرس بنزعتهم القومية ، وحقيق به أن يشغل الدارسين بما تضمنه من حقائق ودقائق .

وترددت الأصدااء الشعوبية فى الشعر وتجاوزته الى مؤلفات أخرجت فى هذا الغرض ، وألف الفرس فى مثالب العرب ومناقب العجم . وممن ألفوا فى ذلك الباب أبو عبيدة الفارسى النسب وله كتاب فضائل الفرس . وبالذكر حقيق أن بعض علماء العرب عرفوا عنه اشتهاؤه بمذمة العرب والافتراء عليهم ، فتحفظ وهو يروى انه ، كالميدانى صاحب مجمع الأمثال . فلما أورد المثل الذى يقول (أعذر من قيس بن عاصم) بادر الى التعقيب قائلاً ان أبا عبيدة زعم انه من أعذر العرب (١) .

ويتحصل من هذا المثال أن الفرس بشعوبيتهم وفروا من الأسباب ما بعث علماء العرب على تمحيص ما أرادوا من روايات . وذلك معين على تعود التلقى فى قدرة على التمييز بين الصحيح والفساد ، وبعضهم من تقبل القضايا على علاتها مسلمات لا مجال فيها لنقد ولا أخذ ولا ورد ، حتى لو نسبت الى مثل أبى عبيدة وهو من العلم فى المكان المرموق .

(١) الميدانى : مجمع الأمثال ص ١١ ج ١ (القاهرة) .

وانبرى من علماء العرب من رد على الشعوبية ، وها هو ذا الجاحظ فى كتابه
البخلاء لشعوبى يسمى الهدير بن عدى له كتاب المثالب الكبير ، وكتاب المثالب
الصغير .

وجملة القول أن العرس بشعوبيتهم تسببوا فى نشأة حركة علمية أدبية
لها خاص من سماتها وصفاتها ، ويتفرع عن الشعوبية اتجاه أدبى يعد تطوراً
للشعر العربى . وله من أسبابه ونتائجه ما يقتضى منا أن نقف عنده وقفه وننظر
فيه نظرة .

ولأبى نواس شعر أقبح فيه كثيراً من الألفاظ الفارسية ، وكأنما بوخى
مثل هذا الاقتحام على عمد منساقاً برغبة عارمة فى التصريح بتعصبه لأسلافه فى
فارس والاشارة الى لغتهم التى تعد من أهم مظاهر قوميتهم وفرق بينه وبين
الأعشى الذى وردت الفارسية عفوا وعرضاً فى بعض أشعاره تأثراً منه بما مر
بسمعه ووقع تحت بصره فى وفادته على بلاد الفرس ، وما كانت له اليهم نزعة .
كما أن لأبى نواس أبياتاً يصف فيها كأس المدام وصفا يتم عما يستكن فى نفسه
ويريد له الاظهار فى استقامة أو التواء . يقول أبو نواس ضمن تلك الطائفة
من الأبيات :

على تماثيل بنى بابك محتفـر بينها خندق
فالنعت ذا لـا نعت دار خـلت بهم فى أطلالها أحـق

فذكره لتماثيل كسرى معبود لديه ولدى سواء وليس فيه من جديد ، --
الا أن قوله ان بينها خندق ، فيه اللمح الى ما كان من اشارة سلمان الفارسى
بحفر الخندق فى غزوة نصر الله فيها أهل الايمان على أهل الشرك والشاعر يريد
ليعلن فى زهو وحبلأ ان عظيم من عظماء قومه علم العرب من قبل ما لم يكن له
بهم علم . ففى قوله تعريض بالعرب الذين يريد الزراية بهم ، والتذكير بفضل
رجل من فارس عليهم . أما فى البيت الثانى فيصرح بعده احياء ذكرى مليكه فى
الزمان الحالى وأساورته الصناديد بعث على الحقيقة ، وما أراد الا بعث دولتهم
وحضارتهم . ثم يقول فى غير موارد انه لا يقابل وقوف شعراء العرب بأطلال
الأحبة ومناجاة ما اندرس من رسمها ، ويتجاوز هذا ليحمق شاعرهم فى الذى
يقول مملوك المعار ورغبته فى التشنيع بالعرب جلى فى معاريض كلامه .

وأبو نواس هو من خرج على مألوف شعراء العربية من وقوفهم بالديار
وبكائهم فى الدمن فى مطلع قصيدهم ، وداموا على هذا لا ينفكون عنه وبدأ أشعاره
بوصف الخمر ومجلسها والمناجم عليها ، ولف شعراء العباسيين لفه ولعظمهم

فى الفرس نسب . فكان ذلك من صنييعهم تحولا فى مبنى القصيدة العربية ونمطا مستحدثا دخل به الفرس على الشعر العربى .

وهنا يقع فى الخاطر ما ذهب اليه أحد الباحثين من أن هذا النمط من الشعر العربى الذى قيل فى وصف الخمر وما يتصل بها ، إنما استمد نشأته من التقاء حضارة الفرس بحضارة العرب . ودليله على ذلك أن هذا مماثل لأشعار ، كان شعراء الفرس يرتلونها فى قصور ملوكهم ، وقال ان شعراء الفرس بعد الاسلام شاءوا احياء ذكرى أسلافهم فى قصور الخلفاء (١) .

وذلك حكم نتلقاه متحفزين ، لأن شعر الفرس قبل الاسلام ضاع كله أو كاد . وليس بين أيدينا من أمثله شيء ، وليس يكفى أن يكون هذا الباحث قد اطلع على مثال للشعر الفارسى القديم رأى فيه شبهة هلمح بشعر أبى نواس ليصدر حكمه فى تعميم .

ولكن ذلك الباحث يرى أن ما يعرف بالغزل فى شعر الفرس والترك والهند مأخوذ من ذلك الشعر النواسى ، فيلزم من رأيه أن يكون ذلك النمط الشعرى عرف عند الشعوب الاسلامية عن شعراء الفرس الناطقين بالعربية الذين ورثوه عن أسلافهم . فلم يبق الا التى لابد منها ، وهى أن جميع الشعوبية تأثرت فى فن من أروع فنون شعرها بالفرس فقطع النظر عن أرجحية أن يكونوا الفرس فى فارس القديمة . وللايضاح نقول ان الغزل عند غير العرب منظومة لا يقل عدد أبياتها عن خمسة أبيات ولا يربو على ثمانية عشر بيتا . والشاعر يذكر اسمه الشعرى المستعار فى البيت الأخير . وهذا النمط من أحب أنماط الشعر عند الفرس والترك والهند ، وهو يتضمن النسيب والتشبيب ووصف الشراب ومجالسة ومفاتن من تدير الكأس على نشواها أو تغنى بصوت بلبل هو أجمل وقعا من وقع ألحان معزفها ، كما قد يتعرض شاعر الغزل لوصف الطبيعة فيما يشير شاعريته واعجابه بفن جمالها ، وغالبا ما يتضمن الغزل الواحد كل ذلك من بدايته الى نهايته .

وطاب لشعراء الصوفية أن ينظموا فى هذا النمط ، ونعنى شعراء الفرس والترك والهند الذين تتشكل من أشعارهم جمهرة أشعار الأدب الاسلامى وطوعوا الغزل للرمزية الصوفية على نحو يشوق ويروق ، مما جعل للشعر الصوفى رونقا على حدة . وأكسبه منزلة خاصة فى الأدب الاسلامى لم يبلغها شعر سواه . فبالإضافة الى ما وضع من أحكام التصوف وقيمه ، غمر من يقرأه بنشوة حاملة

وشاعرية رقراقة وهو يهيم به بين الخيال والواقع . وفسر الحقيقة بالمجاز على نحو يستخف الطرف به كل ذواقة له بصر بروعة البيان وموقع البلاغة في رفاق القلوب . وبهذا الغزل الصوفي طبقت شهرة شعر الفرس الآفاق . ولقد ملك على الشاعر الألماني جوته إعجابه . فعمد إلى استلهامه والضرب على قلبه في مجموعة شعرية له بعنوان الديوان الشرقي للمؤلف الغربي .

وما دمنا في ذكر التصوف ، فلا يفوتنا النص على تضارب الأقوال فيما إذا كان لدى المسلمين أصيلاً أو دخيلاً . وكافينا أن نشير إلى رأى مجمله أن التصوف مصدره فارس القديمة . ولقد وجد فيها قبل الإسلام ، وعرف الفرس أن كل شيء في هذا الوجود إلى الله مرجعه ، وليس للعالم وجود خارجي ، ولا وجود ولا بقاء إلا لله ، وكل ما سوى الله لا شيء (١) .

وهذا ابهام به حاجة إلى إيضاح ، وقد يتضح لنا بعض الشيء من ذهاب عالم إيراني معاصر إلى أن أديان الفرس القديمة فيها من التجريد ما يشبه ما في التصوف . ونحن لا نأخذ بهذا ونراه تحكما لا وجه له ولو قلنا بالتشابه ولو جدلاً ، فلا يعنى ذلك ضرورة بأن المسلمين عرفوا التصوف عن دين الفرس القديم . وهذا عالم إيراني آخر يذهب إلى أن الملل والنحل تعددت إلى أبعد مدى في بلاد الفرس بعد الفتح العربي وتنازعت وتناحرت فهاجت الحروب بين أصحابها . غير أن حكماء من الفرس رأوا أن هذا الوضع لن يسوق إلا إلى سوء المغيبة ولن يحقق الدماء ولا يجتمع المؤمنون على تواد وتراحم وصفاء ، ما لم يكونوا جميعاً على مذهب واحد يعتقدون بموجبه أن الله هو هذا الوجود وليس بكائن سواه من وجود وهو نور السماوات والأرض . ومن ذلك المعتقد انبعث التصوف . ودعى الناس إلى كلمة واحدة ومذهب واحد . وبذلك كان التآلف والاتحاد بين أهل الفرق بعد أن طال بهم تخصمهم وتنازعهم (٢) .

وهذا رأى لا نرتضيه ، ففيه ما فيه من تعسف وافتئات على الواقع . وليس من سنده يؤيده باختلاف المذاهب حتى الصوفية منها أمر لا سبيل إلى الحد منه ولا الخروج عنه . كما أن المؤلف يقول أن ظهور الفرق في فارس بعد الفتح العربي إنما كان تجديداً للعرب وتألباً على حكمهم . ومثل هذا من قوله ناقض لقضيته لأنه صارفها عن الدين إلى السياسة .

فالوجه أن نقول أن التصوف مستمد نشأته من الدين القويم والكتاب المبين ، وما كان الصوفية الأوائل من الفرس بل من العرب . إلا أن الفرس أظهروا من بعد شديد الميل إليه ، ولهم فيه مذهب تجريدي مبين للمذهب معظم

(١) روشندل : مقدمة ككشن راز ص ١٣ و ١٤ (تهران ١٣٥١) .

Dozy. Essai sur L'Histoire de L'Islam p. 317 (Paris 1879).

(٢)

المتصوفين من العرب . كما أن التصوف استغرق أكبر وأهم جانب من أدب الفرس ، فألفوا فيه وصنفوا ونظموا الكتب بنزعة تعليمية نظموا الأشعار الجياد التي يتألف فيها خير ما فاضت به شاعريتهم وألف قولهم في التصوف أدبا قصصيا منظوما له يطوعون فيه القصص لأحكام مذهبهم ومبادئه . ولكلامهم ظاهر غير مقصود وباطن هو المقصود ، وعمدوا فيه إلى الرمز والأيماء والتمثيل . والتخييل - على نحو خاص بهم فلما شق فيه غيرهم غبارهم . وعمد شعراء الشعوب الإسلامية باستثناء العرب إلى تقليدهم فكان القصصي الصوفي المنظوم بفضل الفرس من أهم فنون الآداب الإسلامية . واتخذ منصوفة الفرس الشعر وسيلتهم إلى التعبير عن أنفسهم وتفسير مذهبهم ، فكان متصوفة الفرس علماء وشعراء .

ورسم الفرس شعرهم الصوفي الذي نهج نهجهم فيه شعراء التصوف من الترك والهند بما فيه بسمة خاصة ، فمن فرق الصوفية فرقة تعرف بالقلندرية كان أصحابها ميالين إلى إعلان انهم أهل باطن لا أهل ظاهر فهم لا يباليون برأي غيرهم فيهم وحسبهم أن يكون ما بينهم وبين الله عامرا ، فعمدوا إلى تشويه صورهم بحلق لجاحهم وشواربهم وحواجبهم ، مبالغة في اظهار رأيهم وتهكمهم بمن يلومونهم على مسلكهم . وكان لهذا أصداؤه في الشعر الفارسي الصوفي ، فعمد شاعر من أهل القرن السادس الهجري يسمى سنائي إلى إيراد ألفاظ في شعره إذا فهمت على ظاهر معناها تأذت بها نفوس المؤمنين . وما كان مقصده إلا بمعنى رمزيا خفيا . مثال ذلك تسميته شيخ الصوفية بشيخ المجوس والمريد بابن المجوسي وخانقاه الصوفية بالحناء وله كثير مما يجري هذا المجرى (١) .

ومثل ذاك الصنيع يفرغ على الشعر الصوفي لونا خاصا به ، هو الذكر بصدوره المستقي منه ونعني به دين الفرس قبل الفتح العربي .

كما درج شعراء الفارسية على ذكر الزاهد ويعنون به من ليس على مذهبهم والحمير ويريدون به الصوفي . وهم بهذا يعمدون إلى الإبانة عن ضجة مذهبهم وأفضليته على كل مذهب سواه . وعلمهم علم لدين ليس باكتساب ولا اجتلاب لانهم عشقوا الذات الالهية وخصهم الله بمحبته فألقى المعرفة في قلوبهم نورا وإلهاما ، وما كذلك شأن غيرهم وفي ذلك يقول شاعر فارسي :

(امض أيها الزاهد لطيتك وكف عن مثلي الكأس من ملامتك ،

(١) د . معين فرديسنا وتأثير آن در ادبيات پارسی ص ٥٠٧ (تهران ١٣٢٦) .

ففى تلك التحفة ما كان شىء لنا يوم ان عرفنا فى يوم (ألسنت
رينا) (١) .

والمراد بالتحفة وهى تسمية الشاعر للخمر المعرفة التى مصدرها القلب
لا العقل . أما يوم (ألسنت) ، فإشارة الى ما جاء فى سورة الأعراف (ألسنت
بربكم قالوا بلى) والمراد من ذلك البيت ان الانسان أحب ربه منذ ان عرفه
فأتحفه بالمعرفة التى يرمز اليها بالخمر مفسرا للحقيقة بالمجاز .

وذكر هذا فى الشعر الفارسي دائم متصل لا يكاد ينفصل . وكذا الأمر فى
شعر الترك والهند نقلا عن الفرس . أما تلك الخمر الصوفية الرمزية ، فانها تعد
المعرفة التى تنبثق من انساق الالهى انبثاق النور من النوى . وفى تعريفها المعجمى
الصوفى انها العشق الالهى . ويقول بعض التصوفية فى مزمة ولم يتزهبوا
بالتصوف ان بعضهم فى مدرسة الوسوسة ازهقوا الروح فى طلب العلم وطرحوا
فى أعناقهم وهق التقليد ، الا انهم فى الحانة خمر العرفان ، ولا يجلسون عند
قدم شيخ المجوس ليهذبوا من خلفهم (٢) .

وهذا مدلول الخمر فى الشعر الصوفى الذى أخذه شعراء التصوف فى
الشعوب الاسلامية عن الفرس ومما يتصل وثيق اتصال بالتصوف ، تلك
المؤسسة او ذلك المبنى المعروف بالخانقاه ، وفيه سكنى الصوفية ومجال لما
يقومون فيه من تعبد واعتزال للتأمل .

وأول من اتخذ الخانقاه فى فارس شيخ من شيوخ الصوفية وشاعر من
شعراء الرباعيات هو أبو سعيد بن أبى الخير من أهل القرن الرابع الهجرى .
وفى تلك الخانقاه كان يجلس المريدون ليسمعوا منه ويأخذوا عنه مذهبه
فى التصوف . ثم كثر بناء الخوانق فى طول البلاد وعرضها . وشوهدت كثرتها
فى عهد المغول حتى قيل ان كل مدينة كان فيها خانقاه أو أكثر وانتقل اتخاذ
الصوفية للخوانق الى الهند وتركيا . فحفلت بها نواحيها . ويذكر الرحالة
ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى انه شاهدها فى فارس ، وما تعرض لذكر
مدينة زارها فى شمال ولا جنوب الا تعرض لوصف الخانقاه فيها . وقد طرأ
بعض تطور على بعضها فعرفت بالزوايا والربط ، غير انها جميعا خوانق فى
أصلها الفارسي .

وتنافس المتنافسون من الملوك والعظماء والأثرياء فى تشييدها . كما

(١) بروای زاهد وبردرد کشان خرده مکبرکه نداد ناجزاین تحفه بما روز الست

(٢) د . سجادى فرهنگ اصطلاحات عرفانى ص ٨٦ (تهران ١٣٥٤) .

حبسوا الحبوس عليها مما جعل لها كيانا قائما . وحقيقة الأمر انها نقلت التصوف الى مرحلة على جانب عظيم من الأهمية في تاريخه . فبعد ان كان نزعة روحية خاصة بطائفة من الطوائف ، أصبح مذهباً يكتسب الرسمية من مؤسسات تقام له واقامتها برهان على اجلالها وعد بناؤها قرينة من أكرم القربات ، كما اكتسبت مظهرا لحرمة الدين . ولا غرو فقد كان صفوة القوم يزورونها تبركا ورغبة في الاستماع من شيوخها الى ما فيه الهداية ونفع الدنيا والآخرة . ولحق بها التطور على مر الزمن فأصبحت لها نظم مرعية ورسوم معلومة . كان يرأسها شيخ وله خادم أو خدام يتولون ادارتها وتنظيم العلاقات بينها وبين من يزورونها . وبها مساكن للمساكين أو من يطلبون التصوف . والشيخ يلقي دروسه عليهم ويعظهم ويرشدهم وفيها يقام الذكر الجماعي . وقد يشاركون الزائرون في هذا كله (١) .

ويمكن القول ان تلك الخوانق كانت الى كونها مؤسسات صوفية معاهد علمية تربوية تخرج كثيرا من أهل الدين والعلم أصحاب التأليف والتصانيف وكان انتشارها في بلاد الاسلام انتشارا يقيم التصوف وأحكام الدين وأصول العلم ، كما أن تصميمها المعماري موضع دراسات ودراسات لعلماء الآثار الاسلامية الذين يهتمون بتبيين الأثر الفني الفارسي في بنائها .

وعرفت مصر الخانقاه في عصر صلاح الدين الذي حول دارعين من الأعيان الى خانقاه . وتحقيق بالذكر أن سلاطين المماليك أظهروا الشغف ببنائها مما جعل كثرتها من خصائص عصرهم ومن أهم آثارهم . ويمكن القول ان طرازها المعماري يعد وصلة بين مصر وفارس في فن العمارة .

ومما عرفه العرب من مظاهر حضارة فارس عيد النيروز وهو في الفارسية (نوروز) بمعنى اليوم الجديد . والنيروز عيد قديم من أعياد الفرس يقول المؤرخون ان ملكا من ملوكهم في العصر الأسطوري ابتدع لهم هذا العيد ، وهو رأس السنة الشمسية عندهم حين تنتقل الشمس من برج الحوت الى برج الحمل . كما يعد عيد الربيع لأنه موافق لأوله .

وكانت فارس تحيي عيدها مرحبة بقدومه ترحيبا فيه كل مظهر للبهجة والتعظيم والاحتفاء والاحتفال به للملوك والسوقة على سواء . فما كان يحل حتى يجلس الملك للنظر في انصاف من تأذى بالظلم ، وقضاء حاجة من لم تقض

(١) د. ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات درايران ص ١٧٨ قسمت أول ز تهران ١٣٢١) .

لهم حاجة ، كما كان العيد وما يقتضيه من أسباب الفرح والمرح يرقق من قلبه فيصدر عفوه عن السجناء . وجرى العادة بأن يكون رئيس الكهنة أول الداخلين عليه في ذلك اليوم السعيد وفي يده كأس مفعمة بالخمر ودنانير . ومنهم من كان يدخل عليه ومعه سيف وعود أخضر من الشعير ويدعو له بنعمة تدوم وبقاء يطول . ويشبه استقامة الأمور له باستقامة السيف ويأمل أن يطيح هذا السيف رؤوس عداه . ومن معتادهم أن ينثروا اثني عشر نوعا من الحبوب في فناء القصر ، وإذا نبتت حصدوا ما زرعوا على مستطاب الأنعام . وفي كل هذا رمزية واضح مدلولها .

وقد عرف العرب عيد النيروز عن الفرس منذ قديم الزمان كما عرفوا عيداً آخر هو عيد المهرجان ، وذلك في جاهليتهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (قدمت المدينة ولأهل المدينة يومان يلعبون فيهما في الجاهلية وإن الله أبد لكم حيرا منهما يوم الفطر ويوم النحر) والمراد باليومين يوم النيروز ويوم المهرجان (١) .

أما في الإسلام فأول من رسم النيروز والمهرجان الحجاج بن يوسف ، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز . وفي عهد بني العباسي أهدى إلى المأمون أحمد ابن يوسف الكاتب سقطة ذهب فيه قطعة عود هندي وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة باتحاف العبيد السادة (٢) .

ويستدل من ذلك على أن العرب كانت تشبه بالعجم في احتفالها بهذا العيد الذي يعد عند العجم عريقاً في تاريخ حضارتهم الطويل . وهذا شاعر عربي يقول :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكني وكل ما فيه يحكيني وأحكيه
فتاره كلهيب النار في كبدي وتارة كتوالي عبرتي فيه
أسلمتني فيه يأسؤلي إلى وصب فكيف يهدي إلي من أتت تهدي

والإشارة في هذا الشعر إلى ما جرى العادة به في هذا العيد من تقديم الهدايا إلى الملوك كما كانت النار ترفع ليلة النيروز ويرش الماء في ضريحته . وغير شك أن ذلك يدل على أن العرب كانوا مقلدين للفرس في النيروز تقليداً كلياً فما كاد يقوتهم عمل شيء مما كان الفرس في عيدهم يعملون .

(١) محيي الدين العطار : بلوغ الأدب في مآثر العرب ص ٧٤ و ٧٥ (لبنان ١٣١٩) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى . ص ٤١٠ ج ١ (القاهرة ١٩١٣) .

وكان لتأصل عادة الاحتفال بهذا العيد في العرب هام من الأثر ولتوضيح ذلك يقول ان تقديم الرعية الهدية الى الملوك كان سنة متبعة عن الفرس وان تطورت من بعد فكان تقديم الخراج اليهم يجرى مجراها وقد يكون بديلا عنها . وأصبح أداء الخراج في يوم النيروز بعد حصاد القمح والشعير ، فكانت السنة المالية شمسية هي السنة الفارسية . وفي عام ٢٨٢هـ تقدم ذلك التاريخ سبعين يوما ، وبهذا تضرر الزراع لأنهم وجدوا أنفسهم في ضرورة أداء خراجهم قبل حصاد زرعهم . ولكن الخليفة المعتضد في هذا العام أجل استحقاق الخراج ستين يوما (١) .

فالعرب في استحقاق دولتهم لأداء الخراج لا يجعلون التوقيت وفق سنتهم القمرية ، بل يستمسكون بالتوارث من نظم الفرس وتقاليدهم في العمل بنظام السنة الشمسية ، وان أدى هذا بدولتهم الى ما لا يستحب من اخلال بتدبير هام من أمورها . وما ذاك الا فرط تشدد في رعاية تقاليد الفرس ومزيد عناية بلغت الغاية بنيروزهم ، وان الخاطر ليذهب بنا الى مصر في عهد الفاطميين ، وهم الذين جعلوا بلاطهم أشبه ما يكون ببلاط الملوك في فارس ، وما ذاك الا لأنهم أخذوا بكثير وكثير من عادات الفرس ورسومهم . فقلدوهم في اشتراك الخلفاء في حفلات كان ملوك الفرس يشاركون فيها رجال حاشيتهم وعظماء دولتهم وذلك في أيام معلومات وما زالت صلة الفاطميين بالفرس وطيدة منذ ظهور المذهب الشيعي (٢) .

والدولة الفاطمية دولة شيعية وما كان لها من قبل سابقة في المجد النيل، الا أنها تيسأت في مصر مكانة مرموقة جعلتها من أهم وأعظم دول العالم الاسلامي (٣) .

وكان الخليفة الفاطمي يتشبه بكسرى ونورذ لذلك مثالا فنذكر انه اذا انعقد مجلسه جلس خلف ستار ، ثم يرفع الستار ويرتل جماعة من المقرئين القرآن (٤) .

ويقول المسعودي ان ملوك الفرس كانوا في مجالسهم يجلسون خلف

(١) Levy 'The Social Structure of Islam, p. 312 (Cambridge 57).

(٢) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ص ٤١ (القاهرة ١٩٥٥) .

(٣) Inostransiew Tarjestvenny Viyezd , Falemistskil Khabform Str. 12 (Peler. 1403).

(٤) د. حسن ابراهيم : الفاطميون في مصر ص ٢٦٩ (القاهرة ١٩٣١)

ستار ، وللستار أحد أبناء الملوك موكل يرفعه ويسمى (خرم باشى) بمعنى
كن مبتهجا . وقبل رفع الستار يقول (راع ماتقول فأنت فى حضرة الملك) (١) .

وفى كتاب التاج للجاحظ ان ملوك الأعاجم من لدن أردشير الى يزدجرد
كانت تحتجب عن الندماء بستار وبين أول الطبقات عشرون ذراعا (٢) .

ونعود الى عيد النيروز لنقول ان الفاطميين فى مصر كانوا يحتفلون به
رسميا اقتداء بالفرس المحتفلين احتفالا قوميا . وحسبنا أن ننظر فى ديوان
أحد شعراء هذا العصر وهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، لنجده كثير
التوارد فيه ، وبه يزف البشرى الى الخليفة المتربع على العرش . كأن يقول :

فان طاب نوروز وعيد فانما بنورك أضحي ذا وذا وهو طيب

وجاء فى ديوان أنه قال فى أول يوم ركب فيه الخليفة المعز لدين الله الى
بستان كافور وكان يوم النوروز (٣) .

لو كان للنوروز لما أتى قم ولفظ معرب أو لسان
ناداك أنت العيد يا عيد من عيد والنوروز والمهرجان

ومما يكتشف للفهم من تلك الأبيات أنه جمع عيد النيروز والمهرجان وربما
عيد الفطر فى نسق . وقرن بين العيدين الفارسيين على نحو يرشد الى أن اهتمامه
بهما فوق اهتمامه بعيد الفطر أو عيد الأضحى ، وذلك مذكرا بالفرس فيما جرى
به العرف لديهم .

ومن أعياد الفرس التى احتفل الفواطم فى مصر بها عيد السدق واسمه
فى الفارسية (سده) وهو عيد فارسى قومى ينسبه الفرس الى ملكهم الأول
كما ينسبون النيروز الى جمشيد ملكهم الرابع . وليعرفنا به تبريزى فى قاهوسه
بقوله (برهان قاطع) فهو القائل ما مجمله أن سده هو اليوم العاشر من شهر
بهمن من شهور السنة الفارسية الشمسية . وكان الفرس يحتفلون بهذا اليوم
متخذينه عيدا لهم . والعادة أن يشعلوا كثيرا من النيران ويصيد ملوكهم وحوشا
وطيرا ويربطون الى أرجلها أعشابا يضرمون النار فيها ، ثم يطلعونها ، وبذلك
تضطرم النيران فى البرارى والجبال . ويقال ان الملك كيومرت كان له من
الولد مائة . فلما بلغوا مبلغ الرجال ، أمر بإبقاء النيران ليلة ذلك اليوم وأمر
بالاحتفال على تلك الكيفية (٤) .

(١) Christensen L'«Emfire des Sassanides p. 97 (Cobenhagen 1907.

(٢) الجاحظ : التاج ، ص ٢٨ . القاهرة (١٩١٤) .

(٣) تميم بن المعز / ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى . ص ٤٢٥ (القاهرة ١٩٥٧)

(٤) برهان : برهان قاطع ص ٦٣١ (تهران ١٣٣٦) .

واحتفل المصريون فى العصر الفاطمى بهذا العيد الفارسى القديم . ونعلم أن المصابيخ كانت توقد فى الحوانيت ، وكان من عمل مصباحا نال عليه درهما ، كما كان ماء الورد والحلوى توزع على رجال الدولة (١) . ومما لا يعزب عن البال ، أن الاحتفال بالأعياد من أخص مظاهر القومية فى شعب من الشعوب . ولعل فيما أوردنا من أصل النيروز والسندق متعلقا بتاريخ ملوك الفرس القدامى الذين يمتزج فى أخبارهم واقع التاريخ بخيال الأسطورة ، وما يكفى فى التقريب الى الفهم أن العيد صورة تعبيرية للقومية . أما اذا حرص العرب الفاطميون على الاحتفال بأعياد الفرس ، فلن يكونوا الا المتأثرين الى المدى الأبعد بحضارة فارس فى جوهرها ومظهرها .

ولقد تعرف العرب للفرس وكان لديهم الخبر اليقين عنهم فى تواريخهم ومآثوراتهم وتقاليدهم وكل ما يتصل بذلك من أسباب حضارتهم بفضل ما ترجم من كتبهم . وها هو ذا ابن النديم فى كتابه الفهرست يعقد فصلا بعنوان النقلة من الفارسى الى العربى ، وذكر كثيرا من الأسماء وان لم يعين عناوين الكتب المترجمة ومضمونها ، الا أن المعلوم أنها فى موضوعات شتى أخصها أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، ومثل تلك الكتب لا شك تحيط القارئ العربى بما لم يكن يعلم عن الفرس فى العصور الزواهى من عصور حضارتهم . ونجد لهذا واضح الأثر فى تأليف العرب . فالطبرى والمسعودى مثلا فى تاريخهما يؤرخان للفرس ويذكران طرفا من أخبارهم ، وابن قتيبة فى كتابه عيون الأخبار يروى عنهم الكثير وكذلك ابن نباتة فى كتابه سرح العيون وابن عبد ربه فى عقده الفريد . ولو قلنا ان الطبرى والمسعودى مؤرخان متوقع منهما التاريخ للأمم فذكر الفرس لدهما ضرورة منهجية ، رأينا أن غيرهما من أصحاب كتب الأدب يوردون لملوك الفرس أخبارا يروون عن حكمائهم حكما وعن بلغائهم أقوالا مما يبعث على قولنا ان ما أورد أهل الأدب من حكم الفرس وأحكام ملوكهم فيه الدليل على تأثرهم بالجانب الأدبى من حضارتهم ، وقد مزجوا قدرا من تراث فارس بمثله من تراث العرب . وحيث كانت حضارة العرب أدبا وروعة بيان ، فقد تبين لنا صلة التأثير والتأثر بين الحضارتين . ولن يقدم المؤلفون فى التاريخ والأدب على الاهتمام بذكر الفرس ما لم تكن معالم الحضارة الفارسية معلومة عندهم على نطاق واسع . فأفادوا من علمهم بما فى مد مؤلفاتهم بغزير من مادة وخاص من علم ومستطرف من خبر . ومن الكتب الفارسية عظيمة الأهمية فى العصر الساسانى كتاب يسمى (آئين نامه) بمعنى كتاب الرسوم والعادات . وقد ترجمه ابن المقفع الى لسان العرب . وهو يتضمن آداب وعادات ملوك فارس

(١) متز (ترجمة أبى ريده : الحضارة الاسلامية من ٢٨٣ ج ١ (القاهرة ١٩٥٧) .

وما روى عنهم من أخبار ، كما دار الكلام فيه على أحوال الشعب في ظل حكمهم .
واستمد من هذا الكتاب كثير من مؤرخي وكتاب الاسلام وجعلوه عمدتهم في
تعرفهم الى حضارة الفرس ونقلوا منه الى مؤلفاتهم واقتطفوا نصوصا منه أوردوها
في كلامهم (١) .

ونسوق مثالا لما جاء في كتاب عيون الأخبار (وفي الآيين أن من اجادة
الرمي بالنشاب في حال المتعلم امساك المتعلم القوس بيده اليمنى وقوة عضده
اليمنى . واجادته نصب القوس بعد أن يطأطيء من سيتها) (٢) .

ففي هذا النص من ذاك الكتاب تفصيل لقواعد الرماة ، وبيان لأصول فن
الحرب على نحو يعلم منه أن الفرس بلغوا فيه مبلغا يمكن معه التأليف فيه
وتطبيق العلم بالعمل ، وذلك مصدره معلوم من أساسيات فن عرفه قوم أهل
حضارة جدير بغيرهم أن يقتبسوا منهم ويتلقنوا عنهم ما ليس لهم مثله . أما
أن يؤلف الجاحظ كتاب التاج ، فنستنبط من ذلك أكثر من حقيقة على صلة
بما نحن فيه . فالجاحظ لابد ملم بتاريخ ملوك الفرس والرسوم المرعية في
مجالسهم ، وما كان يدور من كلام بينهم وبين الماثلين في حضرتهم . وهذا
جانب من ثقافته المستقاة من حضارة الفرس . ولابد أن يكون قد نال من ذلك
النصيب الأوفى الذي تأتى له به أن يخرج كتابه . وهو في الكتاب يبين ما ينبغي
مراعاته في آداب السلوك مع الملوك ، كما في كيفية الدخول عليهم ومحادثتهم
ومواكلتهم ومنادمتهم وما يتصل من ذلك بسبب . ولنا أن نقول عما ورد من
كتابه أن الحضارة فيما أسلفنا في صدر كلامنا عنها عارضين التعريفات لها
على أنها السلوك المذهب الذي يشهد لصاحبه بأنه رقيق الحاشية لين الطبع
دو خلق حميد عن تعلم وتفهم وتذوق . أما الحقيقة الثالثة التي نعني بذكرها ،
فهي ملاحظتنا أن الجاحظ يقرن بين ما يذكره عن ملوك الفرس ملتزمين له
ما يضاهيه أو يشابهه عند العرب . ونورد لذلك مثلا قوله في غرض البصر في
حضرة الملك ، فيقول ان من حق الملك ألا يرفع أحد صوته بحضرته ، لأن من
تعظيم الملك وتبجيله خفض الصوت . وسرعان ما يلتفت الى العرب ليقول ان
الله تعالى أدب بهذا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال عز من قائل
« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » ثم يذكر ما كان
من سفهاء بنى تميم وقد وفدوا على النبي ورفعوا صوتهم بقولهم يا محمد أخرج

(١) عبد العظيم قريب : مقامة كتاب كلية ودمنة ، ترجمة نصر الله منشى من
(طهران ١٣٢٨) .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ص ١٣٣ ج ٢ (القاهرة ١٩٢٥) .

الينا نكلمك . فتأذى عليه الصلاة والسلام بسوء أدبهم وأنزل الله قوله « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

وما قال هذا الا توكيدا لما سبق أن أورده من ضرورة غض الصوت في حضرة الملوك . ثم أيده بقوله ان ملوك الأعاجم كانت تقول ان حرمة مجلس الملك اذا غاب كحرمة اذا حضر (١) .

أما ملحظنا فهو ان الجاحظ في تأثره بما عرف من أحوال الفرس ، قرنه بما عرفه عن العرب وبذلك أخبر العرب بما لم يكونوا يعلمون . اما انه جمع بين الحضارتين ، فأمر ليس فيه قولان .

وعلى عهد العثمانيين ظهرت في مصر طوائف من الدراويش ، وكانوا يطوفون بالقاهرة مترنمين بالأزجال والموشحات ومنهم من كان يعزف على العود والربابة ، أما ما يتغنون به فأشعار صوفية شعبية ومدائح نبوية ومواعظ وحكم .

وتزايد عديدهم على مر الأيام ، ويلحظ أن الأعاجم منهم كانوا أكثرهم (٢) . ونقف مما ذكرنا عن هؤلاء الدراويش على حقيقتين ، أما أولاهما فهي أنهم يغنون ويعزفون وهم يتجولون وهذا ما سبق أن عرفنا عن شعراء الفرس في القديم ، والثانية أنهم من المتصوفة ، والتصوف . أعلق بالفرس أصلا منه بغيرهم . كما أن القول بأن جمهورهم من الأعاجم ، يفيد أنهم من الفرس الذين وفدوا على مصر وأذاعوا فيها التصوف الشعبي . فكأنهم بجنسيتهم ونزعتهم دخلوا على مصر الاسلامية بظاهرة فارسية هي دينية فنية .

اما انتقال حضارة الفرس الى الترك . قلنا أن في صورة جليلة منذ قيام دولة سلاجقة الروم في الأناضول . وما ذاك الا أن هؤلاء السلاجقة أخذوا بحضارة الفرس في مظهر عظيم الأهمية من مظاهرها وهي اللغة الفارسية . وما تعبر به من ثقافة الاسلام في أفانينها . ولما أقام الأتراك العثمانيون دولتهم في الأناضول في القرن الثالث عشر للميلاد ، أقاموها على أطلال دولة سلاجقة الروم التي آل اليهم ارثها في ملكها وثقافتها ، فتحصل لديهم تراث الفرس الاسلامي في آخر مراحلها . ومن الأمارات على هذا أن الأتراك العثمانيين جعلوا الفارسية لغة دولتهم الرسمية الى عهد السلطان مراد الأول الذي تملك

(١) الجاحظ : التاج ص ٦٨ و ٦٩ (القاهرة ١٩١٤) .

(٢) د . توفيق الطويل : التصوف في مصر ابان العهد العثماني ص ٩٢ (القاهرة ١٩٤٠) .

عام ١٣٥٩ م . فبين العثمانيين والفرس صلة لا شك فيها منذ ان كانوا شعبة من أنواع الترك تسمى (أوغور) أزعجت عن ديارها في وسط آسيا وتعلقت بأذيال الفرار من غزوات المغول ، واتجهت غربا الى أن طابت لها أرض الأناضول مستقرا ، ثم قضى أن يمكن لها في الأرض فأزالت دولة السلاجقة ودولة الروم . وأصبح لها السلطان .

ومما تأكدت به صلة العثمانيين بالفرس الى أبعد مدى ، أن استوطن الأناضول من يسمى جلال الدين الرومي أكبر وأشهر شيوخ التصوف من الفرس . وفيها تصدر لنشر طريقته الصوفية المعروفة بالمولوية وصادفت طريقته هوى في نفوس الأتراك فتحلقوا حوله يتلقون عنه . وفي تلك الحقبة من الزمن ماجت البلاد بالفتن وأظلمت قتام عابس من غارات المغيرين وهياج الحروب بين المتنازعين من الأخوة وذوى القربى . فما أمن الناس على مال ولا نفس فشاه وجه الدنيا في العيون ، وانصرف المؤمنون عنها الى التي هي خير وأبقى . ومن ثم ظهر الميل الى التصوف ورفض الدنيا وحسن استعدادهم للتلقى عن مشايخ الصوفية المعتزلين في تكاياهم وزواياهم ، وكان كثير منهم فرسا في نسبهم .

وجود جلال الدين الرومي الفارسي بين الترك من حيث كونه أعظم شيوخ التصوف بين الترك ، يلفت الى حتمية أن يكون ذا أثر فيهم ، وما كان له علو قدر ونباهة ذكر في الشرق وحسب . فهذا عالم من علماء الغرب يقول انه لو كان في الغرب أبعد صيتا مما هو عليه ، لتبوأ مكانته الى جانب مشاهير الغرب من أمثال شكسبير وجوته (١) .

ومعلوم أن مشاهير العباقرة لهم ما لهم من أثرهم في توجيه الفكر وتشكيل المثل والقيم . ولذلك تراحم المريدون على جلال الدين الرومي يدارسونه العلم ويأخذون عنه المذهب الصوفي . غير أنه وجد الجمع الغفير من مريديه من سواء الناس وعوامهم الذين لم يقلبوا في كتاب نظرا ولا حصلوا من العلم طرفا . فضلا عن جهلهم لغته الفارسية وهي لغة الثقافة والأدب العالي عند الخواص . فرأى أن يهبط الى مستواهم ويكلمهم بلسان يفهمونه . كيما يكون علمه أنفع وعلى النطاق الأوسع فتكلف أن ينظم لهم أبياتا من الشعر بتركيتهم التي لا يعرفون سواها . أو لا يحسنون للفارسية فهما فكانت تلك الأبيات التركية الثلاثة التي نظمها وجعل الشطر الثاني من ثالثها بالفارسية باكورة الشعر التركي . ومات جلال الدين الرومي عام ٦٨٣ للهجرة فخلقه في مشيخة طريقته

(١) Bertels Otcherk Istorii Peridskoy Leterature Str. 60 (Leningrad 1926).

الصوفية ابنه المعروف بسلطان ولد . وقد حمل الأمانة على ما ينبغي ، فأخرج كتاباً منظوماً بالتركية عنوانه (رباب نامه) بمعنى كتاب الرباب . ورتبه على أبواب تعد فيها أصول الطريقة المولوية ، وهو أول كتاب فى الأدب التركى . ويلحظ انه نظمه فى بحر الرمل وهو البحر الذى نظم فيه جلال الدين الرومى كتابه المعروف بالمشنوى الذى أورد فيه آيات وأحاديث أولها تأويلاً صوفياً . وضمنه قصصاً لها مغزى صوفى رمزى . وكان المقصد من نظم سلطان ولد بالتركية نشر الطريقة وتفسير أحكامها باللغة التى يفهمها الترك كافة . أى أن مقصده من نظم كتابه عين مقصد أبيه من نظم أبيات له بالتركية . غير أن نشأة الشعر التركى بفضل جلال الدين وولده . ما كانت لتقف حائلاً دون انتشار الفارسية بين الترك فأخلى أهل العلم والأدب دراستهم لها وإطلاعهم على آدابها ضرورة ثقافية لا غنى لهم عنها الى جانب العربية لغة القرآن الكريم والشرع الحكيم . ودخل ما لا حصر له من الألفاظ الفارسية على التركية خصوصاً لغة العلماء والبلغاء حتى اللغة الجارية على ألسنة العوام دخلتها الفارسية وأصبحت تشكل جانباً من متنها . وإن لذلك ليبداً فى شعر الترك الشعبى والجانب الأهم الأعظم منه صوفى ، ففيه من الألفاظ والعبارات الفارسية ما قد لا يفقه معناه حتى متأدبو الترك فى يومنا هذا . مما يجعل تأثير الترك فى لغتهم وثقافتهم مظهراً هو أوضح ما يكون لتأثيرهم بالحضارة الفارسية الإسلامية فى أخص سماتها .

ولا نعرف طريقة صوفية فارسية كان لها من الديوع والشيوع ما كان للطريقة المولوية ، على كثرة الطرق التى عرفها الترك وكان شيوخها ممن قدموا على بلاد الترك من فارس . وكان أتباعها من الخواص والعوام جميعاً .

وما تمذهب عنه القوم بمذهب جلال الدين الصوفى وكفى . بل أصبح لشيوخه صفة رسمية لدى الدولة على أنهم يمثلون مؤسسة الفارسية صاحب المنزلة التى لا تدانيها منزلة ضمن تقاليد سلاطين آل عثمان التى توارثوها كابراً عن كابر ، والخبر فى ذلك أن السلاطين الى آخر عهدهم جرى العرف عندهم أن يقصده السلطان فيهم يوم نربعه على العرش الى مسجد أبى أيوب الأنصارى باستانبول وهو ذلك الصحابى الذى مات تحت أسوارها عام ٥٠ للهجرة فابتنى له محمد الفاتح مسجداً . وفى هذا المسجد كان يشهد وسط السلطان بسيف السلطان عثمان الأول . شيخ منحدر من سلالة جلال الدين الرومى (١) .

واختيار هذا الشيخ وله ذلك النسب مما يقوم به الدليل على اعتزاز

(١) د. رضا توفيق : توك تاريخى ١٥٠٦ اوجنجى جلد (استانبول ١٩٢٤) .

الدولة العثمانية بشيخ التصوف الذي نشر مذهبه في أرجاء البلاد وكان صاحباً
الفضل في نشأة الشعر التركي .

وإذا دار الكلام على أثر هذا الصوفي على التصوف الشعبي ، قلنا أن
اتباعه من جماهير الشعب يعرفون بال دراويش المولوية نسبة اليه لانه كان يسمى
كذلك مولوياً . ويسمى بهم الأوربيون الدراويش الدوارين لانهم كانوا يستعينون
بما يعرف بالسماع لأثارة نشوة الوجد في نفوسهم . والسماع يتألف من الرقص
والانشاد والعزف على آلات الطرب . وكان الرقص أهم شعائر دراويش المولوية
وهنا نخص رقصتهم بالذكر لأنه يتميزهم من غيرهم بطابع لتصوفهم الشعبي .
فكانوا يجتمعون فيما يعرف بسماع خانه أى بيت السماع . وهو بهو واسع
يجلس في صدر جماعة من العازقين ويدخل الدراويش وبعد ان يسلموا على
شيخهم يأخذون في رقصهم برفع أذرعهم وقد اتجهت راحاتهم اليمنى الى أعلى
واليسرى الى أسفل ، ثم يدورون على أطراف أصابعهم دوران الرحى فيما ينفخ
فى الناي ويقرع الطبل . ويصلون على النبی صلى الله عليه وسلم واضعين
أيديهم على صدورهم .

وفي الرقص يقول جلال الدين الرومى من شعر فارسى له هذه ترجمته
(حديثك عن البحر وموجه المزيد . الا أنك شيئين متباينين لا تقصد . لان
البحر بارتفاع وانخفاض ، انما يخلق الأمواج ويصبح المواج . والمواج اذا وقع
الى البحر رجع وكذا حال بنى الانسان فهم أمواج الواحد الديان ، كلهم بعد
موته فى ربه فان) (١) .

وفى هذا من قول الشاعر الصوفى رمزية تمس الحاجة فيها الى ايضاح .
فقد اتخذ من هذا الرمز شغارا لمذهبه البصوفى الذى يدعو اليه ، وأساسه القول
بوحدة الوجود ، فليس فى هذا الكون بما وسع سوى كائن واحد هو الله تعالى ،
وكل ما فى الوجود من خلقه جزء منه غير متجزئ . كما يرمى الى افناء الذات
الانسانية فى الالهية . فعمد بهذا الشعر الى التشبيه والتخيل .

وبالتعقيب على ذلك نخلص الى حقيقة لا ريب فيها . وهى ان جلال الدين
الرومى شيخ التصوف الفارسى نشر فى الترك مذهبیه الذى يمكن ان نسميه
التصوف العجمي الأخذ بفكرة وحدة الوجود والافناء فى الذات الالهية ، وهو
المعبر عن الروح الفارسية فى ميلها الى دقة التجريد والرمز والايماء . وانه
ليذكرنا بسلفه أبى سعيد ابن أبى الخير الذى كان على نفس المذهب ، وأقام أول
خانقاه عقده فيها مجالس السماع ، فكان جلال الدين فى تركيا ، أخذ بما كان

معمولا به في فارس ، وعرف الترك بأهم تيار روحي عند الفرس . بل ولا سبيل الى نكران فضله في نشأة الشعر التركي الذي انبثق من التصوف العجمي أصلا ولقد سيطر هذا التصوف على شعر الترك قريبا من ستة قرون .

وعلى ذلك الشعر التركي نقول انه تأثر في أعماقه وأبعاده بشعر الفرس . وكان هذا التأثير في مبناه ومعناه في وقت معا . أما المبنى فقد تسرب اليه ما لا يكاد يحصى من الألفاظ الفارسية وعمد شعراء الترك الى ذلك لتحسين عباراتهم من جهة ، ولأنهم عدموا في تركيتهم ما يفي بحاجتهم في التعبير البليغ وذلك ما أفضى الى امتزاج التركية بالفارسية تمام امتزاج ، بل ان الرجحان في التركية كان للفارسية ، وياطالما وقعنا على بيت من الشعر أو عبارة لكاتب لم نجد فيها من لغة الترك الا الفعل أو الرابطة ، أما باقي الكلام فبالفارسية . وفي هذا يقول بعضهم ان من بلغاء الترك من أسرفوا في افعام كلامهم بالفارسية وما تحمله من العربية ، حتى أصبحت لغتهم مستبهمة على الفهم ، لا يفقهها الا قوم من الخواص ينظمون وينثرون لأنفسهم وحدهم دون غيرهم فما كان كلامهم فارسيا ولا تركيا (١) .

وهذا الحكم وان لم يخل من شطط محمول على ولوع بلغاء الترك بالفارسية ورغبتهم في التباهي بسعة علمهم بها حتى شكلوا الجانب الأعظم الأرجح في كل كلام يحاولون فيه البلاغة ويقصدون فيه الى الفنية . هذا اثر الفرس في مبنى كلام الترك . أما معناه ، فالأمر فيه لا يكاد يختلف الا فيما ندر .

وأول ما نذكره متعلقا بذلك قول المستشرق النمساوي هامر في مقدمة كتاب له أخرجه منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، انه أسماء تاريخ فن الشعر العثماني . وعلى قوله فن الشعر بأن الترك لم يكن لهم خاص من شعرهم وإنما استعاروه من الفرس ، فنظم الشعر عندهم صناعة فنية وما هو بوجي وسنجية . وفي رأى آخر في مقدمة كتاب له في تاريخ الأدب الفارسي ظهر منذ ثمانين عاما ، ان شعر الترك وأدبهم قبل خمسين سنة ترجمة صنيعة دقيقة عن الفارسية ، حتى صدقوا عن تلك التراكيب الجامدة القديمة في منتصف القرن الماضي فأسسوا أدبا جديدا . ولكن هذا الأدب الفارسي كان قد استحوذ عليهم الى حد جعله عندهم مثالا يحتذى . واستساغ الترك ما ألف الفرس فألفوا ما هو تركي في لغته فارسي . في مضمونه (٢) .

(١) Menzel Die Turkesche Literature SS 289, 290 (Die Orientalischer Literaturen (Berlin 1925).

Horn Geschichte der persischer Litterature 26 Lefzig 1901). (٢)

ومما يذكر ان السلطان محمد الفاتح كان مشغولاً بأدب الفرس ، فأجرى وظيفة على شاعر من شعراء الفارسية ، وطلب الى الشاعر الفارسي جامي أن يقوم عليه . ومحمد الفاتح شاعر مجيد صاحب ديوان الا ان فرط شغفه بشعر الفرس حبيبهم اليه ، فوفد الكثير منهم على استانبول (١) وبوأ بعضهم المناصب في الدولة حتى آثرهم على الترك ، مما أثار في نفوس الترك الاستياء من هؤلاء الغرباء الدخلاء . وعبر عن ذلك شاعر تركي فقال : « أليس في المعدن قيمة للجوهر . اللدر سعر في البحر لولا أن جاء الى بلاد الترك العجم . أنى كان لهم هذا المقام الأكرم . كل عجمي الى بلاد الترك جاء ، كان بالوزارة أو الولاية معقود الرجاء (٢) » .

هكذا يعرض بالعجم هذا الشاعر التركي المسمى (لآلى) فيعبر ضمناً بلسان قومه الذين اشتد عليهم أن يفد الفرس على استانبول كيما تقبل الدنيا عليهم وتنصرف عن غيرهم من أهل البلاد وهم أحق وأولى ، وان كان المتسبب في ذلك الوضع المنفور منه سلطانهم محمد الفاتح . الا أن ميله الى الفرس وأدبهم هياً للفرس أن يكون لهم ظاهر الأثر في الأدب التركي على نحو لم يكن لهم به عهد . ذلك أن المداحين من الشعراء عرفوا ما يهوى اليه فؤاد ممدوحهم الفاتح . فتحببوا اليه بالضرب على الوتر الذي يروق له أن يطرب لأنغامه . ونلاحظ تلك الظاهرة في شعر أحمد باشا وزير محمد الفاتح وكان في عداد المجيدين من الشعراء ، وله قصيدة تسمى قصيدة القصر ينحو فيها نحو شعراء الفرس المداحين ويلتزم الدقة في تقليدهم وكان هذا الصنع يزلفه الى مولاه ويجعله في مرضاته . لقد بالغ في المدح ما استطاع الى المبالغة سبيلاً ، وتوخى أن يورد في مدحه ما يعرض الفرس من صور بيانية ، واستجمع في خاطره ما عرف عن الفرس ، ولما عرض لوصف شعاع الشمس منبعثاً من كوة القصر شبهه بتلك السلسلة الذهبية التي كانت لكسرى . وكان له سلسلة تتدلى من نافذته وقد ثبت في طرفها ناقوس . فاذا شاء متظلم أن يطلع الملك العادل على ظلامته ، جذب طرف السلسلة فتحرك الناقوس ودق ، وتنبه الملك الى النظر في أمر من يطلب رفع الظلم عنه . كما ان الشاعر عمد الى اقحام الألفاظ الفارسية في كلامه الى الحد الذي جعله فارسياً محضاً لولا وقوعنا على ما يحكمه من أصول النحو التركي حكماً ضعيفاً قد لا يلوح للنظرة العجلى .

(١) لطيفي : تذكرة لطيفي ص ٢٨٩ (درسمات ١٣١٤) .

ديريهاسين بولا مي عمانسده
اولدى بوغز لتيلة جون اكرم
ياوزارات ياسنجاك اومه كلر

(٢) كوهرة قيمت اولسه كانسده
رومه كله لنمو غي عجم
عجمك هربرى كه رومه كلر

وتزايد الميل الى احتذاء شعراء الفرس على الأيام ، وانكب علماء وبلغاء الترك يطلعون الاطلاع الواسع على تراث الفرس الأدبي فتشكلت منه أداتهم وكان أساسا ركيننا لما يحصلون من علم . ومن الدلائل على أن التراث الأدبي الفارسي كان نصب أعينهم ومناط اهتمامهم أن كثيرا من شعراء نظموا بالفارسية وشعرهم بين دفتي ديوان صغير أو كبير . وها هو ذا السلطان سليم الأول وهو شاعر له الرقيق الأنيق ينظم ديوانا من الشعر الفارسي ولا نكاد نعرف له في التركية شعرا ، وإذا حمل ذلك منه على أنه التعصب لأدب الفرس ، قلنا انه قاطع البرهان على اعجابه بشعر العجم وطول مداومته على النظر فيه ، الى الحد الذي تأتي له معه أن يشغل به عن الشعر التركي ، وينظم شعرا فارسيا في تقديرنا أنه لا يقل جودة وروعة عن شعر المجيدين من الفرس . ولقد حذا حذوهم حتى أشبههم اضافة الى قوله في أغراض لم يطرقوها ، وحديثه عن نفسه وما تحدثوا عن أنفسهم الا في أقل الأحيان . وفي نظرنا ان ذلك منه رافعهم عنهم درجة أو درجات .

وعلى ذكر شاعر الفارسية السلطان سليم الأول وما كان في عصره وعصر سلفه من ولوع شعراء الترك وتأثرهم بشعر الفرس ، يذكر ولده السلطان سليمان القانوني الذي تملك في منتصف القرن السادس عشر وكان عصره أزهى عصور الحضارة الاسلامية في المملكة العثمانية وهو شاعر صاحب ديوان من الشعر التركي .

وقيل ان مائتي شاعر في عهد هذا السلطان أظهروا من عبقريتهم عجبا عجبا الى جانب خمسين عالما شهد لهم بنفاسة ما أخرجوا من تأليف (١) . وفي رأى ان شعر العصور المتقدمة على هذا العصر كان بدائي الحالة يجرى على نسق واحد أما شعر هذا العصر فانه الشعر الحق اذ بلغ الجودة ورفعة الطبقة (٢) .

وفي رأى آخر ان الشعر التركي قبل عصر سليمان القانوني أشبه شيء بكلام صغير مستقيم تارة ولا يستقيم تارات . أما في عهد هذا السلطان فبدأ الترك يقفون على قدم المساواة مع شعراء الفرس المجيدين (٣) .

ونحن نلاحظ أهم سمات الأدب في هذا العصر بعد أن عرفنا ما قيل عنه في شمول . أما أخص ما يميزه تعليق شعراء الترك بشعراء الفرس أمثلة

(١) Van Gaver Turquie P. 154 (Paris MDCCXI)

(٢) فائق رشاد : تاريخ ادبيات عثمانية ص ٢٦٩ (استانبول) .

(٣) Gibb : A History of Ottoman Poetry P. 1 (London 1904).

يحتذونها ويستلهمونها . وكان تأثيرهم بالفارسية وشعرائها في عصرهم هذا أبعد وأعمق من تأثيرهم من قبل . وما ذاك في حسابنا إلا مساهمة منهم لازدهار الحضارة الإسلامية بكل مظاهرها في عصرهم هذا ، ومن حيث كان الأدب تعبيراً عن معاني الحياة وتصويراً لروح العصر ، رغب الشعراء في التفخيم والتعظيم . وعبروا عما يحيط بهم من بهاء ورواء فطوعوا الشعر خصوصاً ليكون الناطق الصادق عما يبدو لهم ويدور حولهم . وما وجدوا خيراً من أدب الفرس مدداً لهم ومعيناً على ما يقتضيه وصفهم في المجتمع التركي الإسلامي من حتمية أن يتفننوا بمجد دولتهم ، ويصنعوا ما يقع تحت حسهم ويدور في خاطرهم ، وبذلك كانوا بحق من أقاموا لقن القول كيانا هو الركن من أركان الحضارة .

وأقبل الترك على النظم في الأغراض التي كان فيها الفرس ينظمون وأحكموا تقليدهم والتزامهم عمود شعرهم . وأصبح ذلك دأباً لهم ومن تقاليدهم التي لم ينفكوا عنها .

وان لطيفي الذي أخرج كتابه (تذكرة الشعراء) وترجم فيها لشعراء الترك يقول في مقدمة كتابه ان أدعياء الأدب والمتشاعرين أصبحوا كثرة كاثرة فكل من كان له علم بالفارسية واطلاع على كتاب أو كتابين من كتب الأدب الفارسي وأصبح في قدرته أن ينظم أبياتاً معدودات يحذو فيها حذو شاعر فارسي ظن انه شاعر مجيد رفيع الطبقة . ونحن نأنس بقول هذا المؤلف لنستنبط منه رواج شوق الأدب في ذياك العهد من جهة ، وحرص أهل الأدب في تفاوت طبقاتهم وحيثياتهم على أن يجعلوا أدبهم قائماً على التركي قائماً على أساس من الأدب الفارسي ، أو صورة له في لغة الترك .

والترك في ذلك يشبهون العرب في كثير من عصور أدبهم ، فقد أخذوا من الجاهليين في أغراضهم وأنماط شعرهم وأوزانه والوقوف بالديار والبكاء في الدمن وما الى ذلك مما حملوا أمأنته .

وأخذ الترك عن الفرس نزعتهم الصوفية في تعبيرهم وتخيلهم وهم ينظمون القصص معارضين به شعراء الفرس كنظمهم قصة كيلي والمجنون ويوسف وزليخا ، وضمنوها رمزا صوفياً . وتنافسوا في هذا الفن حتى من لم تعرف من سيرتهم انهم كانوا من التصوف في كثير أو قليل .

ويقف بنا على تلك الحقيقة شاعر يسمى يحيى بك توفي عام ١٥٨٢ م وهو القائل في منظومة له عنوانها (يوسف وزليخا) (هذا المؤلف المستطرف

لي ودرر معانيه من بنات أفكارى وأكثرها خاص بى ، تلك القصة لا ينبغي أن تترجم أنا لا أضع حلوى الموتى لى فى فم (١) .

فيحيى بك يريد ليقول ان الشعراء لم يغادروا متردما وقد تداولوا نظم تلك القصة ، الا ان نظمهم لها أشبه شئ بترجمتها ، وهو ينزهها عن الترجمة أى عن التقليد فيها للشعراء المتقدمين من الفرس . كما يبرىء نفسه من أن يكون مثلهم مقلدا ويعبر عن ذلك بكتابة مستملحة هي ان نفسه تقف عن أن يأكل ما يضنع من حلوى توزع على الفقراء صدقة عند اقامة المآتم . فهو بذلك يكون مخدثا عن نفسه وعن غيره من الشعراء فى آن .

وعرف الترك فنا أو تاريخا أو طريقة للتاريخ مقتبسة عن الفرس ، وهى نظم منظومة للسلطان فيها التاريخ للدولة العثمانية عموما أو عصر من العصور خصوصا ، مع التغنى بمدح السلطان والتعريف بما له من مجد . وهذا مأخوذ عن عادة ملوك الفرس فى أمرهم بنظم الأشعار فى تواريخهم . كما كان من السلطان محمود الغزنوى الذى أمر الفردوسى بنظم الشاهنامه فى تاريخ ملوك فارس . وكان الشعراء يعاونهم الرسامون والخطاطون فى اخراج كتاب منظوم للسلطان فى التاريخ (٢) .

ومما سبق القول فيه والاشارة اليه ولو فى عموم ، يستبين لنا بالجلء الا تم كيف أورت الفرس الترك الكثير والكثير من معالم الحضارة ونخص بالذكر الأدب فى شموله واللغة فى تمازجها وتداخلها والتيارات الروحية التى أعقبت ما أعقبت من فنون القول فتضمنت ركنين من أركان الحضارة هما الدينى والفنى .

ومن تنمة القول فى هذا المقام أن نعرض لانتقال فن الغناء والطرب عن الفرس الى الترك ، ففي التاريخ ان أحد سلاطين آل عثمان وهو مراد الرابع فاتح بغداد فى عام ١٠٤٧ هـ أمر بقتل عشرة آلاف من أسرى الفرس ، وبلغ من غلظة قلبه أن يطيب نفسا بمشاهدة من يقتلون وما يشفع لهم الشافعون . الا أنه لم يشفعهم ، حتى قدم عليه موسيقى فارسى اسمه شاه قوى فغناه أغنية يسأله فيها الصفح عنهم . قيل فطرب السلطان كما لم يطرب من قبل ، ورق قلبه من قسوة وفضاظة وصفح بعد أن قيل ما الى صفحه من سبيل ، كما تبدل

خيال خاصم اولدى أكثرى

أولى حلواى المدم دهانه

(١) بوتاليف لطيف ودر معنا

يقشز ترجمة بوداستانه

(٢) Babinger Die Geschichtschreiber der Osmanen S88 Leipzig 1972.

من تكبره ويجبره برحمة وفاضت عينه من الدمع . وأعجب بهذا الموسيقى
الفارسي كل الاعجاب . فأنقذه مع أربعة من رفاقه واهل صناعته الى استانبول .
وفيها تتلمذ الترك على هؤلاء في فنهم وعرفوا عنهم ما لم يكن لهم به علم (١) .

ويستدل من مثل ذاك الخبر على أصالة فن الغناء عند الفرس مما يؤيد
ما أشرنا اليه من قبل أن العرب أخذوه عنهم ، وهنا نعلم أن الترك كان شأنهم
شأن العرب ، بل ونجد أن أسماء الألحان عند الترك فارسية وكذلك أسماء
المصطلحات الموسيقية ، وهي التي نألفها الى اليوم في لغتنا العربية بعد أن
انتقلت الى العرب . كما أن اقتران انشاد الشعر بالعزف كان معروفا عند
الشعراء المنشدين في فارس منذ قديم كما سلف القول في الاشارة اليه .

ومن أسماء المعازف التي عرفها الترك عن الفرس بأسمائها الناي والكماني
والطبل ، وهي تشهد للمستعار منه بفضلته على المستعير .

أما فن العمارة عند الترك فواضح فيه تأثيرهم بالفرس . ولندكر فن عمارة
المساجد ، وعلى ذكر المساجد نذكر ان مدينة استانبول أشهر المدن الاسلامية
بكثرة مساجدها ، بدليل أن المؤلف الفارسي بهاء الدين العاملي من أهل الن
السابع عشر الميلادي ، أحصى مساجدها فكان شيئا كثيرا .

ونخص بالذكر عند الترك المسجد المغطى تغطية تامة ولا وجود فيه لغناء
الوسط وسقفه مقبى ، وزخرفته غير متجانسة . فهذا الطراز من المساجد متأثر
بالفن الفارسي في استخدام الآجر المصقول ومربعات الفسيفساء المحلاة بالزخارف
والمفروشة في الجدار (٢) .

ولما اكتشف علماء الآثار قصر ملك الفرس دارا ووجدوا جدرانه مزدانة
بالآجر المصقول أيقنوا ان فن تزيين الجدران على هذا النحو منسوب الى
الفرس (٣) .

ويأتى الترتيب على ذكر ما يسائده الواقع التاريخي من أن معماريا فارسيا
استدعى من مدينة تبريز الى القاهرة ليزين مسجدا أقامه قوصون من أمراء
دولة المماليك البحرية ، فزينه بالقيشاني على هيئة قطع من الزجاج كل قطعة
من لون ، وتلك القطع متراصة محيطة برسوم وشكول . وتلك طريقة في

(١) Toderini : Letterature Turchesca p. 222 V.I. (Parigi 1789).

(٢) Ottiv : Terre des Empereurs et des Sullans P. 211 (Milan 1962).

(٣) Arseven : Les Arts Decoratifies Tures, p. 144 (Istanbul).

التزيين عرفت في فارس ، ومنها كان انتقالها الى الأناضول منذ القرن الثالث عشر (١) .

ومعلوم ان القيشاني نسبة الى مدينة قاشان الفارسية مما يشهد للقيشاني بصحة نسبه ، ومما يستلفت النظر في المباني الخاصة بدولة المماليك البحرية زخارف نباتية تتشكل من وحدات زهرية ، وقد لحق بها التطور في القرن الخامس عشر . ومن أمثلة تلك الزخارف ما يشاهد في قاعة مدرسة خوسقدم : وهي زخارف فارسية .

كما تلقى فن العمارة في عهد الطولونيين عن الفرس فن صناعة الآجر والكثير من أصول فن الزخرفة (٢) .

وفي القرن الثامن عشر ظهر من يدعى أشرف الأفغانى وكان صنديدا مغوارا ، ولما وجد الدولة الفارسية في سيىء من حالها وضعيف من شأنها حدثته النفس بأن يصبح الملك له ، واستفحل أمره وكثر جمعه وقويت شكيمته حتى غلب على مدينة أصفهان . الا أن السلطان العثماني أنفذ اليه جيشا تحت امرة من يسمى أحمد باشا . وانجلى القتال عن كسرة أشرف بحيث تيقن أنه لا طاقة له لقتال الترك وتعاهد أشرف وأحمد باشا على وضع أوزار الحرب . الا أن قائد الترك طلب الدخول تحت شرط ، وهو ارسال ألفين من الفارسيات مشهود لهن بالحدق في فنون الحياكة بأنواعها حتى تأخذ فتيات الترك عنهن أصول الفن .

وارتضى أشرف ذلك من أحمد باشا ، فما سمع بصناع من أصفهان الا أمرها أن ترحل مع الراحلات الى استانبول . وهنا ازدانت القصور بما نسجن من طنافس ، وصنعن لحظيات السلاطين ما لا عهد لهن به من فاخر الثياب . ونقش بديع النقوش على الأواني ، وما شاهد الترك من قبل مثلها ، كما تعلموا منهم فن النساجة والتطريز والرسم .

وهذا من خبر الفتيات الفارسيات بلغت الى أن الترك كانوا على علم بأن الفرس أهل فن وصناعة وتحينوا الفرصة للفادة من فنونهم بعامة ، مما يستدل به على أنهم كانوا على أهبة التلقى عنهم . ومما عرف الترك من فنون الفرس

Wiet : Les Mosques du Caire p. 299 (Paris 1933).

(١)

Ibid : pp. 304-306.

(٢)

نقش صورة الأسد وهو يفترس الثور ، وطالما شوهدت تلك الصورة التقليدية على القيشاني والمنسوجات والبسط (١) .

أما في الخطاطة أى فن تحسين الخط الفارسي المعروف بتستعليق بمعنى نسخ التعليق . فاختراع هذا الخط منسوب الى من يسمى مير على التبريزي ، ونسبته تدل على فارسيته . وقد أظهر الخطاطون من الأتراك ميلا الى هذا النوع من الخطوط وأعجبوا به اعجابا دفعهم الى استخدامه في كتابة دواوين الشعر . واذا ذكرت دواوين الشعر بدر الى الفهم أنهم اثروا بهذا الخط ما يحسن الاهتمام به والرعاية له واختصاصه بما لا يختص به سواء . وذلك اعتزاز بما يؤثرونه على غيره بميلهم واعجابهم . وذلك منهم مذكرا بتزيين دواوين الشعر بالتصاوير والترايين على أن الشعر عريق في الفن ، فمن حق الفن أن يعرضه في صورة فنية .

كما أنهم كتبوا بهذا الخط الفارسي أحكام المحاكم وذلك من الدليل على أنهم نظروا الى هذا الخط نظرة اجلال واكبار . . وكان تعبيرهم عن رأيهم فيه باستخدامه في أخص ما تجدر العناية به والاكبار والاعظام له .

ومما يقيم الدليل على منزلة هذا الخط عند الترك ما يقال من أن من يسمى كرم الله رأى جده فيما يرى النائم وهو يريه أوزة ، ولذلك جعل الخط على هيئتها . ولكن بما أن اختراع هذا الخط كان في القرن الرابع عشر الميلادي فنسبة اختراعه الى هذا التركي من غير المحتمل (٢) .

أما نحن فنقول في يقين ان هذا الخط فارسي ، الا اننا نفيد مما قيل عنه ولو على غير الصواب ، لنذكر ان تلك الرؤيا التي رآها جد مخترعة وتراعى له النبي صلى الله عليه وسلم من الدليل على اقترانه بقدسية وحرفة فكان هذا الخط الفارسي له عند الترك أو بعضهم منزلة يا لها من منزلة .

أما صناعة البسط ، فأول ما يقع في خاطر متصلا بها ، أن الفرس برزوا فيها بروزا وليس لهم من يضاهيهم فيها . ولقد أخذ الترك عنهم مما جعلهم يشتهرون بتلك الصناعة ولكن بفضل الفرس عليهم . فقد ذكر الرحالة (ماركو بولو) الذي اجتاز مدينة قونية في الأناضول . وكان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، أن في تلك المدينة أجود ما في العالم من بسط وأيده في قوله من بعد الرحالة العربي ابن بطوطة . وتعقبنا على هذين القولين المتساندين

(١) د . بهنام : نكاحي بكنشته ها ص ٣ و ٥ هنرومروم شمارة جهل ويكم وجهل ردوم اسفند وفروردين سال ١٣٤٥ (تهران) .

(٢) محمد مصطفى : سجاجيد الصلاة التركية ص ١٠ و ١٣ (القاهرة ١٩٥٣) .

أنهما يؤيدان حقيقتين متكاملتين ، أولاهما أن الأتراك بلغوا الغاية فى إتقان صناعة البسط ، والأخرى أن هذا الإتقان يترتب على أخذهم تلك الصناعة عن الفرس الذين عرفوا بها منذ الزمان الأطول . ونذكر ما قيل من أن العرب يوم القادسية أصابوا بساط كسرى وثقل عليهم أن يحملوه . وكان الفرس يعدونه للشتاء اذا ذهبوا للرياحين . فاذا أرادوا الشرب شربوا وهم جلوس عليه وكأنهم من رسومه وتهاويله فى بستان أنق (١) .

ففى مثل هذا صريح الدلالة على مهارة الفرس فى صناعتهم مما يترتب عليه مهارة من يأخذون عنهم . أما فن التصوير ونعنى به رسم الصور الصغيرة التى اشتهر الفرس بها من قديم ، فمما تعلمه الترك من الفنانين الفرس . ويرى العلماء ان هذا الفن عند الترك لا يعدو أن يكون لونا محليا لما عند الفرس . وفى أزهى عصور الحضارة التركية عصر السلطان سليمان القانونى ، قيل عن أشهر مصور تركى يسمى عليا انه تتلمذ لمصور فارسى يسمى محمد بيك كما قيل عن تركى آخر انه اكتسب خبرته ومهارته من فارسى علمه ودربه (٢) .

فكان تأصيل هذا الفن عند الترك مرده الى الفرس ، مما يكاد يتبدى به الشك فى أن فارس كانت مصدرا للفن عند الترك يصدرون فى كل ما توفروا على انجازه من عمل فنى .

واذا انساق بنا الكلام الى الهند ذكرنا أن بينها وبين فارس أسبابا متصلة وواشجة نسب منذ أزمنة يطمسها القدم ، وكما نتبين ذلك على التقريب والتحقيق عرفنا أنه بعد فتوح الاسلام لفارس ، كره بعض الفرس أن يدينوا للعرب اعتزاذا بأنفسهم وأنفة من أن يدينوا لقوم هم فى رأيهم أهل جاهلية يرعون الابل ويأكلون الضباب ، كما عز عليهم أن يرتدوا عن مجوسيتهم التى وجدوا عليها آباءهم ، فما وجدوا مندوحة من الفرار بدينهم وقوميتهم من أرضهم الى أرض الهند المتاخمة لهم ، وما اشتد عليهم أن تكون هجرتهم الى قوم من سلالتهم الآرية وكأنما ارتحلوا من قاصية الشمال الى قاصية الجنوب فى بلادهم ، قالها شدوا رحالهم زرافات زرافات وطابت لهم مستقرا ومقاما . وما زالت الى اليوم لهم جالية عظيمة فى بمباي خصوصا ، ويعرفون فيها بالبارسين الباقين على مجوسيتهم . وأول عهد الهند بالفرس المسلمين كان فى عهد الدولة السامانية التى كان لها الحكم فى فارس فى القرن الثالث الهجرى . ودخل جند

(١) ابن الحوزى : سيرة عمر بن الخطاب ص ٨٢ (القاهرة) .

Dwens Turkish Ministres pp. 12, 16 (London 1936).

(٢)

الفرس في أحكام الاسلام وقيمه على الهند ، وانتشر دين الفرس الاسلامي وشاعت لغتهم الفارسية على نطاق جعل يتسع على مر الأيام (١) .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري فتح السلطان محمود الغزنوي الهند ، وانساحت جيوش الفرس في البلاد واشتدت خلطتهم بأهلها ، فأدى ذلك الى المتعارف المؤلف من تأثر لغة أهل البلاد المفتوحة بلغة الفاتحين . وزادت الخلطة بين الفرس والهند وبالتالي بين لغة القومية الى الحد الذي نشأت فيه لغة جديدة تتشكل من لغة هؤلاء وهؤلاء . ولما كان الرجحان للفارسية ، نسبت اللغة الجديدة الوليدة الى جيش الفرس أو معسكرهم فسميت (أوردو) بمعنى جيش أو معسكر . وأصبحت لغة على جانب عظيم من الأهمية بين اللغات الاسلامية التي عبرت عن حضارة الاسلام في مظهرها الفارسي على الخصوص ، وهذا ما سوف تمس الحاجة فيه الى بسط الكلام من بعد .

وظلت الهند على وثيق صلة بالفرس وحضارتهم الاسلامية الى أن كان الحكم في فارس للدولة الصفوية وذلك في القرن السادس عشر الميلادي ، وأقرت المذهب الشيعي مذهباً رسمياً وحظرت على الفرس أن يتمذهبوا بمذهب سواه ، وما حدثت أحداً نفسه بالتباعد عن التشيع الى غيره الا عد من المارقين الفاسقين ليؤخذ بما يؤخذوا به من شديد العقاب .

وكان التصوف هو الطابع المميز للشعر الفارسي ، فما ملك الشعراء أن ينصرفوا عن اصطلاحاته وعباراته وصوره الرمزية في شعرهم ، وهذا ما ساء علماء الشيعة في ذلك العهد فأعزوا الى الملوك أن يقضوا قضاء مبرماً على شعراء التصوف خصوصاً ان منهم من كان على المذهب السني ومنهم من كان مذهبهم الصوفي مخالفاً أو معانداً لأصول المذهب الشيعي (٢) .

وأفضى الأمر بالملك الفارسي الشيعي في ذلك الزمان الى أن يكون صليبا في مكافحة الشعراء الذين يقولون في مختلف فنون الشعر ، فما ارتضى منهم الا القول في رثاء أئمة الشيعة والنظم في التعريف بأصول مذهب التشيع وما يتصل من ذلك بسبب . فرأى الشعراء أو معظمهم انهم في قيود وحدود لا يملكون منها انطلاقاً ، وأن ألسنتهم التي جعل الملوك فيها عقدة لا تحل ، لم تعد طوع ما فطروا عليه من سبجية . فما وجدوا الا أمراً واحداً ما له من ثأن ليكونوا على التحيز ، ألا وهو الارتحال عن بلادهم الى بلاد الهند . الذي ازدهر فيها أدب الفرس ولغتهم ، وحقها أهل الهند الحذق كله ، وعدوها لغة التراث

(١) على أكبر خراساني : روابط ادبي ايران و هند . ص ٢٢ (طهران ١٣١٦) .

(٢) على رازی : تاريخ ايران ، ص ٦٠٢ (طهران ١٣١٧) .

الاسلامى التى لا يسع عالمهم أو متعلمهم وأديبهم ولا متأديبهم الا أن ينال الحظ الأوفى من العلم بها والاحاطة بأدابها . وكان ملوك الهند يبصرون الشعر الفارسى ويبذلون العطاء لما ديجهم بلغة الفرس .

ونحن لا نعدم لذلك عديدا من أمثلة فى فترة طويلة ممتدة من الزمن ولعل أقرب مثال وأدلة على ما نريد تبينه فيه ، أن أحد حكام الهند فى القرن الثامن الهجرى ، أرسل الى حافظ الشيرازى أشعر شعراء الفرس ، يطلب قدومه عليه وزوده بنفقة سفرته ، وركب البحر الذى هاج به وماج ، فأثر الشاعر العافية وانثنى عن نية ركوب البحر الى الهند ، وبقي فى مدينته شيراز (١) .

ونعود الى شعراء الفرس الذين أزعجوا عن ديارهم وارتحلوا الى الهند بأشعارهم الفارسية التى تؤلف عنصرا عظيم الأهمية من الجانب الأدبى العلمى الدينى للحضارة الاسلامية . ولتفسير ذلك نقول ان شعراء الفرس ألفوا أن يضمنوا شعرهم كل ما فى جعبتهم من العلوم الاسلامية واصطلاحات التصوف والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكل علم حصلوه كعلم الفلك وعلم الطب ، لأن مفهوم الشاعر عند الفرس مختلف عن مفهومه عند العرب . فكان الشاعر الفارسى شاعرا نائرا عالما بأصول الدين وأحكام التصوف والتفسير والتأويل والتأريخ وعلم الكيمياء والرياضة والحساب وكل ما يمكن الاحاطة به من أفانين المعرفة التى وجد المسلمون اليها فى ظل الاسلام . ولا يتيسر فهم لما يقولون من شعر تزاحمت فيه المصطلحات والاشارات الا لمن كان راسخ القدم فى العلوم الاسلامية ، ويلزم من ذلك أن يكون نظمهم للشعر تعبيرا عن مقومات حضارة الاسلام ، وقراءته فى حقيقة الحال قراءة لصفحة فى كتاب تلك الحضارة ، ويتسنى لمن ينظر فيها حق النظر أن يستوعبها فى الأهم من مقوماتها والأوضح من معالمها . ومن هؤلاء الشعراء الفرس من كانوا علماء لهم المؤلفات والمصنفات فانتقالهم عن بلادهم الى الهند يعد ولا ريب انتقالا بحضارة الاسلام . ولا نسيان لأنهم بعد أن استوطنوا أرضا هى دار غربة ، جدير بهم أن يعيشوا فى الجو النفسى الذى يعيش فيه الغريب ، فيندفع الى اثبات جدارته وعظيم قدرته لمن قد لا يحسنون به ظنا .

وذلك باعث نفسى خفى جد قوى يبعثه على ان يبذل الوسع ، كما أن شعوره بالرضا وسكينة النفس مما يشرح صدره للعمل فى اتصال ودوام ، رجاء أن يبلغ غاية الغايات .

(١) د . حسين مجيب المصرى : من أدب الفرس والترك . ص ٣٧ (القاهرة ١٩٥٠) .

ونأنس في هذا المقام بقول شاعر فارسي ممن رحلوا الى الهند (ليس في
ايران أسباب لتحصيل الكمال ، لا لولون لحناء ما لم نشد بها الى الهند
الرحال) (١) .

ويقول أحد المؤلفين في تأصيل حضارة الفرس في الهند ان السلطان
محمود الغزنوي بعد فتحه اقليم البنجاب وضمه الى ملكه أي أن الدولة الغزنوية
سرعان ما أصبح هذا الاقليم أرضا اسلامية يقطنها خلق كثير من الفرس والترك
وأصبحت مدينة لاهور لهؤلاء حاضرة العلم والأدب . وكانت لغة اولئك المهاجرين
المستقرين في تلك المنطقة هي اللغة الفارسية التي لم يشب صفاءها ونقاءها
شائبة من لغة الهند . وسكنوا عدة مدن أخرى فتألف منهم مجتمع خاص متميز
بلغته وثقافته . وقد مهدت هذه الطائفة بشعرائها وبلغائها لظهور شعراء الهند
من بعد الذين نظموا بالفارسية علي نحو خاص يعرف بالطريقة أو الأسلوب
الهندي . ولما أفضى الملك بعد محمود الغزنوي لمن خلفه ورث عنه ولعه بالأدب
والفن ، وأحاط نفسه في بلاطه بجميع من العلماء والشعراء ، واجتذبهم اليه من
أفغانستان والبنجاب وخراسان وما وراء النهر (٢) .

ومن علماء الغرب من رأى موصول الصلة بين مدينة لاهور في بلاد الهند
ومدينة غزنة في بلاد فارس فقال ان لاهور تعد غزنة الصغرى (٣) .

والمستفاد بالحثم من ذلك أن الفرس جعلوا من تلك المنطقة المشراحيبة الأرجاء
من شمال الهند اقليما فارسيا لا يختلف عن بلادهم الا بموقعه الجغرافي ،
فهو فارس في لسانها وأديبها ودينها وملكها الذي يقيم في حاضرة ملكة الصغرى
أو الأخرى ليجمع العلماء والبلغاء علي رسوم بلاطه ، ويشكل منهم مجتمعا
اسلاميا لا تفرقة فيه بين الأجناس يترابط بالدين في وحدة لا انفصام بين
عراها ، وقد استوفى من حضارة الاسلام كل أركانها وهي الدين والعلم والفن .
وتلاتلوه من خلفوه فأكملوا ما بدأ وارتفعوا بالبنيان الذي أرسى له الأساس .

ولعل شعراء الترك وعلماءهم الذين مضوا من بعد الى الهند ايقنوا
قبل رحيلهم انهم لن يعيشوا فيها غيش غرباء في دينهم أو لسانهم أو أي مظهر
من ماهر حياتهم التي انقضت منها أعوام في فارس الدين والعلم والأدب فضلا

(١) . نيسن درايون زين سامان ، تحصيل كمال

تانيا بد سدي هندوستان حنا ركني نشد .

(٢) Iqbal Husam : The Early Persian Poets of India p. 1,2 pp. 1,2. (Patna 1939).

(٣) Baugani Storia alla Leuerature dec Pakistan 65 (Milans 1958).

عين تبدلهم من ملوكهم الذين يسيرون فيهم سيرة الذئب في الحمل ، بملوك
رحما كرماء يطربون منهم لكل ما يتقلبون فيه من فنون القريض .

ولما استكملت اللغة الأوردية قائما من كيانها وازدهرت آدابها ، كانت
الفارسية وآدابها قواما لثقافة بلغائها وكانت فصاحتهم في الفارسية كمثلها في
الأوردية . وشكلت الفارسية معظم ألفاظها ، حتى لقد انبرى بعض الباحثين
لإحصاء الألفاظ الفارسية في الأدب الأوردى فبلغت نسبتها تسعين في المائة
عند بعض الشعراء ، وهم بذلك يؤكدون أثر التراث اللغوي الفارسي في لغتهم
القومية . كما انهم نظموا في أغراض الشعر الفارسي أنماطا وأوزانا هي التي
عرفوها عن شعراء الفرس . ومن العلماء من يقول ان الفضل معزو الى الفرس
في نشأة هذا الأدب ، ولغة هذا الأدب هي لغة أربعمائة مليون من سكان شبه
القارة الهندية وجنوب وشرق أفريقية ومنطقة الخليج وجنوب برما والملايو .

ومن عجب أن بلاد الهند بما وسعت من جبال وأنهار لا تذكر في الشعر
المنظوم بالأوردية ، وانما تذكر جبال فارس وأنهارها وفي الهند أسماء وأسماء
للملوك وملوك ، الا أن شعراء الأوردية لا يكادون يذكرونهم في أشعارهم ، بل
يلهجون بذكر أسماء ملوك الفرس القدامى مقرونة بما كان لهم من حول وطول
وصولة وعزة جانب . وما اهتم هؤلاء الشعراء بوصف بساتين الهند وبلايلها
وأزاهيرها وزياحيتها ، ولا شغفوا بذكر قصص عشاق الهند ، ولا تغزلوا في
عيون فواتن لغادات كشمير ولا تطربهم بشعر البنغاليات يتفج منه الأريج كأنه
نسمات ليلة الوصل في الروضة المعطار ، بل ذكروا قصص عشاق الفرس ،
وتغزلوا على نحو ما تغزل حافظ الشيرازي الذي افتتن بمحاسن حسان فارس
فيما طواه الدهر من أيام غريد وليال بيض .

ولا نكاد نجد أسماء لأزهار الهند وأطيافها فيما قال شعراء الأوردية على
كثرة ما لهم من زهر ذى بهاء وطير عذب بالغناء ، وتردد في قولهم ذكر ما أنبتت
أرض فارس من زهر وما رفرق في جوها من طير .

وفي الأوردية من الأمثال الفارسية شيء كثير ، ومن الألفاظ الفارسية
الأصيلة ما أمسى منسيا في لغة الفرس مهجورا لا يجري على الألسنة والأقلام
الا أنه ظل محفوظا مذكورا في الأوردية وما زال الخطباء في يومنا هذا يضمنون
خطبهم أشعارا بالفارسية ذهابا منه الى تحسين عبارتهم من جانب واكتسابها
الحجية من جانب آخر وعلم العلماء والبلغاء الفارسية يعلى من قدرهم في مخاض
العلم والأدب على حد سواء .

وهاهو ذا شاعر معاصر من شعراء الأوردية يسمى « جوشن مسيح آبادي »

يقول ما نصه (انى جد فخور بأن كل ما فاضت به قريحتي من شعر نسج سداه ولحمته فى طراز أقيم على ضفة نهر ركنابادا بالقرب من روضة مصلا وأنى مقيم على عهد ايران ما كان لى روح فى جسدى . وكل من أراد أن يكون أديبا فى الأوردية حتم عليه الطواف بكعبة الأدب الفارسى والا خاب مسعاه ولم يحقق ما تمناه) (١) .

واذا تغلغل بنا نظرنا فيما تقدم أدركنا بما لا يرقى اليه من شك أن الأوردية وآدابها صورة واضحة الملامح لحضارة الفرس الاسلامية ، وقد انتقلت بحذافيرها من أرض الى أرض ولو قلنا أن اللغة والأدب من مشخصات القوميات والمدنيات ما وسعنا نسيان أن الشأن فيما نشير اليه يحمل أكبر دليل على تضمن تلك الآداب طابع الأدب الفارسى الاسلامى وهو احتسواء اصطلاحات التصوف وآيات الذكر الحكيم وكل ما يتصل بذلك من بعيد أو قريب . وعليه ، يمكن الحكم بأن أدب الهند كان صنوا لأدب الفرس فى اسلاميته المعبرة عن حضارة المسلمين التى بلغت غاية الغايات فى تكاملها وترايتها وحدة لا تقبل التجزئة ولا التفرقة لأنها الجامعة بكل المعنى .

ونزيد الأمر توضيحا فنقول ان شعراء الهند لم يوردوا فى شعرهم وصفا ولا ذكرا لأنهارهم مثلا ولا لأزهارهم فكأنهم قطعوا نظرهم قطعا عما يدور من حولهم ويقع تحت حسهم ليشغلوا عنه بما يلوح فى خيالهم بعد أن ملأ عليهم رحاب عقولهم وقلوبهم وهم فى ذلك متأثرون بما تلقنوه وطاهوه فأصبح عندهم ملكة أو سليقة وطبعا فيهم لا يملكون تكلفا لسواه .

ولعل ما قاله الشاعر المعاصر يجمع فى عبارات معدودات فحوى ما حاولنا له شرحا وتفصيلا . وان كنا لا نفكر أننا ما توقعنا منه مثل هذا الرأى فى يومه الحاضر ، وان جاز لنا توقعه من غيره فى زمان تقدم . بيد أن تأييده وتوكيده لتلك الوصلة بين الآداب الأوردية والآداب الفارسية مما يستفاد منه أن أدب شبه القارة الاسلامية فى يومنا الحاضر ما زال قائما على الأدب الفارسى فى سالف الزمان ، حين كان الأدب الفارسى فى أوج كماله واستيعابه أشتات المعرفة فى الاسلام ، بدليل قول هذا الشاعر المعاصر أنه استمد شاعريته مما كان على ضفة نهر ركناباد بالقرب من روضة كلكشت . فالإشارة فى كلامه الى اسم نهر وروضة فى مدينة شيراز كان يطيب للشاعر الفارسى حافظ الشيرازى . فى القرن الثامن الهجرى أن ينظم شعره عندهما .

(١) حيدر شهباز : نفوذ فارسى در زبانهاى هند وباكستان ص ١١٩ - ١٢١ سخرانى وبعث درزيان فارسى (طهران ١٣٥٤) .

وذكرنا للغة والأدب يفضى بنا الى ذكر الفن . واذا خطر الفن الفارسي لنا ببال اقترن ضرورة بحكم ينسحب عليه في عموم وهو أننا لا نعرف بعد فن الاغريق فنا آخر كان أبعد امتدادا وأعرق تأثيرا من الفن الفارسي ولا عهد لنا في أى عصر بفن لم يتأثر بذلك الفن (١) .

فعلما بتلك الحقيقة مستوجب قطعا أن يكون الفرس قد نقلوا الى الهند فنهم في طليعة من نقلوا اليها من مظاهر حضارتهم الاسلامية ، وعلى نحو باد لأعين المشاهدين قبل أن يتبين للدارسين المحققين .

وما أقرب الى الفهم أن يكون المسجد أول مثال لفن العمارة عند الفرس في أول عهدهم بفتح الهند واستيطانها . ويحضرنا في هذا المقام ما قيل من وجود صنم عثر عليه المسلمون وهم يبنون مسجدا في الهند ، وهو الصنم الذى ذكروا أن السلطان محمود الغزنوى حطمه في أحد المعابد ، ولذلك تلقب في الفارسية بلقب (بت شكن) بمعنى محطم الصنم . وذلك صريح في رمزيته الى دخول الاسلام بحضارته على عبدة الأصنام ، وتذكير بما سوف ترتب النتيجة على مقدمتها .

ومن المأثور أن سلاطين الغزنويين في لاهور كما كانوا في غزنة مولعين بإقامة القصور وتزيينها بكل ما وسعهم الفن الاسلامي من أنماط الزخرفة ، وما كان السلطان منهم يقتصر على اقامة قصر له وحسب ، بل كان الى جوار قصره قصور وقصور لحاشيته ورجال دولته مما جعل لهم بذلك مدنا ملكية ، ولقد تألق أهل الفن ما وسعهم أن يتأنقوا في تزيينها بالزخارف التى شاعت وازدهرت على عهد السلاجقة في فارس ، وهى القائمة على التزيين بالأزهار والأغصان وأنواع الخطوط . ومن العلماء من يلحظ في زخرفة تابوت أحد سلاطين الغزنويين في الهند تأثر صورة الزهرة في الزخرفة الفارسية بمثلها في الزخرفة الهندية (٢) .

ونقف عند تلك المعلومة لنتبين ان الفن الاسلامي أثر وتأثر بالفن الهندي ولو في مثل تلك الجزئية ، مما ينهض دليلا على أن الفن الفارسي تقبل بعض التطور ، وذلك ما يمد به جديد تكتمل به عناصره وتتعدد به سماته .

وبنظرة أخيرة فيما جرى به القلم يتوضح في الفهم أن حضارة الفرس قبل الاسلام وبعده كانت مددا لحضارة المسلمين في الأرض ذات الطول والعرض ، قوطدت لها ركين أركانها وشكلت أخص خصائصها ، فمن الحق قولنا ان للفرس الأثر كل الأثر .

(١) د . زكى حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي . ص ١١ (القاهرة ١٩٤٦) .

(٢) كرنيل : ترجمة أحمد عيسى : الفنون الاسلامية ص ٩٦ (القاهرة ١٩٥٤) .

مكان المسلمين
في التاريخ العام لعلم الجغرافية

د. حسين مؤنس

ما زالت جهود المسلمين فى ميدان الجغرافية بشتى فروعها تدرس فى عالم العرب على أنها جانب ثانوى من تراث الأجيال الاسلامية الماضية ، بل ما زال الكثيرون ينظرون الى ثمرات جهود الجغرافيين المسلمين على أنها لا ترقى الى مستوى ما حققه المسلمون فى ميدان الطب أو الصيدلة مثلا مع أن الجغرافية بفروعها المختلفة تعتبر الى يومنا هذا من أحفل ميادين العلم الاسلامى بالنتائج الباهرة وما زال الكثير من مؤلفاتهم صالحا نافعا مستعملا الى اليوم فى ميدان الجغرافية الحديثة دون أن يقتصر على مطالب الدراسات الاسلامية وجسدها كاللغة والأدب .

ويرجع ذلك الى قلة اهتمام المثقفين العرب والمعنيين بالتراث بهذا الجانب المجيد من أعمال أسلافهم ، واذا أحصينا العلماء الذين اهتموا بدراسة التراث الجغرافى الاسلامى ما بين شرقيين وغربيين للاحظنا أن عدد الغربيين يفوق عدد العرب والمسلمين أضعافا ، واذا نحن قرأنا كتاب المستشرق الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى عن الأدب الجغرافى الاسلامى فى ترجمته العربية الجديدة بالاعجاب (١) لوجدنا أنه يبدأ الكلام عن كل علم من أعلام الجغرافية العربية وكل كتاب من الكتب التى كتبوها بالكلام على من عنى بالرجل أو بالكتاب من المستشرقين أو من درس هذا أو ذاك أو قام على نشره منهم ، وهنا نشعر أننا مقصرون كل التقصير فى حق أعلام الجغرافية من المسلمين ومؤلفاتهم . فان

(١) قام بتلك الترجمة الاستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ونشره فى جزءين ضخمين فى القاهرة سنة ١٩٥٧ ضمن سلسلة مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر وهو من مختارات الادارة الثقافية للجامعة العربية .

جهودنا في ذلك الميدان لا تكاد تقاس الى جهود الغربيين . ومن هنا فان معلومات المثقف العربى العادى عن الجغرافية الاسلامية لا تبعث على الرضى ولا تقوم بحق بجانب يسير من حق أولئك الأسلاف من العلماء علينا .

ويقف اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكى فى آخر سلسلة باهرة من أعلام المستشرقين الذين ندين لهم بالكثير جدا فى ميدان الجغرافية عند المسلمين، فقد سبقه الى التجويد والابداع فى ذلك الميدان علماء أجلاء مثل دى خويه وجابريل فيران وم . رينو وجيورج ياكوب وفرديناند فوستنفلد وتادويتش ليفيكى وكونراد ميللر كارلو تالينو فرانتس فون مجيك وجيورج روشبكا واليمنى بولوفر وفرانتس فوند روزون وسيزار دوبلر وفلهلم توماشيك وجيوفانى أومان وغيرهم كثيرون ممن درسوا النصوص العربية أو الفارسية أو التركية وحققوها ونشروها أو أقاموا عليها دراسات عظيمة القيمة العلمية قدمت لنا أساسا متينا للبحث فى تاريخ الجغرافية عند المسلمين . وقد أحسبت بمقدار ديننا لأولئك الأعلام أثناء دراستى الطويلة لتاريخ الجغرافية والجغرافيين عند المسلمين (١) .

ولقد دخلنا نحن المسلمين والعرب المحدثين هذا الميدان متأخرين بعض الشيء وان كانت أجيالنا السابقة قد خدمت التراث الجغرافى على قدر ما تيسر لها . فنشرت دار الكتب المصرية موسوعتى نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى وصبح الأعشى للقلقشندي وهما تضيان أجزاء جغرافية موسعة القيمة ، وأقام أمين الخانجى بنشر معجم البلدان لياقوت الحموى فى القاهرة سنة ١٩٠٦ ، وتولى مصطفى السقا نشر معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى ، ونشر عبد السلام هارون نص كتاب الأمكنة والبقاع لعدام بن الأصبغ ضمن سلسلة تحقيقاته القيمة للمخطوطات التى سماها نواذر المخطوطات ، وتولى عالم الجزيرة العربية الأستاذ حمد الجاسر نشر نصوص رواد المؤلفين فى جغرافية الجزيرة العربية الى جانب ما تيسر من الأبحاث الجغرافية القيمة فى مجلة العرب هذا الى جهود طيبة وأعمال متفرقة لنفر من أفذاذ الجغرافيين العرب المعاصرين من أمثال سليمان ومحمد محمود الصياد .

وفى أيامنا هذه تلقى الجغرافية الاسلامية عناية كبيرة ومنتظمة من الباحثين المسلمين ، ففي سنة ١٩٧٨ عقد فى مدينة الرياض بفضل جامعة الامام محمد

(١) نشر فى مدريد ضمن مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد سنة ١٩٦٧ .

ابن سعود مؤتمراً حافلاً للجغرافية الإسلامية شارك في أعماله عدد كبير من الجغرافيين المسلمين ، وألقيت في ذلك المؤتمر أبحاث علمية ذات قيمة كبيرة ، وتدرس مادة الجغرافية التاريخية الإسلامية في قسم الجغرافية بجامعة القاهرة وتعتبر مادة أساسية من مواد الدراسة ، ويولى قسم الجغرافية في جامعة الكويت عناية كبيرة بالتراث الإسلامي الجغرافي بفضل العناية المشكورة التي يلقاها هذا الفرع من تراثنا العلمي من الدكتور عبد الله القيثم الذي أنشأ وحدة خاصة لدراسات الجغرافية الإسلامية في قسم الجغرافية في تلك الجامعة ، وقد رجع دار المعارف بالقاهرة معجم البلدان لياقوت الحموي ضمن برنامجها لمواصلة سلسلة ذخائر العرب لسنة ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، وقد نشرت جامعة الكويت خلال عام ١٩٨٠ كتاباً قيماً عن : الجغرافية العربية ألفه س . م . ضياء الدين علوي وقام على تعريبه وتحقيق ما جاء فيه عبد الله القيثم وطه محمد جاد ، وهو ملخص جيد لجهود المسلمين في ميدان الجغرافية وما يتصل بها من علوم . وقد أفدت فائدة كبيرة من هذا الموجز الطيب في أعداد هذا البحث .

وهكذا ، شيئاً فشيئاً ، وعلى آثار الرواد الأمجاد الذين ذكرنا بعضهم تنشأ في عالم العرب مدرسة عربية لدراسة الثروة العلمية التي خلفها لنا الأجداد في ميدان الجغرافية ، وسنرى في الموجز التالي أنها ثروة عظيمة القيمة جديرة بكل عناية وتقدير . حقا ان العمل في ذلك الميدان وتحقيق النصوص وإنشاء الأبحاث يتطلب صبرا ومشقة وعلماً واسعاً باللغات غير العربية ، إلا أن الثمرة التي يصل إليها الباحث في ذلك الميدان تعدل ما ينفق فيه من جهد وتزيد ، وما زلنا مع الأسف بعيدين عن الوفاء بحق أجدادنا في ميادين العلوم ، بل نحن فيما يظن لم نصل بعد إلى خلاصهم لما توفرنا عليه من دراسات وتوايف في ميادين العلوم البحتة والعلوم الاجتماعية بل في علوم العربية والفقه والأدب والفلسفة ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يتصل بالجغرافية وفيما يلي من صفحات هذا الموجز .

جرت عادة الباحثين في علم الجغرافية عند الباحثين بأن يبدأ بالكلام عن تراث ذلك العلم عند الهنود واليونان والرومان على اعتبار أن هؤلاء هم أساتذة العرب في ذلك الميدان . وقد سبق أن قلت في كتاب تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ان مثل هذا المدخل مقبول على أنه تعريف بما وصل إليه الناس قبل العرب في ميدان الجغرافية ، لكنه غير مقبول اذا كان المقصود هو القول بأن الهنود والاعريق أساتذة العرب حقا في ميدان الجغرافية ، لأن الذي أخذه العرب عند الهنود واليونان لا يعتبر أساسا إلا لجانب يسير مما ألفه العرب في الجغرافية ، وهو الجانب الفلكي والرياضي من تلك الجغرافية ، وهذا

الجانب بالذات هو أقل جوانب الجغرافية عند المسلمين قيمة وأحفلها بالخطأ . بل ان تمسك بعض علماء العرب بآراء اليونان فى الجغرافية الفلكية والرياضية قد أضر بأعمالهم وأوقعهم فى أخطاء كانوا يستطيعون تجنبها لو أنهم تحرروا من تلك الآراء ، ثم ان ذلك الجانب هو الذى تلاشى فى وقت مبكر من تاريخ الجغرافية عند المسلمين ليفسح المجال للعلم الجغرافى العربى الأصيل وهو العلم الذى قام على جهود البلدانين والمسالكيين .

وقد قلت هذا الكلام فى الفصول الأولى لكتاب تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ولم تكن الترجمة العربية لكتاب الأدب الجغرافى العربى قد ظهرت ، فلما ظهرت واطلعنا عليها رأينا أن مؤلف ذلك السفر الجليل وهو العلامة الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى يتفق معنا فى ذلك ، بل يذهب الى أن ما أخذه العرب من اليونان فى علم الجغرافية أضر بمفهومهم العربى الخالص للجغرافية ، وهو يقول فى ذلك : « والعيب الأساسى للأدب الجغرافى هو خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيرا ما أدت الى استكمال هذه النظريات وتعديلها ، بل وحتى الى صرف النظر عنها . أضف الى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق الى مستوى تجاربهم العملية . فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك فى النصف الشمالى منها ، وهو ما عُرف باسم «الربع المعمور» كما اعتنقوا رأى القائل باستحالة الحياة فى البلاد الشديدة الحرارة أو القارسة البرودة . وإذا كان اعتناق اليونان أو أوروبا الوسيطة لهذه النظرية الأخيرة له ما يبرره فى عدم إلمامهم بالبلاد الى الجنوب من خط الاستواء ، فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيدا تلك البلاد من افريقية مثل زنبار ومدغشقر حيث رأوا رأى العين عددا من المراكز المأهولة ، وبالرغم من هذا فقد ظلت هذه النظرية القديمة عائشة بينهم دون ما أدنى تعديل (١) الى آخر هذا الكلام الذى يؤيد ما نقوله من أن أخذ العرب بنظريات اليونان لم ينفعهم فى كثير بل أضر بهم وشاب تصورهم العلمى الصحيح .

وإذا كان تصور اليونان لقسمة الأرض عرضيا الى أقاليم سبعة مسكونة شمالى خط الاستواء مقبول فى جملته معينا الى حد ما على تحديد مواقع البلاد وتصور هيئة المعمور من هذا الكوكب فى تصور أهل تلك العصور ، فإن خطوط الطول التى أخذوا القول بها عن اليونان لم تنفعهم فى شيء بل شابها تصورهم الصحيح لموقع البلاد لأنهم حاولوا استعمال هذه الخطوط الوهمية

(١) كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى ، ٢٣/١٠ .

الخاطئة في ضبط تحديد المواقع . وقرأ مثلاً الكلام الذي يكتبه الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمداني - وهو عبقرية عربية في أكثر من ميدان - في كتابه صفة جزيرة العرب تحت عنوان « ما أتى عن بطليموس القلوذي في طبائع أهل العمران من الأرض على الجملة » : لما كانت الكواكب مشتركة التدبير في بقاع الأرض خالطة بين الوسط والطرف كان من حق التأليف وانسياق النظام أن نذكر الكل ليعرف ما لجزيرة العرب من الطبائع الخاصة والعامة ، وأن يظهر ما وسمها به الحكماء مما في أهلها موجود ومعاين ، فأما من الجملة فإن العامر من الأرض من ربيعها الشماليين هو عنده على ثلاث خيات متفاوتة ، فالخية الأولى ما كان من خط الاستواء تحت مجارى الكواكب الى مساحته منقطع الجبل من رأس السرطان وذلك سمت ما بين مكة والمدينة وما حاذاه شرقاً وغرباً ، والخية الثانية من هذا العرض الى ما زاد على الجبل ، وذلك حيث يكون العرض ستة وثلاثين جزءاً من المشرق الى المغرب . والخية الثالثة من هذا العرض الى أقصى العمران ومساحته من الفلك مدار نبات حقش (١) فهذا قول عن بطليموس لا يكاد الانسان يفهمه ، فمن الواضح ان الهمداني لم يفهم معنى الخية ، فهذا لفظ يوناني ، ولهذا لم يجد له المحقق معنى معقولاً في القاموس ، أو كيف يمكن أن نجد معنى لفظ يوناني في قاموس عربي ؟

وقد أوجز الدكتور محمد محمود الصياد ما يريد أن يقوله هنا الهمداني وغيره من جغرافيين العرب الذين كتبوا في الجغرافيا الفلكية بقوله : « وفي المراحل الأولى لنمو الجغرافية الاقليمية درس علماء المسلمين الأرض على أساس الأقاليم السبعة التي قال بها الاغريق وعرفوها بأنها نطاقات هندسية تمتد من الشرق الى الغرب محددة بدوائر العرض ، وبين الواحدة والأخرى ساعة من أول النهار . وكانت هذه الأقاليم تشمل الجزء من الأرض الذي أطلقوا عليه اسم « الربع المعمور » ، ولكي يضعوا في الأقاليم معظم الأجزاء المهمة من الربع المعمور لم يبدأ العلماء تقسيمهم من خط الاستواء ، بل بدأوا من خط عرض ١٦ درجة شمالاً وانتهوا الى خط عرض ٥٠ درجة شمالاً ويختلفون فيما بينهم اختلافاً يسيراً في تحديد عروض كل اقليم » (٢) .

والحقيقة أن الاقليم الأول يبدأ من خط الاستواء عندهم أما خط عرض ١٦ درجة وبضع ثوان فهو وسط الاقليم . ويوضح لنا ذلك ابن خلدون

(١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكواع اليمني ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ١٩٧٤ وقد بحث المحقق عن الخية في القاموس وقال : « ولعل المراد هنا الطريقة » .

(٢) عن محاضرة لم تطبع القيت في مؤتمر الجغرافية الإسلامية ص ٤ ، ٥ ، ٦

والهمداني ، وكلاهما يعتمد هنا على بطليموس ، فأما ابن خلدون فيقول بعد كلامه على تقسيم الأرض الى سبعة أقاليم : « فالأول منها مار من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء يحده من جهة الجنوب ، وليس من وراء ذلك الا القفار والرمال . ويليه من جهة شمالية الاقليم الثاني ثم الثالث كذلك ، ثم الرابع والخامس والسادس والسابع . وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط ، كالحال فيما وراء الاقليم الأول في جهة الجنوب الا ان الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي بجهة الجنوب » (١) ويرى ابن خلدون ان آخر الاقليم السابع شمالا هو درجة ٦٤° ويقول : « والعمارة فيما بين الأربعة والستين الى التسعين ممتنة لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعده الزمان بينهما فلا يحصل التكوين » وأما الهمداني فيقول ان مدينة سبأ تقع في منتصف الاقليم السابع ، وعرضها ستة عشر جزءا (درجة) ورבעا وخمسا من جزء (٢) ومن هنا نفهم أن عرض الدرجة لابد أن يكون ٣٢ درجة عرضية . وهذا الكلام كله نظري صرف ، ولا يطابق الحقيقة لأن الكلام في مثل هذه الموضوعات من العروض والأطوال لا يصح الا اذا كانت أمام الانسان مصورات جغرافية يطبق عليها ما يقول .

وهذا مثل واحد من أمثلة تعرض علماء المسلمين للخطأ عندما أرادوا أن يدخلوا الجغرافية من الباب اليوناني . ولا ينفرد الهمداني بذلك الخلط ، بل حدث هذا لكل من فعلوا فعله من الجغرافيين العرب الذين اتجهوا هذا الاتجاه ولا نستثنى من ذلك ابن خلدون فان فصوله الجغرافية في المقدمة تنقسم الى قسمين : الأول الفلكي الرياضي الذي يحاول أن يبدو فيه وكأنه استوعب علم اليونان في الجغرافية ، والثاني عندما يترك ذلك جانبا ويتكلم عن الأقاليم السبعة وما في كل منها من البلاد والمواقع موجزا كلام الادريسي ومستخدما تقسيمه المعمور الى مستطيلات ليسهل عليه وصف ما فيها . وذلك الموجز الذي يعرضه ابن خلدون في مقدمته لوصف المعمور معتمدا على الادريسي وحده ربما كان أنصع دليل في يدينا عن أن العربي يجيد اذا اعتمد على نفسه ودخل العلم من الباب العربي ويضل طريقه ويغض كلامه اذا تمسك بعلم اليونان لمجرد اظهار ان علمه يشمل ذلك أيضا .

وأعود الى الهمداني لأجد عنده دليلا ناصعا على صحة ما أقول ، فان هذا

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦ .

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٣ .

العلامة اليمنى الفذ عندما يترك التعلق بحبال الاغريق ويبدأ فى وصف جزيرة العرب كما يعرفها اعتمادا على معلوماته وما أخذه عن سابقيه من الممهددين لمدرسة البلدانين المسالكين يتجلى عن عالم حق ودليل لا يخطئ فى مسالك الجزيرة وشعابها ، ونستطيع أن نقرأ نصه لصفة جزيرة العرب ابتداء من ص ٥٥ فصاعدا والخريطة بين يديك فستجد أن كلامه صحيح ومعرفته علم حقيقى ، لأن العربى بطبعه رجل ذكى سليم المدارك دقيق الملاحظة يحسن التعرف على الأمور ويحسن التعبير عما يتعرف عليه .

لذلك نقول ان الجغرافية العربية الحقيقية هى جغرافية المسالكين ، وهى أيضا مساهمتهم الحقيقية الباقية سليمة الى يومنا هذا ، بل اننا نرى ان العرب لو ساروا فى دراسة الظواهر الجوية والمناخية على تقليد سابقهم من التعرف على أحوال الجو وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة للخبرة والتجربة بمراقبة أوقات بزوغ نجوم معينة لكان ذلك أجدى عليهم من نقل علم اليونان ، وكان الجاهليون يسمون مطلع النجم الذى يوقتون به بالنوء والجمع أنواء ، وقد تجمعت لهم حصيلة طيبة من هذه الأنواء وصاروا يوقتون بها وعدد الأنواء عند الجاهليين ثمانية وعشرون ذكروها فى عبارات تشبه الأمثال المسجوعة ليسهل حفظها وذكروها فى شعرهم ، وألف فى الأنواء نفر من العرب بعد الاسلام ، ولو ساروا فى التوسع فى معرفة الظواهر الجوية على هذا الأسلوب العملى الواضح لما غرقوا فى بحر التصورات الأسطورية الاغريقية عن السماء والأفلاك والبروج وحركاتها .

وليس معنى ذلك اننا نرى ان العرب لم يأخذوا عن الهنود واليونان شيئا ذا قيمة فى ميدان الجغرافية ، فهم فى الواقع قد أخذوا وانتفعوا من الهنود واليونان فى البداية ، ولكنهم كان ينبغى أن يتخلصوا مما ثبت لهم بطلانه وقلة جدواه وما غمض عليهم من كلام الاغريق .

ومن الأشياء الأساسية التى أخذوها عن الهنود القواعد الحسابية التى لا يستغنى عنها أى مشغل بالجغرافية ، فأول الأرقام المكتوبة التى عرفوها واشتملوا كانت هندية ، وكذلك بعض مصطلحات الرياضيات مثل الجيب ، وهو مفهوم أساسى فى الهندسة والرياضيات بصفة عامة . ولفظ جيب نفسه هندى معرب ، وعن الهنود أيضا أخذوا فكرة تصور خط طول رئيسى تحسب الأطوال على أساسه . وقد قال أوائل الجغرافيين المسلمين بوجود ذلك الخط الأساسى مارا على (سمت مدينة أحين فى ولاية ملوة) وعربوه على العدين وقالوا ان نقطة تقاطع خط الطول الرئيسى هذا مع خط الاستواء تسمى قبة العدين ، وظلوا يتحدثون عن قبة العدين هذه زمانا ثم أسبقطوها عندما فضل

الادريسي اتخذ الخط المار بالجزائر الخالدات (الكنارياس) خط طول أساسى
ثم تقسيم المعمور بعد ذلك طوليا الى عشرة أجزاء رئيسية لا علاقة لها بخطوط
الطول الوهمية ، وقد تابع الادريسي فى ذلك ابن خلدون وعلى بن سعيد
والموسوعيون من أهل القرن التاسع الهجرى كالقلقشندي والنويرى . وهنا
أصاب العرب لأنهم تخلصوا من علم اليونان فى الوقت المناسب واعتمدوا على
أنفسهم .

وأخذ العرب عن الهنود أيضا فكرة الزيج وهو جدول الحساب الفلكي
للزمن ، وطوروا الأزياج بعد ذلك وأتقنوها ، فأصبحت على أيديهم جداول
علمية لا جداول طولية وخطوط ، وأول من فعل ذلك منهم ابراهيم بن حبيب
الفزارى فقام بعمل زيج على أساس التقويم الهجرى . وعلى غرارهِ نسج من
بعده فعملوا أزياجا أى تقاويم صحيحة يمكن الاعتماد عليها .

أما ما أخذوه عن اليونان وانتفعوا به حقا فسيجيء ذكره فى تضاعيف
هذا البحث ، ولكننا لابد أن نقرر هنا أن العرب عرفوا فى أحيان كثيرة كيف
يطوعون ما وجدوه ضالحا لهم مما استطاعوا فهمه من مواد الترجمات الركيكة
التي كانت بين أيديهم من كتب اليونان وخاصة بطليموس .

ففى ميدان الجغرافية الفلكية والرياضة وهو ما يعرف حاليا بالكوزموغرافية
Cosomography أى وصف الكون كانت لدى العرب منذ العصر الجاهلى
معلومات جيدة عن النجوم ، فكانوا يعرفون النيرات وهى الكواكب التى يصل
ضوءها الى الأرض أو التى ترى من الأرض ويمكن الاستدلال بها على الاتجاهات،
فالى جانب الشمس والقمر كانوا يعرفون الزهرة والمشتري وسهيل والشعري
اليمانية ومجموعة الكواكب الصغيرة المعروفة بنبات حقش ، وكانت معرفتهم
بأوجه القمر كاملة ، بل كان البعض منهم يعرف أثر القمر فى المد والجزر ،
وكان كبار الملاحين فى عمان وحضرموت واليمن يعرفون فى الجاهلية الانقلابين
الربيعى والخريفى واتجاهات الرياح فى البحار فى أوقات السنة . وكانت
الرياح الموسمية من الحقائق التى يعرفها كل ملاح يمنى وعمانى .

وهذه المعلومات المكتسبة بالتجربة والملاحظة عن الكون تطورت تطورا
بغيد المدى وازدادت اتساعا بعد الاسلام ، ولم يكن هذا الاتساع دائما فى طريق
الصواب لأن العرب تمسكوا بما نقلوا من آراء الهنود والاعريق وأقحموه فى
مؤلفاتهم الجغرافية دون فهم كبير لهذه النظريات الوهمية . ولكنهم على أى
حال تعلموا من اليونان كيف يجمعون معلوماتهم المتفرقة عن الكون فى كل
واحد واجتهدوا فى أن يقربوه من الأفهام ، ومن ذلك انهم أخذوا عن اليونان

فكرة الكواكب السبعة السيارة وهي زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد وزحل ، وهكذا خلطوا بين الشمس وتوابعها ، وأدخلوا في الكواكب السبعة القمر وهو تابع الأرض . وعن اليونان أيضا أخذوا فكرة خاطئة عن الأفلاك فقالوا انها أشبه بالأنابيب الدائرية التي تدور حول الأرض ولكل كوكب فلكه الخاص به . وكلامهم الذي ينقلونه عن بطليموس في هذا الصدد يصعب تصوره ولكننا نوجزه على قدر طاقتنا فنقول انهم كانوا يتصورون ان الأرض مركز الكون كله ، وهي فيه كالنقطة وتحيط بها تلك الأفلاك أو المجارى الدائرية السماوية وفي كل فلك أو مجرى يدور كوكب واحد وتبدأ الأفلاك بفلك القمر وقطره عندهم أربعون ألف فرسخ ، والفرسخ ٢٤ كيلو مترا ، فالمسافة من الأرض الى القمر على ذلك الحساب ١٠٦٠٠٠٠ كيلو مترا ، ثم تلي ذلك أفلاك عطارد ثم الزهرة ثم الشمس (وهي عندهم متوسطة الأفلاك السبعة) ثم فلك المريخ ، ثم فلك المشتري ثم فلك زحل ٠٠٠ وفوق فلك زحل يوجد الفلك الثانى وفيه البروج الاثنى عشر « قالوا وسائر الكواكب (الثابتة) فى الفلك الثامن » أما الفلك التاسع فهو الفلك الأعظم يحيط بالأفلاك التى سمينا (١) . وهذا الكلام يمكن تصوره - لا فهمه - بجهد بالغ ، بل ان المسعودى نفسه عندما يذكر أشكال اليا بس فى خرائط بطليموس يقول « الا أن أسماءها فى هذا الكتاب باليونانية متعذر ضمها » (٢) وابن خلدون نفسه صاحب القريحة الصافية والفهم البعيد لم يستطع استجلاء حقيقة هذه الأفلاك وربما فهمها ولكنه عندما أراد شرحها استعمل طريقة الفقهاء ، فلم يصل الى شىء كبير ، قال : « وهذه الهيئة (الفلك) صفاته شريفة وليست على ما يفهم فى المشهور انها تعطى صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة أجل انما تعطى ان هذه الصور والهيئات للأفلاك لزمّت عن هذه الحركة ، وأنت تعلم انه لا يبعد أن يكون الشىء لازما لمختلفين ، وان خلت الحركة لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم . ولا يعطى الحقيقة بوجه . على انه علم جليل . وهو أحد أركان التعاليم . ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطى منسوب لبطليموس ، (٣) .

ويقول عن صنع آلات الرصد : « وأما فى الاسلام فلم تقع به عناية الا فى القليل ، وكان فى أيام المأمون شىء منه ، وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق ، وشرع فى ذلك فلم يتم ، ولما مات ذهب رسمه وأغفل ، واعتمد

(١) المسعودى : مروج الذهب ٨٨/١ - ٨٩ .

(٢) نفس المصدر ، ٨٩/١ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦٠ .

من بعده على الأرصاد القديمة ، وليست بدقيقة لاختلاف الحركات بإتصال الأحقاب ، وان مطابقة حركة الآلة في الرصد بحركة الأفلاك والكواكب انما هو بالتقريب ، ولا يعطى التحقيق ، فاذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك القريب ، (١) وهنا فيما يتعلق بصنع آلات الرصد نجد كلام ابن خلدون واضحا . وهذا الذى يقوله ابن خلدون هو الذى فعله المسالكيون ، أخذوا من تلك الجغرافية الفلكية الرياضية ما يلزم لتصوير الأرض عامة وشرح تقسيمها الى أقاليم عرضية وتوضيح مهاب الرياح واتجاهاتها والأمطار ومواسمها وما الى ذلك مما يقدم للقارئ أساسا يستطيع على أساسه أن يفهم جغرافية العالم جملة أو جغرافية أقاليم معينة .

والذى أخذه العرب من الاغريق وأفاد منه الجغرافيون فائدة ايجابية في ميدان الجغرافية الفلكية الرياضية هو القول بأن صورة الأرض كرة ، وقد اقتنع العرب بهذه الفكرة وأتوا ببراهين جديدة عليها كما نجد عند ابن رسته وقد اختلفوا في وضع هذه الكرة ، ولكن اجماعهم كان على انها معلقة في الفضاء لا محمولة على قرن ثور أو قرن خرتيت ، وقالوا ان هذه الكرة معلقة في الفضاء يحيط بها بحر واسع يسمى البحر المحيط واليابس طاف فوق مياه هذا البحر المحيط « كالمحة في البيضة » والطافى منها فوق الماء هو النصف الشمالى واقليمان على الأقل جنوب خط الاستواء وما يلى هذين الاقليمين لا يعرف أحد عنه شيئا ، وهو على أى حال غير مسكون بسبب شدة الحرارة ، وفي كل خرائطهم نجد ان ساحل الصومال يمتد شرقا موازيا لسواحل آسيا الجنوبية حتى بحر الصين ، وهذا دليل على تصورهم غير الواضح لنصف الكرة الجنوبي .

وهذا التصور على ما فيه من خطأ أعان العرب فعلا على تصور صحيح لنصف الكرة الشمالى لأنه كانت لديهم معلومات صحيحة عن جزء كبير منه فأكملوا معارفهم بما وجدوا عند اليونان وكان هؤلاء قد عرفوا معرفة جيدة المساحة الواقعة من شبه جزيرة ايبيريا الى وسط ايران فانتفع العرب بذلك وأكملوا معلوماتهم عن النصف الشمالى . وقد انتفع بالتقسيم الى الأقاليم السبعة الادريسي واستعمل الى جانب ذلك فكرة خطوط الطول ورسمها وتمكن بذلك من تقسيم المعمور الى شبه مربعات تيسيرا لوصفه ، اذ لا يمكن وصف المعمور أو رسم خريطة له الا اذا كان هناك تقسيم ما ، هذا التقسيم كان عظيم الفائدة بالنسبة للادريسي في نزهة المشتاق وعلى بن سعيد في كتابه الصغير القيم المسمى « بسط الأرض في طولها والعرض » وفي مثل هذين الكتابين نجد ان الجزء الصحيح الذى انتفع به العرب من علم اليونان هو التقسيم الى سبعة

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

أقاليم عرضية ، أما خطوط الطول فلم تكن بذات قيمة حقيقية تذكر ، والادريسي نفسه عندما أراد رسم المعمور لم يأخذ بخطوط الطول بل قسم الأرض الى عشرة أجزاء طولية ، يتكون منها ومن حدود الأقاليم شبيهة مربعات ، أما ذكره لأطوال بغض البلاد فلا علاقة له بالخطوط الوهمية التي تحدد الأجزاء وإنما هي أرقام ، وفي كل مربع رسم الادريسي جزءا من المعمور على خريطته ثم وصفه في نزهة المشتاق .

وأفاد العرب من فكرة بروج السماء وهي توجد كما قلنا في الفلك الثامن أى فى الدائرة الثامنة المحيطة بالأرض وكان الذى حدا باليونان الى القول بالبروج الاثنى عشر انهم كانوا يرون فى السماء ، وعلى مساحات شاسعة ، مجرات أو تكوينات نجمية سموها بحسب ما بدا لهم من شكلها فهناك برج أو مجرة تسمى الميزان وآخر يسمى الدلو وثالث يسمى العقرب . أو الثور وما الى ذلك ، وهذه المجرات أو الأبراج بدت لهم ثابتة بسبب بعدها الشاسع عن الأرض وما دامت الكواكب وأفلاكها متحركة فلا بد ان يكون هناك شيء ثابت يمكن الاعتماد عليه فى الحسابات والقياسات ، فالشمس مثلا فى دورانها حول الأرض (فى زعمهم) تنتقل أمام أبصارهم من أمام برج الى أمام برج آخر ، فأمكنهم بذلك حساب مسير الشمس فى دورتها ، فقالوا ان الشمس من تاريخ كذا الى تاريخ كذا تكون فى برج الميزان ، ومن تاريخ كذا الى تاريخ كذا تكون فى برج الثور وهكذا . ولم تكن لهذه البروج – ولا يمكن أن تكون لها – أى قيمة علمية أو عملية ، ولكن بقيت لها قيمة ايزوتيرية أو غيبية ، فقد زعم المنجمون ان الذين يولدون والشمس فى البرج الفلانى يتميزون جميعا بخصائص أخلاقية ومعنوية ، ثم زعموا ان حظوظ الناس تتقرر بحسب سير الشمس فى البرج أو انتقالها من برج الى برج ، ومن هنا تخصص أناس فى حسابات الحظوظ وأخذوا يصدرن بيانات دورية عن هذه الحسابات . وهكذا تحول الأمر فى العصر الحديث خاصة الى عملية تجارية ، فالذين يعملون هذه الحسابات وكلها توهم واختراع يبيعونها للصحف والمجلات فتنتشرها أسبوعا بعد أسبوع ، وأصبحت هذه التقويمات أبوابا ثابتة فى بعض الدوريات يقرأها الناس بشغف فكل انسان يبحث عن حظه فى أسبوع برجه .

ولكن القول بالبروج أعان العرب على ملاحظة مواقيت الاعتدالين بشيء من الدقة ، لان مبادرة الاعتدالين وهى موعد الانتقال من الفصلين الباردین (الخريف والشتاء) الى الفصلين الدافئ والحار (الربيع والصيف) حقيقة فلكية مناخية مؤكدة ، ونحن بعد تقدم أدوات الرصد وحساباتها نستطيع تفسير هاتين المبادرتين تفسيراً علمياً دقيقاً وتحديد تاريخيهما على وجه الدقة ، ولكن اليونان ومن تابعهم من العرب اعتمدوا على فكرة الأبراج الثابتة فى تعليل الاعتدالين

وتحديد موعدهما ، وتنبيهوا الى أن ذلك يرجع الى تغير ميل محور الأرض الممتد بين قطبيها الشمالى والجنوبى ، وقد حسب الاغريق درجة الميل بتلاثة عشر درجة وخمس وثلاثين ثانية . ثم استطرد اليونان وخاصة هيبارخوس فقالوا ان تزحزح القطب عن موقعه فى الاعندالين يزداد درجة واحدة كل ٦٦ سنة ، ونقل اخوان الصفا هذه الفكرة عن الاغريق ، وذهبوا فى حساب تزحزح البرج مذاهب شتى ليس فيها شئ يعتمد على حقيقة ، ولكن المهم عندنا ان العرب عندما أخذوا فكرة قياس التزحزح عن اليونان حسنها وحاولوا استخراج شئ نافع منها وتركوا ما لم يستطيعوا الانتفاع به من كلام الاغريق فى مثل قولهم بأن مقدار الميل أو التزحزح يبلغ ربع الكرة السماوية كل تسعة آلاف سنة ، أى دائرة كاملة كل ٣٦ ألف سنة (١) .

وفد انتفع العرب بفكرة فلك البروج وانتقال الشمس من برج الى برج وربطوا ذلك بخطوط الطول الوهمية فى تحديد المسافات والاتجاهات وخاصة فى تحديد سمت القبلة وهى مسألة المسلمين فى المكان الأول لأنها تتعلق بتحديد اتجاهات القبلة من أى موضع على الأرض ، وقد وفق الفلكيون العرب فى ذلك توفيقا يدعو الى الاعجاب مع ان نقطة البداية وهى أساس الحساب لم تكن سليمة الا انهم صمموا ذلك باتخاذ خط الطول المار بمكة أساسا ، وفى ذلك يقول البقانى : « اوجد الفرق فى خطوط العرض والطول بين مكة والمكان المعين » ، واذا كان خط طول مكة أكبر من خط طول المكان فان مكة تكون الى الشرق من المكان ، واذا كان خط طول المكان أكبر ، فان مكة تكون الى الغرب منه ، ويقاس الاختلاف فى خط الطول على دائرة الأفق أو بواسطة الساعة الشمسية (٢) .

وهذه العبارة الأخيرة عن كلام البقانى « أو بواسطة الساعة الشمسية » تكشف لنا عن عدم ثقة البقانى فى الحسابات التى كانت نقام على أساس علم اليونان لأن الحقيقة أن المسلمين حددوا اتجاه القبلة فى كل مكان على أساس الساعة الشمسية ، وهى الرخامة ، وهى لوحة من الرخام أو الحجر توضع على الأرض ويثبت فى وسطها عمود قائم ، ويراقب اتجاه ظل العمود من أول النهار الى آخره ، وتوضع أرقام الساعات على اتجاهات الظل . ولهذا يسمى هذا الجهاز البسيط بالساعة الشمسية أما بالنسبة لتحديد اتجاه القبلة فذلك مرتبط باتجاه الظل عندما تكون الشمس فوق المكان تماما فى وقت الزوال ،

(١) رسائل اخوان الصفا ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) البقانى : كتاب الزيج الصابى ، بتحقيق نالينو (روما ١٨٩٩) ص ٢٠٦ .

ولما كان ذلك الظل لا ينعلم تماماً ساعة الزوال الا على خط الاستواء ، فائنا اذا حددنا موقع التقاء خط طول مكة بخط الاستواء عرفنا أين نحن بالنسبة الى مكة في أى موقع على الأرض . وعلى هذا الأساس البسيط - ودون حاجة الى حسابات الاغريق ومن تبعهم - تمكن المسلمون في أقطار الأرض تحديد اتجاه القبلة بدرجات مختلفة من الدقة . وقد أخطأوا في بعض الأحيان وأنشأوا مساجد منحرفة اتجاه جدار القبلة بعض الشيء ، وكانوا في العادة يصممون ذلك بتغيير اتجاه المصلين داخل المسجد وقد حدث هذا في نواح شتى من عالم الاسلام .

ونختم هذا المرور السريع بما حققه العرب من الكشف الفلكي مصلحين بعملهم حسابات الاغريق بالكلام على خطوط العرض وكيف تمكن العرب من ضبطها وقياسها فنقول أنهم لم يكتفوا بتقسيم الأرض الى سبعة أقاليم عرضية، بل قسموا كل اقليم من هذه الأقاليم الى خطوط عرض وهمية عرض كل ٥٦ ميلا عربيا في المتوسط ، وكانوا قد وجدوا بطليموس يقسم الأرض الى خطوط عرض بين كل منها والآخر مسافة $\frac{66}{3}$ ميلا رومانيا ، ومن البدهي ان بطليموس قدر مسافة الدرجة بالاستاد يوم وصور وحدة القياس عند الاغريق فحولها الرومان الى هذا القدر من الأميال الرومانية ، وهي تعدل ٥٦ ميلا عربيا ، لأن الميل العربي أطول الأميال التي عرفناها فهو ١٩٧٣ر٢ متر بحسب تقدير العلامة الايطالي تالينو في كتابه البديع عن علم الفلك عند العرب (١) .

وقد قاس الفلكيون العرب عرض الدرجة في بريه سنجار أيام الخليفة المأمون وخرجوا من القياس بان عرض الدرجة ٥٦ ميلا عربيا ، وذكر المسعودي ان العرب حققوا ذلك القياس مرة أخرى فقد كانوا يعرفون انه بين مدينتي تدمر والرقه درجة عرضية واحدة وثلاث . لان الرقة على عرض $\frac{35}{3}$ وعرض تدمر ٣٤ درجة ، وقيست المسافة بينهما فاذا بها ٦٧ ميلا ، وهذا يختلف مع التقدير الأول ، ومرجع الخطأ الى خطأ قياس الأميال بين الرقة وتدمر اذ ان المسافة بينهما بالأميال العربية $\frac{56}{3}$ ميل لا ٦٧ ميلا .

(١) كارلو تالينو : علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى ص ٤٢ (طبعة بالعربية في روما سنة ١٩١١ ، وأعيد طبعه بالافست في بغداد سنة ١٩٦٣ . وهذا الكتاب من اقيم ما كتب في علم الفلك والجغرافية الفلكية عند العرب) .

تصور العرب للكرة الأرضية وما عليها وأهم ما أخذه عن اليونان في هذا المجال

وإذا أردنا أن نأخذ فكرة سليمة عن وفرة معلومات العرب عن الأرض وما عليها بعد أن وزنوا معلومات الاغريق وزنا جيدا واستبقوا أحسن ما فيها واستبعدوا منها ما لا ينفع ، فعلينا بقراءة الموجز الوافي الذي صنفه ابن خلدون لتقسيم الأرض على أساس ماورد في كتاب نزهة المشتاق للادريسي ، وابن خلدون الذي لا نزاع في موهبته التاريخية الفذة يتجلى لنا هنا عن جغرافي حسن الفهم لما قرأ من كتب الجغرافية العربية ، ونعتقد ان معتمده في ذلك على المسعودي من ناحية وعلى الادريسي من ناحية أخرى . فأما المسعودي فقد أخذ عنه معلومات قيمة عن الأقاليم والأرضين والبحار والشعوب . وأما الادريسي فقد أعطاه الصورة الكاملة للأرض وما عليها .

ومن موجز ابن خلدون هذا تفهم ان دائرة معدل النهار ليست هي خط الاستواء بل دائرة وهمية في السماء تمر فوقه ، وهو بطبيعة الحال يتصور ان السماء أو قبة الفلك انما هي قبة عظيمة فوق الأرض كلها - وهكذا كان المصريون القدماء يتصورون وان كانوا قد اعتقدوا ان الأرض مسطحة - وفي هذا يقول ابن خلدون : « ان قطبي الفلك الجنوبي والشمالي اذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين ، هي أعظم الدوائر المارة من المشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار » ثم يقول بعد ذلك : « واذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب الى المشرق ويسمى خط الاستواء » (١) . ويفهم من هذا

(١) المقدمة ، طبعة دار الشعب بالقاهرة ، ص ٤٥ و ٤٦ .

الكلام ان القطبين المرادين عندهم ليسا قطبي الأرض اللذين نعرفهما الآن ، بل قطبي الأفق ، والأفق هنا هو الدائرة العظيمة التي يراها الانسان حيثما تلفت ويتوهم أنها تنطبق على الأرض انطباق الغطاء على الطبق .

وقد أورد ابن خلدون بعد ذلك بيانا بتقسيم الأرض وبلادها وبحارها وأنهارها وشعوبها ومدنها على الأقاليم السبعة بناء على ما وجدته عند الادريسي ، والبيان دقيق غني بالمادة غير ان أسماء الأعلام فيه تحتاج الى تحقيق ، وقد حققنا غوامضه ولولا ضيق المجال لنشرناه في هذا الموجز . وقد صنع موجزا له س . م . ضياء الدين علوي في كتاب قيم له (١) ، ولكن هذا الموجز مختصر جدا ولا يعطي فكرة كاملة عن سعة علم العرب بالأرض وما عليها ، ولكنه موجز نافع ، وفيه غنية لطالب الفكرة العامة .

وأهم ما أخذه العرب عن اليونان من أدوات الرصد هو الاسطرلاب ، والملفظ نفسه معرب عن اليونانية Astrolabis : أي أداة تحقيق النجوم ، وابن خلدون يسميه ذات الحلق . وهو قطعة من المعدن مستديرة رسمت على حافتها الأبراج الاثني عشر ، وفي وسطها عمود قصير مثبت فيه عمود قصير وعلى العمود تركيب حلقات من المعدن تقابل الأفلاك السبعة . وقد رأينا من الاسطرلابات عددا كبيرا وقرأنا الكثير عن طريقة استعماله وحضرنا ندوة لهذا الغرض للعالم الاسباني خوسيه مياس باييكروسا الذي تخصص في دراسة العلوم عند العرب ، واجتهد - وجهدنا منه - في التعرف على طريقة استعمال هذه الآلة فلم نصل الى كثير شيء . ولكن العرب على أي حال كانوا يستعملونها ويخرجون منها بنتائج طيبة .

ولكن عرب الأندلس اخترعوا آلة رصد فلكية أبسط وأقرب الى الفهم من الاسطرلاب وهي الصفيحة التي اخترعها إبراهيم الزرقاني الأندلسي وهي جهاز بسيط يعين على قياس ارتفاعات النجوم والأماكن مما يعين فعلا على الانتقال بالنجوم في الحسابات الجغرافية ، ويساعد على قياس ارتفاعات الأماكن ، وهي تؤدي نفس وظيفة السكستانت بدقة ملحوظة . وقد انتقلت الصفيحة الى أهل المغرب وسموها اسافيا . Asafea .

(١) س . م . ضياء الدين علوي : « الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين » . عربيه وحققه الدكتوران عبد الله الغنيم وطه محمد جاد . نشر ضمن السلسلة العلمية التي تصدر عن وحدة البحث والترجمة بقسم الجغرافية بجامعة الكويت بالاشتراك مع الجمعية الجغرافية الكويتية سنة ١٩٨٠ . والجدول وارد في ص ٦٦ ١ .

واذا كان العرب قد أخذوا تلك المفهومات عن اليونان فقد عرفوا كيف
يجودونها ويطوعونها لمطالب علمهم الجغرافى ، وما من شيء له نفع على أخذوه
عن اليونان الا تحسن على أيديهم وبفضل ملكاتهم ، وإذا أردت أن تتبين ذلك
بصورة ملموسة فأمامنا جغرافية بطليموس وجغرافية الإدريسي . فأما الأولى
فجدول جافة بأسماء المواضع وذكر عروضها وأطوالها بصورة حافلة بالخطأ
مع بعض المعلومات عن البلاد والمواضع ، ثم انها قليلة بالنسبة الى الشهرة
الواسعة التى يتمتع بها بطليموس فى حين ان الإدريسي يقدم لنا جغرافية
اقليمية بشرية اقتصادية حقيقية ، وأنت إذا قرأه تشعر انك أمام جغرافى
يعرف حق العلم الجغرافى ومطالبه وغاياته ويراعى ذلك فى كل شيء يقوله . . .

ولا محل لمقارنة خرائط بطليموس بخرائط الإدريسي فإن الخرائط التى
تنسب الى بطليموس ليست هى خرائط أصلا ، وازموس الذى عثر على نص
يونانى لجغرافية بطليموس فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى فى عصر
النهضة وقام على ترجمتها الى اللاتينية قتر انه لم يجد الجزئين المتضمنين
للخرائط ، وقد صدرت جغرافية بطليموس اللاتينية من عمله وليس معها
خرائط ، انما ظهرت الخرائط فى الطبوعات المتأخرة وفى ترجمات جغرافية
بطليموس الى اللغات الأوربية ، وهى خرائط مصنوعة فى القرن الخامس عشر
على أساس خرائط الإدريسي وأدلة الموانئ المعروفة بالخرائط البورتولانية التى
كانت تعمل فى الموانئ الإيطالية وموانئ قطلونية وخاصة برشلونة وهى خرائط
دقيقة الى حد بعيد .

وخرائط الإدريسي خرائط حقيقية تعطى الناظر اليها فكرة واضحة
وصحيحة عن المواضع التى تصورها ونحن نرى خرائط الإدريسي اليوم فى
صورها التى رسمها النساخون الذين كتبوا نسخ نزهة المشتاق الموجودة بين
أيدينا ، والنساخ ليس رساما أو صانع خرائط ، ومن ثم فائنا ينبغي ألا نتصور
قط ان هذه هى خرائط الإدريسي التى رسمها بنفسه ، فاذا ذكرنا ذلك تصوريا
ان خرائط الإدريسي كانت أدق وأضبط لانها من عمل جغرافى خرائطى موهوب ،
وهنا يزداد تقديرنا لعمل الإدريسي كله نصا وخرائط ، ويزداد تقديرنا لمدرسة
المسالكين المسلمين الذين يعتبر الإدريسي القمة التى وصلت اليها أعمالهم .

وليس معنى ذلك اننا نقلل من أهمية أعمال الجغرافيين الفلكيين أو
الرياضيين من بين المسلمين الذين تابعوا الهنود واليونان ، فالحق ان أعمالهم
سواء أكانت مؤلفات أم جداول فلكية أي أزياج أو آلات رصد وحساب أو

رسوم توضيحية كلها تستحق التقدير وهي ذات قيمة كبيرة ، ولكن قيمتها تنحصر فى انها محاولات من الفكر العربى للوصول الى طريق العلم الصحيح على أساس من علم الاغريق ، ونحن هنا نشبهها من حيث قيمتها كتراث اسلامى انسانى بما كتب الأقدمون - عربا وغير عرب - فى الطب على أساس الطبائع الأربع مثلا ، فهذا كلام طيب ومقبول على انه محاولات واجتهادات انتهت الى قيمة قليلة ، ولكن هذه المحاولات نفسها كان لابد منها للوصول الى طريق الطب الصحيح ، وطريق الطب الصحيح الذى وصل اليه هو طريق أصحاب كتب الأدوية والعشابين والنباتيين ممن كانوا يعرفون طبائع الجسد وأعضائه وما ينفعها وما يضرها من الأدوية والأعشاب بعيدا عن نظريات المتكلمين فى الطب النظرى وتصوراتهم على أساس الطبائع الأربع . فكذلك يقال فى الجغرافية ، فان كل الكلام النظرى الذى قاله الاغريق ونقله عنهم العرب فى الجغرافية الفلكية والرياضية يدخل فى باب تاريخ العلم ، أما الجغرافية العربية الحقيقية فتبدأ عند المسالكين والبلدانيين وأصحاب الرحلات ، وهنا تلتقى الجغرافية العربية بتيار الجغرافية العلمية الحديثة .

وفى موجز كهذا يكتب ليعطى أهل القرن الخامس عشر الهجرى/الهادى والعشرين الميلادى فكرة واضحة عن ثمرة جهود أربعة عشر قرنا مضت من عمر الاسلام والمسلمين فى ميدان الجغرافية لا يتسع المجال للوقوف عند كل المحاولات وتتبع كل الاتجاهات التى لم يؤد معظمها الى شئ ايجابى ولكن لابد فيه من الاشارة بجهود رجال مثل أبى عبد الله بن محمد بن عيسى الماهانى (ت ٢٥٢/٨٦٦) الذى كتب رسائل ذات قيمة كبيرة فى الكسوف والخسوف والاقترانات الفلكية ، والى العباس الفضل التبريزى الذى شرح كتاب اقليدس فى الهندسة ووضع جدولا فلكيا - زيجا - على مذهب السند هند ، ويذكر له ابن النديم رسالة فى تهيئة آلات يتبين بها ابعاد الأشياء . وفى هذا المجال نذكر أبا الحسن ثابت بن قرة الصابى (٢٢١ - ٢٨٨/٨٣٦ - ٩٠١) الذى ألف رسالة تسمى « كتاب فى آلات الساعات التى تسمى رخامات » ، (والرخامة معروفة فهي صفحة من الرخام المصقول يثبت فى وسطها عمود من المعدن ، وظل هذا العمود يتجلى على الرخامة مبينا ساعات النهار التى تنقش على محيط الرخامة) . وكان ثابت بن قرة رجلا نشطا دائما العمل فى الترجمة عن السريانية واليونانية وفى عمل الشروح والتعليقات على ما يترجم منها وخاصة كتابات بطليموس وجالينوس .

ولا يذكر ثابت بن قرة الا ذكر معه قطا بن لوقا الذى كان يسير فى نفس الاتجاه - وفى آثار اليونان والسريان - ويحاول ان يخدم الاسلام عن طريق

الفلك فيما يتعلق بتحديد اتجاه القبلة ومحاولة فهم القبة السماوية وشرح
الأفلاك التي ورد ذكرها في القرآن الكريم .

وفى هذا المجال لابد من ذكر أبى عبد الله محمد بن جابر بن سفيان
المشهور بالبثانى الذى وضع زيجا مشهورا ربما كان أحسن الأزياج التى وصلت
نصوصها إلينا ، وعلى أساس هذا الزيج عرف البثانى كيف يحسب درجات
الطول والعرض لعدد كبير من المدن الرئيسية .

كتاب البلدانين :

وننتهى الآن الى صلب هذا البحث وهى تواليف المسلمين المسالكين .
ونقطة البداية هنا رجلان من عمال الدولة المشتغلين بأمور الخراج والميرة أى
الطرق وهما أبو الفرج قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج وأحمد بن واضح
الكاتب المعروف باليعقوبى صاحب كتاب البلدان ، وكلا الرجلين كان على علم
بالبلاد ومواقعها بحكم ، فكان كل منهما صحيحا مطابقا للواقع وجدير بالذكر
ان كلا الرجلين لم يكونا جغرافيين أساسا ، فقد كان قدامة من كتاب الدولة ،
وقد ألف موسوعة تضم المعلومات التى يحتاجها كتاب الدراوين فى أعمالهم
وقد ضاع معظم أجزاء هذه الموسوعة ، ولم يبق منها الا جزءان ، الأول هو
كتاب الخراج الذى يتحدث عن بلاد الدولة العباسية وما تضم من الأرضين ،
وهو يصف هذه البلدان وما تنتج وما تصنع وما يتحصل منها من الخراج ،
فكتاب « الخراج » على هذا ليس كتابا فى العلم الجغرافى مباشرة ، وإنما هو
كتاب فى أموال الدولة العباسية أى فى جغرافيتها الاقتصادية ، ولما كان
قدامة كاتباً من كتاب الديوان فهو ينقل من دفاتر الدولة وسجلاتها ووثائقها ،
ومن ثم فان كلامه دقيق صحيح ، فاذا كان هذا الجزء الباقى من كتاب الخراج
وصنعة الكتاب يعتبر كتاب جغرافى فهو بالفعل كتاب جغرافى بالموضوع
لا بالقصد ، ولكنه على أى حال قد وضع لنا نموذجا طيبا يحتذى من كتب أخرى
ستكتب فى الخراج فيما بعد ، وستكون بطبيعة موضوعها كتباً فى الجغرافية
الاقتصادية .

وأما كتاب البلدان لليعقوبى فى صميم العلم الجغرافى ومؤلفه أحمد بن
واضح اليعقوبى ألف كتابا قيما مختصرا فى تاريخ الاسلام ، بدأه بالجاهلية
أى ما قبل الاسلام ، وواصل أحداثه الى قرب وفاته سنة ٢٧٨/٨٩١ ثم أراد
ان يستكمل معرفته ببلاد الاسلام فطاف بها وشاهد أحوالها بنفسه ، ثم كتب
كتاب البلدان هذا ، وهو صغير الحجم عظيم القيمة ، فان معلوماته قائمة على
معاينة شخصية ومشاهدة مباشرة ، غير ان حجمه الصغير لم يسمح لصاحبه بأن

يودعه كل ما كنا نتمنى ان يودعه فيه من التفاصيل ، وان كان هذا الكتاب الصغير يرقى فيما يتصل بما كتبه عن الغرب الى مستوى الوثائق ، فقد زار اليعقوبى الغرب فى أيام الأغالبه ووصف عمران أفريقية فى ظلال الاسلام قبل الغزوة الهلالية ، ومن المعروف ان تلك الغزوة غيرت تماما الصورة البشرية والايكولوجية (البيئية) للمغرب بسبب ما أحدثته من تغيير فى البنية السكانية للمغرب كله ، وما كان لغارتهم من الأثر فى القضاء على بعض مناطق الزراعات والعمران وقد أدى ذلك كله الى خراب أقاليم زراعية واسعة واحتراق مناطق غابات ضخمة مما جعل بلاد المغرب الى حين طويل بعدها أقرب من الصحراء القاحلة ، وهذه الصورة للمغرب أى صورته بعد الغارة الهلالية هى التى نجدتها عند الأدريسى وابن خلدون ، والمقارنة بين صورة المغرب عند اليعقوبى وصورته عند الأدريسى وابن خلدون تعين مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور الحضارى للمغرب .

وهذان الكتابان يعتبران تمهيدا ومدخلا لسلسلة عظيمة من الكتب الجغرافية تعتبر بحق صلب العلم الجغرافى عند العرب والمسلمين وأقيم ماساهموا به فى تاريخ ذلك العلم ونقصه بذلك كتب البلدان أو المسالك والممالك ، وهى كتب فى الجغرافية الإقليمية تقدم لنا ثروة عظيمة من المعلومات الجغرافية من كل صنف ، فقد جمع مؤلفو هذه الكتب قدرا عظيما من المعلومات الجغرافية ما بين فلكية ورياضية وطبيعية وإقليمية ، لانهم كانوا رجالا ذوى اطلاع واسع على تراث الماضين فى كل ميدان وفن ويرجع ذلك الى اشتغال بعضهم بشئون الدولة المالية والإدارية وقيام معظمهم برحلات واسعة دفعهم اليها التطلع النبيل الى المعرفة الى جانب ما يحرص عليه كل مسلم من الرحلة الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، ومن حسن الحظ انهم كانوا ذوى ولع بالكتابة واثبات معلوماتهم فى كتب تحمل اسم البلدان أو المسالك والممالك أو مسالك الممالك أو أسماء أخرى مثل صورة الأرض أو أحسن التقاسيم ولكن البلدان والمسالك والممالك هى جوهرها .

وأول من وصلت اليها مؤلفاته من رجال هذه المدرسة هو أبو القاسم عبد الله بن خرداذبه الذى كان عامل البريد والشرطة فى بلاد الجبال فيما بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٤ / ٨٤٤ و ٨٤٨ ، وقد تجمعت له أثناء العمل فى هذه الوظيفة ثروة طيبة من المعلومات الجغرافية الصحيحة عن مملكة الاسلام أو دولة الاسلام وكثير من البلاد خارجها . وهنا نلاحظ لأول مرة الفرق الواضح بين معلومات اليونان عن الأرض وما عليها ومعلومات العرب ، فان اليونان لم يعرفوا معرفة وثيقة الا بلادهم وبعض نواحي حوض البحر المتوسط ، بل ان معلوماتهم عما يلى مقدونيا شمالا وغربا من بلاد أوروبا قليلة . وما عرفوه عن افريقية كان

مجرد أقاويل ، فهم لا يعرفون منها الا مصر ، أما ما يقع غربها فكان عندهم لا يتعدى سيريناياكا وترمبولتيانيا وقد أطلقوا عليها جملة اسم ليبييا . أما حوض النيل فلم يعرفوا عنه الا ما يسمونه بالنوبة والنوبيين ، ولهذا فاننا نشك الشك كله في خريطة وادي النيل المنسوبة الى بطليموس . أما معلوماتهم عن آسيا فأقوال جمعوها من أفواه بعض الرحالة وخاصة كوزماس انديكو بلويستس ، فقارن هذا بما تيسر من المعلومات الواسعة الفنية للعرب وضمنها البلدان اليونان والمسالكيون في كتبهم ، وكانت دولتهم تمتد من غانة الى فرغانة كما يقول المسعودي ، ومن هنا فانهم كانوا يتكلمون عن بلاد يعرفونها حق المعرفة ، فقد كان تجارهم يجوسون بقية بلاد آسيا وشواطئ أفريقيا الشرقية . ومن أشهر أولئك التجار الذين نقلوا الى العرب صورا واضحة وحقيقية عما يلي بلادهم شرقا من بلاد آسيا رجل يسمى سليمان التاجر ، وقد ورد ذكره في مجموعة من الرسائل عن بعض نواحي آسيا وطرقها أطلق عليها في مجموعها اسم سلسلة التواريخ ، وقد عني بنشر ما عثرنا عليه من تلك الرسائل عالم فرنسي يسمى لانجل Langles ثم اهتم بدراستها الأب رينودو L'Abbe Renaudat

وتحدث رينو في مقدمته الضافية لترجمته لجغرافية أبي الفدا ، وهذه المقدمة في ذاتها تقع في جزء كبير كامل وهي في حقيقتها تاريخ لعلم الجغرافية عند العرب ، تبين ان الاسم الحقيقي لأكثر هذه الرسائل هو « أخبار السند والهند » وقد أيد ذلك جان سوفاجيه في مقدمة ترجمة فرنسية عملها لذلك الكتاب القيم نشرها في باريس سنة ١٩٤٠ (١) ، وسميت سلسلة التواريخ . وهذه الرسائل التي تسمى أحيانا تقارير تدل دلالة واضحة على ان ملاحى العرب عرفوا معرفة تامة الطريق البحرى من البصرة الى السواحل الجنوبية للصين . وقد قسموا المسافة - بحسب ما تقرأ عند سليمان التاجر والمسعودي - الى بحار عددها سبعة ، ومن الواضح ان رقم ٧ أصبح له معنى خاص عند الجغرافيين والفلكيين العرب ، وربما كان سبب ذلك أن القرآن الكريم يتحدث عن السماوات السبع ، فالبهار الكبرى في الكرة الأرضية سبع وبحار آسيا سبع وأنها الدنيا الكبار سبع والأقاليم سبع .. وهكذا .

وهنا لابد أن نفرق بين البحار السبعة الكبرى وبحار آسيا السبعة التي يتحدث عنها سليمان التاجر ، فالبهار السبعة الكبرى توصف بأنها خلجان متفرعة من البحر المحيط باليابس في نصف الكرة الشمالى ، وهي أشبه بالأذرع الممتدة منه داخل اليابس . والمفروض عندهم ان هذا البحر المحيط

الكبير الذى يدور حول اليابس يشمل المحيط الأطلسى المسمى بحر الظلمات والمحيط الهادى المعروف عندهم بالبحر المحيط فحسب ، وهذه البحار التى تمتد من البحر المحيط كالاذرع داخل اليابس هى البحر الرومى (المتوسط) والبحر الصينى والهندي والحبشى ، وهذا البحر الشاسع يضم عندهم بحر العرب (الحبشى) وبحر الهند (الهندي) والصين (بحار الصين) ثم بحر القلزم (الأحمر) ثم بحر جرجان (بحيرة خوارزم أو بحر آرال) ويدخل فيه بحر طبرستان (أو بحر طبرستان) وهو بحر قزوين ثم بحر بنطش الذى يحرف فى الغالب الى بنطش ويراد به البحر الأسود .

ويصف المسعودى وابن خلدون هذه البحار وصفا دقيقا يدل على تصور صحيح لشكل الأرض وما فيها من البحار ، ومن الواضح عندما تقرأ كلام ابن خلدون عن البحار فى المقدمة فى الفصل الذى عنوانه « فى قسط العمران من الأرض والاشارة الى بعض ما فيه من الأشجار (١) والأنهار والأقاليم » يتبين ان هذا الرجل - مثله فى ذلك مثل معظم الجغرافيين العرب - كان يتكلم وأمامه رسم للأرض ، وسنرى فى فقرة تالية ان الخرائط أو المصورات كانت أساس الوصف الجغرافى الاقليمى للأرض عند معظم اولئك الجغرافيين الكبار .

وأما بحار آسيا السبعة ، أى التى ذكرها سليمان التاجر فى سلسلة التواريخ المنسوبة اليه والتى كتبها أبو زيد السيرافى ، فهى فى الحقيقة ليست بحارا وإنما مناطق بحرية ، وقد وصفها مع شواطئها فى كتابه وهذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن مدى معرفة المسلمين بآسيا وبلادها وموانئها من الخليج العربى الى بحار الصين (٢) .

وهذه البحار أو المناطق البحرية هى :

١ - بحر فارس ويراد به منطقة الخليج العربى وعمان والجزء الشرقى من بحر العرب .

٢ - بحر لارفى أولاربى ، وواضح ان ذلك اللفظ تحريف للبحر العربى (لاربى) وربما كان الملاحون ينطقون الاسم على هذه الصورة والمراد به الجانب الغربى من بحر العرب بما فى ذلك مدخل البحر الأحمر وسواحل افريقية الشرقية .

(١) كذا فى الأصول المطبوعة ولا معنى له ، وصححة البحار .

(٢) أنظر كتاب الجغرافية العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين تأليف س. م ضياء الدين علوى ، تعريب د. عبد الله يوسف الغنيم ود. طه محمد جاد . الكويت ١٤٠١ / ١٩٨٠ .

٣ - بحر هر كند ، ويراد به المحيط الهندي بما فى ذلك خليج بنغالة ، وقد كان لفظ بحر هر كند يطلق على خليج بنغالة بما فى ذلك جزائر اندمان وفيكوبار وجزيرة سرنديب (سيلان) ، وتمتد هذه المنطقة عندهم حتى تصل الى جزيرة سومطرة وكانوا يسمونها الرامنى أو الرامى ، وبهذه المناسبة يذكر الكتاب المنسوب الى سليمان التاجر انه يوجد فى نفس الاتجاه جزر كثيرة وفسيحة لا يعرف امتدادها على وجه الدقة ويبلغ امتدادها ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ . وكلام سليمان التاجر عن الجزائر المعروفة اليوم باسم أندونيسيا يدل على معرفة صحيحة ، فهو يقول ان بها بعض مناحم الذهب وتنمو فيها أشجار يستخرج منها الكافور وتكثر الأفيال فيها وكذلك الثوابل والعطور . ويصف سليمان التاجر هنا سواحل الهند الشرقية (كروماندل) وهو يسميه كمرون أو كمروپ وربما كانت هذه تحريفات لكروماندل ويجوز كذلك أن يكون هذا الاسم الحديث تحريفا للاسم القديم الذى ذكره سليمان التاجر .

٤ - والبحر الرابع ويراد به بقية البحار المحيطة بجزائر الهند الشرقية وخصوصا منطقة شبه جزيرة ملقا وما يليها من البحار والجزر شرقا ، ويسمى هذا البحر بحر سلاهط أو سلاهيت .

٥ - والبحر الخامس واسمه كتدنج ويراد به على الأغلب بحار شرقى شبه جزيرة الملايو وخليج سيام .

٦ - والبحر السادس يختلط بالبحر الخامس ويطلق عليه اسم الصنف ، ومن المعروف ان بلاد الصنف هى الجزء الشرقى من شبه جزيرة الهند الصينية أو الفيتنام . والغالب فى ظننا ان لفظ الصنف هنا هى لفظ الصين محرفا .

٧ - والبحر السابع يسمى بحر صنخى أو صنجى ويراد به بحر الصين الجنوبى ويظن ان العرب كانوا يدخلون هذا البحر من مضائق بين ساحل الصين وبعض الجزر القريبة منه ولذلك يقولون ان الدخول لذلك البحر يكون من مضائق تسمى بوابات الصين .

وجدير بالذكر ان المسعودى ذكر معظم هذه المعلومات عن تلك البحار وأكمل قصصها وزاد عليها . والمسعودى نفسه (أبو الحسن على) يعطينا فى كتبه فكرة واضحة جدا عن ادراك المسلمين لأهمية العلوم الجغرافية وضرورة الاحاطة بها لكى يعرف الانسان نفسه والأرض التى يعيش عليها والكون الذى تقع فيه هذه الأرض ، فهذا الرجل لم يكن جغرافيا متخصصا أو مؤرخا متفرغا اعلم التاريخ ، وانما كان مفكرا موسوعيا ورجلا ذكيا متفتح الذهن ذا شوق عظيم للمعرفة وفى كتابيه الكبيرين مروج الذهب والتنبيه والاشراف أورد حشدا

هائلا من المعلومات والآراء والأفكار من كل صنف . والجانب الأكبر من هذه المعلومات جغرافي وتاريخي كأن هذا المفكر العربي الكبير كان يعرف تماما ان الجغرافية هي وضع الانسان في المكان والتاريخ هو وضعه في الزمان ، وهذا يفسر لنا كذلك ان عددا عظيما من مؤرخي العرب كانوا جغرافيين في نفس الوقت .

كبار البلدانين وأطلس الاسلام :

وما دمنا قد ذكرنا المسعودي فلنذكر هنا جماعة البلدانين الكبار الذين أرسوا أسس هذا المذهب من مذاهب الكتابة في الجغرافية ونريد به مذهب الوصف الجغرافي للبلاد وذكر حدودها وأنهارها ومدنها وقواعدها وصناعات أهلها وخصائصهم وغير ذلك مما يدخل في نطاق الجغرافية البلدانية الذي يستكملة أولئك الجغرافيون بذكر الطرق من بلد الى بلد ومسافة كل طريق فيسمون لهذا مسالكين الى جانب انهم بلدانيون ، وهم على ذلك شيوخ الجغرافية الاقليمية ، وكتاباتهم كما قلنا هي الجزء الصلب المحتفظ بقيمته العلمية .

من تراث العرب في ميدان الجغرافية :

لقد ذكرنا هنا ابن خرداذبة واليعقوبي والمسعودي ، ولكننا ينبغي أن نبدأ من البداية فنقول ان أقدم من كتب كتابا في الجغرافية على طريقة البلدانين المسالكين هو أبو بكر بن محمد بن اسحاق بن الفقيه المعروف بالهمداني الذي ألف في سنة ٢٩١/٩٠٢ كتابا في البلدان ضاع أصله ولم يبق الا مختصره الذي عمله جعفر بن علي الشيرازي المتوفى سنة ٤١٣/٩٠٢ واحتفظ لنا أبو الفرج قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠/٩٢٢ بقطع منه ، وقد ذكرنا قدامة وما بقي لنا من كتاب الخراج وصناعة الكتاب من تأليفه .

وهذا الجزء الباقي من كتاب أبي بكر بن محمد بن اسحاق الهمداني كان أساسا بنى عليه عالم عربي آخر هو أبو علي أحمد بن محمد بن اسحاق ابن رسته ، فقد وضع كتابا عظيم القيمة سماه الأعلاق النفسية في وصف مملكة الاسلام ولم يبق لنا الا جزءه السابع الذي يتضمن أوصاف بعض الطرق الكبرى في بلاد الاسلام .

وعلى أساس ما كتبه قدامة وابن رسته كتب ثلاثة من علماء العرب كتباً في الجغرافية الاقليمية أو الوصفية نهجوا فيه نهجا جديدا يجعلهم بحق جديرين بان يوصفوا بانهم أصحاب مدرسة قائمة بذاتها .

وهذا النهج يقوم أساسا على رسم خريطة للعالم ، وخاصة العالم الاسلامى بحسب تصوره ، ثم تأليف كتاب فى تفصيل ما أثبتوه على هذه الخريطة ، وقد بقى لنا بعض الخرائط التى رسموها - أو نسخها التى عملها النساخون - وهى فى الحقيقة خرائط توضيحية لا خرائط بالمعنى الحديث لهذا المصطلح ، ولكن رسم الخريطة - أيا كانت هيأتها - ثم كتابة الكتاب شرحا لها مذهب جدير بالتقدير ، لأنه يجعل الجغرافية علما حقيقيا لا مجرد تصورات وفروض ، ومن هنا فإن الخرائط التى عملها أولئك الأفاضل تكون فى مجموعها ما يسمى بأطلس الاسلام .

وأول من كتب كتابا على هذا المذهب هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، وكتابه يسمى بالأشكال أو صور الأقاليم ، ولم نعثر على نص هذا الكتاب أو خرائطه ، ولكن مؤلفا جغرافيا آخر هو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الاصطخرى نقل معظم نص هذا الكتاب نقلا حرفيا وضمنه كتابه المسمى بالمسالك والممالك ، وقد وصل إلينا نص الكتاب وهو فى كل فقرة منه يقول : قال البلخى مما أوجد مشكلة فى تاريخ العلم الجغرافى عند المسلمين تسمى مشكلة البلخى والاصطخرى وقد كتب دى خويه فى ذلك الموضوع مقالا ذهب فيه الى انه لا مكان للاصطخرى فى تاريخ الجغرافية الاسلامية ، ولكننا نقول ان كتاب المسالك والممالك من تأليفه ليس نقلا خالصا لكتاب البلخى ، ففيه اضافات وان كانت قليلة ، ومن ثم فان للاصطخرى مكانة ، وان كان قد نقل كتاب البلخى .

وثالث كبار المسالكين هو ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى ، وكان رحالة أولع بالسير فى مناكب الأرض ورؤية البلاد والعباد وتسجيل ملاحظاته ، وقد كان هناك رأى ينسب الى المستشرق راينهاردت دوزى يقول ان ابن حوقل كان جاسوسا للفاطمين فى الأندلس ، ولكن قراءة تدقيق لا تؤيد هذا الرأى فان النص يتضمن ملاحظات كثيرة فيها نقد شديد للفاطمين ، فهو يقول فى مواضع كثيرة عند ذكر بعض الأماكن فى افريقية « وقد خرب ذلك كله العبيديون » وتسمية الفاطمين بالعبيدين لم نجد لها عند خصومهم ، هذا بالإضافة الى ما فى مثل هذه العبارة من نقد شديد لهم ، والذى يهمنا هنا أن كتاب ابن حوقل « صورة الأرض » وخاصة فى طبعته الثانية الكاملة للنص التى تولاه المستشرق كراموز حافل بالمادة الجغرافية العظيمة القيمة وخاصة عن المغرب والأندلس وصقلية ، وهو يهتم اهتماما خاصا بالنواحى الاقتصادية ، مثله فى ذلك مثل معظم المسالكين ، فهم يهتمون بالمحصولات والمياه ، وموارد الرزق والصنائع وما يرتفع من الضرائب والجبايات ، ويتميز باهتمام كبير

بالشئون السياسية فيتحدث عن حكومة البلد ونظامها ويبدي رأيه فيها
وما الى ذلك .

ومن خصائص أولئك البلدانين انهم فى فواتح كتبهم يذكرون منهجهم
وطريقتهم فى عرض صورة الأرض كما ترتسم فى أذهانهم وهذا يدل على انهم
كانوا مؤلفين أصحاب مناهج يضعونها ثم يكتبون على ضوءها ، وفى العادة يكون
أساس الكلام رسماً أو خريطة للأرض يرسمونها ثم يقسمونها الى قطع أو
« خرائط » وكل خريطة خاصة ببلد من البلاد ، وفى ذلك يقول ابن حوقل :
« ثم أفردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة بينت فيها شكل الاقليم
وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه مما أتى على ذكره فى موضعه
ان شاء الله تعالى » .

وبينما يتطابق البلخي والاصطخري نجد ابن حوقل يختلف عنهما اختلافاً
بيناً رغم تشابه تقسيم البلاد عند الاصطخري وابن حوقل ، ولكن الاصطخري
يبدأ بوصف ايران أو ايرانشهر معتبرا اياها مركز الأرض ، أما ابن حوقل
فيبدأ بجزيرة العرب لأنها مهد الاسلام وفيها مكة والمدينة .

وتصل هذه الطريقة ذروتها عند المقدسى ، شمس الدين بن البناء
البشارى ، وهو وان لم يكن مسالكياً تماماً الا أن اهتماماته تتشابه مع اهتماماتهم
وان امتاز عن غيره بتطلع الى أحوال الناس واساليب حياتهم وأعمالهم وموارد
أرزاقهم وما الى ذلك ، وقد تحدثنا عن المقدسى قبل ذلك فنكتفى فى الكلام عنه
على هذا القدر فى ذلك الموجز .

ولكن القيمة العليا للجغرافية العربية على طريقة البلدانين والمسالكين
نجدها عند الادريسي (٤٩٢ - ١١٩٥/٥٦٠ - ١١٦٤) صاحب خريطة الأرض
المسطوحة التى رسمها على كرة من الفضة ، ثم سطحها وقسمها الى مستطيلات
سبق أن تحدثنا عنها ثم وصف تلك المستطيلات واحداً واحداً فى كتابه الأشهر
« نزهة المشتاق » ، وقد تحدثنا عن الرجل وكتابه ومكانه فى هذا البحث بما فيه
الكفاية .

الرحالون وأدب الرحلات :

وقبل أن نترك الكلام على أعلام الجغرافيين لابد من اشارة الى الرحالة
وأدب الرحلات فى التراث العربى أدب متسع المجال متعدد الجوانب ، وهو يكون
جانبا عظيم القيمة من جوانب الجغرافية الاسلامية ، فان الرحالة يصف ما يزور
من البلاد وما يرى فيه ومن يلقي من أهله . وغريب ان فن كتابة الرحلات كتابة
ذات قيمة علمية بدأ فى الأندلس ، مثله فى ذلك مثل الكثير من فنون الفكر

والأدب والعلم العربية في الأندلس ، ويرجع الفضل في ذلك الى العالم الفقيه المعروف أبى بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (٤٦٨ - ١٠٧٦/٥٤٢ - ١١٤٨) وأصله من اشبيلية ، وقد شهد في مطلع شبابه أواخر أيام بنى عباد هناك ثم عاصر دخول المرابطين الأندلس وجهادهم المجيدة فيه ، ورحل مع أبيه وهو في السادسة عشرة الى المشرق للحج والدراسة ونفسه تفيض بالاعجاب بالمرابطين ، فندب نفسه مع أبيه للدعوة لهم وكتب خطابات تأييد لهم وجهها للخليفة العباسي المستظهر الذي طالما دعا الغزالي الى التمسك بطاعته ، وهو - أي الغزالي - معاصر للمستظهر ولأبى بكر بن العربي ، وقد لقي جهده هذا قبولا من رجال الخليفة ، فزودوه برسائل تأييد للمرابطين وقد عثرنا على نصوص هذه المكاتبات في مجموع صنفه أبو بكر بن العربي ، وجعل عنوانه « شواهد الحيلة والأعيان في مشاهد الاسلام والبنیان » أما نص رحلته نفسه فلم نعثر عليه الى اليوم ، وعنوانه « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة » ، وقد احتفظ لنا المقرئ بنقول منه في نفح الطيب وكذلك أورد ابن العربي نفسه نقول أخرى في كتاب له في تفسير القرآن وعنوانه « قانون التأويل في تفسير القرآن » وقد نقل احسان عباس فقرات طويلة من رحلة ابن العربي وجدها في نسخة من نسخ كتاب قانون التأويل ونشرها وأدار عليها بحثا قيما .

ومن تلك النقول نستبين اننا أمام وصف رحلة دقيق . فابن العربي رحالة الى جانب علمه الواسع بالفقه ، والفقرات الباقية لنا من وصف رحلته تدل على دقة ملاحظة واهتمام بالتفاصيل ، خاصة وقد صادف في رحلته ظروفًا غير عادية مثل غرق المركب الذي كان يستقله مع أبيه وغيره من الغار من ميناء المهديّة الى ميناء الاسكندرية ، وقد نجا ابن العربي وأبوه ووصف لنا نجاته ووصوله مع أبيه الى ساحل طرابلس في حالة يرثى لها ، وقد لقيّا من عربها اكراما ومودة ، وقد بقيت لنا من رحلة ابن العربي فقرات تصف مقامه ودراسنه في القدس في أوراق من قانون التأويل ، وأخرى تصف لقاءه للامام الغزالي وسماعه منه ، وربما كان وصف هذه الرحلة الشيقة هو الذي حفز ابن جبير على تقييد رحلته فيما بعد .

حقا لقد سبق ابن العربي في فن وصف الرحلة نفر من المشاركة نخص بالذكر منهم أحمد بن فضلان وهو فقيه من الفقهاء الذين كانوا يعملون في خدمة الخلافة العباسية ، وحدث أن تلقى الخليفة رسالة من بلغار الفولجا ، وكانوا

(١) احسان عباس : رحلة ابن العربي الى الشرق كما صورها قانون التأويل مجلة الابحاث ،

سنه ٢١ ، الاجزاء ٢ - ٣ - ٤ ديسمبر ١٩٦٨ - الجامعة الامريكية - بيروت .

اذ ذاك مسلمين وقد طلبوا فى رسالتهم عون الخلافة على الخزر الوثنيين الذين يعتدون على بلادهم من الجنوب ، فأرسل الخليفة اليهم بعثه برياسة مولى من مواليه يسمى سوسن الرسى ، وكان فى البعثة الفقيه أحمد بن فضلان ليقوم بما طلبه البلغار من تفقيه فى شئون الدين ، وقد خرجت البعثة من بغداد فى صفر ٣٠٩/يونيو ٩٢١ ووصلت بلاد البلغار ومرت فى طريقها بهمدان والرى ونيسابور ومرو ونجارى .

وقد وصف لنا ابن فضلان رحلته بتفصيل مشكور وخاصة فيما يتعلق ببلاد البلغار الذين كانوا يسكنون شمالي مقدونية ويمتدون الى شمال البحر الأسود . وقد اهتم الأوربيون والروس خاصة برحلة ابن بطلان ودرسوها دراسة متقنة وترجموها الى لغاتهم على اعتبار انها من الوثائق النادرة التى تعرف الروس ببلادهم قبل قيام دولتهم . وجدير بالذكر ان المسلمين قدموا للروس وأهل أوروبا الغربية مادة طيبة جدا عن أحوال بلادهم فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، فنفس هذه البلاد سيصفها ابراهيم بن يعقوب الطرطوسى الأندلسى ، وهو يهودى أندلسى من أهل طرطوشة ، وربما يكون قد أسلم وتسمى ابراهيم بن أحمد ودخل فى خدمة الخليفة العلامة الحكم الثانى ابن عبد الرحمن التاجر الملقب بالمستنصر ، فهو على هذا من أهل النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وكان هذا الرجل تاجرا وربما كانت أهم تجاراته الرقيق الأبيض الذى كان التجار يجلبونه من ألمانيا ومن شرقى أوروبا ، وكان الألمان أو الجرمان فى تلك العصور يخطفون أولاد الصقالبة والروس منهم خاصة ويبيعونهم فى غرب أوروبا وفى بلاد المسلمين ، وقد قدم ابراهيم بن يعقوب بيانا عن رحلته الى الخليفة الحكم المستنصر أودعت مكتبته ، وعنها نقل لنا ابن عذارى المراكشى صفحات طيبة واحتفظ لنا البكرى فى كتابه المسالك والممالك بصفحات أخرى عظيمة القيمة منها تعتبر من أقدم وأدق ما لدينا عن وسط أوروبا وشرقها خلال القرن العاشر ، فقد زار ابراهيم بن يعقوب الطرطوسى بلاط الملك أوتو امبراطور الدولة اليتوتونية ووصف بلاده وما فيها وصفا ممتعا ، وكذلك زار شرقى أوروبا وأتانا عنها بأبناء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بها علماء الألمان والروس عناية كبيرة . وقد أجمع الباحثون المحدثون على صدق ابراهيم بن يعقوب فيما قال عن نفسه ، وأيدوا ما قاله من انه لقي الامبراطور أوتو سنة ٩٧٢ ميلادية وهى تقع فى سنتى ٣٦٢ و ٣٦٣ الهجريتى ، ومع ان النقول التى أخذت من نص ابراهيم بن يعقوب قد تحرفت تحريفا شديدا الا أن المحققين والدارسين - ما بين عرب وغير عرب - استطاعوا أن يقوموا تلك النقول ويخرجوا منها بمعلومات قيمة جدا أتى بها ذلك الرحالة الأندلسى وخدم بها تاريخ البلاد الأوربية النصرانية من ناحية ، وخدم بها العلم العربى من ناحية

أخرى ، فيها هم علماء العرب أساتذة يأخذ عنهم أهل الغرب العلم حتى بشئون بلادهم .

وتتم هذه الصورة عن دين أهل الغرب للرحالين العرب - الى جانب دينهم للجغرافيين وخاصة الادريسي - عندما نذكر الرحالة الطليقة العجيب ابا حامد الغرناطي وهو محمد بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي الذي ولد في غرناطة سنة ٤٧٣/١٠٨٠ - ١٠٨١ ودرس هناك دراساته الأولى ثم غادر الأندلس سنة ٥٠٠/١١٠٦ - ١١٠٧ وانطلق في رحلة طويلة حافلة بالأحداث والغرائب - فجمع ثم دخل بغداد حيث يدخل في خدمة وزير عباسي يسمى ابا المظفر يحيى ابن هبيرة ، فاستطرقه هذا الوزير وجعله من أهل مجلسه ، وكان أبو حامد مولعا بالسفر ، وبتأييد من ذلك الوزير قام أبو حامد برحلات طويلة في بلاد ايران ثم خوارزم ثم مضى شمالي بحر قزوين واستقر في بلدة تسمى سكسين عند مصب الفولجا في بحر قزوين حيث أقام طويلا وترك هذه البلاد وعاد اليها لأنها أصبحت وكأنها وطن له ، فقد تزوج فيها وأنجب . وحدثنا أطراف الأحاديث عن تلوج تلك البلاد وزحافات أهلها وطعامهم ولباسهم ، وضمن معلوماته كتابان من طرف المكتبة العربية الجغرافية هما « المغرب عن بعض عجائب المغرب » وتحفة الكبار في أشعار البحار » وهما ليسا وصفا منهجيا دقيقا لرحلاته وانما هي جماع معلومات جمعها أثناء رحلاته الطويلة ، وقد أدخل في معلوماته المعقول وغير المعقول ، العلمي والأسطوري ، ولكنه على الجملة صادق في كلامه ، وحتى في الحالات التي يبالغ فيها نجد انه يفعل ذلك من قبيل التشويق والاقناع لا بدافع الكذب أو الجهل ، وقد شابته هذه الطرائف العجيبة كتبه وهبطت بقيمتها جملة ، ولكنها على أي حال لا تحرمه من موضع ظاهر في التطور العام لتاريخ الجغرافية عند المسلمين . وقد توفي أبو حامد في دمشق سنة ٥٦٥/١١٦٩ - ١١٧٠ في الثانية والتسعين من عمره .

ولا مفر عن الكلام على رحلة المسلمين من الكلام عن أبي الحسين محمد ابن جبير الكنانى صاحب رحلة ابن جبير المشهورة التي أصبحت من سنوات طويلة من كلاسيكيات أوصاف الرحلات في الأدب العالمى ، لأن ابن جبير رحلة بحق قام بثلاث رحلات من بلده وهي غرناطة الأندلس الى بلاد المشرق ، ودون ملاحظاته بغاية الدقة في رحلته المعروفة ، وهي صورة صادقة لما رأى حافلة بالمعلومات الصادقة والملاحظات القيمة ، وقد وصل بها ابن جبير الى القمة الثانية من قمم أدب الرحلات في تاريخ العلم العربى . وقد ولد ابن جبير في بلنسية أوشاطبة في ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠ / ٣١ أغسطس ١٩٤٥ . وبدأ

رحلاته ٨ شوال ٥٧٧ / ٣ فبراير ١١٨٣ وتوفي بالاسكندرية فى شعبان ٦١٦ أو ٦١٧/١٢١٩ - ١٢٢٠ وهو معاصر لصلاح الدين الأيوبي .

أما أعلى قمم أدب الرحلات فى العصور الوسطى عند العرب وغيرهم فنجدها عند ابن بطوطة ، وهو أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى (١٧ رجب ٧٠٣ / ٢٤ فبراير ١٠٣٤ - ١٣٦٨/٧٥٧ - ١٣٦٩) الذى قضى خمسا وعشرين سنة من عمره فى رحلات متصلة فى عالم الاسلام كله ، ووهب نفسه للرحلة وطلب معرفة البلاد والعباد لذاتها وسجل لنا فى نهاية رحلاته وبعد أن عاد الى وطنه المغرب الأقصى واستقر فى مدينة فاس مشاهداته وذكرياته فى وصف رحلة ممتع حافل بالفائدة عظيم القيمة من كل ناحية ، فهذه الرحلة التى تعتبر من درر أدب الرحلات فى تاريخ الفكر البشرى هى كتاب جغرافية وتاريخ وتاريخ طبيعى وعلم أجناس وزراعة وصناعة وأدب ودين وما شئت من معلومات ، فهذا رجل طلقه حفظ لنا كل ما رأى ثم رواه بعد ذلك .

المعاجم الجغرافية :

ولا يكتمل هذا البحث عن التراث الجغرافى للأجيال الماضية من المسلمين دون وقفة قصيرة عند المعاجم التى أجاد المسلمون عملها وتركوا لنا صوراً شتى منها ، فهناك المعاجم الجغرافية الأبجدية والمعاجم الجغرافية الموضوعية ، فمن الطراز الأول المعجم الجغرافى الذى وضعه أبو عبيد عبد العزيز البكرى الأندلسى الذى ألفه فى التعريف بالاعلام الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية والشعر الجاهلى وشعر صدر الاسلام ، وقد سماه « معجم ما استعجم » أى قاموس ما غمض أمره من أسماء المواضع والبقاع وهو معجم عظيم الفائدة وضعه البكرى على حروف المعجم بترتيب أهل الأندلس والمغرب ، وقد كان ترتيبهم لحروف الهجاء يختلف بعض الشيء عن ترتيبها فى بقية بلاد الاسلام ، وقد قدم أبو عبيد لهذا المعجم بدراسة مفصلة جديرة بالتقدير لجغرافية الجزيرة العربية ، وقد اعتمد فى كتابة هذه المقدمة على الأصول العربية القديمة التى سجلها نفر من الجغرافيين العرب الذين كتبوا رسائل قيمة فى جغرافية بعض نواحي الجزيرة العربية من أمثال ابن اسحاق ابراهيم الحربى صاحب كتاب المناسك وأبى على هارون بن زكريا الهجرى صاحب كتاب التعليقات والنوادر وأبى عبد الله ابن بشر السكونى وعرام بن الأصبغ السلمى وهم أوثق من كتب عن جغرافية الجزيرة العربية كما كانت فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام . وبفضل هذه المراجع القيمة وما يضاف إليها من كتب الأدب والسيرة والتاريخ التى اعتمد عليها البكرى تمكن من أن يضع معجماً جغرافياً فريداً فى بابيه ، لأن لم يقتصر

فيه على الأماكن التي يتوارد ذكرها في نصوص العصر الجاهلي وعصر الاسلام
بل استطرد فذكر أسماء أماكن خارج الجزيرة العربية ورد ذكرها في كتب
الفتوح والتاريخ .

وقد طبع هذا المعجم القيم أول الأمر بمعرفة المستشرق فستنفلد ثم أعاد
تحقيقه ونشره مرتبا على حروف المعجم بحسب الترتيب المشرقي الأستاذ مصطفى
السقا في طبعة دقيقة نشرت في القاهرة في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٤٨ .

ويلي عمل البكري معجم ياقوت الحموي الملقب بالرومي أيضا (٥٧٥ -
١١٧٦/٦٢٦ - ١٢٢٩) وهو دون شك من أفذاذ أمة الاسلام ومصابيح العلم
الوهابية في تاريخها . فهذا رجل وهب نفسه للعلم وسار في طلبه وتدوينه
على منهج علمي دقيق يضاهي أدق مناهج العلم التي يسير عليها العلماء اليوم ،
ونددع جانبا معجم الأدباء من تأليفه ونركز هنا على معجم البلدان ، وهو ديوان
الجغرافية العربية الأكبر ، وإذا كان الشريف الإدريسي يمثل لنا قمة الابتكار
العلمي الاسلامي في ميدان الجغرافية ، فإن ياقوت الحموي يمثل قمة الجمع
والتدوين والترتيب والمنهجية والاستيفاء . فقد صنع هذا الرجل معجمه العظيم
الذي جمع فيه معظم أسماء المواضع الجغرافية في عالم الاسلام في عصره وخارجه
ورتبها وبوبها وجعلها ميسرة لكل طالب علم .

والمعجم يبدأ بمقدمات في علم الجغرافي وفروعه وميادينه ، من الكلام عن
الكون والكواكب ثم الأرض وهيأتها واستدارتها وأقاليمها ومناخها وزروعها
وبحارها وكل ما يتصل بذلك العلم الجليل ، وهذه المقدمات وحدها كتاب كامل
في الجغرافية على مذهب أهل العصور الوسطى ، وبالفعل قام أحد الباحثين
المحدثين ودرس تلك الفصول التمهيدية ونشرها مع ترجمة انجليزية فأخرج
للناس بذلك كتابا جديدا عن الجغرافية عند المسلمين .

ونحن - كما قلنا - مدينون في نشر هذا المعجم لأول مرة لفردينان
فستنفلد وهو من أجلاء المشتشرقين الألمان ، وقد عرف كيف يحقق هذا السفر
الحافل ويصدره في خمس مجلدات أضاف اليها مجلدا سادسا بالفهارس ومع
أن هذه الطبعة في حاجة الى إعادة نظر الآن إلا أن الباحث العربي لا يسعه
إلا أن يعترف بالدين الكبير لفستنفلد على ما تجشّم من مصاعب في نشر هذا
الكتاب الضخم . وقد طبعه أمين الخانجي بعد ذلك طبعة لا بأس بها في القاهرة
سنة ١٩٠٦ ثم طبعوه في بيروت طبعة تجارية لا جهد فيها لكنها سدت فراغا
على أي حال .

وثالث المعاجم التى نتكلم عنها فى هذه العجالة هو الروض المعطار فى خبر الأقطار لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى وحفيد له حمل نفس الاسم والكنية فأما الجد فيظن انه مات قبيل سنة ١٣٧٤/٧٧٦ وقد ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة وأما الحفيد فقد توفى سنة ١٤٦١/٨٦٦ - ١٤٦٢ ، ولم يكن الجد أو الحفيد جغرافيين ، ولكن الجد كان ذا الى ذلك العلم ، وقد قرأ الادريسى وأعجب به وان كان ينكر ذلك ، ولا ندرى ما الذى حفزه على أن يؤلف معجما جغرافيا ، لأنه هو نفسه لم يكن ينطوى على تقدير كبير للعلم الجغرافى ، ولكنه على أى حال وضع ذلك المعجم ، وأحسن تأليفه الى حد بعيد وان كان قد أسرف فى النقل عن الآخرين ودون أن يشير الى ذلك .

ومعجم الروض المعطار يشمل عالم الاسلام كله ومواده الأندلسيات غنية بالمادة الجغرافية والتاريخية وخاصة عن العصور المتأخرة من تاريخ الأندلس ، وسواء فى الجغرافية أو التاريخ فهو يأتينا بين الحين والحين بمعلومات طيبة لم تكن نعرفها . وهو بالنسبة للأندلس والمغرب مرجع لا يستغنى عنه باحث ، ومعلوماته عن المغرب أقل قيمة ولكن بعضها عظيم القدر مثل مواده عن فاس ومراكش . ومواده عن المشرق جيدة تدل على جهد كبير فى الجمع والتقييد . ومهما كان الأمر فهذا معجم طيب جدا يدل على تأصل فن عمل المعاجم الجغرافية فى عالم الاسلام ، وقد توفر على دراسته نفر من أعظم المستشرقين من أمثال جود فروا ديموجين وجاستون فييت وليفى بروفنسال وامبرتو ريستانو ، ونشر ليفى بروفنسال مواده الأندلسية وبعض مواده عن صقلية ، ونشر ريزتيانو مواده عن صقلية ثم جاء احسان عباس فنشره نشرة كاملة بذل فيها جهدا مشكورا وجعل هذا الأصل العظيم القيمة تحت تصرف أهل العلم كافة ، وتلك خدمة لا بد أن نذكرها له وان كان قد سها فيما نرى عن أن يذكر فى مقدمة كتابه الدراسة الضافية التى أدرناها على الحميرى فى كتابنا « تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » . وهو سهو يصعب على التصور ، ولكننا أهل علم ، وأهل العلم أصحاب خير ، ولا حساب - فيما يقولون - بين الخيرين .



والآن وقد استعرضنا تاريخ هذا العلم الشريف وما مر به من تطورات عند المسلمين وما كان لهم فيه من كشوف ، وما ظهر فى تاريخه عندهم من أعلام وما تناولوه من فروع ذلك العلم ، فلنلق نظرة على حصيلة هذا كله أى على المعلومات الجغرافية التى تجمعت عند المسلمين عن الكون وما فيه والأرض وبلادها وعبادها لنرى ان الجغرافيين المسلمين قد قاموا برسالتهم فى ذلك الميدان على وجه محمود جدا .

فكرة عن معلومات الجغرافيين المسلمين عن الكون والأرض وما فيها ومن عليها :

كانت معلومات المسلمين عن أوروبا تفوق في مجموعها معلومات الأوروبيين عن بلادهم في تلك العصور ، ولدينا عن العالم الأوروبي خمسة نصوص على الأقل تؤيد ذلك : الأول هو الترجمة العربية التي عملها قاسم بن أصبغ البياني بالاشتراك مع قاضي النصارى في الأندلس حفص بن البر أو الوليد بن خيزران الذي كان يعرف بابن مغيث ، وهذا النص العربي الموجود الآن يعطى فكرة سليمة عن بلاد أوروبا بتسميات بحارها وأنهارها وجبالها في العصور الوسطى، والوصف هنا جغرافي خالص لا يتناول أى تقسيم سياسى ، وهو يصف أوروبا من شبه جزيرة ايبيريا الى سواحل البحر الأسود (١) والنص الثانى قطع قصيرة ولكنها عظيمة القيمة من القسم الخاص بأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البيرى (٢) ، وهو وصف لا بأس به وإن كان قطعاً متناثرة فهو يعطى وصفا دقيقا لبعض نواحي أوروبا لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا . ومن سوء حظ ان المعلومات التي يوردها هذا النص قليلة في مجموعها .

والمصدر الثالث تقرير عن رحلة الى أواسط أوروبا قام بها أندلسى يهودى أو يهودى أسلم يسمى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ويسمى أيضا ابراهيم ابن يقوب أو ابراهيم بن يوسف وقد ذكرناه وقلنا ان البكرى أورد قطعة كبيرة منه فيما عثرنا عليه من مسالكة .

والمصدر الرابع هى الأجزاء الخاصة ببلاد أوروبا من نزهة المشتاق للادريسي ، وهى أحسن ما لدينا عن جغرافية أوروبا على الإطلاق الى آخر العصور الوسطى ، فقد وصف الادريسي كل بلد من بلاد أوروبا وصفا دقيقا الى حد بعيد ، وقد نشر الأجزاء الخاصة بأوروبا من نزهة المشتاق أساتذة أوربيون وحققوها وقرروا ان الادريسي جغرافى أصيل عمل على أساس علمى سليم فى الدراسة والوصف والمعرفة بكل ما يتصل بالنواحي التي يصفها من معلومات تدخل فى باب الجغرافية البشرية الاقليمية بمعناها الحديث . وقد نشر النص الكامل لنزهة المشتاق بتحقيق نقر من العلماء الأوربيين وغير الأوربيين ، ونستطيع اليوم بناء على ذلك التحقيق المتقن أن نقدر الادريسي قدره الصحيح .

(١) انظر كتاب : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ٢٦

وما بعدها .

(٢) تحدثنا عنه فى كتابنا الأنف الذكر ص ١٣٢ وما يليها وجمع هذه القطع ونشرها الدكتور عبد الرحمن الحجى فى كتاب نشره بعنوان « جغرافية أوروبا عند البكرى » .

وعن افريقية عرف العرب مصر وبقية الشمال الافريقي معرفة تامة ووصفوها أدق وصف ، وكانت معلوماتهم عن الصحراء الكبرى وطرقها وناسها وما يليها جنوبا وبلاد افريقية المدارية وجزء كبير من افريقية الاستوائية الغربية والوسطى وكان المسلمون يسمونها بلد السودان ، وقد وصف لنا أجزاء مختلفة من هذه البلاد الكبرى والادريسي وابن بطوطة ، وقد كان هناك كتاب خاص يصف هذه النواحي ألفه جغرافي يسمى محمد بن فاطمة ، ومن أسف ان هذا الكتاب لم يوجد الى الآن وان كنا نجد فقرات طويلة منه عند الجغرافيين الذين ذكرناهم والأصول العربية الكبرى التي تعتمد عليها في معرفة المغرب والصحراء وافريقية المدارية والاستوائية وهي مؤلفات الكبرى والادريسي وابن خلدون وابن سعيد والحسن بن الوزان المعروف عند الغربيين باسم ليون الافريقي وقد كتب هذا الرجل وصفه للمغرب والصحراء باللاتينية ثم ترجم الى معظم اللغات الأوروبية ، والآن ظهرت له ترجمة عربية جيدة .

وقد أعطينا فيما سبق فكرة واضحة عن معرفة الجغرافيين المسلمين لآسيا كلها وخاصة البلاد الاسلامية منها ، فلا شك أن معلوماتهم كانت كاملة عن جزيرة العرب وبلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق وايران وأفغانستان جميعا ومعظم شبه القارة الهندية وبلاد ما وراء النهر . أما ما يلي ذلك شمالا وشرقا فكان معروفا عندهم معرفة طيبة جدا ، فبالاضافة الى معلوماتهم الجزيرة عن بلاد الترك والتركمان والتستر والمغول والخزر والقومان ، فقد كانت معارفهم عن بلاد الصين طيبة وخاصة فيما يتعلق بجنون الصين وسواحلها وبحارها وكذلك بقربها المعروف بسنكيانج ، فهذه كانت بلادا اسلامية ولا زال معظمها اسلاميا ، ومعلوماتهم عن جزائر جنوب آسيا وجنوبها الشرقي كانت طيبة جدا ، وقد عرفوا كوريا دون شك وسموها بلاد السيلا أو الشيلا أما اليابان فلا ندرى كيف غاب أمرها عنهم ، ولكن ذلك ربما رجع الى ان بلاد اليابان كانت مغلقة ومجهولة بالتالي لكل العالم خارجها .

اذن فقد خلف لنا الجغرافيون العرب والمسلمون صورة صادقة للأرض وما عليها ومن عليها صحيحة ومتكاملة الى حد بعيد ، وقد تعاون على تجميع هذه المعلومات الجغرافيون والرحالة والتجار وصاغها علماء في الجغرافية يعرفون حدود العلم الجغرافي ومطالبه وان الانسان ليملكه الاعجاب بالفكر العربي الذي عرف كيف يلم بالأرض ومن عليها من كوريا (بلاد السيلا) الى الجزر البريطانية (بلاد الانقليشيين) ومن بحر شمال آرال (بحيرة خوارزم) وبحر قزوين وما يليه غربا من بلاد أوروبا حتى المحيط الأطلسي وهي بلاد الترك والصقالبة والفرنجة شمالا الى بلد السودان وهو افريقية المدارية والاستوائية

وبحار جنوبى آسيا وجنوبها الشرقى . كل ذلك عرفوه ورسموه ووصفوه جملة وتفصيلا ، وعلمهم هذا حقيقى يقوم على تجربة ومعاينة ودقة ، ثم ان معلوماتهم عن تكوين الأرض وتركيبها الجيولوجى كانت لا تقل عن علمهم بسطح الأرض ولليرونى ملاحظات فى غاية العمق عن ان بلادا مثل جزيرة العرب كانت فى يوم من الأيام بحارا ، وقد تحقق عن ذلك بنفسه عندما رأى فى أرض الحجاز أصدافا وحفريات حيوانات بحرية ، وتحسث المسعودى عن عوامل النحت والتعرية وفعل الأمطار والرياح وحاول نفر من الجغرافيين العرب التعرف على طبيعة باطن الأرض الملتهب مستدلين على ذلك بجبال النار وما يخرج منها من حمم والحمات ومياها حارة . وتكلم المسعودى عن الشلالات أو الجنادل والكهوف فى الجبال وعلى شواطئ البحار وتكلموا عن ذلك كلاما علميا دقيقا .

وقام بعض رحالة المغرب متفرقين بجهود جغرافية كشفية لا تتم اليوم الا بجهود الجماعات العلمية التى ترصد لذلك المال الطائل ، بل غامر بعض العرب بمحاولات لعبور الأطلسى رغم مخاطره وخير الفتية المغررين معروف ومحاولة خسسحاس المغربى مذكورة فى أكثر من مرجع .

بل بلغ من اتساع علم علماء المسلمين بالأرض وما عليها ومتابعتهم لما يجرى حول بلادهم من أحداث لم يكن لأهل السياسة بها اهتمام ان ابن خلدون أثبت فى مقدمته ما يدل على انه كان على علم بمحاولات البرتغاليين السير فى البحر بمحاذاة سواحل افريقية . وفى هذا يقول : « وفيه رأى فى بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر الخالدات التى منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد . وليست فى بسيط الاقليم (يريد الأول) وانما هى فى البحر المحيط جزر متكررة ، أكبرها وأشهرها ثلاث (١) ويقال انها معمورة » .

وقد بلغنا ان سفائن الأفرنج مرت بها فى أواسط هذه المائة (٢) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى ، وصاروا الى خدمة السلطان ، فلما تعلموا اللسان العربى أخبروا عن حال جزائرهم ، وانهم يحتفرون أرضهم للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بأرضهم ، وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة ، يرمونها الى خلف ، وعبادتهم

(١) المراد هنا جزر الكنارياس ، والمعروف اليوم ان جزرها الكبيرة سبع .

(٢) المراد المائة الثامنة الهجرية / الرابعة عشرة الميلادية لأن ابن خلدون تولى فى ٢٥ رمضان ٨٠٨ / ١٩ مارس ١٤٠٦ ، فى القاهرة ، وكان قد فرغ من تاريخه ومقدمته قبل ذلك بستوات .

السجود للشمس اذا طلعت ، ولا يعرفون دنيا ولم تبلغهم دعوة ، (المقدمة ص ٤٩) .

تلك هي حصيلة جهد علماء المسلمين فى دراسة الأرض وما عليها وتعريف مواطنيهم بالدنيا وأهلها . ونعتقد ان الجغرافيين العرب والمسلمين قاموا بواجبهم نحو العلم فى ذاته ونحو أمتهم الاسلامية ، فقد أجنهوا ودرسوا وجابوا الآفاق ودرسوا تجارب الماضين وما كتبوه وأخذوا منه ما ينفعهم وتركوا ما لا ينفعهم ووضعوا فى ميدان العلم الجغرافى أساسا متينا للجغرافية البشرية بكل فروعها ، فبماذا نطالبهم بأكثر من ذلك ؟ انها حصيلة جليلة وشهادة دقيقة للمعلم عند العرب والمسلمين جميعا ، وما نظن أن أهل العلم عند المسلمين فى ميدان من الميادين قد بلغوا التوفيق قدر ما بلغ الجغرافيون والمؤرخون . شهد لهم بذلك رجال ذوو قدر عظيم فى موازين العلم من أمثال كارلو نالدينو وجورج سارتون واغناطيوس كراتشكوفسكى . ويكفى أن نذكر هنا ان عالما ايطاليا جليلا هو ليفى دلافيدا فى آخر دراسة له عن الادريسي تأسف على ان جغرافيته دخلت فى تراث المسلمين ولم تدخل فى تراث الايطاليين لأن الادريسي وحده شرف لأى حضارة من حضارات الأرض ، فما بالك وهو عندنا - فى ميدان الجغرافية - واحد من عشرات .

الفنون الزخرفية

الدكتورة سعاد ماهر

ماهية الفن الاسلامى

لقد عرف الفلاسفة الفن بأنه التعبير المادى لفكرة دينية فى الانسان أو بواسطة الانسان وان الدين والفن توأمان منذ البداية ، فهو يولد فى معظم الحالات فى خدمة الدين فتمائيل الآلهة وصورها وأماكن العبادة ومستلزماتها كانت أهم مظاهر الفن منذ البداية .

فاذا رجعنا الى عصر ما قبل التاريخ وجدنا أن الانسان البدائى عندما استقر به المقام فى الكهوف قام الى جدرانها يزخرفها والى آلات صغيرة يزينها ويجملها على اننا لا نعرف على وجه التحديد السبب الذى دعاه الى الاشتغال بالفنون الجميلة هل هى الغريزة التى أوحى اليه بمخالات الطبيعة أم هى الرغبة فى جلب النفع واتقاء الشر وأيا كان السبب فان الشئ الذى لا شك فيه هو أن الانسان الأول اعتقد بقوى عظيمة تؤثر فى كيانه دون أن يراها لذلك لجأ الى الفن يستعين به على تحقيق بغيته فنحت التماثيل وأقام الأنصاب ورسم الصور .

ولم يقتصر الفن على خدمة الانسان البدائى فى ديانتة الساذجة بل خدمه كذلك فى عصر الحضارات عندما تقدمت عقائده الدينية فقد اعتقد المصريون القدماء بعودة الروح ومن ثم نحتوا التماثيل التى ستحل فيها الروح وزينوا المقابر ونقشوها وأثروها بكل ما يحتاج اليه الانسان فى حياته الآخرة .

واذا كان اليونان قد برعوا فى فن النحت والتصوير الى درجة لم يصل اليها شعب من شعوب الحضارات انقديمة فانما الباعث على ذلك بل والفضل فيه يرجع الى ديانتهم فقد ابتدعوا لأنفسهم آلهة نزلت الى مستوى البشر فمنها الصالح ومنها الطالح وتخیلوا هذه الآلهة على صورة الانسان والحيوان والأجرام السماوية وبذلوا جهدهم فى نحت تماثيل لها كانت أروع ما أخرجته يد البشر

كذلك كان الفن فى خدمة باقى ديانات شعوب الشرق القديم ومن سومريين وبابلين وآشوريين فقد استخدمت هى الأخرى فن النحت البارز فى نقش صور آلهتهم التى تخيلوها على صورة الانسان والحيوان على السواء .

وجاء الدين اليهودى أول الأديان السماوية والشعوب على هذه الحالة من الوثنية وعبادة الأصنام فعمل جاهدا على الحيلولة بينهم وبين الفن حتى يبعدهم عن عبادة الأوثان فقد ورد فى التوراة فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ومما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . ولا تسجدن لهم ولا تعبدن لانى أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى » .

ثم ظهر الدين المسيحى واعتنقه كثير من بنى اسرائيل كما انتشر فى الدولة الرومانية وكما حرمت اليهودية عبادة الأوثان بعبارة أخرى قضت على الفنون التشكيلية قضاء مبرما كذلك فعل الدين المسيحى ولكن فى شئ من الفرق والهوة فهو لم يثنه عن نقش الصور وصنع التماثيل وانما دعا الى الزهد والتقشف وهما والفن الجميل على طرفى نقيض فقد ورد فى الانجيل (فى الاصحاح السادس من انجيل متى) لا يقدر أحد ان يخدم سيدين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم ويحتقر الآخر لا يقدر ان يخدموا الله والمال .

لذلك أقول لكم لا تهتموا لحباتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس .

على أن المذهب الكاثولىكى المسيحى اعتمد اعتمادا كليا على الفن فى توضيح تعاليمه وتصوير الحوادث الدينية وتاريخ المسيحية وسيرة أبطالها .

فاما الدين الاسلامى فقد كان له موقف حيال الفنون التطبيقية يختلف عن موقف الدينين السابقين فهو لم يستعمله فى طقوسه الدينية كما هو الحال بالنسبة للمسيحية كما انه ينكرها كما فعل الدين اليهودى .

أما عن كراهية التصوير عند المسلمين فأساسها أحاديث تنسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم والقصد منها البعد عن الوثنية وعبادة الأصنام وذلك فضلا عن كراهية الرق فى ذلك العصر الذى ساد فيه الزهد والتقشف والجهاد فى سبيل الله .

أما القول بان الاسلام حرم التصوير فليس له أساس من الصحة اذ لم يعرض القرآن الكريم للتصوير بشئ وقد كان لهذه الكراهية أثرها فى الفن

الاسلامى الذى ابتعد عن نحت التماثيل المنفصلة أو المنفردة (Free standing statues) وكذلك اللوحات الفنية المستقلة (Free paintings) وانما اتقن أنواعا أخرى من الزخرفة قوامها العناصر الهندسية والنباتية بعد ان جردها عن أصولها الطبيعية وأسرف فى استعمالها حتى أطلق عليها الأوربيون اسم (أرابيك) (Arabesques) على أننا لا ندعى أنه كان للعرب قبل الاسلام حظ وافر فى مزاولة الفنون التشكيلية اللهم الا فى أطراف شبه الجزيرة العربية فى بلاد اليمن والأجزاء المتاخمة للدولة الساسانية من المناذرة والمجاورين من الدولة البيزنطية من الغساسنة .

وعلى ذلك فاننا نستطيع القول بأن الفن الاسلامى أخذ قوامه الروحى من وسط شبه الجزيرة العربية أما قوامه المادى فقد تم صوغه فى أماكن أخرى كانت للفن فيها قوة وحياة .

أقسام الفنون الجميلة :

لقد رأينا قبل أن نتناول بالبحث والدراسة موضوع « الفنون الزخرفية الاسلامية » ان نذكر كلمة موجزة عن أقسام الفنون العامة حتى نستطيع تحديد موقع الفن الاسلامى بين غيره من الفنون فقد كان للفن الاسلامى طبيعة خاصة انفرد بها عن الفنون السابقة عليه واللاحقة له .

ومن المعروف ان الفنون الجميلة تنقسم الى قسمين كبيرين الأول منها هو الذى يطلق عليه الفنون الزمنية أو فنون الحركة . (Arts Dynamiques) وهى الفنون التى لا يتذوقها الانسان الا بحاسة السمع ومن ثم فهى تحتاج الى الزمن حتى يتم تأثيرها كالموسيقى والشعر والغناء والخطابة وما يليها أما فنون الحركة كالرقص وما شابه فبرغم انه يدرك بالنظر الا انه يحتاج كذلك لزمن لاتمام الخطوات على الايقاعات الموسيقية .

أما القسم الثانى فهو الفنون التشكيلية Arts plastiques وهى التى يحقق بها الفنان أشكال المراتب التى يقع عليها بصره ويتمتع بها الآخرون عن طريق الرؤيا كالعماثر والتماثيل والصور والزخارف وقد يمتد الإعجاب بها فيلمسها بيده وهكذا تشترك حاسة اللمس مع حاسة النظر فى تذوق الفنون التشكيلية .

واذا كانت الفنون الجميلة الاسلامية تحتوى على القسمين الكبيرين السالف الإشارة اليهما شأنها فى ذلك شأن الفنون الأخرى الا ان القسم التشكيلى من الفن الاسلامى قد اختصر على فروع معينة بخلاف غيره من الفنون .

اذ بينما نجد الفنون التشكيلية فى الفنون القديمة والحديثة على سواء
تنقسم الى الفروع الاربعة الآتية :

- | | |
|-------------------------------------|---------------------|
| L'Architecture-Architecture | ١ - العمارة |
| La Sculpture - Sculpture | ٢ - النحت |
| La Peinture-Painting | ٣ - التصوير |
| Les arts Décoratifs-Decorative Arts | ٤ - الفنون الزخرفية |
- وقد تسمى الفنون الزخرفية بأسماء أخرى متعددة منها :
- | | |
|---------------------------------------|------------------|
| Les Arts plas appliques-applied Arts. | الفنون التطبيقية |
| Les arts mineurs — Minor Arts. | الفنون الفرعية |
| Les arts industriels — Industriels | الفنون الصناعية |

نقول اذا كانت الفنون التشكيلية الاسلامية جميعها تنقسم الى الفروع
الاربعة السابقة فان الفن التشكيلى الاسلامى يقتصر على فرعين منهما فقط وهما :

- ١ - العمارة
- ٢ - الفنون الزخرفية أما فن النحت والتصوير فلا وجود لهما فى الفن الاسلامى
اللىهم الا فى فن الحفر الغائر والبارز على المعادن والمواد الصلبة كالحشب والعاج
والعظم والأحجار والرخام والبلور الصخرى وما إليها ومن ثم فهو يدخل ضمن
الفنون الزخرفية أما نحت التماثيل المنفرده • فلا وجود لها فى الفن الاسلامى
على الاطلاق • (Free — Standing Statue)

كما أن فن التصوير وهو الذى يعرف باسم المتمتات والذى لم يظهر فى
الفن الاسلامى الا قرابة القرن السادس للهجرة فلم يكن فنا قائما بذاته فليس
هناك لوحات مستقلة وانما كان يدخل فى مضمار فن زخرفى آخر يصرف باسم
فن الكتاب •

ذلك ان الصورة انما وجدت لتوضح معنى الكتاب وليس لها شخصية
منفصلة كما ان المصور كان مركزه ثانويا فهو يتبع ويدور فى فلك الخطاط
والمذهب وكذا صانع جلدة الكتب •

وهكذا نرى ان الفن الزخرفى بالنسبة للفن الاسلامى قد استوعب بين جنباه فضلا عما هو موجود من تفريعات فى الفن الزخرفى بالنسبة للفنون الأخرى فن النحت وفن التصوير ومن ثم فاطلاق اسم فن تطبيقى أو فن فرعى أو صناعى عليه يتنافى تماما مع طبيعة الفن الاسلامى على ان علماء الآثار ومؤرخى الفنون لم يجدوا غضاضة فى ان يفصلوا فروعاً متجانسة من الفن الزخرفى الاسلامى . وهو فن تجويد الخط والتذهيب والمنمات والتجليد وأطلقوا عليه اسم فن الكتاب .

وحدة الفن الاسلامى

لقد بدأت الحضارة الاسلامية بمعناها الصحيح فى النصف الثانى من القرن الأول من الهجرة بعد أن جمعت الى قوة العقيدة والايمان العلوم والفنون التى نقلتها من الأمم التى خضعت لها وصبغت بالروح الاسلامية الحقة . واستمرت الحضارة الاسلامية قوية فتية قرابة أربعة قرون تم أفسحت المجال بعد ذلك للتمدين الاسلامى يفسر ويحيى علومها ويستجدى تراثها حتى الآن .

ولما كانت الفنون الجميلة تكون الجانب المادى من الحضارة الاسلامية ، لذلك فقد أصبح من الضرورى لمن يريد دراسة أو معرفة الحضارة الاسلامية الاثام بتلك الفنون . والفنون الاسلامية تنقسم الى قسمين رئيسيين ، العمارة وهى تقوم أساسا على العلوم الرياضية والجولوجية وعلم البيئة ومستلزماتها ومنتجاتها وما الى ذلك من علوم . أما القسم الثانى فهو الفنون الزخرفية وهى تدخل فى صميم علم الكيمياء والطبيعة وذلك فى صناعة المعادن والزجاج والنسيج والخزف وما اليه ، كما يدخل فى علم الفلك آلات الاسطرلاب والساعة الدقاقة والبوصلة والمربع والمقنطر وما الى ذلك من آلات الرصد والمرصد . كما تتصل صناعة السلاح والمفرقات بعلم الفلزات وغيرها من العلوم العقلانية .

على أن الذى يدعو الى الاعجاب حقا ، هو كيف أتيح للحاكم العربى أن يوحد بين فنون مجموعة من الشعوب المتباينة المتنافرة التى اعتنقت الاسلام ، وأن يخرج منها فنا متجانسا له قوامه ومميزاته الخاصة . فمن المعروف ان الفن الاسلامى قام على أسس فنون الفرس والروم والصين والقبط والبربر ، ولكن ليس معنى هذا ان الفاتح العربى كان خلوا من الفنون الجميلة ، فقد كان له قصب السبق فى مضممار الشعر والأدب والخطابة والفروسية وما اليها . انما الذى نعينه هنا هو الفنون التشكيلية ، ذلك ان طبيعة وسط شبه الجزيرة

الصحراوي وانتقال البدو من مكان الى آخر سعيا وراء الكلا والمرعى ، لم يكن ليساعد في ذلك الوقت على قيام فنون تشكيلية بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، اللهم الا فى أطراف شبه الجزيرة ، المناذرة المجاورين للساسان فى الشمال الشرقى والغساسنة المتاخمين للروم فى الشمال الغربى واليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة .

على أن الفاتح العربى لم يقبل تلك الفنون على علاتها . فقد عمل بعد أن جمع عناصره من جميع أنحاء العالم الاسلامى على استبعاد ما كرهه الدين أو ما يتفق ومزاجه الخاص ، ثم صهر العناصر المنتقاة فى بوتقة واحدة ثم أضاف اليها من عنده الكتابة والخط العربى وأخرج فنا متجانسا . وقد استغرقت هذه العملية من جمع واستبعاد ومزج وإضافة ثلاثة قرون تقريبا . أصبح للفن الاسلامى بعدها مميزاته الخاصة التى تكاد لا تخطئه العين .

على أن هذه الوحدة لم تكن وحدة عفوية كما لم يأت بمحض الصدفة بل أدت اليها عدة عوامل بعضها سياسى والآخر اقتصادى وثالث دينى . أما العامل السياسى فهو نظام الالتزام وهو النظام الذى عرفه العالم القديم باسم الليتورجيا Leiturgyia وقوامه فى الاسلام التزام أقاليم العالم الاسلامى بتقديم أحسن ما تنتجه تلك الأقاليم من صناعات وخبرات والصناع والفنيين ومواد الصناعة الى الحكومة المركزية للقيام بما تريده من الأعمال الفنية الجليلة . وهكذا تجمعت منتجات العالم الاسلامى فى دمشق فى العصر الأموى وفى بغداد فى العصر العباسى وصهرت هذه الفنون وأخرجت منها فنا جديدا له مقوماته الخاصة ، ثم عادت الدولة ووزعت هذا الفن الجديد على جميع الولايات الخاضعة لها .

ومن الأسباب السياسية الهامة التى أدت الى وحدة الفن نظام الطراز والطراز مأخوذة من الكلمة الفارسية (ترازيدن) بمعنى طرز أو زخرف ، ثم أصبحت تعنى فى العربية الكتابة على الورق والنسيج ثم انسح مدلولها وأصبحت تعنى مصانع النسيج بل والمشرق عليها الذى عرفها باسم صاحب الطراز . ويحدثنا البيهقى فى كتابه المحاسن والمساوى عن قصة الطراز فيقول ، ان مصر كانت تصدر البردى الى الروم وقد كتب عليه عبارة التثليث المسيحية (الأب الابن الروح القدس) ، فلما علم بذلك الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، استاء أن ترسل دولة اسلامية ورقا عليه عبارات مسيحية ، وأمر أن تستبدل تلك العبارة « الله يعلم ان لا اله الا هو » . فلما ورد البردى على امبراطور الروم خلوا من عبارة التثليث وعليه عبارة التوحيد ، غضب غضبا شديدا ، وأرسل الى الخليفة أن يرفع العبارة الاسلامية والا صك لهم فى نقودهم ما يكرهون فى

نبيهم . فلما عرف بذلك عبد الملك بن مروان ، أمر بأن تصك الدولة الاسلامية نقودها ، كما أصدر قرارا بأن تكون الكتابة على الطراز (أى الورق والنسيج) باللغة العربية ولمن خالف ذلك تكون عقوبته شديدة . (وقد تطور نظام الطراز على النسيج بحيث أصبح شارة من شارات الملك ، فقد كان شريط الكتابة يبدأ بالبسملة ثم الدعاء للخليفة وذكر اسمه واسم صاحب الطراز ومصنع الطراز والمدينة التى يوجد بها ثم السنة التى نسج بها النسيج ، وهذا نص طراز صنع بمدينة شطا بمصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله أمير المؤمنين المعتمد على الله مما أمر بعمله على يدى مولى شفيح بطراز الخاصة بمدينة شطا سنة ثلاث وسبعين ومائتين » .

أما العامل الاقتصادى فهو انتقال التجارة من أقصى الشرق فى الصين عبر وسط آسيا بالهند وإيران والعراق حتى تنتهى فى مصر والشام ومنها تنتقل الى شمال إفريقيا والأندلس برا وبحرا . ولما كانت كل هذه الأقاليم خاضعة للدولة الاسلامية ، الأموية ثم العباسية ، فقد كان الاتجار بينها سهلا ميسورا . وعن طريق التجارة وتبادل السلع تتقارب الأذواق ويحدث كثير من النقل والاقتباس مما يؤدى فى النهاية الى الوحدة . كذلك كان العامل الدينى من الأسباب القوية والمباشرة فى التآليف والوحدة ، ونعنى به فريضة الحج . ففى هذا المؤتمر الاسلامى حيث تجتمع جميع الشعوب الاسلامية على اختلاف مشاربها وأذواقها يؤدون مناسك الحج بالطواف والسعى والوقوف بعرفة وقضاء ثلاثة أيام بمنى تتألف القلوب وتتقارب المشارب والأذواق ومن هنا تحدث الوحدة الروحية التى هى غاية ما يصبو اليه الفن الاسلامى الرفيع .

أولا - النسيج الاسلامى

لقد كان للدولة الاسلامية منذ نشأتها سياسة خاصة ازاء الدول التى استولت عليها أو خضعت لها وذلك من الناحية الادارية والفنية ، فقد تركت لها مطلق الحرية فى أن تظل هذه النواحي على ما كانت عليه قبل الفتح الاسلامى ، وذلك جريا على سياسة التسامح التى سار عليها العرب فى معاملة الشعوب المغلوبة من جهة ، وجهل الفاتح بالنظم الادارية وعدم المامه بالفنون التطبيقية من جهة أخرى . على أن هذه الحال لم تستمر طويلا فقد تبدلت حياة البداوة والتقشف فى عهد الخلفاء الراشدين الى حياة البذخ والترف فى عهد الدولة الأموية ، وقد ظهر أثر هذا التحول فى الفن عامة وفن النسيج بصفة خاصة .

فقد ظهرت على النسيج كتابات عربية ترجع الى عصر الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، فقد عثر على قطعة نسيج صنعت سنة ثمان وثمانين للهجرة كما هو منسوج عليها . وان كان هذا التاريخ قد أثار خلافا بين العلماء لكنى لم أجد فيما أبداه القائلون بعدم صحته ما ينهض دليلا معقولا بل على العكس ، وجدت تفاصيلها الفنية كالزخرفة وأسلوب الكتابة يؤيدان صحته . وفى الواقع ان هذه النقطة لتعد أكبر دليل على صحة ذلك النص التاريخى الذى أورده البيهقى .

وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون أقدم كتابة طراز على النسيج وصلت الينا هي من عهد الوليد بن عبد الملك من عهد مروان الثانى آخر خلفاء الدولة الأموية .

كذلك كثر استعمال مادة الحرير فى صناعة المنسوجات ، وقد كانت هذه الحامة نادرة الاستعمال ، وكان استعمالها فى العصر الاسلامى يخضع لقيود كثيرة بعضها دينى ، والبعض الآخر اقتصادى ولذلك كان يكتفى فى كثير من الحالات بكتابة شريط الطراز فقط بمادة الحرير على نسيج سادة .

أما أسلوب الخط فى هذه الكتابات فقد بدأ فى أول العهد الاسلامى بخط كوفى لين ذى استدارة بسيطة ثم انتشر بعد ذلك الخط الصلب ذو الزوايا .

وقد بلغ نسيج الكتان درجة عظيمة من الدقة والاتقان فى العصر الاسلامى، كما هو وارد فى مؤلفات العرب وغيرهم وكما هو ثابت من القطع التى وصلت الينا .

النسيج الاسلامى فى مصر

لقد كانت الصناعات فى عصور ما قبل التاريخ تقوم على عدة حرف أو صناعات بدائية محدودة العدد ، دعت اليها الحاجة الى تحقيق بعض الأغراض الوقائية والمعيشية كالدفاع عن النفس والعشيرة واجابة مطالب الحياة الملحة ، ولم تكن هذه الصناعات مبنية على نظريات علمية تطبيقية بل كانت تقليدا للطبيعة أو تحويرا لها ، ثم أخذت تتطور وتتهذب تبعا لنمو الذوق الفنى ، وعلى هذا يمكن القول بأن الصناعات سبقت الفن ثم امتزجت به عندما ارتقى الانسان فى معيشتة بعض الشيء وأخذ يتطلع الى الكماليات ومن هنا نشأ الفن التطبيقى الذى يعتبر صناعة مهذبة يلعب الذوق الفنى فيها دورا كبيرا .

ولما كانت مصر باجماع الباحثين أقدم موطن للحضارة وصناعاتها أقدم

الصناعات ، فقد تكون صناعة الغزل والنسيج من بين تلك الصناعات التي لازمت الحضارة في مصر منذ بدايتها . وانه لمن العيب أن نحاول رسم صورة صادقة لهذه الصناعة في عصور ما قبل التاريخ ، اذ تعوزنا المصادر التاريخية والآثار المادية التي توضح الوسائل أو الطرق التي كانت متبعة وقتئذ في غزل الخيوط ونسج الأقمشة ، كما أعوزتنا بالنسبة لغزل الخيوط التي عثر عليها الأستاذ يونكر (١) في مقابر مرمدة ، ببنى سلامة الواقعة على حافة الدلتا الغربية ، وكذلك تعوزنا وسائل نسج الأقمشة التي عثر عليها في الفيوم والتي يرجع عهدها الى العصر الحجري الحديث . وعلى كل فان العثور على مثل هذه الخيوط والأقمشة يدل على بؤادر قيام هذه الصناعة وانها بدأت تظهر في نهاية هذا العصر ، ثم أخذت تنمو وتتقدم الى أن وصلت الى درجة لا يستهان بها في العهد الفرعوني .

ومن الثابت ان المصريين القدماء كانوا يستعملون النباتات ذات الألياف الخشنة في صنع المنسوجات وفي حاجاتهم اليومية ، وأهمها الكتان والألياف النخيل والحلفا التي كانت تستعمل في عمل الحبال منذ أقدم العهود (٢) . أما الألياف الحيوانية فلم تكن ذات أهمية كبيرة في صنع الأقمشة ، ويرجع السبب في ذلك الى عدم صلاحية صوف الأغنام التي كانت موجودة وقتئذ لعملية الغزل (٣) ولاعتقادهم بعدم طهارة هذا الصوف . أما في عصر البطالة فقد كان الصوف يلى الكتان في الأهمية (٤) في صناعة النسيج واستمر الحال على ذلك حتى أوائل العصر الاسلامي .

وقد ضرب المصريون بسهم وافر في صناعة الكتان وبلغوا فيها درجة عظيمة من الروعة والكمال يعز الوصول اليها حتى في الوقت الحاضر ، رغم التقدم الكبير الذي أدخله التطور الآلى اذ بلغت بعض المنسوجات المصرية القديمة الملفوف فيها الموميات وخاصة القطعة التي وجدت بمقبرة تحتمس الثالث (٥) ، والموجودة بالمتحف المصري بلغت من الدقة ما جعلها تحاكي أدق أنواع الموشن الهندي (والكريب جورجيت) .

(١) الأستاذ سليم حسن - مصر القديمة - ج ٢ ص ٨٥ .
Caton Phampson : The Neolithic Industry of the Fayum Desert.

(٢) سليم حسن : ج ١ ص ٨١ .

(٣) سليم حسن ج ٢ ص ١١٧ .

Braulik : Alt Aegyptische Gewebe p. 86 :
G.H. Johl, Alt Aegyptisch Webstul. p. 2.

(٤) البطالة ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٥) بالمتحف المصري حجرة نمرة ١٢ خزنة (ج) تحتمس الثالث .

ولم تقف شهرة مصر بمنسوجاتها عند العصر الفرعوني بل امتدت الى العصر البطلمي ، فقد تكلم مؤرخو اليونان عن نسيج الكتان المصرى من حيث دقة صنعه وخصوا منه بالذكر نوعا دقيقا جدا قالوا عنه نسيج (اليبوس) (١) . ويعتقد الأستاذ لوربيه أن هذا يقابل فى اللغة المصرية القديمة كلمة (تيسوت) (٢) أى ملكى للدلالة على أنه أفخر نوع من نسيج الكتان ، وفى العصر الرومانى أنشأ الأباطرة مصانع الجنيسيم (٣) ، أى مصانع النسيج الملكى ، بمدينة الاسكندرية عاصمة القطر المصرى فى ذلك الوقت ، لكى تمون الامبراطور وبلاطه بما تحتاج اليه من الأقمشة الكتانية التى اشتهرت بها مصر .

أما فى العصر القبطى فقد انتشرت مصانع النسيج فى جميع أجزاء القطر ، وذاع صيت مصر السفلى بمنسوجاتها الكتانية والعليا بمنسوجاتها الصوفية ، كما طوقت شهرة منسوجاتها التى عرفت باسم القبطى الآفاق على التحرر الوارد فى المراجع التاريخية .

يتبين مما تقدم مقدار ما بلغت مصر فى صناعة المنسوجات من شهرة امتدت منذ نشأة الحضارات واستمرت فى جميع عصورها التاريخية حتى مجىء العرب . وقد كان الفتح العربى عاملا جديدا على ازدهار صناعة المنسوجات اذ عملوا على تنميتها وتشجيعها وتلك كانت سنة العرب فى جميع البلاد التى فتحوها .

أما فى العصر الاسلامى فقد كانت منسوجات مصر موضع التقدير ومضرب الأمثال فى الدقة والروعة والجمال وقد عرف العرب لها ذلك فعملوا على الاستفادة من هذا التراث الفنى وتشجيعه حتى ازدهرت صناعة النسيج فى العالم الاسلامى عامة ومصر خاصة ، وبلغت من الكمال والاتقان درجة قلما نجدها ممثلة فى أى ناحية أخرى من نواحي النشاط الفنى عند المسلمين . ومن التقاليد الاسلامية التى كان لها أكبر الأثر فى ازدهار فن النسيج كسوة الكعبة التى يقدسها العرب قبل الاسلام وبعده ، كذلك كان لنظام منح الخلع ، وهو تقليد عرفه معظم شعوب العالم المتمدين القديم ، فعرفه المصريون القدماء كما عرفه الايرانيون ، وهناك ناحية لها أهميتها ينبغى ألا نغفلها ألا وهى حب العرب للباس واقتنائهم الفاخر منه ، فكان ذلك عاملا من عوامل المنافسة فى الابتكار والاتقان .

(١) البطالة ج ٢ ص ٥٤٧ .

Braulik : Alt Aegyptische Gewebe. p. 88.

(٢) سليم حسن - مصر القديمة - ج ٢ ص ٨٦ .

Kendrick : Early Medieval woven fabrics. p. 29.

(٣)

وقد دفع اهتمام المسلمين بالمنسوجات الى العناية بالمصانع التى تصنع بها ، وهى دور الطراز فأخضعوها للرقابة الحكومية .

الطراز

كان لفظ الطراز يعنى فى أول أمره الكتابة الزخرفية التى توجد على الأقمشة . وهو لفظ أعجمى مأخوذ من كلمة « طرازیدن » ومعناها التطريز ، واذن فالمعنى الأصلى لكلمة الطراز هو التطريز ثم اتسع مدلولها فأصبحت ستعمل للكتابة على الورق والنسيج وزخارف قطع النسيج السادة المطرزة والتى ترجع الى الفترة التى نحن بصددتها تكاد تكون كلها مقتصرة على شريط رفيع من الكتابة ومن المرجح أن يكون الغرض منه هو اثبات التاريخ ومصنع الطراز الذى نسجت فيه هذه القطع وليس لمجرد الزخرفة ، وقد كانت هذه الكتابة تقتضيها عادة الخلع التى كانت متبعة فى الخلافة الاسلامية .

وقد اختلف المؤرخون القدماء منهم والمحدثون فى تعيين الموطن الأصلى الذى نشأت فيه مصانع الطراز وانقسموا الى فريقين : الفريق الأول وعلى رأسه ابن خلدون يقول بأن مصانع الطراز فارسية الأصل ، لأنه كان من عادة ملوك ايران قبل الاسلام أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك وبأشكال معينة تميزها لها من غيرها . وهذا رأى كما يقول سرجنت ، مبنى على الافتراض والتخمين لخلوه من الدليل ، اذ لم يورد ابن خلدون أى نص يدعم به رأيه .

ويميل سرجنت الى ارجاع أول ظهور الطراز على الملابس فى العصر الاسلامى الى عصر هشام بن عبد الملك . فقد عرف عنه حبه للاصلاح فقد شيد كثيرا من المباني وأصلح الأرض كما كان مولعا بالملبس .

وتقول نائسى بريتون ونحن نؤيدها فى ذلك ان أقدم قطعة نسيج اسلامية معروفة الى الآن هى تلك القطعة التى ترجع الى عهد الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك من (٨٦ - ٩٦ هـ = ٧٠٥ - ٧١٥ م) ، وهو الذى نقلت فى عهده الدواوين من القبطية الى العربية . وقطعة النسيج هذه مؤرخة (٨٨ هـ) (٧٠٥ م) لوحة (٤٢) . وبها زخارف منسوجة بطريقة القباطى .

القباطى

القباطى هو النسيج المعروف بـ (التبستري) وقد سماه الدكتور عبد العزيز مرزوق (١) « الزخرفة المنسوجة » وهذه التسمية لا تساعد على تعيين هذا النوع بالذات من بين المنسوجات الزخرفية ، ذلك ان الزخارف القائمة بالمنسوجات عدا المطرزة ، والمطبوعة (٢) والمرسومة (٣) كلها منسوجة ، وان تباينت واختلفت بعضها عن بعض من حيث المظهر وطريقة الأداء . والا فيماذا تسمى الزخرفة الموجودة بأقمشة الدمشقى (٤) والديباج (٥) مثلا ؟ أليست الزخرفة الموجودة بهذه الأقمشة أيضا زخرفة منسوجة ؟ أما نسيج القباطى فيمتاز بأن زخارفه تتكون من لحامات غير ممتدة فى عرض المنسوج وغير متقطعة .

واذا تتبعنا نشأة هذا النوع من الزخارف النسجية يتبين لنا أنه وجد فى مصر منذ العصر الفرعونى واستمر خلال عصرها التاريخى دون انقطاع وفى تطور مستمر الى العصر القبطى والاسلامى وعلى ذلك يمكننا القول بأن نسيج القباطى مصرى النشأة والفكرة والوسيلة .

ونحن اذ نقف أمام هذا العدد الكبير من أنواع المنسوجات المصرية القديمة، وبخاصة نسيج القباطى ، سواء الفرعونية منها أو القبطية أو الاسلامية ، نتساءل هل كانت لها مسميات تميزها بعضها عن البعض ، كما نتساءل عن السر فى استعمال اسم أجنبى Tapestry لها وهى فرعونية قبطية اسلامية الأصل .

فاذا لجأنا الى كتب التاريخ واللغة للبحث عن أسماء عربية للمنسوجات المصرية ومميزاتها والأغراض التى استعملت فيها ، وجدنا بها مسميات لها منسوبة الى المراكز التى اشتهرت بنسجها ، كالشطوى نسبة الى مدينة شطا والتينيسى نسبة الى مدينة تينيس والديبقي نسبة الى ديبق والطرز الصعيدية (١) نسبة الى الصعيد . وفى تفسيرها نقول بأنها أقمشة مصنوعة من الكتان أو الصوف أو الحرير أو خليط منها كالحنيفى وهو ثوب غليظ من الكتان والشرب وهو ثوب رقيق من الكتان والقسى (٢) وهى قماش من الكتان المخطط بإبرسيم، والسندسى وهو ضرب رقيق من الديباج وغير ذلك كالمعلم (٣) والمخطط والمهلل والمطير ، والمخيل والمطوس ، أى ما كانت نقوشه أو زخارفه فيها رسم الأهلة والطيور والخيول والطواويس (٤) .

ويصف ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١) القباطى فيقول ، اذا دنا وقت موسم الحج كانت تكسى الكعبة بالقباطى ، وهو ديباج أبيض خراسانى (٢) .

« وإذا حل يوم النحر كسى البيت بالديباج الأحمر الخراساني وفيه دارات مكتوب فيها حمدا لله وتسييحه وتكبيره وتعظيمه » .

من الوصف المتقدم نتبين ان كسوة الكعبة المعروفة بالقباطى كانت منسوجة من الكتان المبيض وبها زخارف كتابية على شكل دوائر ، ولما كانت الطريقة الفنية المتبعة فى الزخرفة المنسوجة فى العصر القبطى والتي برع فيها القبط واشتهروا بها هى طريقة اللحامات غير الممتدة واذن فلا بد أن تكون القباطى قد زخرفت بهذه الطريقة .

وإذا لوحظ ان نسيج القباطى قد امتاز عن المنسوجات الأخرى التى عاصرتة بشرف الاهداء الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى العصر القبطى ، ثم بشرف استعماله كسوة للكعبة فى العصر الاسلامى وقبله ، كان لنا أن نعتقد أنه من تلك المنسوجات الممتازة ، اذ ليس من المعقول أن نقدم هدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المقوقس عظيم القبط وقتئذ وليس لها من القيمة الفنية والقدر العالى ما يناسب مقام المهدي اليه والمهدى .

مما تقدم يتضح لنا أن استعمال لفظ قباطى لم يكن يعنى اسم طائفة بعينها ، ولكنه يعنى طريقة فنية تطبيقية اشتهر بانتاجها القبط من قبل دخول الاسلام وبرعوا فيها فأصبح اسمهم يطلق عليها سواء أكان صانعا قبطيا أم مسلما ، وظل هذا الاسم مستعملا طوال الفترة التى سادت فيها هذه الطريقة الفنية فى زخرفة المنسوجات الى آخر العصر الفاطمى . ولما ظهرت طرق فنية أخرى غير هذه الطريقة اختفى لفظ قباطى ، وبدأنا نسمع فى اللغات الأوروبية فى العصور الوسطى كلمات أخرى للدلالة على أنواع من الأقمشة مثل الدمشقى نسبة الى دمشق وموسلين نسبة الى الموصل (٢) .

وهذه الكلمات لا تعنى هى الأخرى وطنا أو جنسا لذاته انما تعنى طريقة فنية اشتهرت بصنعها مدينتا دمشق والموصل فأصبحت تعرف باسميهما .

كما أننا نجد نسيجا أطلق عليه اسم شخص اشتهر بصنعه وهو الجوبلان (٣) ، فقد كانت زخارف الجوبلان منسوجة بطريقة القباطى وهى التى استعملها الأقباط من قبل . حقا انه لم يكن مخترعا لها ولكنه أحيها بعد أن طغت عليها الطرق الآلية وكادت تندثر ، فحق له ان يطلق اسمه على هذه الطريقة . كذلك نجد قماشاً (بالأبيسون) (١) نسبة الى مدينة أوبيسون بفرنسا زخارفه منسوجة بطريقة القباطى أيضا .

نخلص مما تقدم ان كلمة القباطى ما هى الا الاسم العربى الصحيح
للمنسوجات المزخرفة ذات اللحامات غير الممتدة ، وهى الترجمة المختصرة
لكلمة • Tapestry

النسيج الفاطمى

من المعروف ان خلفاء الدولة الفاطمية قد أولوا النسيج الكثير من اهتمامهم
حيث كانت وظيفة « الطراز » لا يتولاها الا كبار الموظفين المقربين من الخليفة •
ولعل خير شاهد على ما وصلت اليه المنسوجات من تطور وازدهار فى العصر
الفاطمى ، ما ذكره الرحالة ناصر خسرو عند زيارته لمصر فى القرن الخامس
الهجرى (سنة ١٠٤٠ م) ، فقد أعجب بمنسوجات الوجه البحرى الكتانية
وخاصة منتجات شطا وتنيس وخص بالذكر منها نوعا من النسيج الذى تصنع
منه ملابس النساء كان يعرف باسم القصب • فقال « ان مثل هذا القصب
الجميل لا يصنع فى أى مكان آخر وانه سمع أن أمير مقاطعة فارس فى ايران
أرسل عشرين ألف دينار الى تنيس ليشتري بها توبا من النسيج الملكى ، ولكن
وكلاءه أقاموا بمصر سنين عديدة دون أن يحصلوا على مطلبهم » • وكذلك
اشتهرت مراكز النسيج بشمال الدلتا بصناعة نوع من القماش يسمى
البوقلمون ، يتغير لونه باختلاف ساعات النهار •

أما من حيث الطرق الصناعية والتطبيقية التى صنعت بها منسوجات
العصر الفاطمى ، فلم تخرج عما كان سائدا فى مصر من قبل ونعنى بها طريقة
القباطى وطريقة اللحمة الزائدة وطريقة الزردخان وكذا المنسوجات المطرزة •
كذلك استمرت المواد الخام المستعملة قبل العصر الفاطمى هى المستعملة فى
المنسوجات الفاطمية وهى الكتان والصوف والحرير • الا أن ترتيب هذه المواد
الخام قد تغير من حيث الأهمية فقد أصبح الحرير يلعب الدور الأول والرئيسى
بالنسبة للنسيج فى آخر العصر الفاطمى ، اذ لم يقتصر على خيوط اللحمة الملونة
بل استعمل كذلك فى خيوط السدى وأصبحت القطعة كلها منسوجة من
الحرير وخاصة فى أواخر العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى •

أما من حيث الأسلوب الزخرفى فقد حدث تطور كبير فيها ، فقد أخذت
الأشرطة الزخرفية والأشرطة الكتابية المصاحبة تزداد شيئا فشيئا حتى أصبحت
تملأ النسيج كله • وقد قسم علماء الآثار زخارف النسيج الفاطمى تبعا لتعدد
الأشرطة الى أربعة أقسام تمثل العصور الرئيسية فى حكم الدولة الفاطمية وبرغم
اننا لم نجد تاريخها على قطع قليلة جدا من القطع التى اتفق العلماء على تقسيمها

تبعا لعصور خلفاء بعينهم ، الا أننى لا أجد بأسا من الأخذ به حيث انه يمثل تطورا مستمرا يبدأ منذ بداية الدولة الفاطمية ويوصل الى نهاية التطور فى آخرها ، كما ان ذلك يتفق مع وفرة وجودة مادة الحرير فى القرن السادس الهجرى ، هذا فضلا عن تطور الخط الذى أصبح قريبا من الخط النسخ ذى الاستدارة الذى وجد مصاحبا للأشرطة الزخرفية فى القطع التى نسبت الى القرن السادس الهجرى .

النسيج الاسلامى فى صقلية

لقد اتفق علماء الآثار على ضم المنسوجات المصنوعة فى صقلية الى النسيج الفاطمى ، وذلك لخضوع جزيرة صقلية للفواطم مدة قرنين من الزمان . وقد ظلت صناعة النسيج مزدهرة حتى بعد انقضاء الحكم الفاطمى من الجزيرة ، وذلك خلال حكم النورماندين الذين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على النسيج العرب الذين مارسوا نفس النظم الادارية والفنية والتطبيقية التى كانوا يمارسونها أثناء الحكم الاسلامى للجزيرة . وقد أشار بن جبير عند زيارته للجزيرة الى فتى من فتیان الطراز ممن يطرزون بالخيوط المعدنية وخاصة الذهب فى المصانع الملكية .

على اننا اذا درسنا نسيج صقلية من الناحية الصناعية ، نجد انها تختلف اختلافا بينا فبينما نجد الطريقة التطبيقية التى اتبعت فى النسيج الفاطمى هى طريقة القباطى Tapestry فى معظم الأحيان نجد ان الطرق التى اتبعت فى نسيج صقلية هى طريقة المنسوجات المركبة ، وخاصة نسيج الديباج .

أما من الناحية الزخرفية . فهو يختلف كذلك مع زخارف النسيج الفاطمى الذى يمتاز بحصر زخارفه فى أشرطة عرضية تعدد فى الثوب أو تملأ الثوب كله .

أما زخارف نسيج صقلية فيحتوى على موضوعات زخرفية ذات صلة وثيقة بالزخارف البيزنطية المعاصرة ، ولا غرو فى ذلك فقد كانت قبل خضوعها للحكام المسلمين فى القرن الثالث الهجرى ، تتبع الطراز الرومانى . هذا فضلا عن مجيء نساجين يونانيين من الذين أسرههم روجر الثانى فى احدى الغارات البحرية فى بحر الأرخبيل سنة ٥٤١ هـ (سنة ١١٤٧ م) والحقهم بمصانع النسيج فى القصر الملكى ، ولكن يجب ألا ننسى ان جميع المنسوجات المصنوعة فى صقلية مهما اختلفت طرقها التطبيقية وكذا العناصر الزخرفية عن النسيج الفاطمى ، الا أنها احتوت على عبارات كتابية بالخط الكوفى بأسلوب الخط الفاطمى الذى انتشر فى القرن الخامس الهجرى .

النسيج فى العصر الأيوبي والمملوكي

لقد اجتاحت الفنون الإسلامية عامة وفن النسيج بصفة خاصة ثورة فنية وسياسية واقتصادية عارمة قضت على كثير من الطرز الفنية والتطبيقية بل والمواد الخام التي كانت سائدة من قبل . فإذا ناقشنا الأسباب السياسية التي أدت الى تغير جوهرى فى فن النسيج ، نجد أنه بسقوط الدولة الفاطمية فى مصر والعباسية فى بغداد ، قضى تماما على شريط الطراز الذى كان يحتم على النسيج والمزخرف أن يضمه للثوب ، إذ أنه شارة من شارات الخلافة . ولما كان شريط الطراز يحتوى على كتابة عربية لا يمكن أن تكتب الا فى وضع مستعرض ، استتبع ذلك ان تكون الزخارف المصاحبة لشريط الطراز كذلك فى وضع مستعرض والا أصبح المنظر نشازا .

فلما اختفى شريط الطراز وجد النسيج والمزخرف نفسه حرا طليقا يستطيع ان يرسم عناصره الزخرفية فى أى وضع يشاء ، ولم يعد مضطرا لوضعها فى أشرطة عريضة . وإذا أضفنا الى ذلك الغزو المغولى والطرز المتعددة التي وفدت مع الأيوبيين الأكراد الأصل والمماليك ذى الأصول والجنسيات المتعددة من شرق آسيا ووسطها ومن روسيا وأوروبا ، كل ذلك أثرى العناصر الزخرفية والموضوعات التصويرية ، كما أثر تأثيرا كبيرا على الأسلوب الفنى ، الذى أصبح يميل الى القرب من الطبيعة وابتعد عن الأسلوب التجريدى التقليدى الذى نشأ بنشأة سمراء .

أما من الناحية التطبيقية ، فقد ظهرت طرق صناعية جديدة نافست طريقة القباطى التي ظلت سائدة فى مصر منذ العصر الفرعونى وحتى نهاية العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، وهى طريقة المنسوجات المركبة . الديباج والدمقس . أما عن تاريخ وطريقة صناعة وتطبيق هذه الطرق فقد فصلناها فى النسيج الايرانى ، كما سيجىء فى الباب الثانى .

كذلك صاحبت الطرق الصناعية تغييرا فى المواد الخام ، فالمنسوجات المركبة يلائمها خيوط الحرير الرفيعة خاصة بعد أن أصبحت تجارة الشرق الأقصى تنتهى فى مصر وبذلك كثر الوارد من الحرير ورخص ثمنه . كما ورد على مصر المنسوجات القطنية من الهند ومن اليمن وخاصة سحولى التي استخدمت فى العصر المملوكى للتطريز بالخيوط الحريرية والمعدنية . كما استخدم النسيج القطنى فى المنسوجات المصبوغة والمطبوخة التي كثر انتشارها فى العصر المملوكى .

النسيج الاسلامى فى ايران

لقد تقدم فن النسيج فى ايران تقدما محسوسا منذ مجيء الدولة الساسانية ، وقد شهد بذلك امبراطور الصين (Hawn Tsang) عندما رحل الى الحدود الشرقية للدولة الساسانية فى القرن السابع الميلادى ، فقد استرعى انتباهه براعة نساغى الفرس ، ليس فقط فى صناعة الحرير المزركش بخيوط من الذهب والفضة وهو النسيج الذى عرف باسم الديباج ، بل فى صناعة المنسوجات الصوفية أيضا .

كذلك تحدثنا المراجع التاريخية انه عندما هجم امبراطور الروم هرقل على فارس سنة ٦٢٧ م واستولى على قصر (Dastajard) عثر على كميات كبيرة من الحرير الخام والحرير المنسوج ، كما وجد عددا كبيرا من السجاد المصنوع من الحرير ، أما ملابس الملوك والأمراء فكانت منسوجة من الحرير ومطرزة بخيوط من الذهب والفضة ومرصعة بالأحجار الكريمة على اختلاف أنواعها وألوانها كما كانت أعلام الماوك غاية فى الدقة والجمال .

وقد كتب المؤرخ أحمد بن عزام الكوفى فى أوائل القرن العاشر الميلادى .
يصف مقتل الملك يزد جرد آخر ملوك الدولة الساسانية ، وأشار الى ملابسه ، فقال انها كانت من الصوف ومشغولة بخيوط الذهب والفضة .

وكذلك ذكر مؤرخو العرب فى القرن العاشر الميلادى ان مدينة سوس وشاهبور وبسنا كانت مراكز لصناعة النسيج فى العصر الساسانى ، كما قالوا ان هذه الصناعات نشأت هناك بعد أن نقل اليها عدد من نساغى انطاكية ، ولكن ليس معنى هذا ان الحرير فى فارس بدأت فقط عند مجيء الصناع الأجانب ، فان ايران استفادت حقا من فتوحاتها وجلب أمهر الصناع اليها ، لا لتنشئ صناعة جديدة بل لتطوير صناعتها المحلية بادخال عناصر وأساليب جديدة .

ويحتمل أن تكون صناعة الحرير نشأت فى ايران فى عهد Gilan
أما الطريقة التى اتبعت فى نسيج الحرير فهى الطريقة التى تعزم اليوم باسم النسيج المبطن من اللحمه Doublefaced fabrics وزخارفه تشبه الزخارف المنقوشة على الحجر فى طاق بستان ، وكذلك الزخارف المحفورة على المعادن ، وهى تتكون من خامات ودوائر تحصر بينها زخارف نباتية محورة وحيوانات وطيور ، وفى بعض الأحيان نجد الزخارف محصورة فى أطباق نجمية أو فى اشربة عرضية .

وفد تدهور فن النسيج في إيران في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، فقد كان لسقوط الدولة العباسية واستيلاء المغول على البلاد أثر سيء على صناعة النسيج ، اذ قضى على كثير من مراكز النسيج ، ففي منطقة خوزستان فقدت مدينة سوس أهميتها الى الأبد وان كانت وعلى الرغم مما فعله المغول من تخريب وتدمير للبلاد ولمراكز الصناعة والحرف في إيران فانه مما لا شك فيه انهم اضافوا الى الفن الشيء الكثير ، وخاصة الى فن التصوير وفن النسيج من الناحيتين الزخرفية والتطبيقية ، أما بالنسبة للزخارف فاننا نرى ذلك واضحا في صور المخطوطات ليس فقط في ملابس الأشخاص بل في الستور والفرش كذلك .

وفي العصر التيموري انتقل المركز السياسي والحضاري الى شرق إيران ، الى سمرقند وهرات بصفة خاصة . ولما كانت سمرقند وخراسان مركزين هامين لصناعة النسيج في العصر المغولي ، فقد أصبحتا في العصر التيموري أهم مراكز صناعة النسيج على الإطلاق . فقد ذكر لنا الرحالة الا (vincezia D'Alexandria) الذي زار إيران في القرن الخامس عشر ، انها كانت تنتج أنواعا متعددة من المنسوجات الحريرية منها الدمقس والمخمل الذي يعتبر حديثا جديدا في صناعة المنسوجات الإيرانية . أما مصانع سمرقند الملكية فكانت تنتج نوعا من الحرير عرف باسم زيتوني (Zaytuni) ونوع آخر عرف باسم كمكاس (Kimkhas) ونسيج الكريب والتفتاة وترسنالز . (Tercenal)

واستمرت صناعة النسيج في العصر الصفوي تشغل المرتبة الأولى بين الحرف والصناعات الأخرى ، فقد كان النسيج الى جانب استعماله في اللباس وفي الاهداء كخلع قد استعمل كذلك في العصر الصفوي ككسوة للحوائط والجدران ، كما اتخذ كستور تفصل بين الحجرات ، وفي هذه الحالة تقوم مقام الأبواب .

أما عن مراكز الصناعة في العصر الصفوي فقد انتقلت من الشرق الى الوسط فانتقل أولا الى تبريز ثم الى قزوین ثم الى اصفهان التي أصبحت المركز الأول للحضارة في العصر الصفوي .

ومما يسترعى الانتباه في منسوجات العصر الصفوي ظهور أسماء رسامي النسيج وخاصة في عصر الشاه عباس الأول والثاني ، مما يدل على مبلغ ما وصل اليه هؤلاء الرسامون من الأهمية لمكانتهم الفنية في ذلك العصر ، ومن هؤلاء المصورن وأشهرهم غياث الدين علي النقشبند ، ومعنى كلمة (نقشبند) نساج لأقمشة ذات الزخارف الآدمية . نشأ في مدينة يزد وبلغ من الشهرة والأهمية

حتى أصبح من فناني الشاه عباس ، وكان جده الخطاط المشهور كمال الدين .
وقد ذاع صيته كمصور للمنسوجات المزخرفة (نقشبند) خارج حدود بلده
فان السلطان أكبر امبراطور الهند تقبل هدية دبلوماسية من الشاه عباس مكونة
من (٣٠٠) قطعة من النسيج منها (٥٠) من صناعة غياث الدين . كما ان
ملوك الهند والترك كانوا يخطبون ود غياث الدين لكي يحصلوا على بعض انتاجه .
وقد ظهر غياث الدين في أواخر القرن السادس عشر وربما امتد الى أوائل
القرن السابع عشر .

النسيج الاسلامي في تركيا

يعتبر النسيج التركي امتدادا للنسيج الاسلامي في آسيا الصغرى وفي
البلاد التي خضعت للدولة العثمانية في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية في القرن
السادس عشر للميلاد . وعلى ذلك نستطيع القول بأن منسوجات الطراز العثماني
كانت كلها من المنسوجات المركبة كالديباج والدمقس والمنسوجات الوبرية
كالقطيفة والمحمل (لوحة ٠٠٠) .

أما عن زخارف منسوجات الطراز العثماني فهي تشبه زخارف التركي
المعاصرة وكذا السجاد التركي . وقوامها في معظم الأحيان الرسوم النباتية
القريبة من الطبيعة ومن عنصر الزهرة المركبة (compound flower) والورقة
المركبة التي تعرف باسم (Saz) .

وقد انتشر في القرنين السابع عشر والثامن عشر نوع من النسيج التركي
المصنوع من الحرير بطريقة الديباج أو الدمقس تقتصر زخارفه على أشرطة كتابية
أفقية متعرجة ، كانت تصنع لكسوة الكعبة أو ستور للقبور والأضرحة . وتشمل
الكتابات على آيات قرآنية وعلى الدعاء للرسل صلوات الله عليه وأسماء الخلفاء
الراشدين مثل « الله ربي ولا سواه محمد حبيب الله » (لوحة ٠٠٠) .

كما انشر في العصر العثماني المنسوجات المطرزة بكثرة ، وكانت زخارفها
تشبه الى حد كبير العناصر الزخرفية والموضوعات التصويرية التي وجدت في
منسوجات الديباج والقطيفة . أما عن طريقة التطريز والغرز المستعملة فقد
تناولناه في شيء من التفصيل في النسيج الإيراني .

النسيج الاسلامى فى الهند

لقد كانت للهند شهرة واسعة فى صناعة المنسوجات منذ أقدم العصور ، ومن ثم فقد كان طبيعيا أن تزدهر هذه الصناعة فى العصر الاسلامى . فقد ذاعت شهرة الهند فى المنسوجات القطنية الدقيقة ، التى شجعها أباطرة المغول فى العصر الاسلامى فى الهند وفرضوا عليها رقابة حكومية على نحو ما عرف فى سائر بلاد العالم الاسلامى كما اشتهرت المنسوجات القطنية المطبوعة والمصبوغة بالهند وكذا المنسوجات القطنية .

وكان الديباج الهندى غنيا بما يحتويه من خيوط معدنية من الذهب والفضة وبما رصع من الأحجار الكريمة والشبه كريمة . وكانت لاهور وبنارس وأحمد آباد وأورنجباد من أشهر مراكز صناعة الديباج بالهند .

أما عن زخارف المنسوجات الهندية فقوامها الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة الى حد كبير . وتعتبر شيلان الكشمير ذات الزخارف المنسوجة والمطرزة أحسن مثل لزخارف المنسوجات الهندية فى القرن (١٨ م) .

النسيج الاسلامى فى الأندلس وشمال أفريقيا

لقد انتشرت فى الأندلس صناعة المنسوجات منذ دخلها العرب وبلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار فى خلافة الأمويين فى المغرب ، فقد عثر على قطعة من الحرير منسوجة بطريقة القباطى وبها شريط طراز مما يقطع بوجود نظام مصانع الطراز بالأندلس . وقد أشار الى ذلك الأدريسى ، أنه كان يوجد فى عصر المرابطين ثمانمائة طراز ، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجاني ، وكذا الستور المكلفة بالذهب والأحجار الكريمة والثياب المعينة والحمر (جمع خمار) العتابى والمعاجر وصنوف المنسوجات الحريرية المزركشة . وتحتوى القطعة الى جانب شريط الطراز على شريط زخرفى قوام زخرفته جامات تضم رسوم آدمية وحيوانية ونباتية .

وقد رسمت هذه الزخارف بأسلوب يشبه الى حد كبير الأسلوب القبطى المتطور الذى وجد فى مصر فى القرن الثالث الهجرى فى صعيد مصر وخاصة أسلوب قيس والبهنسا . أما شريط الطراز فان خطه يشبه أسلوب الخط الكوفى الفاطمى فى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى ونص شريط

الطراز كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله واليمن والدوام للخليفة
الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » . وقد حكم الخليفة هشام
الأندلس بين عامي (٣٦٦ هـ / ٣٩٠ هـ) (٩٧٦ / ١٠٠٩ م) . وقد أدى التشابه
الكبير بين هذه القطعة وبين النسيج المصري في القرن الرابع للهجرة وخاصة
الطراز القبطي . بالكثير من علماء الآثار الى القول بأن هذه القطعة وأمثالها صنعت
بمصر . ولكن الذي نرجحه في هذا الأمر هو أن مصانع الطراز بالأندلس قد
استقدمت نساجين من مصر للعمل بها .

وفي القرنين السادس والسابع للهجرة انتجت الأندلس أنواعا من
المنسوجات الحريرية المركبة من الديباج والدمقس تشبه من ناحية الأسلوب
الزخرفي منسوجات صقلية المعاصرة وكذا النسيج البيزنطي مع احتوائها على
كتابات عربية مكونة من عبارات دعائية مثل « البقاء لله » .

وفي القرن الثامن والتاسع للهجرة ، أخرجت مصانع الأندلس نوعا من
المنسوجات تشبه زخارفها رسوم الزخارف الموجودة بقصر الحمراء ، ومن ثم فقد
نسبوه الى طراز هذا القصر . وقوام زخارف هذا النسيج أطباق نجمية تشبه
تلك الموجودة في الخشب . وكذا أشرطة متداخلة وجدائل وأشكال هندسية
متعددة . وقد احتوى هذا النسيج على أشرطة من الكتابة بالخط الكوفي
ذي الحروف المتشابكة والخط النسخي المغربي .

ثانيا - الخزف الاسلامى

لعل أكثر ما وصل إلينا من الخزف الاسلامى هو الأوانى الخزفية . فقد كان إنتاجها عظيما فى العالم الاسلامى . وقد امتاز الخزف الاسلامى بتنوع انتاجه وأشكاله وطرق صناعته وزخرفته . كذلك برع صناع الخزف فى طلائه بالدهانات المعددة مما يدل على مهارتهم فى معرفة خواص الألوان وتركيبها الكيمائى ودرجات الحرارة التى تتناسب . وكيمائية كل لون . وكانت الأساليب الفنية فى صناعة الخزف تنتشر بسرعة عظيمة فى شتى أنحاء العالم الاسلامى . فقد عمر فى حفاثر مصر وايران والعراق والشام وشمال أفريقيا والاندلس على كبر من الانواع المشتركة حتى انه أصبح من العسير فى كثير من الأحيان تمييز انتاج اقليم عن آخر اللهم الا للمتخصصين .

على أننا نستطيع تقسيم الخزف اعتمادا على التركيب الكيمائى الى قسمين رئيسيين هما :

الخزف والفخار :

الفخار : نوع من الخزف يؤخذ من طينة البيئة المحلية وتشكل منه الأوانى دون اضافة مواد أخرى اليه أو حذف شوائب حفارة بصناعة التخزيف منه ولعل الأسماء الأوروبية له . تحدد وصفه أكثر من العربية فهو يعرف بالانجليزية (earth-ware) وبالفرنسية (terre-cuite) وقد عثر فى ايران على مجموعة كبيرة من الأوانى الفخارية الكبيرة التى ترجع الى القرون الثلاثة الأولى للهجرة والننى يعتبر امتدادا لصناعة الفخار فى العصر الساسانى . وكانت هذه الأوانى تسعمل لحفظ الحبوب والسوائل . ولما كان الفخار يصنع من عجينة تؤخذ من طينة المنطقة دون اضافة أو حذف ، فهو اذن يصنع من طينة طبيعية .

طريقة الصناعة :

كانت معظم الأوانى الخزف السالف الإشارة إليها ذات شكل -بصلى (balbus) أو على شكل الكمثرى ومن ثم فانه يحتاج الى حامل يوضع عليه . وكانت القطع التى ترجع الى العصر الاسلامى معظمها غير مطلى ، وكانت تزخرف بطريقة القالب التى تتم قبل جفاف العجينة bescuit تماما ثم تحرق بعد ذلك فى الفرن ، وفيما يلى بيان بأنواع الزخارف المستعملة فى الخزف غير المطلى .

١ - طريقة الاضافة : **moulding** وتتم هذه الطريقة باضافة شريط رفيع جدا من عجينة الفخار على بدن الآنية قبل تمام جفافها ، فى أشكال زخرفية؛ هندسية أو نباتية أو حيوانية ثم تحرق فى الفرن ليتم تثبيتها .

٢ - طريقة الحز : **Inciside** وهى عبارة عن حز الزخرفة المطلوبة فى بدن الآنية بآلة رفيعة حادة فتحدث شقوقا ثم تحرق الآنية فتثبت تلك الحزوز .

٣ - طريقة البربوتين : **barbotine** وهى اضافة شريط رفيع مثل المضاف ، الا انه يتبت على بدن الآنية بواسطة الابهامين فيبرد طرفى الشريط على شكل انصاف دوائر صغيرة مما يكسبه شكلا زخرفيا جميلا .

٤ - رأس المسمار : **(rivet's hear)** وهو اضافة نقط صغيرة جدا من عجينة الفخار فتثبت وتبرد وكأنها زهرة بارزة ثم تحرق بعد ذلك .

الحزف : (Pottery) يصنع من عجينة تؤخذ من طينة البيئة المحلية ثم يستبعد منها الشوائب والمواد الضارة بصناعة الخزيف ثم يضاف اليها مواد أخرى مثل السيلكا (الرمل) والكاولين الأبيض اللون ، وهذه المواد تزيد فى صلابة الخزف وتكسبه اللون الأبيض الجميل . ومن ثم نستطيع القول بأن الفخار يصنع من طينة طبيعية أما الخزف فيصنع من طينة صناعية . وقد تعددت أنواع الخزف تبعا لأسلوبها الصناعى والزخرفى هذا بالاضافة الى تركيبها الكيمائى الى أنواع عدة فيما يلى بيانها .

١ - الخزف المرسوم تحت الطلاء **underglaze-Pottery** : عثر على معظم القطع التى وصلت إلينا من هذا النوع من الخزف والتى ترجع الى القرون الثلاثة الأولى للهجرة فى ايران وخاصة فى سوس وساوه والرى وقم ونيسابور . وكانت طريقة زخرفتها تتم بعد تشكيل الآنية وبعد جفافها ، فتطلى بطبقة من الطلاء الفاتح اللون ، الزبدى أو الأزرق الفاتح أو الأخضر النافض ويعرف هذا الطلاء باسم (البطانة **Slip**) . وبعد أن تجف طبقة البطانة ترسم عليها الزخارف المطلوبة ، التى كانت تتكون فى القرن الأول والثانى للهجرة من زخارف نباتية قريبة جدا من الطبيعة وذات لون واحد وعادة ما تكون مكررة ثلاث مرات قد يتوسطها دائرة أو بقعة كبيرة ، كانت لها دلالة دينية عند الفرس القدماء . أما فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث للهجرة ، فقد بدأ يلب التحوير فى الزخارف النباتية كما بدأت تظهر الكتابات العربية كعنصر زخرفى هام . . كانت معظم هذه الكتابات عبارة عن جمل دعائية تناسب المقام

مثل (كل هنيئاً واشرب مريئاً) أو (عمل صالح) أو (بركة من الله) أو (بركة كاملة) . وقد امتازت هذه الأواني باحتواء معظمها على شريط يحيط بدائرة الصحن مكون من أنصاف مراوح نخيلية (Split palmette) صغيرة أو قطاعات من الدائرة . أما باقى الصحن فيكاد يكون خالياً إلا من العنصر الكتابي أو الزهرة أو العنصر النباتي .

وبعد رسم الزخارف على طبقة البطانة تطلّى الأنية بطبقة شفافة لا لون لها مما تكسب الأنية بريقاً يزيد في جمالها كما يحافظ في نفس الوقت على الرسوم من الزوال من أثر الاستعمال والغسل والماء . ومن هذه الطبقة الشفافة التي عرفت باسم الطلاء والتي جاءت الرسوم تحته أخذ هذا النوع من الخزف اسمه .

وقد كثر استعمال هذا النوع من الخزف في باقى أجزاء العالم الإسلامى . وخاصة في القرن السادس للهجرة ، فقد بدأ استعماله في مصر في آخر العصر الفاطمى كما استعمل في العصر الأيوبي والمملوكي في مصر والشام . إلا أن إيران ظلت هي صاحبة السيادة في هذا النوع من الخزف ، حتى أن بعض أقاليمها (سلطنباد) صارت لها شهرة كبيرة في صناعته وأصبحت مراكز التخزين الأخرى تقلده ومنها مصر في العصر المملوكي فقد كانت تنتج نوعاً من الخزف المرسوم تحت الطلاء يعرف باسم (تقليد سلطنباد) (So-called Sultanabad) . وقد ظل هذا النوع من الخزف يصنع في إيران حتى آخر العصر الصفوي في القرن الثاني عشر للهجرة .

على أن الخزف المرسوم تحت الطلاء الذي انتشر في العالم الإسلامى منذ القرن السادس الهجرى لم تكن زخارف قاصرة على لون واحد كما هو الحال بالنسبة لخزف القرون الثلاثة الأولى ، بل تعددت ألوانه . كما أن زخارفه دبت فيها الحياة وتأثرت إلى حد ما بالأسلوب الصينى الذى جاء مع الغزو المغولى . كما تعدد عناصره الزخرفية فظهرت الرسوم الحيوانية والطيور والآدمية على قلة .

٢ - خزف ذو بريق معدنى (Luster Pottery) : ولعل من أهم أنواع الخزف الإسلامى الذى انفرد به الفن الإسلامى دون غيره من فنون العالم القديم والحديث ، هو البريق المعدنى . فقد استطاع الخزاف المسلم استعمال أكاسيد معدنية مذابة في محاليل معينة تكسب الخزف بعد طلائه بها وحرقها بريقاً معدنياً يختلف لونه بين الأصفر الذهبى والأحمر النحاسى والأصفر الضارب

الى الخصرة ، واختصت مدينة سامراء باللون الارجواني واللون البفسجى .
ولم يظهر هذا الطلاء المعدنى على الخزف الاسلامى الا فى القرن الثالث واستمر
فى ايران والأندلس الى القرن الثانى عشر للهجرة .

وقد أقبل المسلمون فى جميع أنحاء العالم الاسلامى على الخزف ذى البريق
المعدنى اقبالا شديدا مما جعل مؤرخو الفنون يفسرون سر هذا الانتشار ، بأنه
أغنى المسلمين عن الأواني الذهبية والفضية التى كان الفقهاء فى الاسلام يكرهون
استعمالها لما يدل عليه من ترف واسراف . كذلك اختلف علماء الآثار فى تحديد
الموطن الأول لصناعة هذا النوع من الخزف، ذلك انهم عثروا عليه فى حفائر ايران
والعراق ومصر وتونس وقلعة بنى حماد ومدينة الزهراء بالأندلس . فنسبه
الفرنسيون الى ايران ونسبه الألمان الى العراق ونسبه الانجليز الى مصر وأدلى
كل منهم بحججه واسانيده المنطقية المقبولة الأمريكية فى منطقة الفسطاط ١٩٦٩
وعثرت على آنية زجاجية كاملة مرسومة عليها بمادة البريق المعدنى وثابتة التاريخ
فقد ورد عليها اسم والى مصر من قبل الدولة العباسية سنة ١٥٥ هـ ، وهى
بذلك أقدم قطعة على بريق معدنى ظهرت حتى الآن . اما عن زخارف البريق
المعدنى فقد كانت فى القرن الثالث الهجرى تكاد تكون قاصرة على زخارف نباتية
محورة بأسلوب سامراء وغير متقنة قد ملئت بتشبهيرات هندسية وبنقط مطموسة
وفروع نباتية ملتوية منتظمة فى معظم الأحيان ، مما يدل ان أهم الخراف الأول
هو ملء الفراغ بهذه المادة التى تعطى بريق المعدن والذى هو سعيد باستخدامها .
وفى نهاية القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع بدأت الرسوم الآدمية
والحيوانية فى الخزف ذى البريق المعدنى صناعة ايران ، الا ان الرسوم الآدمية
كانت مرسومة بأسلوب تجريدى تعبيرى بحث لمجرد الرمز ، بينما كانت الرسوم
الحيوانية قريبة الى الطبيعة الى حد كبير ومعبرة عن الحركة . والسبب فى ذلك
ان الفنان الفارسى كان ما يزال يحتفظ ببعض التقاليد التى كان على الفنان
اتباعها فى العصر الفارسى ، وهو التعبير عن الشخصيات الآدمية لمجرد الرمز ،
لانه يرمز فى ذلك الى الملك أو الشاه ، ولما كان الملك فى الديانة الزرادشتية ظل
الاله على الأرض فان التطلع الى وجهه يعتبر جريمة يستحق من يقتربها الاعدام ،
وعلى ذلك فان مجرد الرمز يكفى . أما بالنسبة للرسوم الحيوانية فقد كان للفنان
مطلق الحرية فى أن يؤديها كما يريد . وكان باقى الآنية وحول الرسوم الحيوانية
والآدمية فقد كان يملأ بنقط منتظمة تغطى الاناء كله ، وكثيرا ما يكتب بين هذه
النقط بعض الجمل الدعائية باللغة العربية .

قد ظهرت الرسوم الآدمية والحيوانية فى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن
الخامس الهجرى فى الخزف ذى البريق المعدنى فى مصر وغيرها من أنحاء العالم

الاسلامى ، أى بعد ايران بقرن من الزمان تقريبا ذلك ان الدولة الفاطمية فى مصر ، وهى الشيعة المذهب رأت من الحكمة أن تعتمد على أهل مصر من الأقباط أسلم من اعتمادها على المصريين السنيين . ومن ثم فقد عمل أقباط مصر على احياء الفن القبطى الذى كان سائدا قبل الاسلام ما دامت أمور الدولة كائنة فى أيديهم من وزارة وامارة وغير ذلك .

الا أن الرسوم الآدمية والحيوانية فى البريق المعدنى الفاطمى كانت تختلف اختلافا بينا عن تلك التى رسمت فى خزف ايران ، فالرسوم الفاطمية كانت السمة فيها قريية من الرسوم القبطية ذات ملامح حوض البحر المتوسط ذات العيون اللوزية والحواجب الغليظة المقرونة والأنف الدقيق وما الى ذلك من ملامح . أما الجلسة والملابس فتكاد تكون مشابهة فى كليهما فقد كانت مصر متأثرة فيها بالزى العباسى . كذلك امتاز الخزف الفاطمى ببعض عناصر محلية كرسم القسس والرهبان وبعض الشارات المسيحية مثل الصليب ذى العروة الذى يشبه علامة (عنخ) . كذلك كثر استعمال بعض شارات لها دلالات فارسية قديمة كان تحيط بالانسان أو الحيوان عصاة طائرة ، دلالة على أن هذه الشخصية أو ذلك الحيوان يخص الملك كأنها اشارة ملكية . كما كثر استعمال ورقة نباتية ذات خمسة فصوص يتوسطها عروة . وكثيرا ما نجد رسوم الحيوان أو الطائر وقد تدلى من فمه ورقة نباتية كناية عن الفأل الحسن .

وفى نهاية العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى اختفى الخزف ذو البريق المعدنى من مصر ولم يظهر بعد ذلك ، ويرجع علماء الآثار السبب فى ذلك الى اعتبارات عدة ، أولها طريق مدينة الفسطاط خشية استيلاء الصليبيين عليها ، وقد كانت الفسطاط مكان تجمع مصانع التخزيف فى مصر . ثانيا ضعف الدولة اقتصاديا مما أدى الى ضعف القوة الشرائية لهذا النوع من الخزف الغالى الثمن الذى وصل ثمن القطعة الواحدة منه بضعة دنانير . ولو أضفنا الى ما تقدم ، هجرة كثير من صناع المعادن المكففة من ايران والعراق خوفا من الغزو المغولى ومنافسة الأوانى المعدنية المكففة بالفضة والذهب والتى لا يعلو ثمنها كثيرا عن الخزف المعدنى لعرفنا السبب .

أما فى ايران فقد استمر الخزف ذو البريق المعدنى فى تطور دون انقطاع حتى نهاية العصر الصفوى فى القرن الثانى عشر للهجرة . كذلك تطورت زخارفه فى القرن السادس الهجرى بحيث أصبحت تشبه مدرسة التصوير السلجوقى وفى القرن السابع والثامن والتاسع التصوير المغولى والتمورى . أما فى العصر الصفوى فقد اقتصرت رسوم البريق المعدنى على الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة الى حد كبير والمتأثرة بالأسلوب الصينى ، والتى تشبه الرسوم الموجودة على النسيج والسجاد الصفوى .

كذلك ظلت مصانع التخزين في شمال افريقيا والأندلس تنتج الخزف. ذا البريق المعدني حتى بعد زوال الدولة الإسلامية في الأندلس (سنة ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م) وذلك على يد المدجنين (Mudigar) وهم المسلمون الذين دخلوا في خدمة الدولة المسيحية بعد زوال دولة بني الأحمر . وقد اقتصر رسوم الخزف في الأندلس على الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة . كما استعمل اللون الأزرق مع مادة البريق . كذلك كثر استعمال الزخارف الهندسية البحتة وزخارف تشبه حروف الكتابة العربية محصورة في أشرطة عرضية ولكنها غير مقروءة ، وكثيرا ما نجد في وسط الآنية شارة الأسرة الحاكمة المسيحية .

ومن الأشكال النى أقبل الخزافون على زخرفتها بمادة البريق آنية للزهور على شكل جسم بصلي ورقبة ممتدة على شكل هرم ناقص مقلوب وهي النى عرفت باسم زهرية (الحمراء) نسبة الى قصر الحمراء الذي بناه بنو نصر أو (بنو الأحمر) في مدينة غرناطة بين عامي ٦٢٨/٨٩٧ هـ (١٢٣٢ - ١٤٩٢) .

٣ - الخزف الجبرى : ومن أعظم أنواع الخزف الإيراني في الفجر الإسلامي . الخزف الذى عرف في سوق العاديات باسم الخزف (الجبرى) نسبة الى طائفة من عبدة الشمس وجدت في شمال شرق ايران عرفت بالجبرية . وبرغم وجود هذا النوع من الخزف منذ القرن الأول للهجرة ، الا ان معظم ما عثر عليه حتى الآن يرجع الى القرنين الرابع والخامس فقط . ويكاد يكون هذا النوع من الخزف قاصرا على ايران .

أما طريقة صناعته فكانت فريدة في نوعها ، لان الخزاف يعتمد بعد أن يطلى الآنية بطبقة من البطانة (Slip) ذات اللون الفاتح ، يبدأ فى حز الرسوم المطلوبة حزا عميقا فى طبقة البطانة ، أما المساحات الخالية من الزخارف فانه يكشط طبقة البطانة من سطحها حتى يصل الى طبقة عجيبية الاناء الوردية اللون ، الأمر الذى يبدو معه وكان قد استعمل لونين الفاتح والأحمر . ثم تطفى الآنية بعد ذلك بطبقة من الطلاء الزجاجي الشفاف . وهناك طريقة ثانية أكثر تطورا من الأولى يرجعها علماء الآثار الى القرن الخامس الهجرى ، وهي التى يلجأ الخزاف فيها الى حز المساحات الخالية من الزخارف بدلا من كشطها فى الطريقة الأولى . والحزوز فى هذه الطريقة تكون على شكل خطوط وفروع حلزونية تملأ الفراغ كله .

أما عن زخارف الخزف الجبرى ، فهي أسلوب متميز عن غيره من أنواع الخزف الإسلامي فقد رسمت الزخارف الحيوانية بأسلوب تعبيرى رمزى بحت ، ولكن الفنان حرص فى نفس الوقت أن يظهر مميزات الحيوان التى ينفرد بها

بحيث تسهل تسميته رغم اختلال نسبه التشريحية الى أقصى حد . كما نجح الفنان في اظهار الحركة التي يؤديها رغم بعد رسمه عن الطبيعة . أما الرسوم البيانية فقد رسمها الفنان قريبة الى الطبيعة الى حد كبير .

٤ - الخزف المينائي : ومن أنواع الخزف الذي انفردت به ايران دون غيرها من باقى أقاليم العالم الاسلامى . الخزف المينائي الذى ينسب الى مدينة الري فى النصف الثانى من القرن السادس والقرن السابع الهجرى . فقد عثر على (سلطانية) فى أطلال مدينة الري من الخزف المينائي مؤرخة من سنة ٦٤٠ هـ محفوظة الآن فى متحف فكتوريا وألبرت بلندن وقد عرف هذا الخزف باسم (مينائي) وهى كلمة فارسية معناها تعدد الألوان . ذلك ان الخزاف عنى عناية خاصة باظهار الألوان الكثيرة والمتضاربة فى هذا الخزف ومن ثم فقد لجأ الى استعمال مادة قصديرية معتمدة فى طلاء بطانة الاناء وذلك حتى تظهر الألوان الأخرى بوضوح أما عن زخارف المينائي فهى مأخوذة من المناظر التصويرية الموجودة فى مدرسة التصوير السلجوقية المعاصرة . والتي تبدو فيها سحن الأشخاص ورسومهم ذات مسحة عربية واضحة .

٥ - الخزف اللقبى : ويعتبر خزف اللقبى من الخزف الذى اقتصت به ايران كذلك دون غيرها من أقاليم العالم الاسلامى . وقد انتشر هذا النوع من الخزف فى القرن السابع الهجرى فى العصر السلجوقى . وقد عرف الخزف بهذا الاسم لان الخزاف حرص على أن يسجل لقبه على ظهر الآنية فعرف فى أسواق التجارة بهذا الاسم . ويمتاز خزف اللقبى بأنه من الخزف المحزوز تحت الدهان ، الا انه انفرد بأن هذه الزخارف المحزوزة طليت بطلاءات متعددة الألوان . أما زخارف هذا النوع من الخزف فتمتاز بكثرة استعمال الرسوم الحيوانية القريبة من الطبيعة الى حد كبير وبحجم كبير يملأ الاناء كله كما انها تعبر عن حركة قوية ، الا أن مسحة واضحة من العظمة والكبرياء تبدو عليها .

٦ - الخزف المحزوز : انتشر فى القرن السادس للهجرة نوع من الخزف الجيد ذى اللون الواحد ، الذى يكون غالباً الأزرق أو الكحلى أو اللون الترجوازى . وقد حزت زخارف هذا الخزف فى بدن الآنية قبل طلائها باللون الأزرق بدرجاته أو الترجوازى بدرجاته . وقد انتشر هذا النوع من الخزف فى جميع أنحاء العالم الاسلامى وخاصة ايران والعراق ومصر . وقد اختلف الأسلوب الزخرفى فى اقليم من تلك الأقاليم ، فبينما يكثر رسم الحيوانات على خزف ايران نجده يكاد يكون قاصراً على الرسوم النباتية فى مصر فى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى .

٧ - الخزف المحفور حفرا بارزا والتماثيل الخزفية : وقد أنتجت ايران في القرن السابع الهجرى أنواعا من الخزف حفرت زخارفها حفرا بارزا في عجينة الاناء قبل طلائها بحيث أصبحت تلك الرسوم بارزة مجسمة. ثم طليت الآنية بعد ذلك بلون واحد غالبا ما يكون أزرق أو ترجوازي . كما صنعت ايران تماثيل خزفية ولكنها لا تدخل في باب النحت حيث انها أصبحت في قوالب . كما أن تلك التماثيل لم تكن هي المقصودة في ذاتها ، انما صنعت لوظيفة اما الاناء لوضع الزهور أو شمعدان أو إبريق للماء . أو كأس للشراب وما الى ذلك من الأغراض . أما عن فن النحت فليس له وجود في الفن الاسلامي اللهم الا اذا كان الغرض منها أداء وظيفة الى جانب الناحية الجمالية . وقد كانت معظم تلك التماثيل تمثل الحيوانات والطيور بأسلوب مصير وقريب من الطبيعة الى حد كبير . كما وجدت بعض تماثيل رسوم سيدات ترضعن أطفالهن ، ولهذا فقد قال عنها علماء الغرب انها ترمز الى السيدة مريم ترضع يسوع المسيح عليهما السلام ، وان كنت لا أتفق معهم ذلك لأن ايران لم تكن مسيحية في يوم من الأيام ، بل كانت تتبع مذهب ماني والزاردشتية قبل الاسلام .

٨ - الخزف المخرم : ولعل أجود أنواع الخزف الاسلامي من حيث المادة الخام ومن حيث الأسلوب التطبيقي الصناعتى ، هو الخزف المخرم . أما من حيث المادة الخام فانه يحتوى على كمية كبيرة من السليكا (الرمل) وكذا قدرا لا بأس به من مادة الكولين البيضاء ولذلك فان عجينة جيدة جدا مكنت الخزاف أن يحز فيها رسوما ثم يخرمها الى أن تنكسر أو تتشقق . وكان الخزاف يطلي الألوان بطبقة البطانة ذات اللون الأبيض أو الأزرق ثم يحز فوقها الرسوم المخرومة وبعد ذلك يطلي الاناء كله بالطبقة الزجاجية الشفافة فتملأ الثقوب والخروم التي صنعها الخزاف فتبدو وكأنها نوافذ زجاجية . ومما يحق ملاحظته فى هذا النوع من الخزف أن سمك الآنية رفيع جدا لا يتعدى ثلاثة ملليمترات كما ان زخارفه قليلة . وقد وجد هذا الخزف فى ايران فقط فى القرن السابع الهجرى .

٩ - بلاطات القاشاني الفسيفساء الخزفية : لقد عرفت البلاطات الخزفية باسم قاشاني نسبة الى مدينة قاشان التي أكثرت من استعمالها فى تكسية المباني وزخرفتها بهذه البلاطات من الداخل والخارج فغرف بها . وبلاطات القاشاني ليست قاصرة على اقليم معين أو نوع خاص من أنواع الخزف ولكنها شملت معظم الطرق الصناعية والأساليب الفنية السابق الإشارة اليها . فهناك مجموعة من بلاطات القاشاني ذى البريق المعدنى يبلغ عددها (١٣٩) التي تحيط بآطار حول مخراب مسجد القيروان ترجع الى القرن الثالث للهجرة .

وقد ظلت صناعة القاشاني مستعملة في العالم الاسلامي وخاصة ايران حتى القرن الثاني عشر للهجرة ، فقد كسيت جدران قصر (جهل ستون) الذي يرجع الى العصر الصفوي ببلاطات تحثل منظرا تصويريا يمثل مدرسة التصوير الصفوية ، وهذه البلاطات محفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك .

أما الفسيفساء الخزفية فتكاد تكون قاصرة على زخرفة المحاريب دون غيرها من العماثر ولذلك فان زخارفها كانت قاصرة على رسوم النباتات والزخارف الهندسية والأشرطة الكتابية ومعظمها آيات قرآنية .

١٠ - الخزف الأندلسي : كانت الأندلس صاحبة السبق في صناعة الخزف في غربى العالم الاسلامي ، فقد عثر في مدينة الزهراء على مقربة من قرطبة وفي قصر الحمراء بغرناطة على قطع من الخزف تثبت ان صناعة الخزف في الأندلس كانت على علاقة وثيقة بالمنتجات الخزفية فيما بين القرن الثالث حتى الثامن الهجرى وخاصة في الخزف ذي البريق المعدنى الذى سبق الإشارة اليه . ومن المراكز التى ذاعت شهرتها في صناعة الخزف في الأندلس قرية منيشبة Manises من أعمال بلنسية وفالقة قرب الساحل الشرقى .

وقد ازدهرت في الأندلس مراكز أخرى منذ القرن السابع وحتى التاسع بعد الهجرة واستمرت حتى بعد زوال الدولة الإسلامية تنتج أنواعا من الخزف المرسوم تحت الطلاء المتعدد الألوان ، إلا أن زخارفه كانت ذات طابع مسيحي وشعبى واضح ومن أهم هذه المراكز قرية باثرتا من أعمال بلنسية ، ولعل السبب فى ذلك ان بلنسية قد سقطت فى يد المسيحيين منذ سنة ٦٣٢ هـ ولكن الفنون والصناعات التطبيقية التى تحتاج الى مهارة فنية وكفاءة فى علم الكيمياء ظلت فى يد المسلمين الذين عرفوا باسم المدجنين (Mudigar) .

١١ - الخزف العثماني : لقد انفرد الخزف العثماني بأسلوب صناعى لم يسبق اليه وهو طريقة الرسم فوق الطلاء ، ذلك ان كل ما عرف عن الخزف الاسلامي كانت جميع رسومه المتعددة الألوان أو ذات اللون الواحد يأتى الطلاء الزجاجى الشفاف فوقها ومن ثم فقد عرفت باسم الخزف المرسوم تحت الطلاء . أما الخزف العثماني فقد انفرد برسم اللون الطماطمى فوق الطلاء وذلك لظاهرة كيميائية اختص به اللون الطماطمى ، الذى يعرف باسم (Ormenian bole) وهو مادة طبيعية تؤخذ من على ضفاف المنجارى المائية من هضبة الأناضول . ومن خواص هذه المادة انها تعطى بريقا اذا حرقت فى النار كما انها تنفض أى مادة زجاجية توضع فوقها ومن ثم فقد كان على الخزاف أن يرسمها بعد طلاء الآنية كلها بالطبقة الزجاجية الشفافة . ومن أهم مراكز الخزف فى تركيا مدينة بروسه عاصمة الدولة فى الجزء الأكبر من القرن الثامن الهجرى .

وقد لعبت بلاطات القاشاني في العصر العثماني دورا سياسيا هاما ، اذ كانت تصدر بصناعاتها الفرمانات السلطانية مبينا فيها العدد والشكل والزخارف ، وذلك ان معظم العمائر الدينية والمدنية كانت تكسى ببلاطات القاشاني . ولذلك كانت صناعة الخزف رائجة لدرجة كبيرة في العصر العثماني، وكانت من أهم مراكزها في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة مدينة ازينك (Iznik) التي أخرجت في النصف الثاني من القرن العاشر والحادي عشر تحفا خزفية لا تدانيها تحف أخرى في تاريخ الخزف العثماني . وقد امتاز الخزف العثماني بزخارفه التي تكاد تكون قاصرة على أنواع معينة من الزهور مثل القرنفل والسوسن المصمم والورد والخزامى وشجر السرد والورقة المركبة التي تعرف باسم Saz ، وكثيرا ما يحيط بهذه الباقة من الزهور دوائر متداخلة تشبه قواقع البحر . أما الرسوم الحيوانية فهي قليلة جدا اذا ما قيسست بالزخارف النباتية .

وقد نسب علماء الآثار خطأ مجموعة كبيرة من صناعة ازينك الى جزيرة رودس ، والسبب في هذا انه قد عثر بمتحف مدينة (لندس) برودس على مجموعة كبيرة من خزف ازينك وهذه المجموعة أخذت الى متحف (كلوني) بباريس ، فنسبت الى المكان الذي أخذت منه . كما قال البعض ان معظم القطع الخزفية يحتوي على زخارف تشبه القواقع وقشر السمك ، وهي من مستلزمات الجزر ، كما وجد على بعض منها رسوم مراكب ، وهي أيضا من مستلزمات الجزر .

وعندما ضعفت تركيا في القرن الثاني عشر للهجرة اختفت مراكز التخزيف الحكومية مثل ازينك وبروسه وظهرت مراكز أخرى شعبية مثل كوتاهية قرب الساحل ، التي كانت تنتج أواني صغيرة من أكواب وأباريق وكؤوس وصحون وفناجين ومزهريات وزمزميات . وقوام زخارف تلك الأواني الرسوم النباتية والحيوانية والآدمية . وكان الصناع في كوتاهية معظمهم من الأرمن الذين هاجروا من أرمينيا الى الساحل الغربي لآسيا الصغرى . كما ظهرت على ساحل الدردنيل بعض مراكز التخزيف الشعبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة مثل مدينة مرفت وشنكال وجنك قلعة ومعظم انتاجها شعبي ومتأثر الى حد ما بالزخارف والرسوم والموضوعات الأوروبية .

١٢ - خزف كوبجي : ينسب هذا النوع من الخزف الى قرية كوبجي في اقليم داغستان ببلاد القوقاز . ولما كانت هذه المنطقة تقع بين الصفويين في الجنوب والشرق وبين العثمانيين في الغرب ، لذلك فان خزف كوبجي جمع بين مميزات الأسلوبين الصفوي والعثماني في كثير من الأحيان ، كذلك تأثر خزف

كوبجى بالأسلوب الصينى الى حد كبير . أما بالنسبة للتأثير العثمانى فنجد
واضحا فى استعمال اللون الطماطمى المأخوذ من هضبة الأناضول والذى يرسم
فوق الطلاء الزجاجى الشفاف . كذلك نجد بعض القطع قوام زخارفها عبارة
عن زهور ونباتات عثمانية وان اختلفت من حيث المنظر التصويرى . أما التأثير
الصفوى فى أن الرسوم الآدمية والحيوانية مرسومة بأسلوب مدرسة
التصوير الصفوى . أما التأثير الصينى فيبدو واضحا فى رسوم السحاب
الصينى (تشى) وكذلك رسم التنين والعمائر الصينية . وعلى الجملة فان
الخزف المنسوب الى كوبجى يمثل صناعة اقليمية جمعت بين ثلاثة أساليب
فنية وزخرفية فى آن واحد .

ثالثا - المعادن الإسلامية

من المعروف ان ايران في عصر الدولة الساسانية كان لها قصب السبق في صناعة المعادن على اختلاف أنواعها الذهب والفضة والحديد والبرونز . ولعل بعض السبب في ذلك هو كثرة المناجم التي يستخرج منها تلك المعادن وخاصة معدن الفضة ، ومن المعروف ان العرب عندما فتحوا الأمصار قد انتهجوا سياسة حكيمة ازاء أهل تلك البلاد ، فتركوا لها حرية ممارسة عاداتهم وتقاليدهم وصناعاتهم ومنتجاتهم التي كانوا يقومون بصناعتها من قبل ، مما أدى الى تطور وازدهار تلك الصناعات والفنون التي قام على أساسها الفن الإسلامي فيما بعد .

واذا كان هذا هو وضع الفنون والصناعات جميعا فان الحال بالنسبة لصناعة التحف المعدنية يختلف اختلافا بينا ، ذلك ان صناعة المعادن ظلت على ما كانت عليه في العصر الساساني قرابة أربعة قرون في العصر الإسلامي ، ولذلك فان علماء الآثار لم يجدوا بدا في أن يطلقوا عليه اسم ساساني متأخر أي (Post-Sassanian) .

ومن ثم فقد أصبح من الضروري لدراسة التحف المعدنية في العصر الإسلامي ، أن تدرس صناعة المعادن الساسانية دراسة فاحصة من ناحية المادة الخام وكذا الأسلوب الصناعي والأسلوب الزخرفي حتى نستطيع أن نعرف مدى التطور التي وصلت اليه هذه الصناعة في العصر الإسلامي .

أما عن المواد الخام فان معدن الفضة كان يلعب الدور الرئيسي في العصر الساساني ثم يليه معدن البرنز ثم الذهب ، كذلك وجدت بعد المصنوعات الحديدية وخاصة في قطع الأثاث مثل الكراسي والأرائك والمناضد وغيرها من الأدوات التي تحتاج الى قوة احتمال وقوة ضغط .

أولا : وكانت طرق زخرفة التحف المعدنية تتم على مراحل متعددة ، تبدأ بصناعة القوالب الخشبية وتحفر عليها حفرا بارزا الرسوم والزخارف المطلوبة ، ثم تصنع من المعدن رقائق تشكل بحسب شكل الآنية سواء أكانت مستديرة أو مربعة أو مستطيلة ثم توضع على القالب الخشبي ويضغط عليها ضغطا هينا باليد اذا كان المعدن ليناً مثل الفضة او الذهب وتعرف هذه الطريقة باسم (embossing) أما اذا كان المعدن جافا بعض الشيء مثل البرنز فانه يحتاج الى عملية ضغط شديد (high-embossing) وفي بعض الأحيان يحتاج الى الطرق بالمطرقة (hammering) .

ثانيا : بعد نزع الصفائح المعدنية من القوالب الخشبية تحز التفاصيل الدقيقة حزا خفيفا ، (incised) كما توضح حوافت الرسوم البارزة بطريقة الحز أيضا .

ثالثا : تملأ الشقوق الناتجة من عملية الحزف بمادة النيلو (Niello) السوداء ثم تحرق في درجة حرارة بسيطة وذلك لتثبيت هذه المادة في الشقوق .

رابعا : وأخيرا تشكل الآنية سواء أكانت كروية الشكل أو مقعرة أو غير ذلك من الأشكال وفي كثير من الأحيان تصنع الآنية من عدة قطع فمثلا تصنع الأباريق من ثلاث أو أربع أو خمس قطع ، اذ تصنع الرقبة من قطعة والبدن من قطعة ثانية والقاعدة من قطعة ثالثة واليد من قطعة رابعة وفي بعض الأحيان الصنبور من قطعة خامسة .

أما من حيث الأسلوب الزخرفي فان أشكال الأواني المعدنية التي صنعت في العصر الساساني قد كانت تتكون من أباريق وكؤوس وأطباق وصوان كما كانت تحتوى على عدد كبير من التماثيل الحيوانية التي كانت تستعمل لوظيفة كان تكون شماعة أو مباحر أو أباريق أو كؤوس توضع بها السوائل والشراب .

وكل تلك الأواني زخرفت برسوم آدمية وحيوانية ونباتية بارزة ومحرزة وقد ترصع في بعض الأحيان بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة .

وقد امتاز الأسلوب التي نقشت به تلك الزخارف بان الآدمية منها تجريدية تعبيرية الى حد كبير وذلك التزاما للفكرة الدينية الزارديشية التي كانت سائدة في العصر الساساني والتي تقول بأن الملك هو ظل الله على الأرض ومن ثم فان التطلع الى وجهه جريمة عقوبتها الاعدام ، ومن ثم فان الفنان كان مقيدا بقواعد وتقاليد لا يستطيع الفكك منها ومن ثم فهو يجرد ويرمز الى الأشخاص . أما الرسوم الحيوانية فانه كان يؤديها طبيعية الى حد كبير وان كانت تعلوها في كثير من الأحيان مسحة واضحة من العظمة والكبرياء ، كذلك كان يرسم العناصر النباتية ممثلة للطبيعة ، الا انه كان يكررها ويضعها في تقابل وتماثل تام مما يفقدها حيويتها ويجعلها مجرد موضوع زخرفي . كما كان الفنان الساساني يستعمل اشارات معينة كان لها معان خاصة مثل العصاة الطائرة وهي شارة ملكية ، كما كان يرسم الطائر وقد تدلت من منقاره ورقة نباتية كناية عن الفأل الحسن .

كذلك أكبر الفنان الساساني من استعمال رسوم الحيوانات الخرافية ،
كان يكون الرأس آدميا والجسم لحيوان مفترس والأرجل لكبش وهو الذي يعرف
الفرس القدماء باسم (الشاروبيم) وهو يقابل (ابو الهول) عند المصريين
القدماء ، أو ان يكون الرأس لطائر والجسم لحيوان مفترس ويعرف
باسم (Siminury) أو رأس كلب على جسم حيوان مفترس ويعرف
(Gritpin)

وفي أوائل العصر الاسلامي استمرت التحف المعدنية تصنع بنفس الأسلوب
السابق من حيث المادة الخام وطريقة الصناعة وكذا العناصر الزخرفية ،
أما الأسلوب الزخرفي فقد يعنريه ضعف واضح في مراعاة النسب التشريحية
وبعد عن الطبيعة وجمود في الحركة ، أخذ يزداد شيئا حتى اذا ما كان القرن
الرابع أصبح مجرد رسوم تجريدية محورة . كذلك بدأت تظهر الكتابات العربية
المحصورة في أشرطة عرضية .

المعادن في العصر السلجوقي : وفي أوائل القرن الخامس الهجري اختفى
التأثير الساساني من المعادن وظهرت عليه مسحة اسلامية واضحة قوامها
الزخارف الكتابية التي أخذت تحتل مركز الصدارة وتلاشت الرسوم الحيوانية
والآدمية المرسومة بالأسلوب الساساني وحلت محلها العناصر النباتية المحصورة
في أشرطة عرضية موازية لشريط الكتابة . ولعل من أحسن الأمثلة لذلك صينية
من الفضة صنعت للسلطان ألب أرسلان السلجوقي وقوام زخرفتها شريط من
الكتابة نصه « السلطان عضد الدين تقديمها للحضرة الأجل السلطان المعظم
ألب أرسلان آدام الله ملكه أمرت به ملكة الزمان قلبه أهل العصمة . صنعه
حسن القاشاني في تسع وخمسين وأربعمئة ويحيط بهذا الشريط من أعلى ومن
أسفل حيوانات وطيور متقابلة ومتدايرة على أرضية نباتية مورقة (وهي محفوظة
في متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن) .

أما التحف البرونزية فقد كثر استعمال المرايا البرونزية التي تشبه المرايا
الصينية وقد نقشت عليها كتابات بارزة تحيط بها وكذا رسوم نباتية وهندسية
وفي بعض الأحيان رسوم حيوانية أو منظر للأبراج السماوية والدائرة الفلكية
ومناظر صيد . ولعل من أحسن الأمثلة لتلك المرايا المرآة المؤرخة سنة ٥٤٨ هـ
وعليها شريط كتابة نصه « بسم الله الرحمن الرحيم عملت هذه المرآة المباركة
في طالع سعيد مبارك وهي ان شاء الله تنفع للوكة وللمطلقة وسائر الأوجاع
والآلام تبرأ باذن الله تعالى في شهور سنة ثمان وأربعين وخمسماية الحمد لله
وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . عمل في

مرور الشمس ببرج الحمل سبعة معادن» . وهناك مرآة أخرى مؤرخة سنة ٦٧٥هـ وعليها رسوم الدائرة الفلكية والأبراج ورسوم حيوانات متتابعة وكتابات سحرية ، كما تضم آيات قرآنية وتنتهى بالعبارة التالية « هذه الأسماء منقوشة فى طالع سعيد منقوشة فى سنة خمس وسبعين وستمائه » (محفوظة بمنحف الفن الاسلامى بالقاهرة) .

وفى القرن السادس الهجرى ازدهرت صناعة المعادن فى ايران فظهرت طرق صناعية جديدة هى طريقة التكفيت أو التطبيق ، وقوام هذه الطريقة هو حفر الرسوم المطلوبة على سطح المعدن ثم ملء الشقوق الناتجة بأسلاك معدنية أغلى من معدن الآنية ومختلف عنه فى اللون . فتكفت الأوانى الذهبية بالفضة والفضة بالذهب والبرنزىة بالفضة والنحاس الأصفر أو الأحمر وهكذا . ومن أهم مراكز صناعة المعادن المكفئة فى ايران : هراة ونيسابور وسيستان ، ومن هذه المراكز انتشر فن التكفيت الى بلاد الجزيرة وخاصة الموصل ، التى ذاع صيتها فى العصور الوسطى وأصبحت ينسب اليها خطأ معظم المعادن المكفئة فى ايران والعراق

ومن أعظم القطع المكفئة فى ايران فى العصر السلجوقى اثناء من البرنز عليه زخارف مكفئة قوامها أشرطة كتابية بالخط الكوفى الصلب ذو الزوايا والنسخ اللين ذو الاستدارة ومما يجدر ملاحظته ان همامات الحروف وسبقانها تنتهى برؤوس آدمية وحيوانية . وهذه الظاهرة تكاد تكون قاصرة على اقاليم خراسان فى العصر السلجوقى . ونص الكتابة « بتاريخ شهر المحرم سنة تسع وخمسين بمائة فرمودن ابن خدمت » (فارسية ترجمتها العربية - أمر بعمل هذا) عبد الرحمن الرشيدى ضرب محمد بن عبد الواحد عمل حاجب مسعود بن أحمد النقاش بهراة . لصاحبه خواجه أجل ركن الدين فخر التجار أمين المسلمين زين الحاج والمحرمين رشيد الدين عزيزى بن ابو الحسين الزنجاني دام عزه » (محفوظة بمتحف الهرميتاج بمدينة ليننجراد بروسيا) .

كما توجد مجموعة كبيرة من الشماعد البرنزىة المكفئة وقوام الزخرفة أشرطة كتابية وأخرى تحتوى على زخارف هندسية وحيوانية بارزة ، ويعلو الجسم الاسطوانى للشمعدان مجموعة من التماثيل الصغيرة على شكل الطيور . وهذه الظاهرة تنفرد بها المتحف المصنوعة فى ايران فى العصر السلجوقى .

المتحف المعدنية فى الجزيرة : راجت صناعة المعادن فى الجزيرة لوفرة مناجم النحاس الأحمر والأصفر والبرونز بها . وكانت أعظم مراكز الانتاج

بها مدينة الموصل بالعصر السلجوقي وصناعة المعادن المكفتة بالفضة والذهب . ولم تكن أساليب صناعة المعادن المكفتة المستعملة في الموصل تختلف عن الأساليب الإيرانية اللهم الا في بعض تفاصيل دقيقة فقد كان صناع المعادن في الجزيرة يكفتون بالفضة ولا يستعملون النحاس الأحمر ، كما كانوا يستعملون الذهب وان كان قليلا . كما كانت الرسوم والزخارف بجميع أنواعها ترسم على أرضية من خطوط منكسرة ومتداخل بعضها في بعض على شكل حرف C . ومن الرسوم التي كثر ظهورها عن تحف الجزيرة في العصر السلجوقي رسم الهلال بين ذراعي الرسوم الآدمية ، وقد وجدت مثل هذه العناصر على العملة التي ضربها بنو زنكي بالموصل التي يبدو انها كانت شارة بعض أمراء بني زنكي .

المعادن في العصر المغولي والصفوي : وبرغم ما اشتهر به حكام المغول من بطش وعنف وغلظة ، الا انهم كانوا رعاة للفنون . فقد ظلت صناعة المعادن في عهدهم زاهرة كما كانت في عهد السلاجقة ، وان كانت قد تأثرت الى حد كبير بمدارس التصوير المعاصرة فقد أصبحت الرسوم المنقوشة أو المكفتة تحوى مناظر تصويرية ، بعد ما كانت معظمها في العصر السلجوقي عناصر زخرفية مكررة .

ومن أجمل القطع المغولية شمعدان من النحاس من صناعة ايران سنة ٧٦١ هـ ، وهو مكفت بالفضة والذهب وقوام زخرفته جامات ودوائر متماسة كلها مملوءة بزخارف نباتية قريبة من الطبيعة الى حد كبير . ويحيط بالشمعدان شريط من الكتابة نصه « عمل العبد الأضعف محمد بن رفيع الدين شيرازي في تاريخ جمادى الأولى سنة احدى ستين وسبعمائة » . (محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة) . ومن القطع التي تمثل رسومها مناظر المدرسة المغولية في التصوير ، طشت من النحاس المكفت بالفضة وقوام زخرفته أشرطة من مناطق تضم رسوما آدمية في مناظر شراب وصيد وطرب . وهو من صناعة ايران في القرن الثامن الهجري ، ومحمفوظ في متحف الميترود يولتيان بنيويورك .

ومن أهم المنتجات المعدنية في العصر المغولي الأسلحة وان كان ما وصلنا منها حتى الآن قليلا . وأقدم ما نعرفه منها مجموعة من الدروع موزعة على متاحف أوروبا وأخرى من الخوذات . وكلها تحتوى على أشرطة كتابية بالخط الكوفي المورق والخط النسخي ورسوم حيوانية ونباتية وخاصة رسم العنقاء والطيور المتقابلة التي يكثر وجودها على منسوجات الديباج في القرن الثامن الهجري .

وتمتاز المنتجات المعدنية في العصر الصفوي في القرن العاشر الهجري بأناقة أشكالها والاقبال على استعمال النحاس الأصفر اللامع الذي يكاد يقارب لون الذهب ، والنحاس الأحمر المبيض بالقصدير تقليدا للون الفضة . كما أقبل الصفويون على استعمال مادة الحديد الصلب في صناعة التحف . ومن مميزات الكتابة على المعادن في العصر الصفوي استعمال اللغة الفارسية بدلا من العربية ، سواء أكان شعرا أم نصوصا تاريخية كما أكثروا من استعمال الشارات والعبارات الشيعية وخاصة ذكر أسماء الأئمة الاثني عشر .

ومن التحف المعدنية التي كثر إنتاجها في العصر الصفوي المقالم النحاس المكفتة ، المزخرفة برسوم السحاب الصيني والكتابة الفارسية على أرضية نباتية عناصرها قريبة من الطبيعة . والشكل العام لتلك المقالم يختلف اختلافا بينا عن أشكالها في مصر والشام فهي أشبه ما تكون بالمطرقة منها بالعلبة التي توضع بها أدوات الكتابة . كذلك اتخذت الشماعد في ذلك العصر شكلا خاصا مميزا ، فهي أشبه بالصمود الاسطوانى أو المثمن ، قاعدته مستديرة وتاجه ناقوس مقلوب تعلوه شكل شمعة . ومن التحف المعدنية التي انفرد بها العصر الصفوي (الكشكول) وهو عبارة عن علبة بيضاوية الشكل تعلق من طرفيها بسلاسل وفي وسطها فتحة لها غطاء . وهذه العلبة يحملها دراويش الشيعة ويجمعون بها ما يجود به الناس من الصدقات والندور فاذا امتلأ (الكشكول) يعطيه الدراويش الى سادن العتبات المقدسة عند الشيعة (أى أضرحة أئمة الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية ومشهد) لكي تعرف عليها .

كذلك امتازت أباريق العصر الصفوي بشكل خاص يتكون من بدن كروي ورقبة رفيعة جدا وطويلة تنتهى بفوهة متسعة وغطاء على شكل قبة صغيرة يعلوها ما يشبه الهلال . ويخرج من بدن الأبريق صنبور رفيع يمتد من منتصف البدن وينتهى قرب الفوهة وكذلك يده التي تمتد كذلك من منتصف البدن حتى الفوهة ويكون عادة على شكل الأفعى .

وكانت الأسلحة والدروع في العصر الصفوي تكفت بالفضة والذهب وتزين بالزخارف الجميلة القريبة من الطبيعة والمرصعة بالأحجار الكريمة . وقد ظهر في ذلك العصر نوع جديد من الدروع اسمه (جهاز آنيه) أى المرايا الأربع ، وهو يتألف من أربع صفائح من الحديد متصلة بواسطة مفصلات . تستخدم إحدى هذه الصفائح لحماية الصدر والأخرى للظهر بينما يستعمل الأثنان الآخران للجنبين وبهما فتحتان يخرج منهما الذراعان . وكانت هذه الصفائح تبطن عادة بالحرير وتلبس فوق الزرد في الحطة أثناء الحروب .

المعادن المصرية في العصر الفاطمي : ويحدثنا المقرئ عن كنوز الفاطميين فيذكر لنا العديد من مخازن المعدن والسلاح وعن أحياء بالقاهرة المضربة عرفت

بتخصصها في صناعة المعادن فقط . ولعل من أشهر التحف المعدنية التي صنعت في أوائل العصر الفاطمي ، تلك التماثيل المعدنية المتأثرة بالأسلوب الساساني التي عرفت في العصور الوسطى باسم اكرامانيل (aquamanil) والتي تزخر بها متاحف وكنائس أوروبا حتى الآن . وقد أخذت تلك الأواني المعدنية هذا الاسم ، ذلك انه عندما انتقلت هذه الأواني الى أوروبا عن طريق الحروب الصليبية، أو إبان الشدة المستنصرية استعملها رجال الدين والقسس لغسل أيديهم قبل القداس وأثناءه وبعده ومن ثم أخذت اسم آنية ماء الدين (aqua manus) ومن أشهر التماثيل الفاطمية ، تمثال العنقاء الموجود حاليا في جبابنة مدينة بيزا بايطاليا . (campo Santo Piza) الذي قيل انه جلب من مصر الى شبه الجزيرة الإيطالية على يد عموري ملك بيت المقدس بين عامي ٥٥٩ - ٥٦٩ ، وانه كان جزءا من فؤارة مائية . وقد زخرف بدن ورأس رقبة هذا الطائر الخرافي بشكل ريش وقشر سمك ، كما أحيطت الجامات الموجودة بظهر الطائر وحول الرقبة والأفخاذ بأشرطة من الكتابة الكوفية تحتوى على عبارات مدح واطراء وأدعية لصاحبه مثل (بركة كاملة ونعمة شاملة) .

وقد عثر في حفائر مدينة أسوان على مجموعة من الشماعد أو حاملة الشماعد أو مواد صغيرة للزينة ، قوامها عمود قاعدته وتاجه على شكل مرمانة وترتكز قاعدة العمود على قاعدة اسطوانية أو مثمثة الشكل تقوم على ثلاث أرجل حيوانية . وتحتوى هذه القاعدة المثمثة على شريط كتابى بالخط الكوفى المزهر نصه عادة (بركة لصاحبه) أو (بركة كاملة ونعمة شاملة) . ويعلو تاج العمود قرص مستدير ، كثيرا ما تتوسطه فتحة لوضع الشمعة (بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار جامعة القاهرة) كذلك وجدت مجموعة صغيرة من الصوانى البرونزية حفرت عليها بطريق الحز زخارف حيوانية ونباتية تشبه الى حد كبير تلك الرسوم التي وجدت على الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى .

وقد ذكر المقرئى وغيره من مؤرخى مصر الإسلامية كثيرا من الحلى المزخرف بطريقة المينا من بين كنوز الفاطميين ، الا ان ما عثر عليه حتى الآن قليل جدا يكاد لا يذكر بجانب ما ورد وصفه بتلك المراجع . أما عن طريقة زخرفة المعادن بالمينا ، فهناك طريقتان :

أولا : المينا ذات الفصوص email cloisonné وتتكون هذه الطريقة من صنع حواجز رقيقة ذهبية أشبه بالعلب الصغيرة جدا تصب فيها أكاسيد معدنية سائلة تحرق فى النار فتحف وتعطى بريقا يشبه الأحجار الكريمة ، يتم لصقها بعد ذلك على الحلى أو المعدن المراد زخرفته .

ثانياً : هيئتنا الحفر (émailchamplevé) وتتكون من حز الزخارف المرادة على الحلى أو المعدن واحداث تجاويف عريضة وعميقة أولاً ثم تصب الأكاسيد المعدنية السائلة بعد ذلك ثم تحرق فى النار . وقد انتشرت هذه الطريقة أكثر من سابقتها لأنها لا تحتاج الى مهارة كبيرة كما انها أوفر من الناحية المادية اذ انها لا تحتاج الى حواجز ذهبية ومن أمثلة الحلى المزخرفة بالمينا (الحفر) التى ترجع الى العصر الفاطمى قرص صغير من الذهب عثر عليه فى أطلال مدينة القسطنطينية ، قسم وجهه الى ثلاث مناطق زخرفت المنطقة المتوسطة بلون سنجابى وعليه كتابة اللون الأحمر ونصها (الله خير حافظا) أما القسمان الأعلى والأسفل فلونهما أخضر وبهما زخارف نباتية باللون الذهبى (وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة) .

المعادن المملوكية : زاد الاقبال زيادة عظيمة على التحف المعدنية فى العصر المملوكى لأسباب عدة منها هجرة كثير من صناع المعادن فى ايران والعراق فراراً من الغزو المغولى والانتعاش الاقتصادى الذى صاحب ورود تجارة الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر بعد أن هجر الطريق البرى عبر ايران خوفاً من الغزو المغولى .

ثالثاً : قدرة السوق المحلية على شراء التحف المعدنية الغالية الثمن هذا بالإضافة الى فتح أسواق خارجية مثل جنوة والبندقية وغيرها من موانئ البحر المتوسط فى أوروبا .

ولعل من أشهر المنتجات المعدنية التى انتشرت فى العصر المملوكى الأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس والبرونز مثل باب الأمير سنقر أحد مماليك السلطان قلاوون سنة ٦٨٩ هـ والذى استخدم فى جامع السلطان برسباى الذى شيده فى الخانقاه الموجودة بشمال القاهرة سنة ٨٤٠ هـ وقد استخدم فى زخرفته عدة طرق فنية من حفر وتكليف وتخريم وتصفيح وتثبيت بمسامير حديدية رؤوسها على شكل زهرة . وزخارف هذا الباب متعددة بعضها نباتى مخرم وكذا طيور وحيوانات دقيقة تبدو لغير المتخصص وكأنها أوراق نباتية أو زهور . كما يوجد بأعلى وأسفل الباب شريطان عريضان من الخط الثلث المملوكى الجميل (وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامى) .

كما وجدت مجموعة كبيرة من الشماعد التى يزخر بها العصر المملوكى وعلب الصمامة والمقالم والطسون ، والعلب الكبيرة لحفظ القرآن الكريم والعلب الصغيرة لحفظ المجوهرات وما إليها . كما وجدت بعض أوانى المائدة لم يسبق

وجودها فى أى اقليم آخر مثل (عمود الأكل) وهو مكون من مجموعة طاسات صغيرة يتراوح عددها ما بين ثلاث أو أربع أو خمس يجمعها عمود معدنى من الجانبين ويغطي الطست الأعلى غطاء . وهذه الآنية عليها زخارف نباتية وهندسية وكتابية وهى محزوزة فى معظم الأحيان وقلما تكون مكفتة .

كما حظى العصر المملوكى بمجموعة كبيرة من الثريات المعدنية التى عرفت بإسم التناثير ، ولعل من أبدعها ثنور من النحاس على شكل منشور مثنى ، يتألف من ثلاث طبقات مخرمة يحيط بها اطار به فتحات للزاقات (القناديل) . ويعلو الطبقة العليا شرفات على شكل زهرة الزنبق . وتحتوى هذه الطبقات على زخارف كتابية وهندسية وقد دون على هذا القنير اسم السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٦٤ هـ (وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة) .

وقد صنع فى مصر فى العصر المملوكى مجموعة نادرة من التحف المعدنية المكفتة والتى سجل عليها اسم بنى الرسول . ومن أهم هذه التحف ابريق من النحاس المكفت ، قوام زخرفته كتابات وزخارف نباتية ورسوم هندسية ورسوم آدمية ونص الكتابية : عز لمولانا السلطان الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن السلطان الملك المنصور عمر . نقش على بن حسين بن محمد الموصلى بالقاهرة فى شهر سنة أربع وسبعين وستمائة (محفوظ بمتحف الفنون الزخرفية بباريس) .

المعادن الأندلسية والمغربية : لا تختلف التحف المعدنية فى الأندلس عن مثيلاتها من صناعة مصر فى العصر الفاطمى وخاصة تلك التى صنعت على شكل تماثيل الطيور والحيوانات ، مما جعل بعض علماء الآثار ينسبونها الى صناعة مصر فى القرن الرابع الهجرى . لكن الفاحص المدقق يجد بعض الفروق المميزة . فبينما نجد معظم التماثيل المعدنية الفاطمية بدنها خال من الزخرفة اللهم الا أشرطة كتابية أو زخرفية محصورة فى أشرطة ، نجد ان بدن تماثيل الأندلس التى عثر عليها فى قرطبة والزهراء قد ملئت بزخارف ذات أسلوب معين قوامه دوائر على شكل فروع نباتية متماسة وبها زخارف نباتية مكررة . كما تمتاز تماثيل الأندلس بدقتها وقربها من الطبيعة مما تفتقده التماثيل الفاطمية .

ومن التحف المعدنية التى انفردت بها الأندلس صناديق صغيرة من الخشب مصفحة بصفائح من الفضة زخارفها مصنوعة بطريقة القالب والضغط . وقوام زخارف هذه العلب فروع نباتية ومراوح نجيلية فضلا عن الأشرطة الكتابية ومن أمثلة هذه العلب على ترجع الى القرن الرابع الهجرى عليها شريط من الكتابة

نصه « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكيم أمير المؤمنين المستنصر بالله ، مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم على يد جوذر فتاة ، وتاريخ العلبة ٣٥٣ هـ . (وهي محفوظة في كاتدرائية جيرونا) .

كذلك ازدهرت صناعة الأسلحة فى الأندلس ومن أهم مراكز صناعتها مدينة طليطلة والمرية وأشبيلية ومرسيه ، ولعل أبدعها تلك التى صنعت فى عصر سلاطين بنى نصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى .

رابعاً - السجاد الوبرى

لقد تعددت الألفاظ التى تدل على النسيج الوبرى الذى يبسط على الأرض أو على الأرائك أو يفرش على الأسرة والمقاعد فى اللغة العربية فهى البساط فى بعض معاجم اللغة إذ يقول السكيت ، البساط ما بسط ويقول ابن سيده فى مخصصه البساط ما افترشته . وقيل هى الطنافس التى لها خمل رقيق . وجاء فى القاموس النبارق والبسط كل ما اتكى عليه . وجاء فى الكشف للزمخشري ، الزرابى بسط عراض فاخرة ، وجاء فى القرآن الكريم « وزرابى مبثوثة » وفى تفسير الجلالين الزرابى بسط ذات خمل ومبثوثة مفروشة . وزرابى فارسية معربة مكونة من (زر) أى - الذهب وآب أى الماء) . وقيل البسط هى الرفرف وقيل هى العبقرى ، من قوله تعالى (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان) ، وقيل للبسط الطنفسة وجمعها طنافس ، وقيل الدرنكة وهى الطنفسة وقيل الزولية وهى البساط . وهكذا نرى أن اللغة العربية غنية بألفاظها ومزاداتها التى تدل على ما يبسط ويفرش ، وبرغم أن كلمة سجاد لم ترد بينها ، إلا أن تلك الألفاظ تستعمل للسجود عليها ، ولما كانت وظيفة السجود أشرفها فى استعمال البسط والطنافس فقد استقر الأمر بين الأثريين على استعمال كلمة السجاد للدلالة على كل تلك الألفاظ السابق الإشارة إليها .

أما عن تاريخ نشأة السجاد الوبرى المعقود فقد تعددت الآراء وتشعبت فقد قال المؤرخون بوجوده ونشأته فى آسيا ومن المحتمل أن تكون قبائل وسط آسيا أول من صنعها اعتماداً على توفر مادة الصوف الضرورية لهذه الصناعة ، هذا بالإضافة إلى طبيعة البيئة القارصة البرد شتاء التى تحتاج إلى مثل هذه المنسوجات الوبرية السميكة . وقال رجال الآثار بشأنه منذ العصر الفرعوني اعتماداً على قطع من النسيج الوبرى السميكة عثر عليها فى مقابر الأسرة الحادية عشرة . ولكن هذه الآراء جميعها لا يمكن الاطمئنان إليها ، فبالنسبة لأقوال المؤرخين ، ليس لها دليل ماضى يؤيدها أو ينفيها ، أما عن النسيج الوبرى المصرى فهو من قبيل المنسوجات الوبرية غير المعقودة .

ولعل من الأمثلة الهامة التى يجدر الإشارة إليها السجادة التى عثر عليها المنقب الأثرى الروسى رودنكو Rudenko وبازريك Pazyryk فى أواسط منغوليا فى إقليم الطائى Altia وهى محفوظة فى متحف الهرميتاج بسانت بطرسبرغ . وقد اختلف مؤرخو الفنون فى تعيين وتحديد تاريخها ولكن كامل خيرى التكريتلى استطاع بعد دراستها دراسة دقيقة من حيث طريقة الصناعة أن يثبت أنها ليست

سجادا وبريا معقودا بل هي نسيج غليظ منسوج بطريقة السوماك Somak
أنظر لوحة (الهيرميتاج) .

وقد أطنب مؤرخو العرب عن الطنافس والبسط التي غنمها المسلمون عند فتحهم للمدائن وخصوا منها سجادة تعرف باسم (بهار كسرى) ومعناها (ربيع كسرى) فقد وصفه الطبرى فقال ان مساحتها ستون ذراعا فى ستين ذراعا ورسومها كالرياض أرضه مذهبة ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب ، فلما قسم سعد بن أبى وقاص فيئهم لم يقسمها فأرسلها الى عمر .
وقد أورد هذه القصة ابن الأثير والبهاثى وابن مسكويه وابن العميد وغيرهم كثير . أما عن طريقة نسجها فقد اتفق علماء الآثار على أنها ليست نسيجا وبريا معقودا اعتمادا على ما جاء فى وصفها من أنها تحتوى على خيوط معدنية ، وانها مرصعة بالأحجار الكريمة ، فقد قال بوب pope وكذا شيرمان Schorman أنها منسوجة بالطريقة القباطى Tapestry ويقول كونل Kubnel وكذا بود Bode . أنها ليست سجادا وبريا معقودا ويرجح gadard أنها من أعمال الوشى والتطريز . على أننى لا أستبعد أن يكون بساط (بهار كسرى) سجادا وبريا معقودا وذلك اعتمادا على ما جاء فى وصف المؤرخين العرب ، ذلك أن وجود الخيوط المعدنية والأحجار الكريمة لا يمنع أن يكون البساط منسوجا بطريقة الديباج بالخيوط المعدنية ومرصعا بالجواهر أما التوبة المعقودة قد تكون منسوجة بخيوط حريرية أو صوفية ، ولدينا أمثلة عديدة من السجاد الوبرى المعقود المحتوى على زخارف منسوجة بطريقة الديباج من خيوط معدنية ومرصعة بالجواهر .

وقد عثر المنقبون فى حفائر الفسطاط على قطع من السجاد الوبرى على بعضها بقية كتابات مؤرخة يرجح انها سنة ست ومائتين بعد الهجرة (٨٢١ م) .
وقد عثه متحف الفن الاسلامى وكذا متحف المتروبوليتان بنيويورك من السجاد الوبرى المعقود ، ولكن بالكشف على هذه القطع تبين لى أنه نسيج وبرى نيميك لا عقدة له وعلى ذلك فقد استبعدته من موضوعنا .

السجاد السلجوقى :

على أن أقدم سجاد عثر عليه حتى الآن يرجع الى العصر السلجوقى ، فقد وجد فى مسجد علاء الدين بقونية الذى بنى (سنة ٦١٦ هـ / سنة ١٢١٩ م) محلى بسجادة قديمة العهد من صنع الأتراك السلاجقة فى القرن السابع الهجرى ، فقد أخبرنا ماركو بولو الذى زار آسيا الصغرى (١٢٧٠ م) ان بلاد التركمان كانت تنتج أجمل وأفخر أنواع البسط . كما عثر على ثلاث قطع بجامع

أشرف أوغلو) فى (بايشهر) مماثلة لما عثر عليه فى مسجد علاء الدين بقونية وهذه القطع مصنوعة بطريقة الوبرة المعقودة اذ تحتوى البوصة المربعة على (٨٣) عقدة ، وهى محفوظة بمتحف الأوقاف باسطنبول .

ومما يدعو للدهشة حقا أنه لم يصلنا حتى الآن سجادة من القرنين الرابع عشر والخامس عشر فى ايران ، برغم وجود صورها فى مخطوطات العصرين المغولى والتمورى ، كما ظهر فى صور مصورى أوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وخاصة هولباين لوحة .

السجاد المصرى فى العصر المملوكى :

على أننا قد عثرنا فى مصر على سجاد وبرى معقود يرجع الى العصر المملوكى من القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وان كان علماء الآثار قد اختلفوا بشأنه فنسبوه أول الأمر الى دمشق والى مراکش والى آسيا الصغرى ، ولكن استقر الرأى أخيرا على أنه من صناعة مصر . ويمتاز السجاد المصرى بميزات انفرد بها دون غيره من سجاد العالم الاسلامى . فمن ناحية المادة الخام نجده معظمه مصنوعا من الحرير لحمة وسدى ووبرة والبعض نجد لحمته وسده من الكتان ويندر أن تكون من غير الحرير . أما الألوان المستعملة فى السجاد المصرى ، فنجد أرضيته غالبا من اللون الأحمر وزخارفه باللون الأخضر النافض واللون الذهبى .

وقوام الزخارف فى هذا السجاد الرسوم الهندسية وخاصة الشكل الثمانى الذى يشكل العنصر الأساسى فى مساحة السجادة وقطاعات منه فى الأركان وتحيط بالمشمن من الداخل عناصر نباتية محورة تبدو وكأنها شماعد ، ويحيط بالسجادة اطار عريض مكون من مجموعة من الأشرطة الرفيعة المحتوية على زخارف نباتية محورة كذلك ، وتشبه الرسوم الهندسية لهذا السجاد التى نجدها على التحف المملوكية وخاصة جلود الكتب . وقد أشار الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى نهاية العصر المملوكى فى القرن السادس الى وجود - مصانع لنسيج السجاد فى القاهرة كما ذكر المؤرخون الترك بان مهرة صناع السجاد قد نقلوا من مصر الى اسطنبول .

السجاد الأندلسى :

كذلك وجدت مجموعة من السجاد الأندلسى الذى يرجع الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولعل التشابه الشديد بين السجاد المصرى والأندلسى من حيث الزخارف هو الذى دعا بعض علماء الآثار الى الاعتقاد ان السجاد المصرى

هو كذلك من صناعة المغرب والأندلس . على أن أقدم ما وصل إلينا من سجاد الأندلس يرجع الى القرن الثامن الهجرى وخاصة النوع الذى يحتوى على رسوم وحدات معمارية مصفوفة فى ساحة السجادة وقد عرفت باسم سجاجيد السيناجوج (كنيس اليهود) ويمتاز اطار هذا النوع من السجاد باختوائه على شريط عريض من زخارف تشبه الكتابة الكوفية .

على أن السجاد الأندلسى الذى يرجع الى القرن الخامس عشر يمتاز بزخارفه الهندسية وخاصة الشكل المثلث الذى استعمل بكثرة فى السجاد المصرى، وان امتاز السجاد الأندلسى بصغر وحداته الهندسية ودقتها . كما تضم الزخارف رسوم نجوم كثيرة الأطراف تبدو وكأنها ماسة مشعة ولذا عرف هذا النوع من السجاد الأندلسى باسم الماس Diamend . كذلك كان يضم السجاد الأندلسى رسوم طيور وحيوانات وأدميين محورة عن الطبيعة وبأسلوب تجريدى وترى هذه الزخارف فى الاطار الذى يحيط بالسجادة مضافا اليها زخارف من حروف كوفية . ونلاحظ ان الألوان المستعملة فى السجاد الأندلسى كان اللون الأحمر للأرضية فى معظم الأحيان والاطار أزرق داكن . والزخارف الكتابية المستعملة فى اطار هذا السجاد تشبه زخارف السجاد الذى رسمه هولباين فى لوحاته .

وقد عثر على مجموعة من السجاد الأندلسى الذى يرجع الى القرن الخامس عشر عليها رسوم رونوك أسرات معروفة فى ذلك الوقت بحيث أصبح من اليسير تأريخ قطع السجاد .

وقد امتاز السجاد الأندلسى بطوله العظيم وضيق عرضه ، مما يدل على ضيق عرض الأنوال التى نسجت عليها .

السجاد الايرانى :

على أن السجاد الاسلامى لم يصل غايته الا فى العصر الصفوى ، فقد نال شهرة عالمية لم ينله أى نوع من أنواع السجاد الذى سبقت الاشارة اليه ، حتى ان بعض الغربيين اعتقدوا انه ليس هناك من يصنع السجاد فى العالم غير الايرانيين . ولعل السبب فى ذلك هو أن صناعة السجاد كانت قبل العصر الصفوى فى ايران وغيرها ، صناعة أهلية ولكنها أضحت فى عهد الصفويين صناعة حكومية تخضع للرقابة والاهتمام الشديد . بل ان بعض الملوك والأمراء لم يكتفوا بإنشاء المصانع فى قصورهم ودورهم ومدنهم فحسب ، بل شاركوا فى صناعة السجاد برسم وتصميم الزخارف فتحدثنا المراجع التاريخية فى هذا الشأن فتقول ان الشاه طهماسب (١٥٢٤ م - ١٥٧٦ م) كان يقوم برسم

صور السجاد ومسوداته بنفسه . وكان طبيعيا أن تكون مصانع السجاد من السعة والفخامة وأن تحتوى مخازنها على أجود أنواع الصوف والحرير والخيوط الذهبية والفضية والأصباغ على اختلاف أنواعها ، هذا بالإضافة الى امتلاك تلك المصانع العديدة من قطعان الضأن والابل والماعز وما إليها من الماشية التى تزود المصانع بما تحتاج اليه .

ولما كانت صناعة السجاد ترتبط ارتباطا وثيقا بالرسم والتصوير ، لذلك فقد عنى الملوك والأمراء بالمصورين والرسامين عناية كبيرة ، وأصبحت لهم الخطوة فى البلاط ، فقد عهد اليهم بالاشراف على جميع نواحي الحياة الفنية فى البلاد وكان السجاد يحتل المكانة المرموقة من بينها . ولعل من أشهر المصورين الذين استخدمت رسومه فى السجاد الذى عرف باسم سجاد الأشجار المزهرة بهزاد فى تبريز فى عهد الشاه طهماسب . وكذلك المصور قاسم على الذى اشتهر فى رسم السحب الصينية التى ازدان بها السجاد الايرانى .

أنواع العقد :

تنقسم العقد التى استعملت فى السجاد الاسلامى الى ثلاثة أنواع ، عقدة سينا Sehna أو العقدة الفارسية وهى التى يلتف خيط الوبرة على سدى واحدة ويبقى أحد طرفيها فوق السداة المجاورة والطرف الآخر تحتها وعقدة جوردوس Ghiordes التركية وهى التى يلتف فيها خيط الوبرة على سداتين ويخرج طرفيها من بينهما . أما العقدة المنفردة Single-Warp Knot أو الاسبانية وهى التى يلف فيها خيط الوبرة على سدى واحدة ويظهر طرفيها فوقها فقط . وكما تعددت العقد تعددت نهايات السجاد Fringe المكونة من نهاية السدى التى تعقد عادة مع بعضها أو ينسج بطريقة زخرفية أو على شكل اشغال الابر المصفورة (انظر الشكل) .

زخارف السجاد الايرانى :

وتعتبر معرفة اسم أو مركز انتاج السجاد الايرانى من أعقد الأمور وأصعبها وذلك لكثرة وتعدد مراكز الانتاج وتشعبها ، ومن ثم فقد اختلفت علماء الآثار فى تصنيفه ، فمنهم من صنّفه حسب مراكز انتاجه ومنهم من اتخذ الزخارف أساسا للتصنيف ، على ان كلا الأسلوبين يجب ان يؤخذ بشئ كثير من الحذر . ذلك ان كثيرا من أسماء البلدان التى تذكر على أنها مراكز انتاج ما هى فى الواقع الا مراكز تسويق وتجارة ولا يوجد بها مصانع للانتاج على الاطلاق . فضلا عن أن بعض العناصر الزخرفية يمكن أن يتخذ قواما لزخارف سجاد أكثر من

مركز واحد من مراكز الانباج خاصة اذا علمنا بان الكثير من المصانع الحكومية كانت تنفذ ما يرسمه كبار المصورين .

واذا أخذنا برأى الفريق الثانى من علماء الآثار القائل بتقسيم السجاد الايراني تبعا للأسلوب الزخرفى فانه يمكن تقسيمها الى العناصر والأساليب الآتية :-

١ - السجاد ذات الصرة والجادة :

وتتكون زخارف هذا النوع من صرة أو جامة ترسم فى وسط ساحة السجادة وتكون العنصر الرئيسى الواضح بها ، وقد نجد أجزاء من الجامة فى أركان السجادة ، وقد يتبدل من أسفل وأعلى الصرة اناء على شكل مشكاة أو زهرية . ومن أهم المراكز التى أنتجت سجاد الصرة مدينة تبريز وقاشان .

٢ - السجاد ذو الزخارف الحيوانية :

وتحتوى على مجموعة متنوعة من الرسوم الحيوانية وقد تدخل الرسوم الأدمية فى زخارفها وترسم الصور الحيوانية على أرضية من الزهور والنباتات بحيث لا نكاد نعرف أى العنصرين صاحب الصدارة .

وقد يضاف الى ما تقدم وجود الصرة أو الجامة بالسجادة ، ومن أحسن المراكز لانتاج السجاد ذى الرسوم الحيوانية قاشان وتبريز .

٣ - سجاد الزهور :

وقوام زخارف هذا السجاد مراوح تخيلية ورسوم سينية وزهور مركبة Composite كما يمتاز باحتوائه على وريقات طويلة ومشرشرة . وأرضية هذا السجاد فى معظم الأحيان حمراء اللون بينما الاطار أخضر . وأهم مراكز انتاج هذا السجاد هراة فى القرن ١٧ م .

٤ - سجاد الأرابيسك :

يزخرف هذا السجاد فروع نباتية منثنية وقريبة الشبه من الزخارف النباتية المحورة بأسلوب سامراء التى تعرف باسم (أرابيسك) تتكرر فتغطى ساحة السجاد كلها . ويمتاز هذا السجاد باحتوائه على اطار عريض يضم بحورا يحتوى بعضها على زهور مركبة وأخرى تحتوى على كتابات فارسية ، وقد تحتوى على جامة فى وسط السجادة .

٥ - سجادة الزهريات :

نقد امتاز السجاد الذى صنع فى عهد الشاه عباس باحتوائه على عنصر وحدة زخرفية يشبه الزهريات مكونة من مجموعة من الزهور • ولا يتوسط السجادة شئ بل ان رسومها تصف فى توازن وتقابل حولها محورها الأوسط • ويمتاز هذا النوع من السجاد بمتانته ودقة صناعته وكثافته وبره وضيق اطاره ، كما يغلب ان تكون أرضيته زرقاء أو حمراء • كما تمتاز بانها طويلة بالنسبة الى عرضها • وقد صنع هذا السجاد فى أقاليم ايران الوسطى فى القرنين (١٦ ، ١٧ م) •

٦ - سجادة الأشجار :

يحتوى هذا السجاد على رسوم الأشجار ، التى تكون الموضوع الرئيسى فى زخرفة السجادة ، وقد نرى الى جانب الأشجار عناصر زخرفية أخرى من جامات ورسوم طيور وحيوانات وزهور وسحب صينية • وقد ترسم الأشجار فى السجاد بشكل محور فى تكرار زخرفى يبعدها عن أصولها (لوحة) • وقد اشتهرت بصناعة هذا النوع من السجاد شمالى ايران فى القرن (١٦ ، ١٧ م) •

٧ - سجادة الصلاة :

لقد امتاز شمال غربى ايران ولا سيما تبريز بصناعة سجادة صغيرة للصلاة • ويتميز هذا السجاد باحتوائه على آيات قرآنية مكتوبة بخط النسخ والكوفى والنستعليق فى أرضية السجادة وفى المناطق التى تحيط بها • وتحتوى سجادة الصلاة على خيوط معدنية منسوجة بطريقة الديباج ويلاحظ ان الزخارف النباتية فى ساحة السجادة موضوعة بشكل معين على هيئة محراب •

٨ - سجادة الحديقة :

لقد قسمت ساحة السجادة الى أقسام يفصل بينها أشرطة عريضة ملئت بخطوط متعرجة ترمز الى تموجات المياه • أما الأقسام المفصولة فقد ملئت بزهور وأوراق نباتية ، حتى أن السجادة تبدو وكأنها حديقة تفصل بين أحواضها مجارى مائية • وقد راعى صانع السجاد بأن تكون المجارى المائية باللون الأزرق النافض والموج باللون الأسود والأزرق الداكن • كما نلاحظ ان أحواض الحديقة أرضيتها ذات لون برتقالى • وقد كثر صنع هذا النوع من السجاد فى آخر عهد الدولة الصفوية فى القرن (١٨ م) وانه يصنع للسوق الأوروبية • وهى من صناعة شمال غربى ايران وكردستان •

٩ - السجادة البولندية :

لقد نسب هذا النوع من السجاد الى بولنده حينما من الزمن ، ولكنها من

انتاج مصانع البلاط فى أصفهان فى نهاية القرن (١٦ م) أما زخارفه فخليط من الزخارف القريبة من الطبيعة والمحورة والمركبة . ولعل أبرز ما يمتاز به السجاد البولندى هو ان أرضيته ليست ذات لون واحد بل ذات أرضيات مختلفة الألوان . وأهم الألوان فى هذا النوع من السجاد الأصفر والأخضر النافض والبرتقالى والأزرق الفيروزى والأحمر القرمزى .

طريقة الصناعة

أما من الناحية التطبيقية ، فقد انفردت السجاجيد الإيرانية بأسلوب وطراز خاص . فقد اتبعت فى صنعها طريقتان متعارضتان معقدتان ، تمتا فى ذلك الوقت وعلى نول واحد . وقد تطلبت طريقة الصنع هذه نوعين من خيوط السداة ، النوع الأول الخاص بالعقد والوبرة ، والنوع الثانى خاص بنسيج الزخارف غير الوبرية المنسوجة بطريقة الديباج بخيوط فضية وذهبية . وتشبه هذه المجموعة من السجاد من حيث المظهر النسيجى مجموعة من الستور . موجودة بالمشهد . كذلك تختلف زخارفها فبعضها منسوج بطريقة الديباج بخيوط من الذهب والفضة والبعض الآخر منسوج بطريقة النسيج الوبرى غير المعقود المعروف باسم (القطيفة) .

وقد ظهر هذا الأسلوب التطبيقى ممتزجا مع الأسلوب الفنى والزخرفى لأول مرة فى إيران فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة فى عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٦ - ١٦٢٨ م) ، الذى ظهر اسمه على ثلاث من هذه القطع .

السجاد التركى

ان شهرة تركيا فى صناعة السجاد تلى شهرة إيران ، فهى تحتوى كذلك على كل المقومات التى تساعد على قيام هذه الصناعة ، فبلاد الأناضول تحتوى على مراعى وفيرة يجود الصوف فى جوها البارد وأرضها الجبلية وقريبة من المجارى المائية لغسل الصوف فتجود صباغته . على أن أقدم رسوم للسجاد التركى وصلتنا من اللوحات التى رسمها كبار مصورى ايطاليا وهولندا فيما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر بعد الميلاد ، مما يشهد بأن السجاد التركى كان يصدر الى أوروبا فى زمن أولئك الفنانين كما ان الكثير من القصور والكنائس والأديرة فى أوروبا تحتفظ حتى الآن بسجاد تركى قديم .

ومن أهم المصورين الهولنديين والايطاليين والألمان الذين رسموا الطنافس التركية فى لوحاتهم جيوتو (Giotto) ودمنكو دى بارتولو (Domenico di Bartolo) وفرانجلو (Fra Angelico) وكاربتشيو (Carpaccio) وهولباين (Holbein)

أما عن مراكز الانتاج بتركيا فتكاد يتجمع معظمها في النجاد الواقعة في الأناضول على مسافة غير بعيدة من شواطئ البحر المتوسط مثل منطقة عصاق وكوردوس وقولا التي ما تزال حتى الآن تنتج مقداراً كبيراً من السجاد التركي . كما تعتبر أزمير قاعدة هامة لتصدير السجاد التركي الى أوروبا حتى نسب إليها نوع من الجساد كان يصنع بالقرب منها ، وإن كان معظم القائمين على انتاجه من الجاليات الأجنبية في أزمير . ويجب أن نتناول زخارف السجاد التركي ومراكز انتاجه بالبحث والدراسة وأن نذكر في ايجاز وجه الخلاف بين السجاد التركي والايراني سواء من ناحية الزخارف أو المواد الخام أو المساحات .

أما بالنسبة للزخرفة فيمتاز السجاد التركي بأنه لا يحتوى على رسوم حيوانية أو آدمية على الإطلاق ، كما أن رسومه النباتية محورة وبعيدة عن الطبيعة وتقرّب من الأسلوب التجريدي كما يمتاز السجاد التركي بتعدد الأشرطة الموجودة بالاطار بحيث أصبحت مساحة السجادة صغيرة .

أما المواد الخام المستعملة في صناعة السجاد التركي فتكاد تقتصر على الصوف ويندر أن نجد السدى أو اللحمية من القطن ، أما الحرير فنادر وكذا الخيوط المعدنية فلا يكاد لها وجود في السجاد التركي .

وكذلك تختلف مقاسات السجاد التركي فهي صغيرة بوجه عام إذا ما قورنت بالسجاد الايراني ، فمعظم السجاد التركي قطع صغيرة تميل الى أن تكون مربعة ، أما إذا كانت السجادة كبيرة فهي ضيقة العرض كثيرة الاستطالة مما يدل على صغر عرض النول . ومن ثم فقد اشتهرت تركيا بصناعة نوع صغير الحجم من السجاد عرف بسجاجيد الصلاة وذلك لاحتواء زخارفه على ما يشبه محراب المسجد .

سجاد القوقاز

لقد كانت لبلاد القوقاز شهرة واسعة في صناعة البسط والكليم والجيلام والسجاد الوبرى المعقود منذ أقدم العهود شأنها في ذلك شأن ايران وذلك لوجود جميع المقومات التي تحتاج إليها مثل هذه الصناعة . ولعل أهم ما أنتجه اقليم القوقاز ينسب الى أرمينيا وأحياناً الى كوبا جنوب شرقي القوقاز ، الذي يطلق عليه في كثير من الأحيان اسم سجاد التين وذلك لأن التين هو العنصر الرئيسي في السجاد المصنوع في المنطقة كلها .

وبرغم شهرة القوقاز الواسعة فى صناعة السجاد الا أن أقدم ما نعرفه منها يرجع الى القرن (١٥) وهو يحتوى على رسم ننين بشكل بدائى تحيط به مجموعة من الأرجل على شكل الخطاطيف كما تقص الأساطير والروايات . على أن صورة التنين مرسومة بأسلوب تجريدى ويحيط به مربع فبدا وكأنه رسوم هندسية بحتة والقطعة التى نتحدث عنها كانت محفوظة فى القسم الإسلامى بمتحف برلين ولكن أكبر الظن انها ذهبت ضحية الحريق الذى قضى على مجموعة السجاد التى كان يزخر بها المتحف . ونتيجة القطعة المشار اليها خشن وأرضيتها لونها أصفر ، أما التنين أزرق وأحمر والاطار أسود وأحمر .

وقد سجل لنا المصور الايطالى (Lorenzo Lotto) فى احدى لوحاته المحفوظة الآن فى متحف مدينة سينا Seina بايطاليا ، رسم سجادة تنين مماثلة للسجادة التى نحن بصدد وصفها ، ومماثلة للسجادة المحفوظة كذلك بالمتحف التاريخى بمدينة استوكلم . ويمكن تقسيم سجاد القوقاز الى الأقسام الآتية :

١ - سجاد أرمينيا :

ومن أهم المناطق لصناعة السجاد القديم أرمينيا ونمتاز زخارفها المحتوية على رسم التنين كعنصر أساسى باحتوائه على زخارف نباتية قريبة من الطبيعة الى حد كبير كما تحتوى على الزهرة المركبة والورقة المركبة التى نجدها فى السجاد الايرانى المعروف بالزهريّة وفى الحزف التركى . الا انها تتفق مع باقى البراقة والمتعددة مثل اللون الأزرق للأرضية والزخارف بالألوان الأصفر الا انه يصبح فى سجاد ارمينيا أكثر تحويرا . ويمتاز سجاد أرمينيا بألوانه سجاد القوقاز القديم بأن ساحة السجادة مقسمة معينات - يكونها جسم التنين والأحمر . أما الاطار فضيق نسبيا ويتكون من وحدة نباتية مكررة فى معظم الأحيان .

٢ - سجاد كازاك :

وهو الذى يصنع فى الجزء الجنوبى الغربى من القوقاز وهو يعرف فى الأسواق أيضا باسم داغستان وتمتاز بألوانها البراقة الفاقعة كما تمتاز بوحداتها الزخرفية الكبيرة المرسومة بأسلوب هندسى . وهى تتفق مع سجاد ارمينيا من حيث احتوائها على رسم التنين كعنصر رئيسى الا أنه فى سجاد كازاك أكثر وضوحا فهو يشكل المعينات كما أنه يرسم داخلها . كما ان الزخارف النباتية المكونة من زهور مركبة وأوراق مركبة بأسلوب هندسى كذلك . وسجاد

كازاك سميك وألوانه يسودها اللونان الأحمر والأزرق ، أما الاطار فزبدى اللون غالبا ومساحتها صغيرة .

٣ - سجاد شروان وكوبا :

وهو السجاد الذى يصنع فى الجزء الشرقى من القوقاز وهو أدق صنعة وأقل لمعانا وأقصر وبرة من سجاد كازاك ويكثر بها اللون البنفسجى . ويكثر بها زخارف الطيور والحيوانات ، الى جانب التنين طبعا الا أنها محورة تحويرا كبيرا . ولعل أهم ما يميز سجاد شروان وكوبا احتواء الاطار على زخارف شبه كتابية تشبه زخارف الهولباين فى السجاد التركى والاسبانى .

سجاد التركستان وآسيا الوسطى

من المعروف ان العشائر الرحل فى بلاد التركستان وآسيا الوسطى كانت من أول الشعوب التى صنعت السجاد الوبرى لاستعماله فى أغراض شتى توائم طبيعة البلاد التى يسكنونها وتتفق وما يملكونه من المواد الخام التى تقوم عليها هذه الصناعة من صوف وصباغة وما إليها .

ومن أحسن الأمثلة لهذا السجاد ما يرجع الى ما قبل القرن الماضى وهى تنسب خطأ الى بخارى ولعل مرجع هذا الخطأ ان بخارى هى المركز التجارى لتسويق سجاد التركمان .

وتمتاز زخارف هذا النوع من السجاد بأن قوام زخرفتها شكل متمن يعرف باسم (بيلى با) أى (قدم الفيل) بالفارسية والتركية . ويغلب على هذا السجاد اللونان الأحمر القانى والأبيض والأزرق أو الأسود كلون مساعد .

السجاد الهندى الاسلامى

قاهت صناعة السجاد فى عصر أباطرة المغول على أيدي الايرانيين كما هو الحال فى باقى فنونهم الاسلامية . ولذلك فأننا نلاحظ فى السجاجيد الاسلامية القديمة بالهند أوجه شبه كبيرة بينهما وبين السجاد الايرانى وخاصة فى اقتصره على رسوم الزهور والنباتات القريبة من الطبيعة وان كانت تمتاز بلونها البرتقالى الذى لا نعرفه فى غيرها من السجاد وبلون بنى مائل الى الحمرة . وكثيرا ما عرفت هذه السجاجيد باسم السجاجيد الهندية الايرانية . ولكن سرعان ما تحرر الصناع الهنود من التأثيرات الايرانية وأقبلوا على رسم الطيور والحيوانات والصور

الآدمية وان لم يفقدوا الصلة كلية بالأساليب الايرانية . ولعل أهم ما يميز السجاد الهندي قرب رسوم الطيور والحيوانات وكذا النباتات من الطبيعة الى حد كبير مما لا نجده في السجاد الايراني اما ان المناظر التصويرية مأخوذة من الأساطير الهندية وكذا رسوم الآدميين هندية السحنة واللباس والأسلوب . ومن حيث الصناعة فهي في غاية الدقة وكثيرة العقد حتى أن السجاد الصوف الذي صنع في عصر شاهجهان يبدو من دقته وكأنه مصنوع من الحرير . كما أن الهند اشتهرت منذ أقدم العصور بسجادها المصنوع من الحرير والذي استمر بطبيعة الحال الى العصر الاسلامي وان اختلفت رسومه وأسلوبه الزخرفي .

النقش في الخشب والعاج

من المعروف ان معظم الأقاليم الاسلامية كانت ولا تزال تفتقر الى الجيد من الأخشاب التي يمكن أن تؤدي عليها رسوم أو زخارف منقوشة أو محفورة . ولكن العرب استطاعوا أن يتغلبوا على هذا النقص في مادة الخشب الجيد ، بجلبه من البلاد الأخرى وخاصة عندما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وأصبحت تضم العديد من المناطق الجغرافية .

وسرعان ما برز المسلمون في صناعة التحف الخشبية حتى أصبح لهم أسلوبهم الخاص المتميز في زخرفة الأخشاب . لقد كان طبيعيا أن تكون الزخارف الأولى التي استعملها المسلمون في زخرفة أخشابهم متأثرة بالفنون التي كانت سائدة قبل الاسلام ونعني بها الهلينستية والساسانية ثم أخذت تتطور تدريجيا حتى اذا ما جاء القرن الثالث للهجرة كان الفنان المسلم قد ابتكر له أسلوبا خاصا متميزا لم يسبق اليه والواقع ان الأسلوب الزخرفي الذي ابتكره الفنان المسلم في القرن الثالث الهجري لم يكن وقفا على الخشب فحسب بل امتد الى غيره من التحف الفنية الأخرى فقد بدأ ظهور هذا الأسلوب الجديد من الزخرفة على الجدران والسقوف المكسوة بطبقة من الجفن وكانت كلها زخارف قلبية ، بدأت برسوم ونقوش نباتية أخذت تتحول شيئا فشيئا حتى بعدت عن أصولها حيث أصبح من العسير تحديد أسمائها وان كان من اليسير نسبتها الى النباتات .

وقد أكثر العرب من استعمال الزخارف النباتية المحورة حتى ان علماء تاريخ الفنون لم يجدوا اسم علم يطلقونه على هذه الزخارف التي ابتكرها العرب وأكثروا من استعمالها خيرا من اسم أرابيسك (Arabesque) في العصر العباسي .

وقد انتشر هذا الأسلوب المحور في زخرفة الأخشاب في العصر العباسي في جميع بلاد العالم الاسلامي في ذلك الوقت حتى أصبح من العسير في كثير من الأحيان على غير المتخصصين تحديد الاقليم الذي صنعت فيه التحف الخشبية .

فلما تقطعت أوصال الدولة العباسية وظهرت خلافت أخرى في الأندلس الدولة الأموية الغربية والدولة الفاطمية في شمال افريقية ومصر تطورت زخارف الأخشاب وأصبح لكل اقليم زخارف معينة تميزها عن غيرها من الأقاليم وان اتحدت جميعها في الطابع والطرز العام الذي كان يوحد ويضم شمله الخط العربي والكتابات القرآنية .

الخشب الفاطمي :

فقد تميزت الزخارف المحفورة على الخشب في العصر الفاطمي في أنها جمعت بين الطراز العباسي المحور عن الطبيعة وطراز آخر جديد كل الجودة وهو الزخارف الآدمية والحيوانية التي كانت موجودة في مصر قبل الاسلام والتي كان يمارسها في الأخشاب المحفورة وبرع فيها أقباط مصر .

ومن ثم فقد أطلق على الطراز الفاطمي في القرنين الرابع والخامس للهجرة طراز انتقال على ان تأثر الطراز الفاطمي بالطراز المصري القديم الذي وجد قبل الاسلام كان شيئاً طبيعياً ذلك ان خلفاء الدولة الفاطمية كانوا قد اعتمدوا عند الاستيلاء على مصر واقتطاعها من الدولة العباسية على أقباط مصر لاعتبارات كثيرة. لعل أولها وأهمها هو خوفهم من الاعتماد على المسلمين السنيي المذهب المخالفين لمذهب الفواطم الشيعي الاسماعيلي .

هذا فضلاً عن ان أقباط مصر كانوا أكثر دربة وقدرة على استغلال اقتصاديات مصر التي تقوم أساساً على الزراعة . لذلك فقد أسند خلفاء الدولة الفاطمية الوزارة ووظائف الدولة الكبرى الى أقباط مصر بل وتصاهروا معهم فتزوج الخليفة العزيز بالله مسيحية وأنجب منها ولده الحاكم بأمر الله وهكذا أصبح أحوال الخليفة من الأقباط .

وهكذا نستطيع القول بأن القرنين الرابع والخامس للهجرة كانا عصرين لحياء للفنون القبطية في مصر وخاصة في صناعة التحف الخشبية والحزف والنسيج .

على ان الطراز القبطي الذي انتعش في مصر في العصر الفاطمي أخذ يضعف شيئاً فشيئاً منذ نهاية القرن الخامس الهجري حتى اذا ما بدأ القرن السادس للهجرة كان قد تلاشى تماماً وحل محله طراز زخرفي جديد أتى من مشرق العالم الاسلامي مكون من أشكال هندسية قوامه النجمة المتعددة الرؤوس .

الخشب في عصر الأيوبيين والمماليك والعثمانيين :

احتفظ الخشب بطرازه الزخرفي الذي وجد في نهاية العصر الفاطمي قرابة سبعة قرون أي حتى نهاية العصر العثماني لم يطرأ عليه تغير جوهري وان تطور في دقة الزخارف النباتية التي تملأ ساحة الوحدات الهندسية كما تطور أسلوب الخط فقد بدأ الخط النسخي منذ العصر الأيوبي يحل محل الخط الكوفي في

معظم الحالات ثم تطور النسخى الى حروف كبيرة فى العصر المملوكى وهو ما عرف باسم الخط الثلث المملوكى (١) .

كما استتبع هذا التطور طوال تلك العصور تطور فى الأسلوب التطبيقى للحفر على الخشب . وقد عرفت الوحدات الزخرفية التى استعملت فى زخرفة الأخشاب طوال تلك المدة باسم الحشوات المجمة التى تكون فى مجموعها باسم الطبق النجمى الذى يحتوى على النجمة فى الوسط والتى يلتف حولها وحدات صغيرة ثلاثية الشكل يبلغ عددها عدد النجمة تعرف باسم (اللوزة) ثم يحيط (باللوze) وحدات أكبر منها ذات خمسة أضلاع تصنف باسم (الكندرة) وتحيط بالطبق النجمى سدايب خشبية تحبس تلك الحشوات والأطباق النجمية ببعضها البعض .

وقد أبدع النجارون فى العصر المملوكى فى زخرفة الحشوات المجمة فملأوها بأنواع المراوح النخيلية والفروع النباتية والورقات بأسلوب ووقص قريب من الطبيعة الى حد بعيد وبعيد كل البعد عن الأسلوب المحور (الأرابيك) الذى كان سائدا فى القرون الأربعة الأولى للإسلام .

وأقبل الفنانون على انتاج التحف الرقيقة لا سيما المقابر والأبواب والوكلك والكراسى والخزانات الحائطية التى تعرف حاليا فى البلاد الأوربية باسم (Placard) وكذا كراسى العشاء وقد ازدهرت فى عصر المماليك صناعة الشبكيات المصنوعة من الخشب الحُرط وهى التى تعرف باسم مشربية وهى مأخوذة لكلمة (شرب) التركية وتعنى الغرفة العلوية البارزة عن سميت الحائط ولما كانت مثل هذه الغرفة البارزة توضع بها أوانى الشراب التى تبرد فقد اختلطت كلمة (شرب) التركية وكلمة الشراب .

فأصبحت كلمة مشربية اسم علم على كل النوافذ والفتحات المغطاة بخشب الحُرط والتى تكون عادة بارزة عن سميت الجدار الخارجى للدور والمنازل .

(١) لقد كان يكتب فى الدواوين على لفائف من الكاغد طولها (٣٦) مترا تقريبا (تعرف باسم الطومار) فلما وجدوا أن مثل هذه الفائدة الطويلة معطلة لأعمال الديوان قسموها الى ثلاثة اثنان فصرف كل جزء من الطومار باسم ثلث الطومار وقد استتبع تقسيم الطومار الى ثلاثة أقسام تصغير حرف القلم (قطه) البسط الذى كان يكتب به الى ثلث وكان ذلك فى العصر المملوكى هكذا عرف الخط الذى كتب بثلاث قطه القلم على ثلث طول الطومار باسم الخط الثلث ونسب الى العصر الذى ابتدع فيه وهو العصر المملوكى .

طريقة الصناعة :

ومن الأمور التي تستدعي الاشتباه في الطرق التطبيقية التي استعملت في المنتجات الفنية في العصر الاسلامي انها كانت تساير تطور الأسلوب والطرز الزخرفي الذي كان يتغير من عصر الى آخر تبعا لظروف سياسية أو دينية أو اقتصادية فقد كان الأسلوب التطبيقي في الحفر على الخشب في العصر الأموي وبداية العصر العباسي يوائم ويساير الأسلوب الزخرفي الذي كان يمثل الطبيعة الى حد كبير وخاصة في الزخارف والرسوم النباتية لذلك نجد الحفر عميقا ومجسما حتى يبرز الزخرفة قريبة من الطبيعة كما أرادها الفنان .

فلما تطورت الزخارف النباتية في القرن الثالث للهجرة وأصبحت محورة الى درجة كبيرة أبعدت العنصر الزخرفي عن أصوله الأولى وهو الأسلوب الذي عرف باسم (رابيك) (Arabesque) ثم تطور فن النحت فأصبح مسطحا اذ لم يجد الفنان ضرورة لتجسيم عناصر غير معروفة كما كان يفصل بين العناصر بحزور غير عميقة وان كان قد عني بعمل قنوات تفصل الواحدة الزخرفية فقط . فلما ازدادت العناصر الزخرفية تحويرا ابتدع الفنان طريقة الحفر المشطوف بحيث لا يجعل للعناصر الزخرفية حافات حادة بل شطفها فجعلها مستديرة مما أكسبها شيئا من الحياة البهجة .

أما في العصر الفاطمي عندما استخدم الفنان الأسلوب المحور السالف الإشارة اليه مع عناصر آدمية وحيوانية المأخوذة عن الفن القبطي كان عليه ان يطور أسلوبه التطبيقي فحفر الزخارف المحورة بطريقة الشطف وحفر الزخارف الآدمية والحيوانية عميقا وبارزا ثم حضر الخليفة التي تقع الزخارف الآدمية والحيوانية حفرا أقل بروزا .

وهكذا استخدم الفنان في زخارف العصر الفاطمي ثلاث مستويات من الحفر فلما تطورت زخارف الأخشاب بعد العصر الفاطمي وأصبحت تتكون من عناصر هندسية قوامه النجمة .

تطور الأسلوب التطبيقي بحيث أصبح الفنان يحفر كل وحدة من وحدات الطبق النجمي النجمة واللوزة والكندة كل منها على حدة ثم تجمع هذه الوحدات الصغيرة الى بعضها بطريقة العاشق والمعشوق .

دون أن يلجأ النجار الى استعمال المسمار أو أي مادة غروية لاصقة وهو أرقى ما وصل اليه فن صناعة الأخشاب حتى الآن وهو الأسلوب التطبيقي المعروف باسم (الحشوات المجمة) .

وقد كان الفنان يكسو الخشب فى بعض الأحيان بطبقة من قشرة بعض الأخشاب الملونة كالأبنوس أو من العاج أو العظم وما يليها وذلك باستعمال مادة غروية لاصقة . ويعرف هذا الأسلوب التطبيقي باسم الترصيع (Morquerterie) أو تطعيم زائف False Glued كما استعمل فى زخرفة التحف الفنية طريقة التطعيم بالعاج أو الصدف (Inlay) وفى العصر العثمانى استعمل فى زخرفة الأخشاب بالمعادن وهو الأسلوب المعروف باسم التكيف . (Jucrus.ation)

الخشب فى المغرب والأندلس :

الواقع ان الطراز الفنى الذى ساد التحف الخشبية فى الأندلس وبلاد المغرب فى العصر الأموى والعباسى والأموى الغربى كان يتبع الطراز الاسلامى العام الذى ساد العالم الاسلامى مع بعض مميزات فرعية طفيفة لم تغير من الجوهر شيئا .

أما عن الطراز الفنى فى عصر المرابطين والموحدين فهو تقليد الأساليب الفنية التى عرفناها فى عصر الأيوبيين والمماليك الذى عرف باسم الطباق النجمى المصنوع بطريقة الحشوات المجمعة. وان اختلفت فى بعض التفاصيل مثل شكل النجمة فهى عادة غير منتظمة الرؤوس كما ان شكل (اللوزة والكندة) مقابل لشكل مثيلاتها فى مصر وبلاد الشام . ولعل من أقدم التحف الخشبية التى ما تزال موجودة حتى الآن وتمثل الطراز الأموى خير تمثيل منبر مسجد القيروان بتونس .

واذا كان ما وصل إلينا من التحف الخشبية من الأندلس وشمال أفريقيا قبل عصر المرابطين تعد قليلة جدا الا ان التحف التى ترجع الى عصر المرابطين كثيرة من . ومن أجملها منبران بديعان يوجد الأول منهما بالمسجد الجامع فى مدينة الجزائر والثانى يوجد بجامع القرويين فى مدينة فاس

كذلك يرجع الى العهد المرابطى مقصورة المسجد الجامع فى تلمسان . ومن تحف العصر الموحدى منبر جامع الكتبية ومنبر جامع القصبة فى مراكش وكذا منبر المسجد الجامع فى قرطبة

ومن التحف الأندلسية التى ترجع الى القرن الثامن الهجرى أبواب قائمة الأختين فى قصر الحمراء بغرناطة وأبواب القصر Alcazar بمدينة أشبيلية .

الحفر على الخشب فى العصر السلجوقى :

لم يخرج الطراز الفنى فى الحفر على الخشب فى العصر السلجوقى فى شرق العالم الاسلامى عن الأسلوب الذى ساد مصر وبلاد الشام وكذا الأندلس وبلاد المغرب منذ القرن السادس والسابع ونعنى به طراز واسلوب الطبق النجمى أو الزخارف الهندسية المملوءة بالزخارف النباتية التى أخذت تدب فيها الحياة بعد الأسلوب المحور الذى ساد النصف الأول من العصر العباسى .

أما من حيث الأسلوب التطبيقي فلم يصل فى نظوره ودقته ما وصل اليه فى مصر وبلاد الشام اذ لم يتبع أسلوب الحشوات المجمعّة وانما اقتصر على الحفر الغائر والبارز .

ولعل من أعظم المتحف الخشبية التى ترجع الى العصر السلجوقى منبر جامع علاء الدين بقونية فهو غنى فى زخرفة كل أجزائه كما وجد فى جامع علاء الدين على كرسى مصحف يعتبر تحفة فنية رائعة وهناك مجموعات من الأبواب ذوات المصراعين المحفوظة فى متاحف العالم مثل متحف برلين الاسلامى وفى متحف فراير بأمريكا Freer Gallery ومتحف المتروبوليتان بنيويورك ومتحف اسطنبول وغيرها من المتاحف تدل على مبلغ ما وصل اليه فن النحت على الأخشاب فى العصر السلجوقى من الدقة والابداع .

الحفر على الخشب فى العصر المغولى والتمورى والصفوى :

لم يتطور الأسلوب الزخرفى ولا التطبيقى فى الحفر على الخشب كثيرا فى العصر المغولى عما كان عليه فى العصر السلجوقى فقد ظلت الرسوم الهندسية المملوءة بالزخارف النباتية القريبة من الطبيعة هى السائدة .

على ان ما وصل اليه من العصر المغولى قليل لا يستحق الذكر ولعل أقدم ما وصلنا منها هو أبواب مسجد بايزيد بمدينة بسطام وكذا منبر المسجد الجامع بمدينة ناين على أنه لم يكده ينتصف القرن الثامن للهجرة عندما ثبتت أقدام المغول فى العراق وايران .

حتى ظهر طراز مغولى متميز من حيث الأسلوب الزخرفى فقد انفرد باستعمال الرسوم النباتية القريبة من الطبيعة الى حد كبير مع التجسيم ومراعاة الدقة فى أصغر التفاصيل مما يجعله يستعمل طريقة الحفر على عدة مستويات تصل الى ثلاثة مستويات بل وأربعة فى بعض الأحيان اذ نبحت الخلفية على مستوى من الفروع والأوراق النباتية ثم يأتى فى المستوى الثانى الكتابات

القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أسماء الأئمة الاثني عشر وكذا اسم الصانع وتاريخ الصناعة ثم المستوى الثالث وتأتى فيه العناصر الانشائية فى الزخرفة وهى عادة الزهور والثمار . أما المستوى الرابع فهو الحفر الذى يزخرف الاطار الذى تحيط بالتحفة الخشبية المحفورة .

وليس معنى هذا ان استعمال الزخارف الهندسية قد تلاشى فى العصر المغولى فقد ظل باقيا جنبا الى جنب مع الزخارف النباتية وخاصة فى أخشاب ابواب ونوافذ العمارات وان كان على قلة .

واستمر الاسلوب والطراز للزخرفة والتطبيق فى الحفر على الخشب فى العصر التيمورى وان تطور فى مراعاة الطبيعة الى درجة اكبر من العصر المغولى كما ان الفنان اصاب حظا اوفر فى دقة النحت البارز والفاخر مما جعل عناصر الزخرفة تبدو اكبر عمقا واكثر حيوية ودقة .

وقد ظهر فى العصر الصفوى اسلوب جديد فى نحت التحف الخشبية وذلك من الناحيتين الزخرفية والتطبيقية اما الناحية الزخرفية فقد كانت اشبه ما تكون بزخرفة السجاد وجلود الكتب فقد أصبحت الزخرفة تتكون من حرة (أوجامة) تتوسط التحفة المراد زخرفتها خاصة الابواب والنوافذ وفى أركانها قطاعات ن العرة أو الجامة ثم ازدهر فى القرن الحادى عشر والثانى عشر للهجرة اسلوب جديد فى زخرفة التحف الخشبية فقد أصبحت تحوى مناظر تصويرية مأخوذة من مدارس التصوير الصفوية المعاصرة وقد استخدم فى تطبيق هذه الزخارف طريقة اللاكيه المدهون بالرسوم المتعددة الألوان .

وقد استعملت طريقة اللاكيه فى زخرفة الابواب والخزانات Piacard وكذا الدرايا (جمع درئية وهى الرفان) وغيرها ومن أجمل ما وصل الينا من هذه الصناعة بابان يتكون كل منهما من مصراعين يقال انهما كانا فى قصر جهل ستون بأصفهان أحدهما محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك والثانى بمتحف فيكتوريا والبرت بلندن .

الحفر فى العاج :

لقد تبع العاج فى زخرفته وطريقة صناعته الى حد كبير الحفر فى الخشب فقد طبق الطراز الأموى والعباسى فى حفر التحف العاجية سواء من الناحية الزخرفية أو اسلوب الصناعة ولما كانت التحف العاجية التى وصلت الينا وترجع الى القرون الثلاثة الأولى من الاسلام قليلة وهى تتبع اسلوب الحفر فى الخشب انما لم نجد فائدة تذكر فى تكرار ما سبق قوله فى التحف الخشبية .

على ان معظم ما وصل الينا من التحف العاجية فى فجر الاسلام بل فى العصر الاسلامى كله هى العلب الاسطوانية والصناديق التى صنعت فى الأندلس فى العصر الأموى والتى يرجع معظمها الى القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة ومما يزيد فى أهميتها ان معظمها مؤرخ وعليه كتابات تحمل اسم الأمير أو الشخصية التى صنعت له وهى تتبع فى جملتها الطراز الأموى فى المشرق من حيث الزخارف ومن حيث الأساليب التطبيقية وان كان يكثر بها الرسوم الآدمية والحيوانية المحصورة داخل جامات وتشوبها مسحة مسيحية وبيزنطية واضحة .

كما وجد فى مصر وصقلية فى العصر الفاطمى مجموعة لابأس بها من التحف العاجية محفور عليها زخارف آدمية وحيوانية تشبه الى حد كبير زخارف الوزارات الخشبية التى عثر عليها فى القصر الفاطمى الغربى التى كانت تحتوى على رسوم طوب أو موسيقى أو صيد أو قفص وكثيرا ما كانت تصنع حشوات بأكملها من العاج لكى تجمع بعد ذلك مع الحشوات الخشبية .

ولعل من أهم التحف العاجية التى ترجع الى العصر الفاطمى أبواب الصيد والتى تحتوى على زخارف بارزة وغائرة من رسوم حيوانات وطيور ومناظر صيد محصورة داخل دوائر أو فروع نباتية متداخلة .

كذلك عثرنا على تحف عاجية قليلة ونادرة ترجع الى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى وقوام زخرفة تلك التحف رسوم هندسية مخرمة تشبه عشب النحل الى حد كبير وهى محفورة بدقة بالغة وعليها كتابات بالخط النسخى . بيد ان استعمال العاج والعظم فى عصرى الأيوبيين والمماليك كان على الخصوص فى التطعيم والترصيع ولا سيما فى حشوات المنابر وفى أبواب العماير الدينية ونوافذها وكذا كراسى العشاء والخزانات والدرايا .

أما عن التحف العاجية فى ايران فمن المعروف أن فارس قد استعملت العاج منذ أقدم العصور فقد استورده لزخرفة قصورهم فى سومس وبيرسولوبرس واكتشفون ومن التحف التى تنسب الى ايران فى العصر الاسلامى عليه من العاج محفوظة بمتحف (Museo Diocedano) حفر عليها رسوم أميرات على صهوة الجياد ورسوم نباتات وحيوانات أخرى صغيرة كما توجد عليه بمتحف برلين القسم الاسلامى قوام زخرفتها رسوم طيور وحيوانات وفروع نباتية ورسم أميرة تجلس على عرش يكتنفه طاووسان وهذه الرسوم تشبه الى حد كبير رسوم الخزف الايرانى فى القرنين السادس والسابع للهجرة . ويوجد بمتحف بناكى صندوق عاجى تشبه زخارفه النباتية زخارف المنسوجات والسجاد الايرانى فى القرن العاشر والحادى عشر بعد الهجرة .

وينسب إلى الهند مجموعة من التحف العاجية التي ترجع إلى العصر الإسلامي لعل أهمها مجموعة من قطع الشطرنج ظلت محفوظة في كنوز كنيسة سان دلي Saint Damis حتى القرن السابع عشر ولكن لم يبق منها اليوم إلا قطعة واحدة على شكل فيل وتزعم سجلات الكنيسة أن شارلمان قد تلقاها هدية من هارون الرشيد وتمثل القطعة ماح على ظهر فيل تحف به الحراس والفرسان وقد وقف على خرطوم الفيل بهلوان وقد كتب على قاعدة القطعة اسم صانعها « عمل يوسف الباهلي » وقد تردد كثير من الأثريين بين نسبة هذه القطعة إلى الهند أو العراق في القرن السادس الهجري وإن كان معظمهم لا يرى نسبتها إلى هارون الرشيد وشارلمان .

الزجاج والبلور الصخري

لقد اشتهر الشرق الأدنى بصناعة الأواني الزجاجية الجميلة ولا سيما مصر والشام منذ العصر الروماني وقد ظلت الطرز والأساليب الفنية التي عرفها الشرق الأدنى في صناعة الزجاج قبل الاسلام ... سائدة فيه خلال القرون الأربعة الأولى . .

ولما كان اقبال المسلمين على استعمال التحف الزجاجية كبيرا وكان التطور في ميدان هذه الصناعة أبطأ من غيره من الصناعات التي سادت العالم الاسلامي هذا فضلا عن اشتراك اقليم العالم الاسلامي في العهدين الأموي والعباسي في الأساليب الزخرفية وكذا التطبيقية في ميادين الفن الاسلامي عامة والزجاج بصفة خاصة كان من الصعب في كثير من الأحيان نسبة التحف الزجاجية الى اقليم بعينه اللهم الا اذا قام على صحة نسبته دليل يمكن الاطمئنان اليه .

ولما كان الأمر كذلك فقد وجد الأثريون ان أفضل طريقة لدراسة التحف الزجاجية في فجر الاسلام هو الطراز الزخرفي والأسلوب التطبيقي أما زخارف الزجاج في الأربعة القرون الأولى للاسلام فمتنوعة فمنه نوع ذو ثنايا وضلوع وكان ذلك يحدث عن طريق نفخ الزجاج في قالبين الواحد بعد الآخر وهناك نوع من الزجاج ذي الزخارف المختومة أو المصنوعة بآلة كالملقاط أو المنقاش وأخرى محفورة أو مقطوعة على (الدولاب) كما وجدت زخارف زجاجية على هيئة خيوط أو أقراص مضلفة وقد يركب الاناء فوق حامل زجاجي على شكل تمثال حيوان أو طائر .

وقد تطورت صناعة الزجاج في القرن الخامس الهجري ففي مصر ظهر نوع من الزجاج المزخرف لعله أبداع المنتجات الزجاجية الفاطمية وأعظمها قيمة من الناحية الصناعية هي الزجاج المذهب والمزين بزخارف من طلاء البريق المعدني .

وقد أثبتت الكشف الأثرية التي قامت بها البعثة الأمريكية في منطقة الفسطاط سنة ١٩٦٥ بان البريق المعدني قد ظهر على الزجاج المصري على أقل تقدير منذ أوائل العصر الاسلامي وذلك اعتمادا على كأس من الزجاج عليه زخارف بدیعة بالبريق المعدني ومؤرخة سنة ١٥٥ هـ . ولا شك ان مثل هذا الاكتشاف قد رجح الرأي الذي ذهب اليه الدكتور بتلر (Butler) من ان البريق المعدني كان معروفا في مصر قبل الاسلام .

البللور الصخرى والزجاج السميك :

وقد ظهر فى العصر الفاطمى نوع من الأواني تشبه فى مادتها الزجاج وإن كانت تختلف عنه اختلافا بينا فبينما نجد أن الزجاج مادة مصنعة قوامها (السيلكا والصوديوم) نجد البللور الذى أطلق عليه البللور الصخرى معدن طبيعى كان يستخرج من مرتفعات بلاد المغرب وقد ذكره ابن جيد فى رحلته ثم جىء ببعضه من مرتفعات البحر الأحمر بمصر وكان هذا النوع الجديد أنقى وأجمل من المغربى .

وقد أقبل القوم على اقتناء الأواني البللورية لجمال شكلها ولاعتقادهم أن للشرب فيها فوائد ولعل العثور على معدن البللور الصخرى فى مصر كان سببا فى انخفاض ثمنه وكثرة إنتاجه مما جعل الخلفاء والوزراء وعلية القوم فى العصر الفاطمى يجمعون مقادير كبيرة منه حتى ازدحمت بها خزائنهم التى تحدث عنها الشعراء والأدباء فى تلك العصور .

ومن الطبيعى أن يكون للبللور الصخرى أسلوب خاص مختلف تماما عن الزجاج وذلك من الناحية الزخرفية وكذا التطبيقية لاعتبارات كثيرة أولها أن البللور معدن طبيعى فلا يحتاج إلى صهر ولا نفخ وثانيها أنه معدن صلب جدا ليس من السهل تشكيله أو حفر الزخارف فيه إلا بواسطة قطع من الماس .

ومن ثم فإننا نعتبر الأواني المصنوعة من البللور الصخرى تخضع فى أسلوب تصنيعها إلى فن النحت حكمها فى ذلك حكم الأحجار والرخام وما إليها من المواد الصلبة الصعبة المراسن .

ومن أهم ما خضع لفن النحت من البللور الصخرى قنينات كروية أو كمثرية الجسم وكذلك بعض كئوس كمثرية الشكل نحتت فى بدنها زخارف نباتية وحيوانية ذات أحجام كبيرة لصعوبة حفر عناصر صغيرة .

ومما يجدر ملاحظته أن الزخارف المنحوتة على البللور الصخرى تتبع من حيث الأسلوب الزخرفى العام فن النحت على الخشب والعاج إلا أنه أقل دقة وتفصيلا لصلابة المادة وصعوبة حفرها .

كذلك ظهر فى العصر الفاطمى نوع من الزجاج السميك يظهر أن صناع الزجاج قد لجأوا لاستعماله لكى يخل محل البللور الصخرى الباهظ الثمن والذى لم يقدر على اقتنائه إلا علىة القوم فهو أقل نفقة منه وفى نفس الوقت يشبهه فن الزخارف إلى حد كبير .

وتحدث الزخارف فى الزجاج السميك بطريق القطع والضغط ومن أشهر التحف المصنوعة من الزجاج السميك فى العصر الفاطمى مجموعة من الأقداح يسميها الغربيون (كؤوس القديسة هدويج) (Hedwigsglass) وقد نسبت هذه الكؤوس الى القديسة هدويج لحيارتها لها وتتميز هذه الكؤوس بأنها على شكل الدلو أو السطل وبأن سطحها تغطيه زخارف مقطوعة تمتد على مساحة الآنية كلها حتى انه أصبح من العسير تميز الموضوعات الزخرفية من الأرضية .

الزجاج المذهب والمموه بالمينا :

يعتبر القرن السادس الهجرى بداية عصر تطور فى صناعة التحف الزجاجية الاسلامية لم يبلغه من قبل وخاصة فى مصر وبلاد الشام وقد استمر هذا التطور حتى بلغ أوج عظمته فى القرن التاسع للهجرة وذلك بفضل رعاية وتشجيع سلاطين دولة الأيوبيين وكان غاية ما وصلت اليه صناعة الزجاج فى ذلك الوقت هو رسم الزخارف بالتذهيب والمينا البراقة الجميلة البارزة المتعددة الألوان .

واذا كانت العراق وايران قد تأخرتا فى صناعة هذا النوع من التحف الزجاجية الا انه قد يمتد فى مدينة الرقة على مجموعة من التحف الزجاجية المموه بالمينا معظمها على شكل كؤوس متسعة الفوهة من أعلاها وهى ترجع الى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة .

ولعل أشهر تلك التحف الكؤوس المنسوبة الى شرطان والمحافظة بمتحف شارتر (Chartres) وان كان لا أساس للقصة التى تقول ان شرطان أهدى هذه الكؤوس لكنيسة فرنسية ظلت بها حتى سنة ١٧٩٨ م .

كذلك ينسب للرقة مجموعة من الكؤوس ترجع الى نهاية القرن السادس للهجرة منها قطعة محفوظة فى متحف مدينة دواى Douai تعرف باسم كأس القيس الثمانية) . وتمتاز زخارف كؤوس الرقة بان قوامها رسوم نباتية قريبة من الطبيعة الى حد ما يحيط بها من أعلى وأسفل شريطان من الكتابة وفى بعض الأحيان تصاحب الزخرفة حبيبات بيضاء وزرقاء تملأ معظم بدن الكأس وهذه الحبيبات منيرة انفردت بها تحف الرقة الزجاجية .

وقد أقبل صناع الزجاج فى القرن السابع للهجرة فى بلاد الشام وخاصة فى دمشق وحلب على انتاج أنواع من القوارير والقنينات الزجاجية المموه بالمينا المزخرفة برسوم آدمية .. وحيوانية تتبع فى أسلوبها الفنى مدارس التصوير

المعاصر التي تعرف باسم المدرسة السلجوقية أو المدرسة العربية . وهذه الرسوم قد تكون محصورة في أشرطة تحيط بالآنية أو موضوع تصويري تحيط به جامة . والظاهر ان الكثير من هذه القوارير كان يصنع للسوق الصليبية التي كانت موجودة في بلاد الشام منذ القرن الخامس للهجرة وذلك لاحتوائها على رسوم موضوعات مسيحية مثل صورة السيدة العذراء تحتضن يسوع المسيح والعشاء الرباني وعيسى عليه السلام يتوسط الحوارين وما الى ذلك من موضوعات .

على ان أبدع وأروع ما وصل اليه الزجاج الموه بالمينا انما يتجلى في مثل تلك المشكاة التي تستعمل لضاءة المساجد الجامعة وقصور السلاطين والأمراء وعلية القوم والمشكاة الزجاجية في شكلها انما هي تجسيد لآية النور . ذلك انها أغطية مصابيح فهي لا تضاء لوضع الزيت والفتيل فيها مباشرة بل انهما يوضعان في مسرجة (قرابة) تثبت بأسلاك في حافة المشكاة . وللمشكاة مقابض أو آذان يبلغ عددها ثلاثة أو أكثر تشبك فيها سلاسل من النحاس أو الفضة تجمع كلها عند كرة مستديرة أو بيضاوية الشكل ومن هذه البيضة تعلق المشكاة في السقف .

ومما يجدر ملاحظته ان زخارف المينا تملأ فراغ المشكاة كلها بحيث تكاد لا تترك ثغرة بدون رسوم أو زخرفة ولعل السبب في ذلك الى جانب الناحية الجمالية هو حرص الفنان على تغطية عدم صفاء لون الزجاج وكذا تغطية الفقايع الهوائية الصغيرة التي تشوه الى حد ما صفاء الزجاج وان كانت هذه الأشياء من العيوب العامة التي تميز زجاج الشرق .

أما عن المينا التي يدهن بها زجاج المشكاة فمتعددة فمنها الحمراء والخضراء والزرقاء والبيضاء . وكذا وردية اللون . أما عن الزخارف فقوامها كتابات محصورة في أشرطة أو جامات يتخللها (الرفوك) والشارات الخاصة بالسلاطين والأمراء فضلا عن أسماء وألقاب ونلاحظ ان معظم الكتابات التي سجلت على المشكاوات كانت آيات قرآنية وخاصة آية النور .

كما حظى الكثير من المشكاوات بثروة زخرفية كبيرة قوامها الرسوم النباتية التي تغطي السطح كله والتي يتخللها في بعض الأحيان رسوم طيور وأسماك صغيرة تبدو وكأنها عناصر نباتية .

ولا يزيد عدد المعروف من هذه المشكاوات عن ثلاثمائة مشكاة كاملة معظمها محفوظ بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة ويليه متحف المتروبوليتان

بنويورك وجل هذه المشكاوات قد صنع فى القرن الثامن الهجرى اللهم الا اربعا منها يمكن نسبتها الى القرن السابع وقلة أخرى ترجع الى القرن التاسع للهجرة .

التحف الزجاجية فى ايران :

لقد قلد الايرانيون مصر وبلاد الشام فى صناعة الزجاج فى فجر الاسلام فقد عثر على سلطانية من الزجاج الأزرق محفور فيها كلمة خراسان محفوظة فى كاتدرائية سان ماركو بالبندقية وقوام زخارفه السلطانية رسوم أرائب محفورة وقد أرجعها علماء الآثار الى الفترة التى تمتد من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة .

كذلك عثر على زجاج مموه بالمينا فى شيراز وهمدان ونيسابور وساهو والرى تشبه الى حد كبير التحف الزجاجية فى بلاد الشام وتفسير ذلك سهل ميسور فقد جمع تيمور لنك فى شمر وند فى بداية القرن التاسع للهجرة نخبة من أمهر صانعى الزجاج فى ذلك العصر فازدهرت هذه الصناعة على أيديهم .

وقد انفرد الزجاجيون الايرانيون منذ القرن العاشر وحتى القرن الثانى عشر للهجرة على صناعته أنواع من الأباريق والقنينات الزجاجية ذوات الرقبة المشوكة الممتدة الى أعلى أو التى يمر بها انثناء رقيقة لينة فى شكل انسيابى يذيع وكانت هذه القنينات خالية من الزخارف تماما وتعتمد فى اظهار جمالها على بديع تكوينها وصفاء زجاجها وتناسب أجزائها .

بيان اللوحات

لوحة رقم ١ شكل ١ : تصويرية من مقامات الحريري تمثل أبوزيد يعظ في مسجد سمرقند ، محفوظة بالمتحف البريطاني ، سوريا حوالى سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م .

شكل ب : بعض الرسوم التى كانت مستعملة فى تمثيلات خيال الظل محفوظة بالقسم الاسلامى ببرلين ، مصر حوالى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

لوحة رقم ٢ شكل ١ : ألواح خشبية عثر عليها فى مارستان قلاوون تمثل مناظر شراب وطرب وصيد ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : علبة من العاج باسم المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، تمثل مناظر شراب وطرب محفوظة بمتحف اللوفر بباريس ، الأندلس سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م .

لوحة رقم ٣ شكل ١ : اناء من الخزف ذى البريق المعدنى عليه رسم يمثل راقصة ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : صحن من الخزف ذى البريق المعدنى عليه رسم مهارشة الديكة محفوظ باحدى المجموعات الخاصة بلندن ، مصر حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

لوحة رقم ٤ شكل ١ : تصويرية من مقامات الحريري تمثل مجالس شراب وطرب وبهلوان ، محفوظة بالمكتبة الوطنية بفيينا ، مصر حوالى سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م .

شكل ب : تصويرية من أحد مخطوطات الفروسية تمثل منظر ملاكمة ،
محفوظة بمتحف طوبقا بسرأي باسطنبول ، مصر حوالى القرن التاسع
الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

لوحة رقم ٥ شكل ١ : بقايا صحن من الخزف ذى البريق المعدنى يمثل منظر
مصارعة ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر حوالى القرن
الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : تصويرية من أحد مخطوطات الفروسية تمثل أوضاعا مختلفة
للتدريب على المصارعة ، محفوظة بمتحف طوبقا بسرأي باسطنبول ،
مصر حوالى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

لوحة رقم ٦ شكل ١ : اناء من الخزف ذى البريق المعدنى عليه رسم للعبة
التحطيب أو المطرق أو اللبخة ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : تصويرية من مخطوط فى العباب الفروسية يمثل لعبة التحطيب
أو المطرق أو اللبخة ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر
القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

لوحة رقم ٧ شكل ١ : تصويرية من مخطوط المهرجان « سور نامة » تمثل السلطان
أحمد الثالث فى مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين ، محفوظة
فى متحف طوبقا بسرأي باسطنبول ، تركيا حوالى القرن الثانى عشر
الهجرى / الثامن عشر الميلادى .

شكل ب : تفاصيل من طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة تمثل
لعبة الكرة ، يحمل اسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، محفوظ
بالمتحف البريطانى بلندن ، مصر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر
الميلادى .

لوحة رقم ٨ شكل ١ : تفاصيل من طست من النحاس المكفت بالفضة يحمل
اسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب يمثل لعبة الجوكان ، محفوظة
بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن السابع الهجرى / الثالث
عشر الميلادى .

شكل ب : علبة من البرونز المكفت بالفضة عليها عصوان البولورنك الجوكندار

محفوظة في القسم الاسلامى بمتحف برلين ، مصر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

لوحة رقم ٩ شكل ١ : لوحات عاجية عليها رسوم تمثل مناظر صيد ومجالس شراب وطرب ، محفوظة بالقسم الاسلامى بمتحف برلين ، مصر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

شكل ب : تصويرية من مخطوط فى الفروسية تمثل الرمى على القبق ، محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، مصر سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١ م .

لوحة رقم ١٠ شكل ١ : تصويرية من مختصر كتاب البيطرة لابن الأحنف تمثل سباق الخيل ، محفوظة بدار الكتب المصرية ، مصر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

شكل ب : تصويرية من مخطوط أكبر نامة تمثل بلاط السلطان أكبر وبه بعض الفهادين حيث أمسك كل منهم بمقود فهده وكذا بعض البازادرية ، محفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت ، وتنسب الى المدرسة المغولية حوالى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى .

لوحة رقم ١١ شكل ١ : تصويرية من المدرسة الهندية تمثل الصيد بالفهد ، محفوظة باحدى المجموعات الخاصة ، الهند حوالى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى .

شكل ب : تفاصيل من طست من النحاس المكفت بالفضة تمثل الصيد بالفهد والباز والكلاب ، محفوظ بمتحف اللوفر بباريس ، مصر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

لوحة رقم ١٢ شكل ١ : تصويرية من كتاب الدرياق تمثل فى جزئها العلوى مناظر صيد بالباز والكلاب ، محفوظة بالمكتبة الوطنية بفيينا ، العراق حوالى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

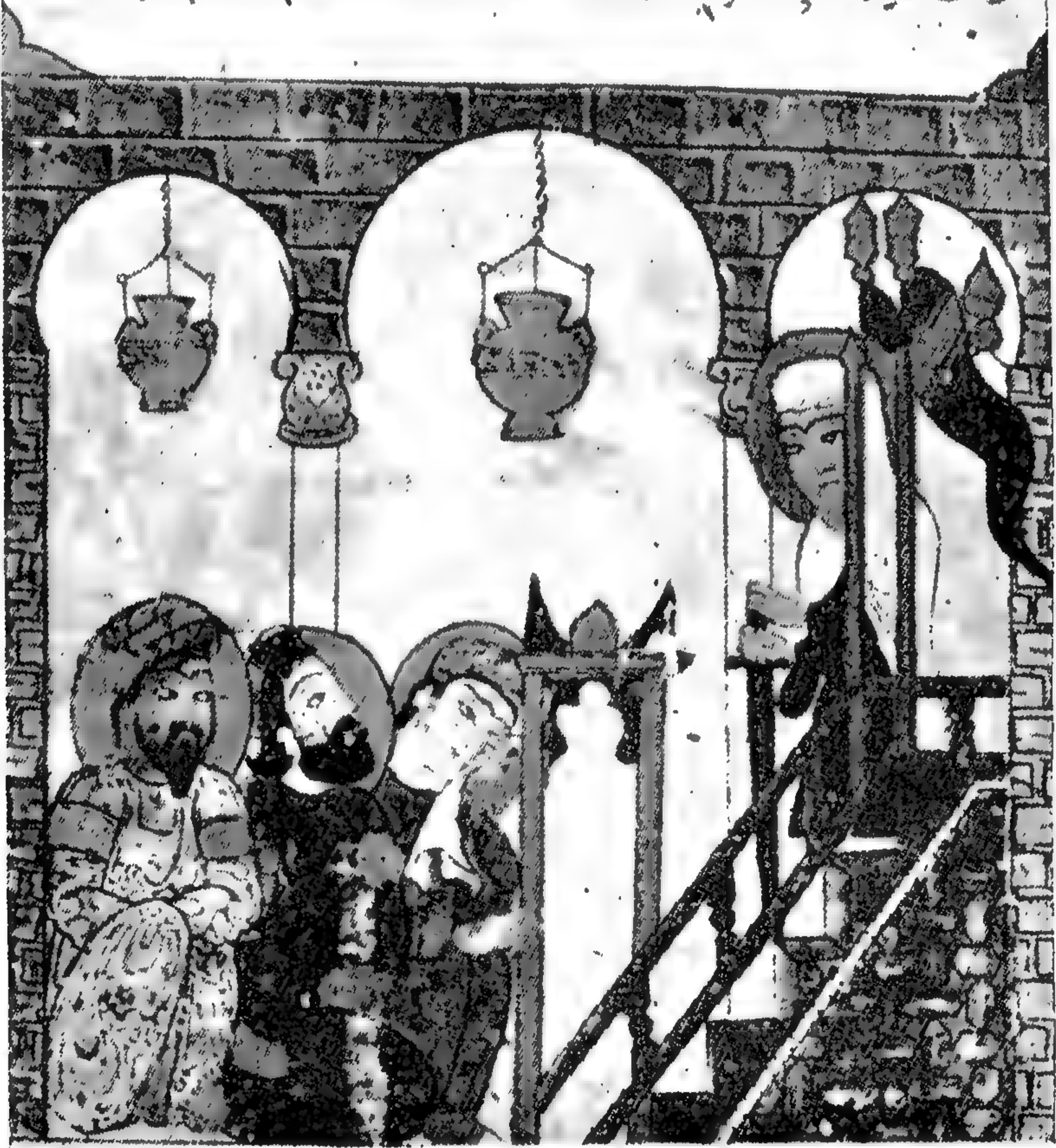
شكل ب : اناء من الحزف ذى البريق المعدنى يمثل منظر صيد بالباز ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، مصر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

الأشكال الخاصة ببحث

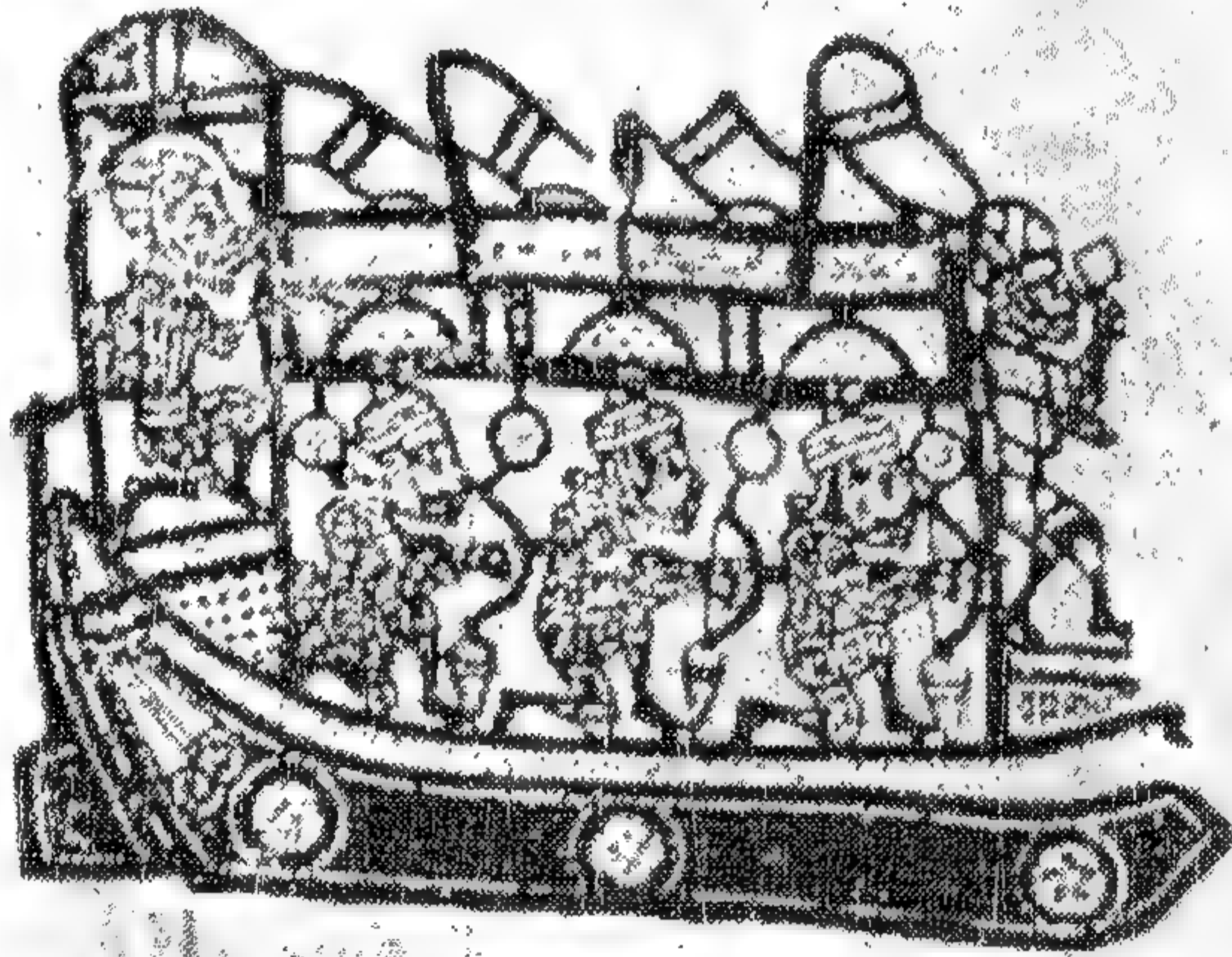
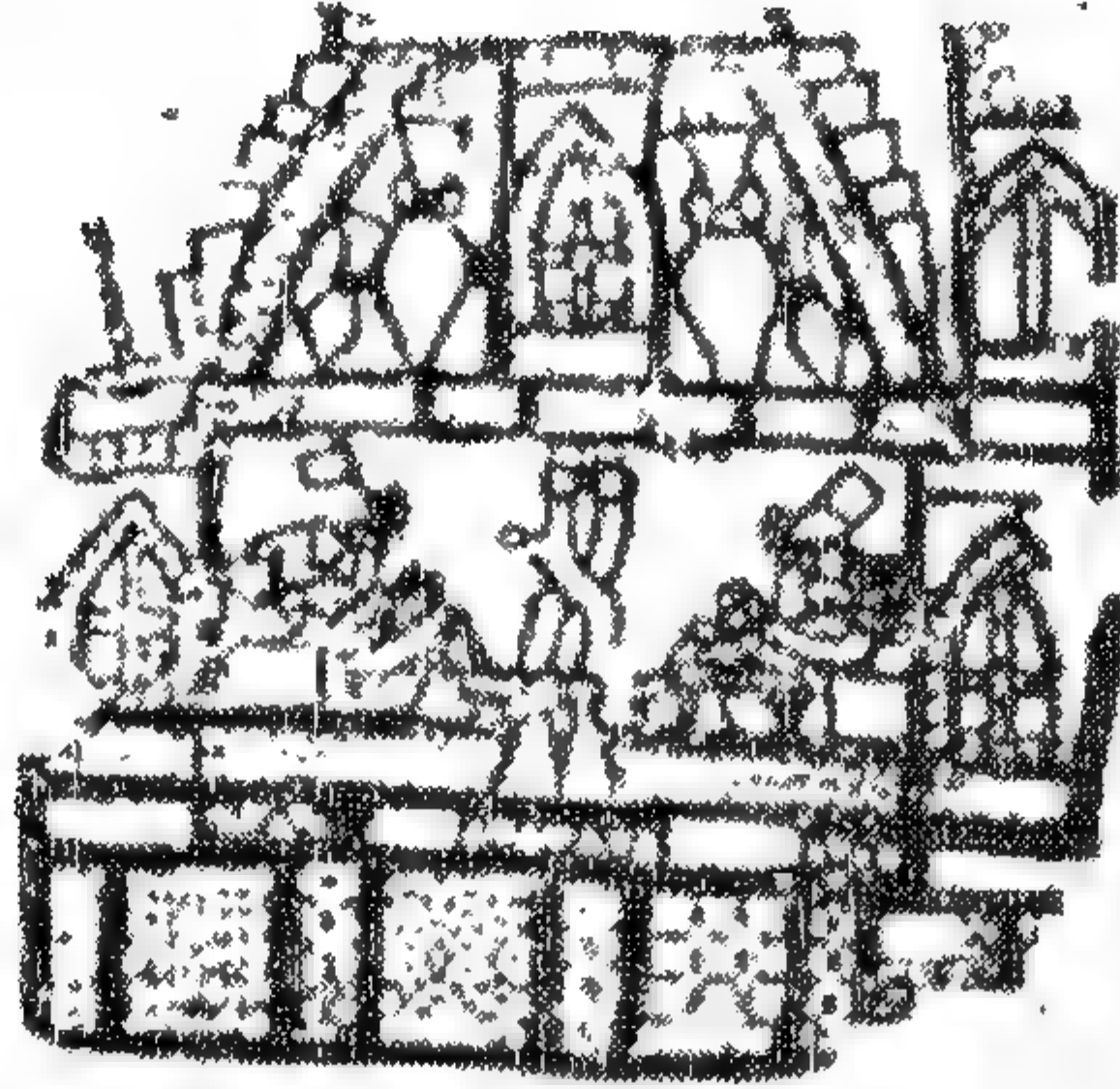
وسائل التسلية عند المسلمين

للدكتور عبد الرازق أحمد

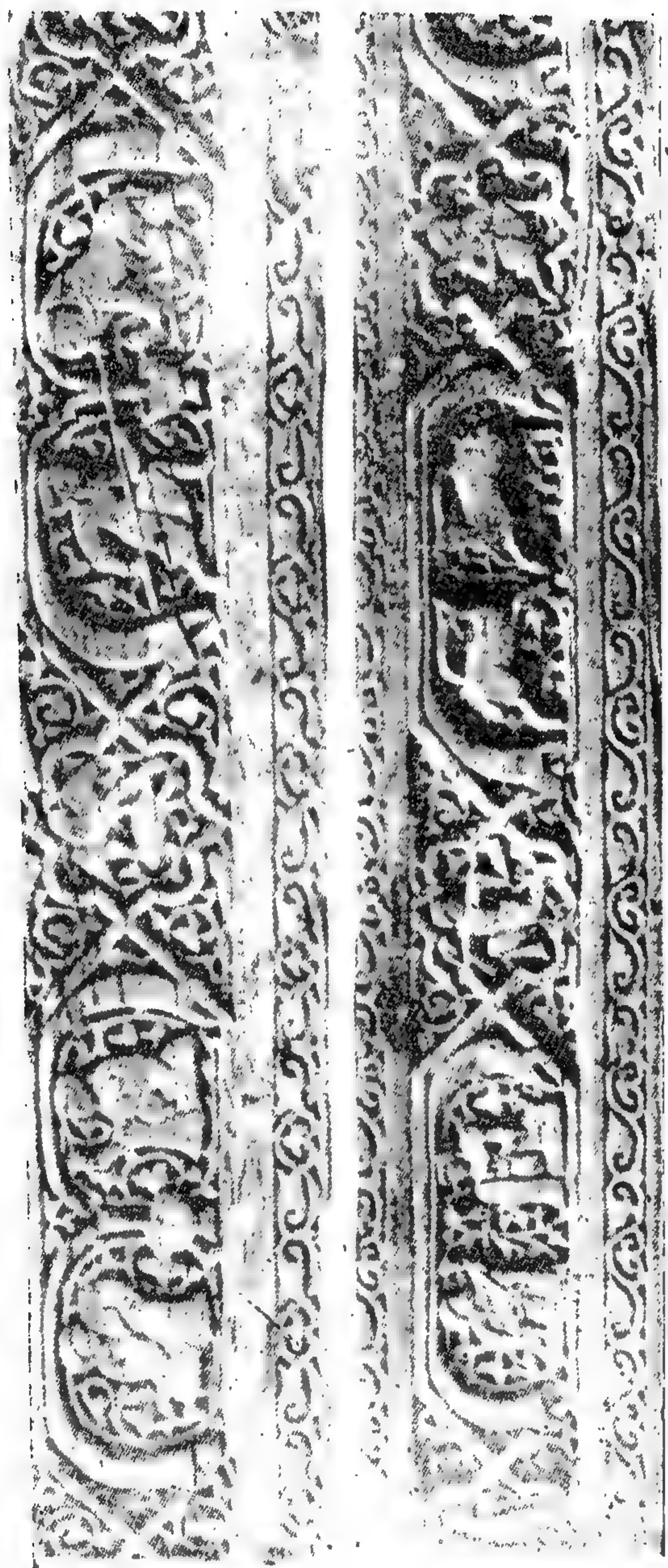
مَوَالِي أَحَدًا لَا يَجِدُ لِعَاذٍ إِلَّا الصَّمَدُ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدٌ وَلَا رُكْبَةً وَلَا



لوحة رقم ١ - شكل (١)



لوحة رقم ١ شكل (ب)



لوحة رقم ٢٠ شكل (١)



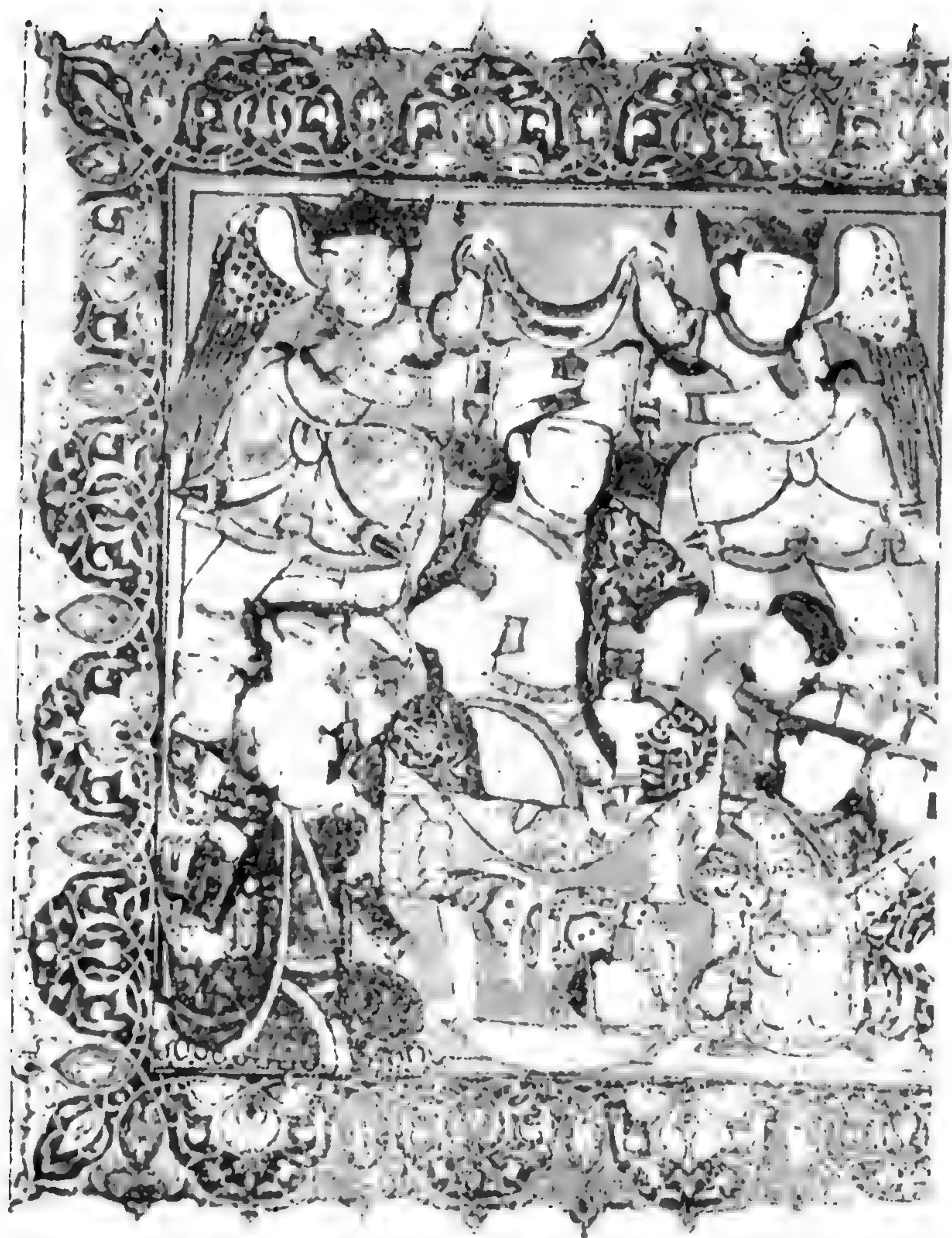
لوحة رقم ٢ شكل (ب)



لوحة رقم ٣ شكل (أ)



لوحة رقم ٣ شكل (ب)



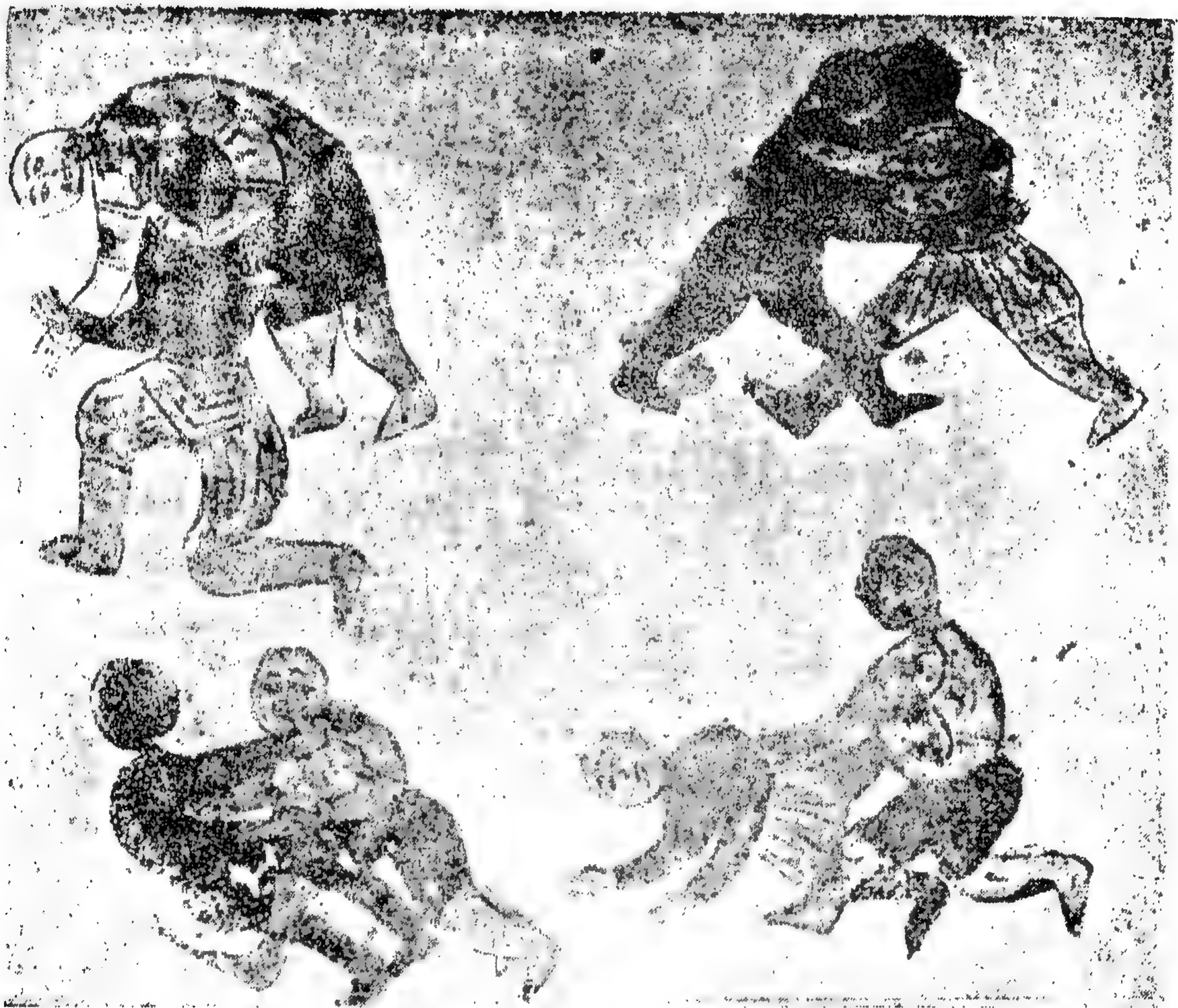
لوحة رقم ٤ شكل (١)



لوحة رقم ۱ شکل (ب)



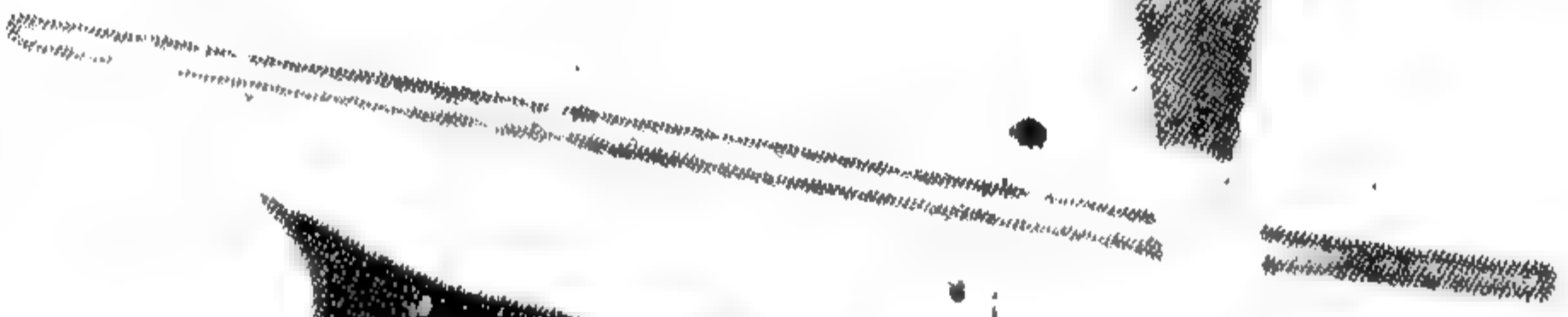
لوحة رقم ٥ شكل (١)



لوحة رقم ٥ شكل (ب)



لوحة رقم ٦ شكل (١)



لوحة رقم ٦ شكل (ب)



نوحه رقم ۷ شكل (۱)



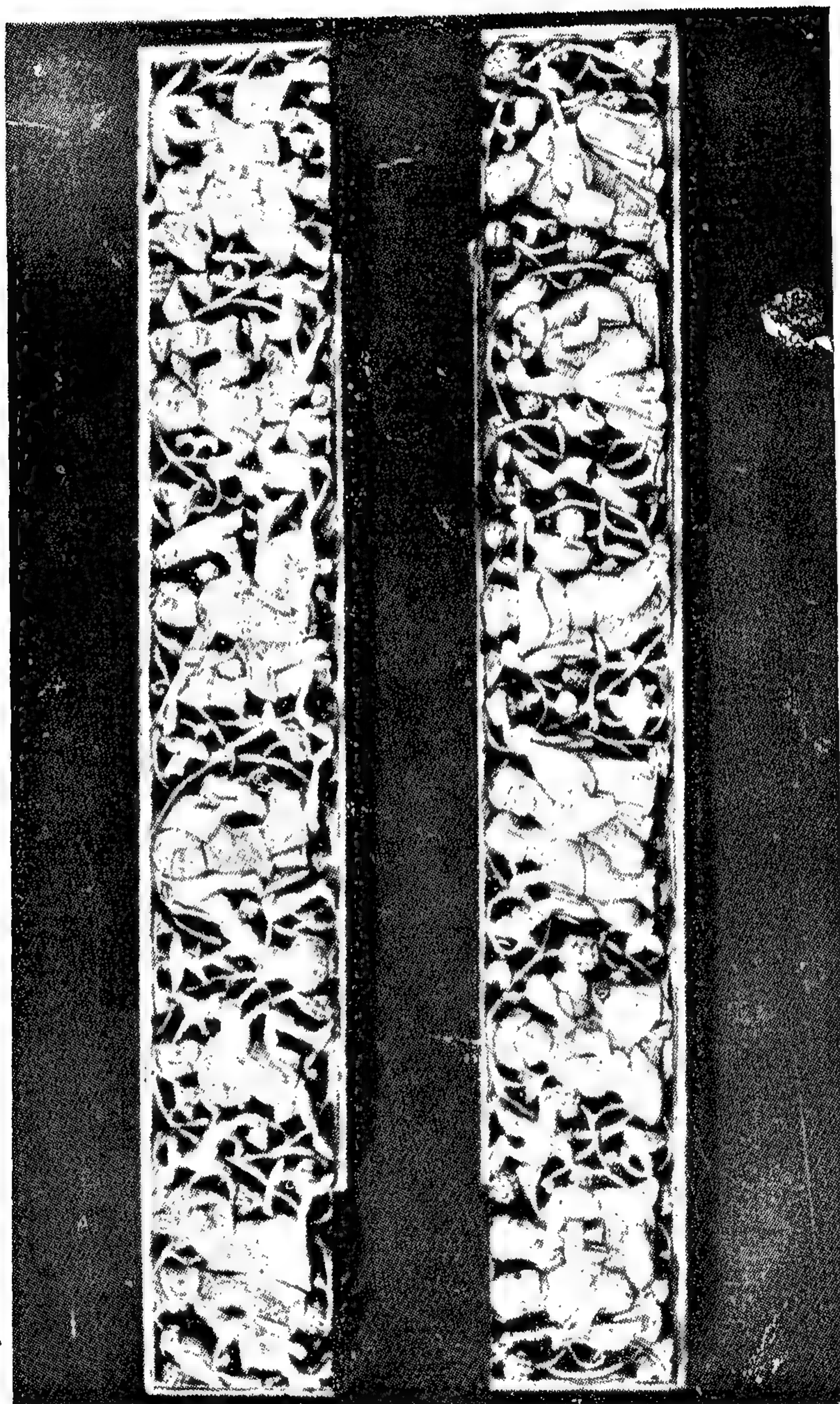
لوحة رقم ٧ شكل (ب)



لوحة رقم ٨ شكل (١)



لوحة رقم ٨ شكل (ب)



لوحة رقم ٩ شكل (١)

وَأَلَمَ الْوَيْ الْقَبِيَّةَ وَيَغْنِيهِ وَنَدَحُوهُ وَسِ
 وَصَفَ أَدَمَ أَنَّهُ مَحْدُودٌ فِي قَدْرِهِ مِنَ الْمَسْحِ الْبَرَّاءِ وَنَحْطُ

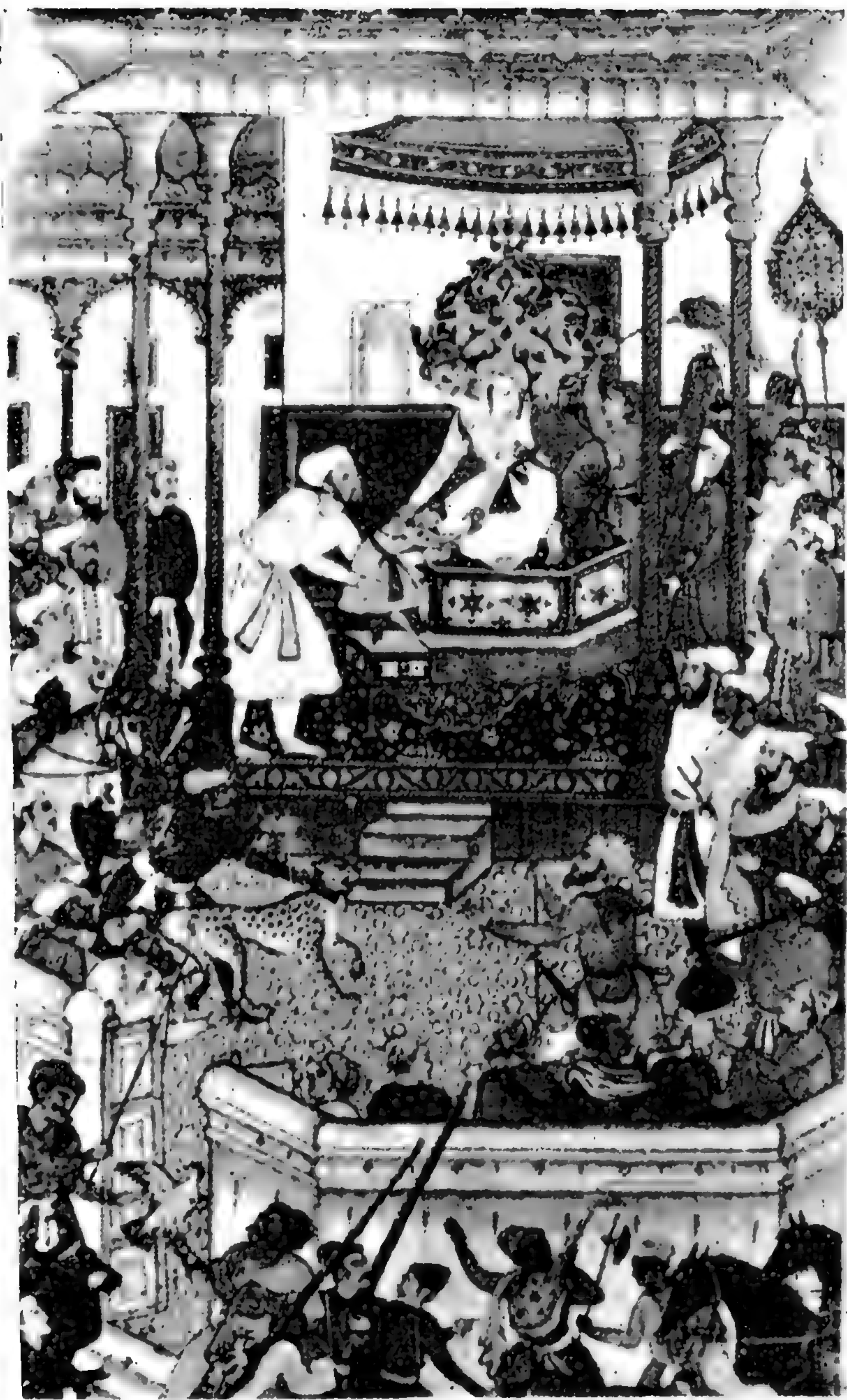


فِي رَأْسِهِ عَلَامَهُ وَيَسُوقُ وَيَلْتَقِ وَيُرِي إِلَى الْعَلَامَةِ وَذَلِكَ الْأَدَمَانُ
 يَنْبَغِي أَنْ تَحْرُسَ نَفْسَهُ وَرُكْنَهُ فِي الْبَحْرِ فِي الْقَبِيَّةِ

لوحة رقم ٩ شكل (ب)



نوعه رقم ۱۰ شکل (۱)



لوحة رقم ١٠ شكل (ب)



لوحة رقم ١١ شكل (١)



لوحة رقم ١١ شكل (ب)



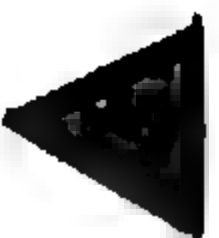
لوحة رقم ١٢ شكل (١)

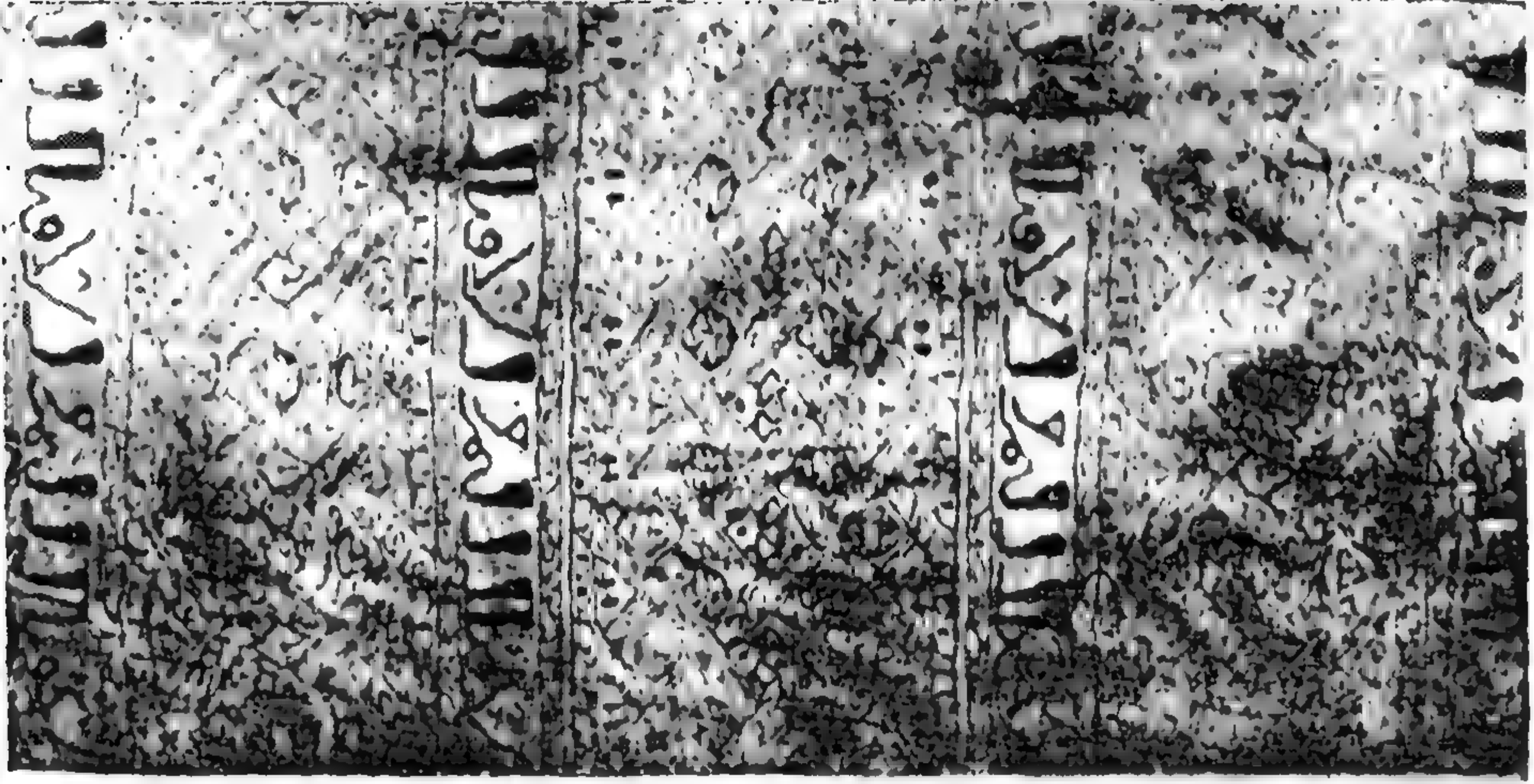


لوحة رقم ١٢ شكل (ب)

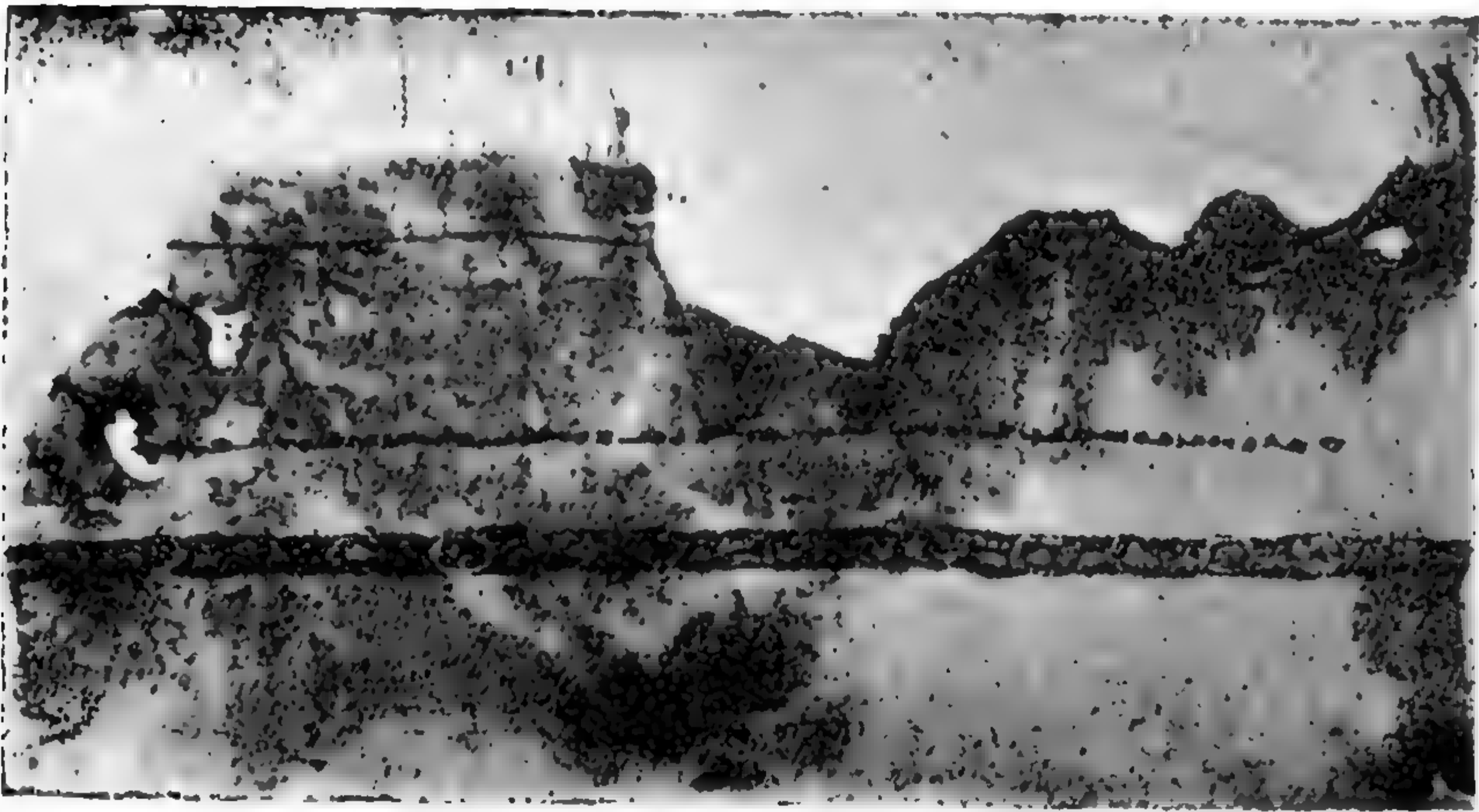
الأشكال الخاصة ببحث
الفنون الزخرفية
للدكتورة سعاد ماهر

اولا - التسييج الاسلامى

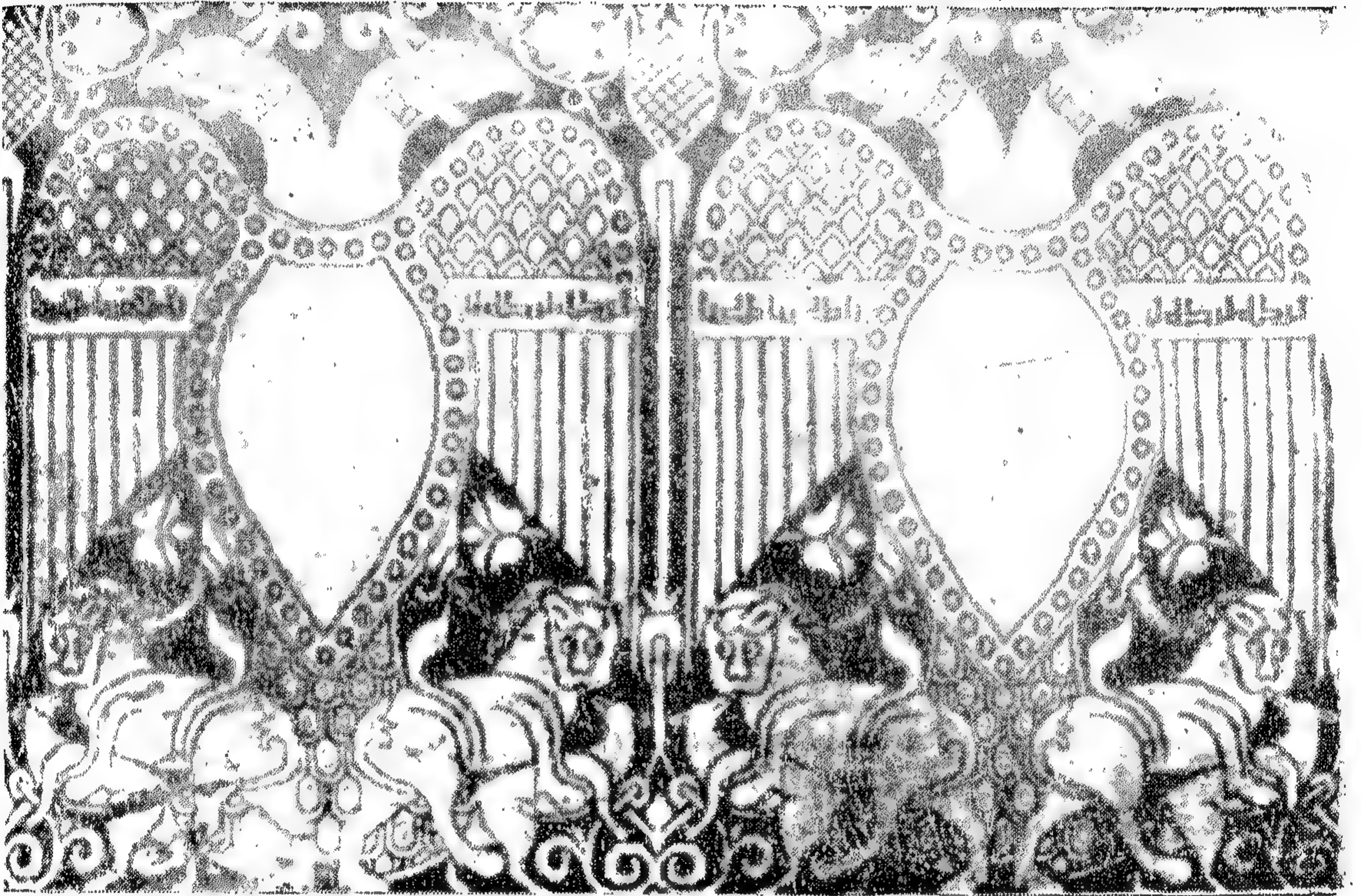




قطعة من نسيج القباطى من العصر الفاطمى من صناعة مصر فى القرن (٦ هـ)
(متحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



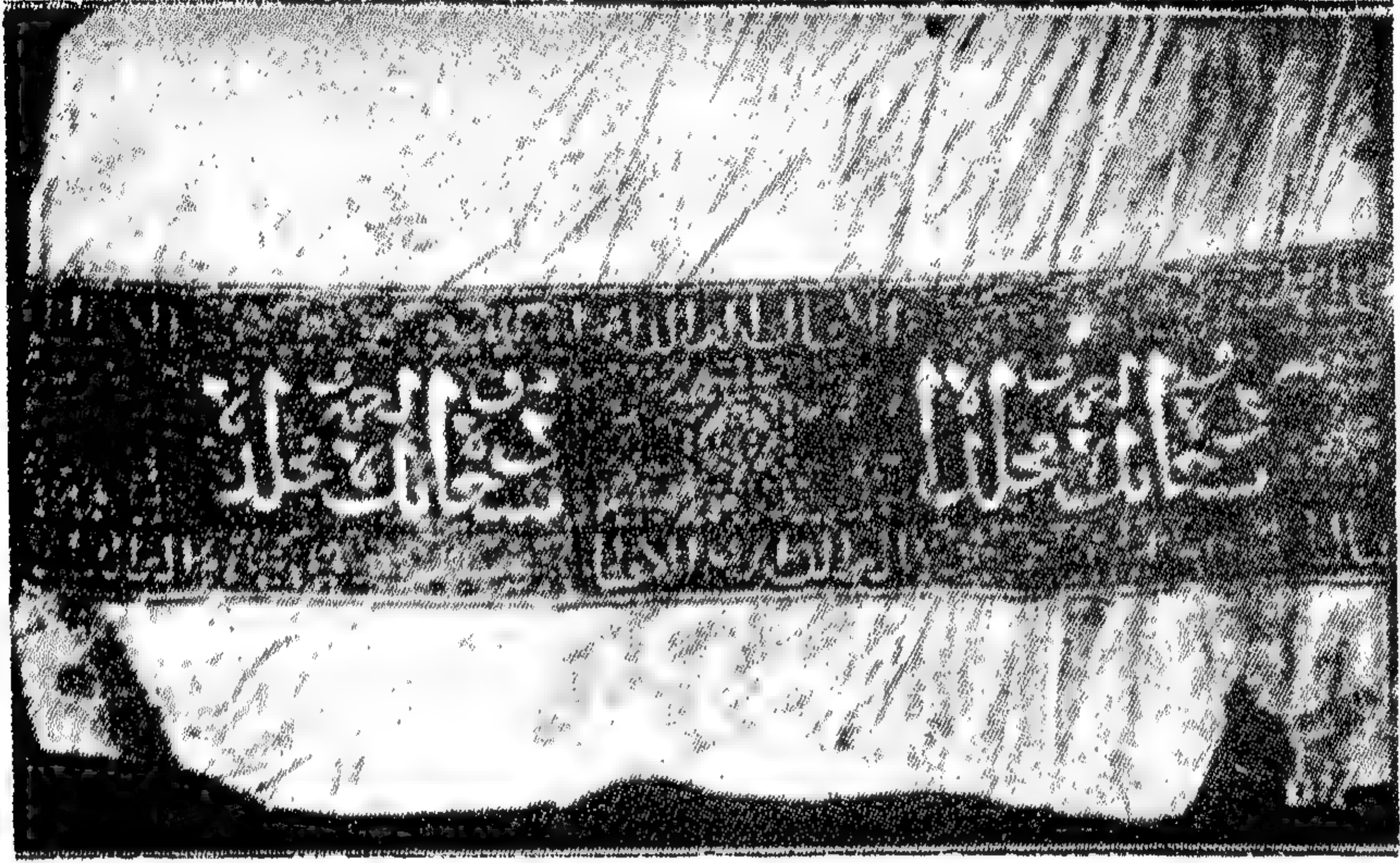
قطعة من نسيج القباطى من عمارة باسم (سمويل بن موسى) ، مؤرخة (٨٨ هـ)
(فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



قطعة من نسيج الحرير من صناعة صقلية في القرن (٦ هـ) (في متحف القصر ببرلين)



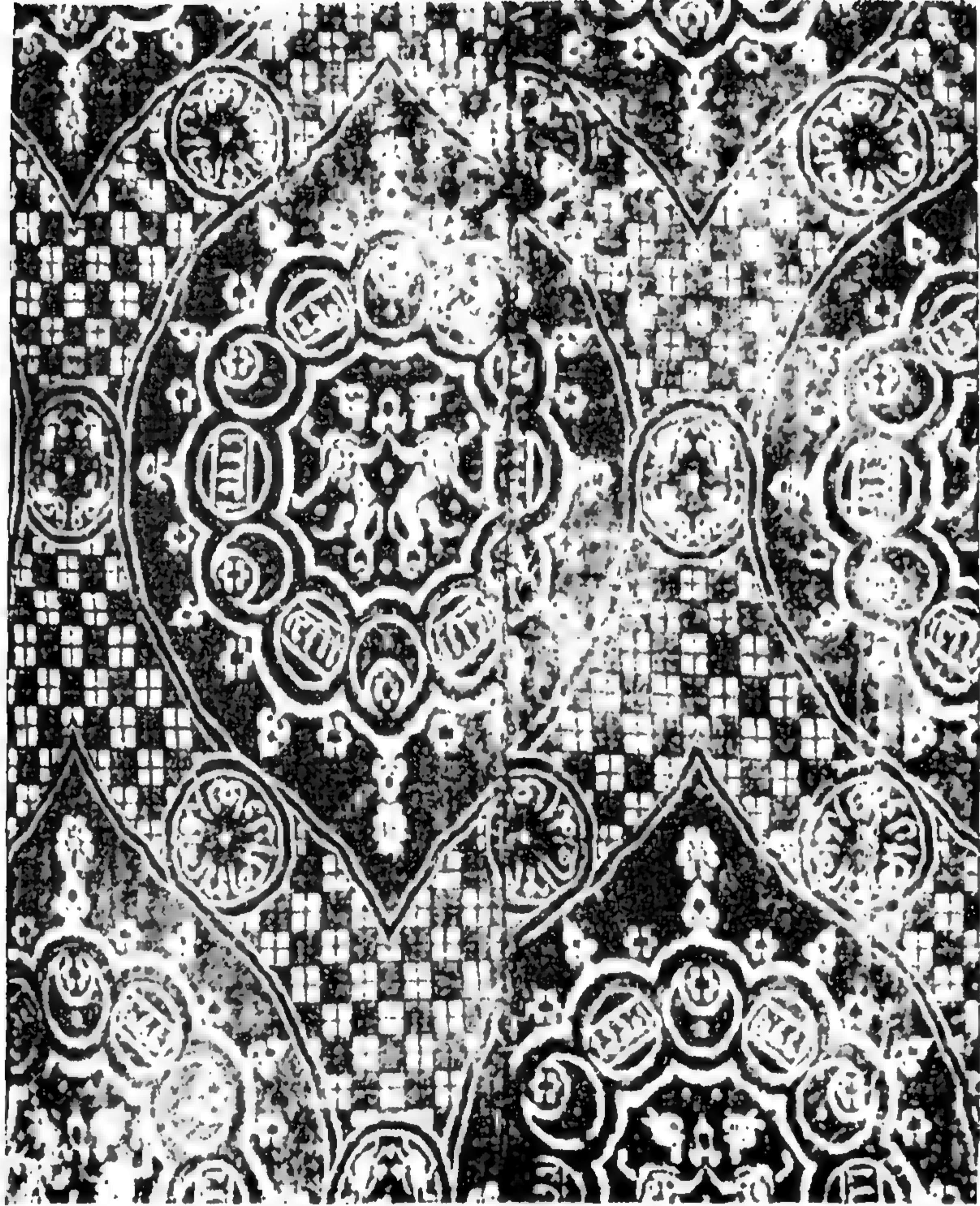
قطعة من نسيج الديباج من صناعة الأندلس في القرن (٧ هـ)
(بمتحف الفنون التطبيقية في برلين)



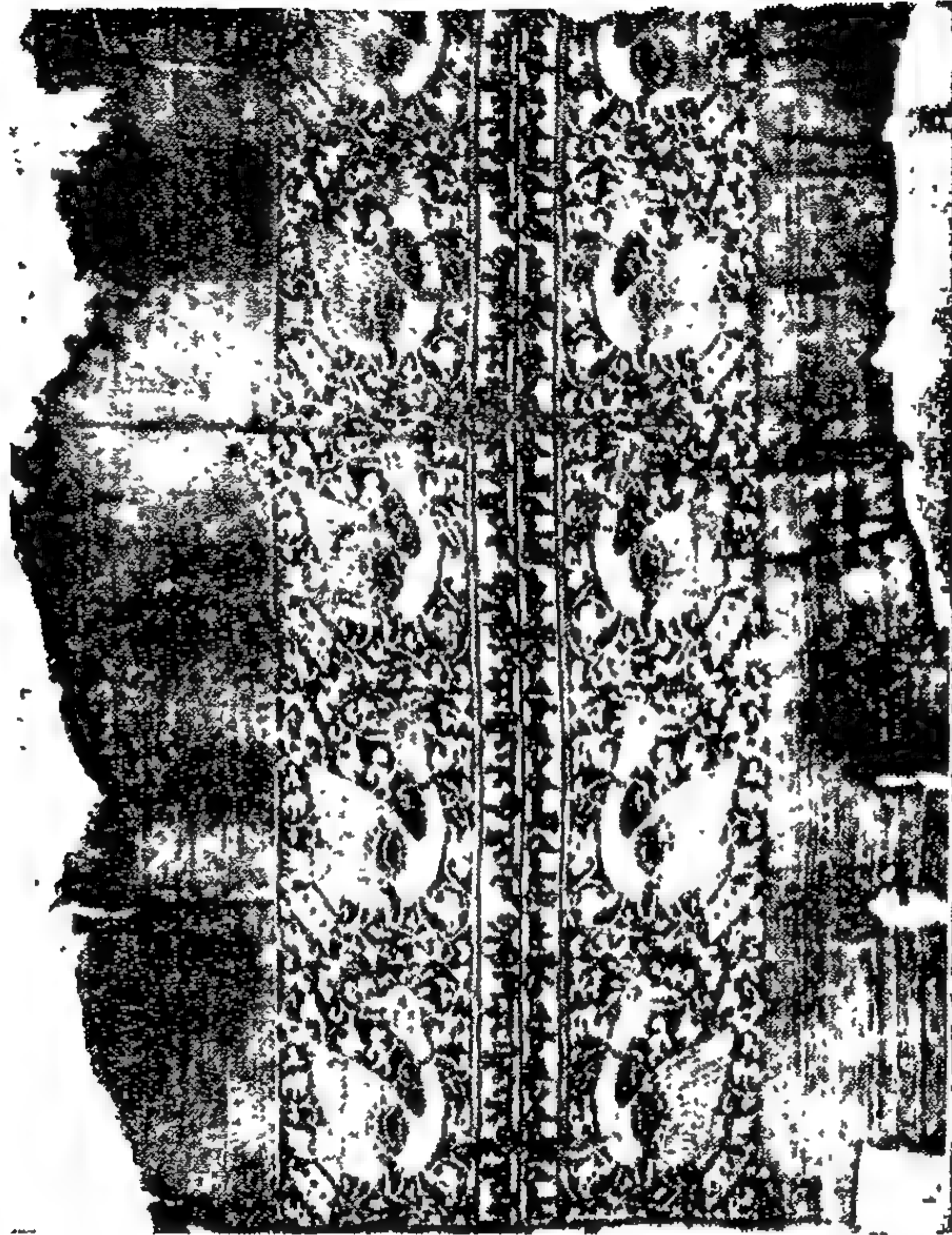
قطعة من النسيج الكتاني عليها ٣ اشرطة كتابية • كتب على السطر الاوسط
سعادة مؤبدة ، ونعمة مخلدة • وهي صناعة مصر في العصر المملوكي
(بمتحف الفن الاسلامي القاهرة)



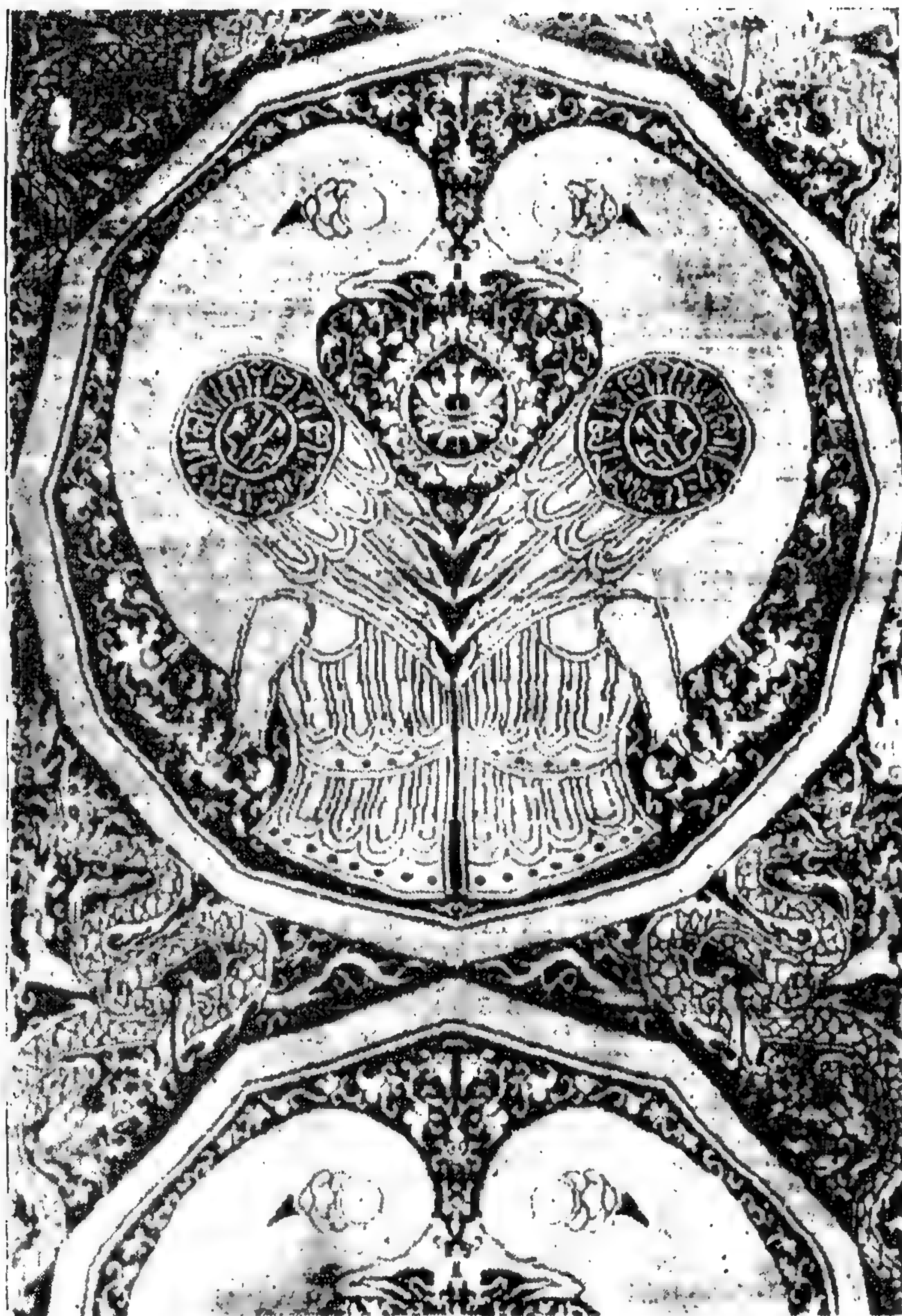
قطعة من نسيج الديباج من صناعة مصر في العصر المملوكي عليها اسم
السلطان الناصر محمد بن قلاوون من القرن (٧ هـ)
(متحف الفن الاسلامي)



قطعة من نسيج الديباج من صناعة مصر في العصر المملوكي من القرن (٩ هـ)



قطعة من النسيج الديباج من صناعة إيران في القرن (٦هـ)
عليها زخارف حيوانية يفصل بينهما شريطان من الكتابة
متعاكسان كتب عليها « لا تأمن الموت في طرف ولا نفس
ولو تمنعت بالحجاب والحرس » على أرضية نباتية .
(من مجموعة رينو)

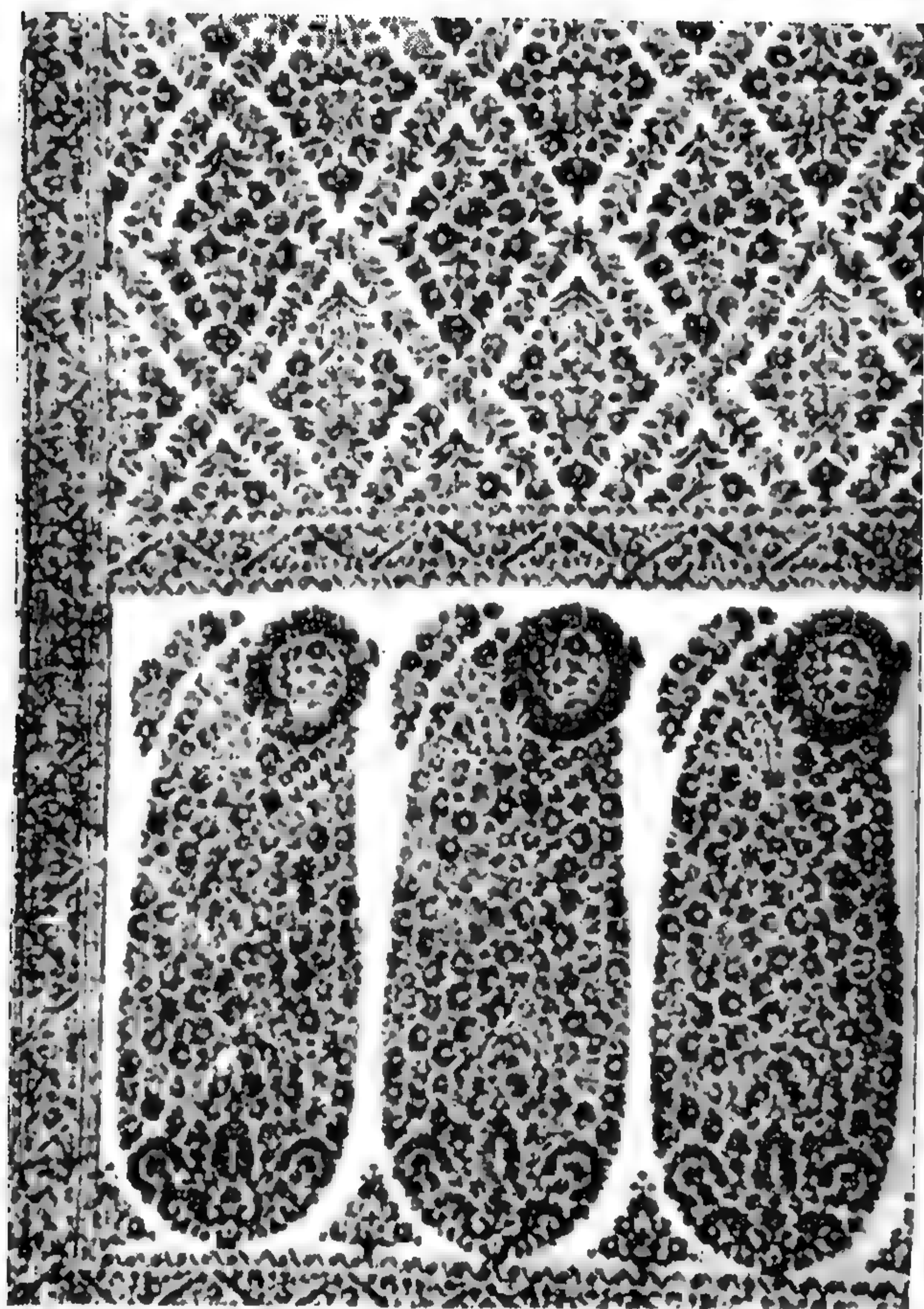


قطعة من نسيج الديباج من صناعة ايران في العصر المغولي في القرن

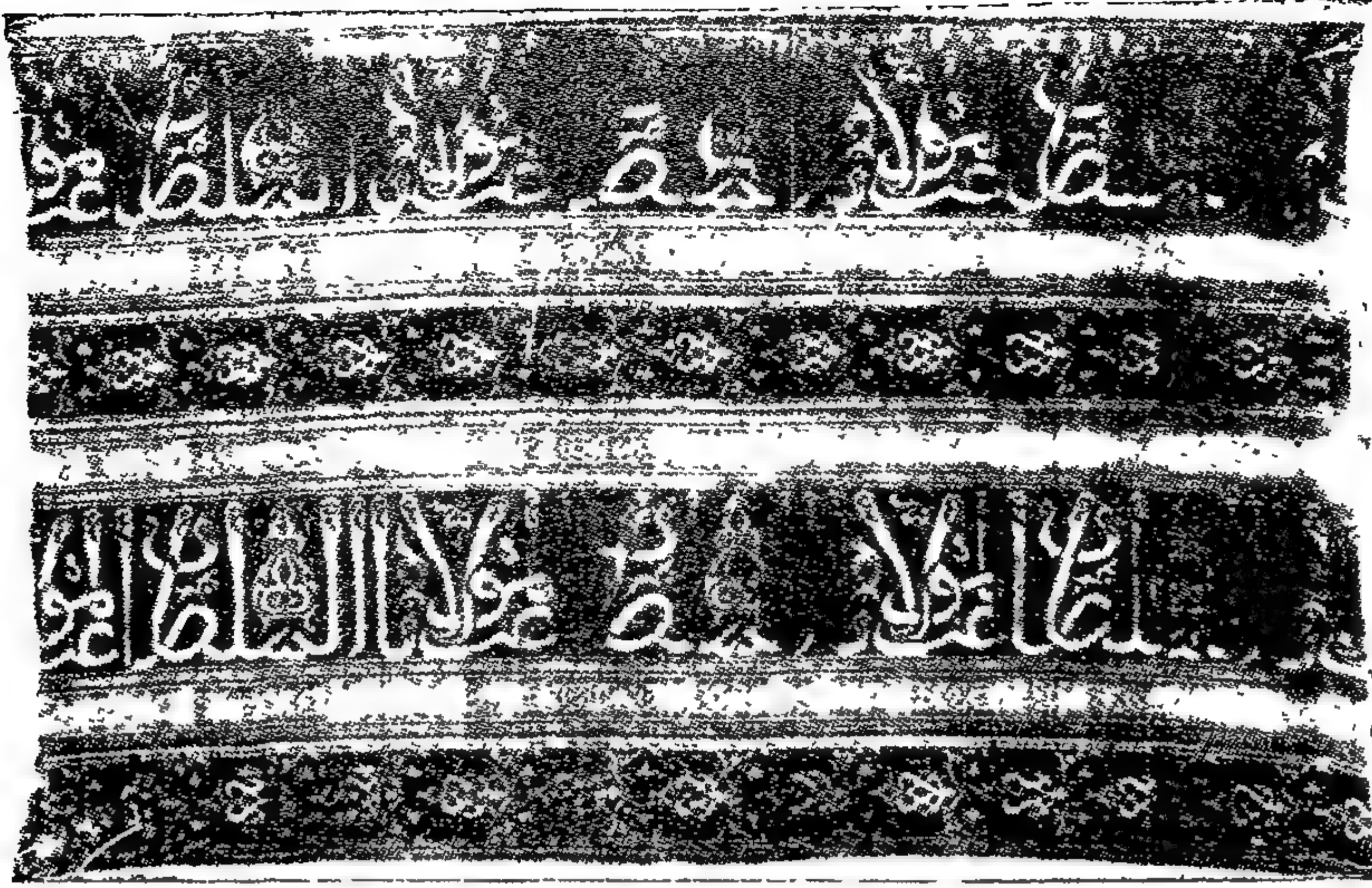
(٨ هـ) (بمتحف برلين)



غطاء سرج من المخمل من صناعة بروسة بتركيا في القرن
(١٠ هـ) (بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة)



شال من نسيج الديباج من صناعة منطقة كشمير بالهند من
القرن (١٢ هـ)

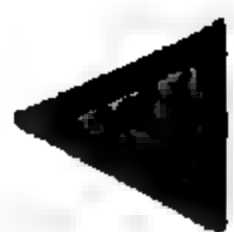


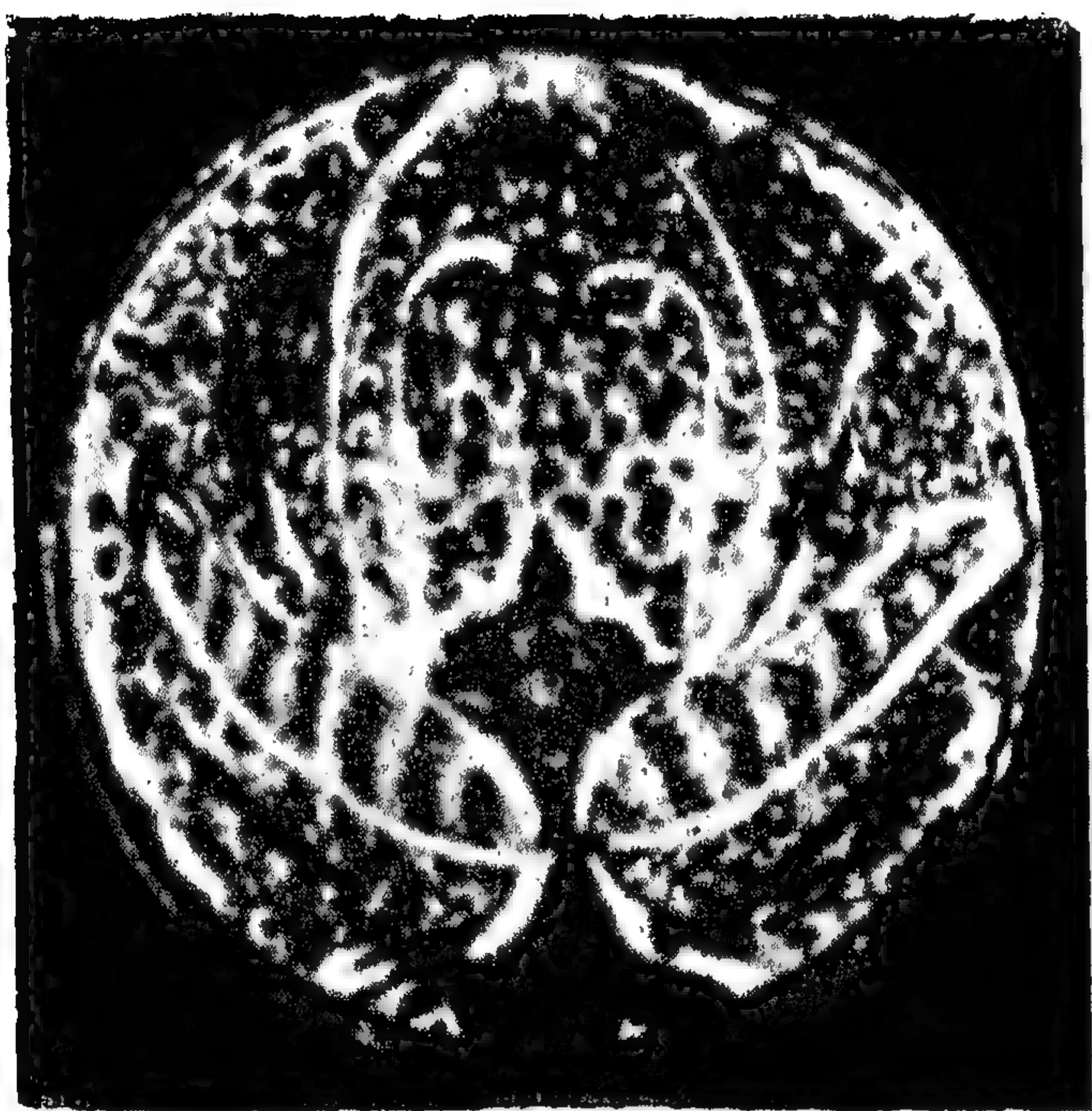
قطعة من نسيج القباطى من القرن (٤ هـ) من صناعة بغداد (فى كاتدرائية ليون بأسبانيا)



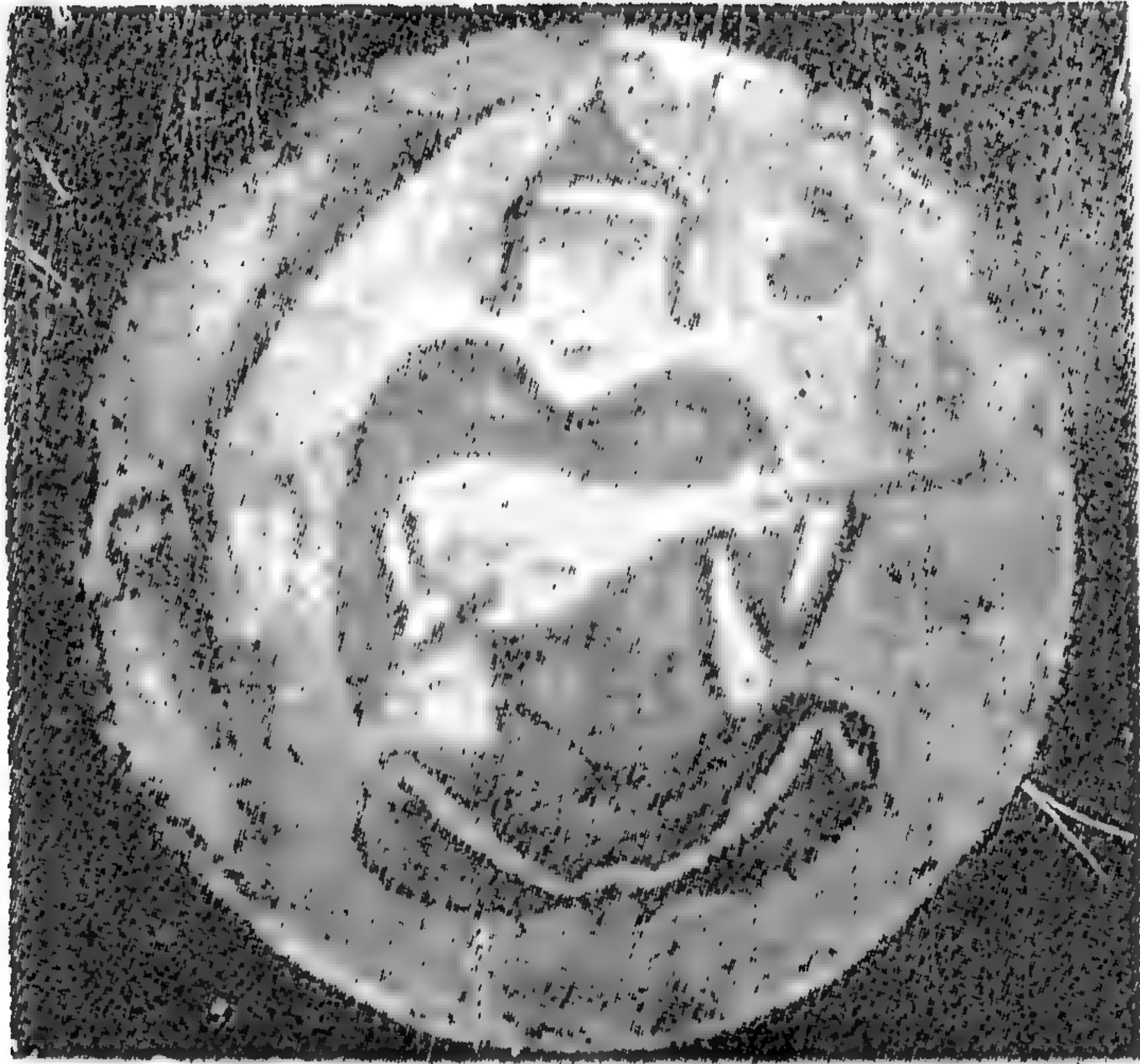
قطعة من نسيج الديباج من نسيج الأندلس فى عصر بنى الأحمر فى القرن (٨ هـ)
(بمجموعة خاصة بباريس)

ثانيا - الخوف الاسلامي

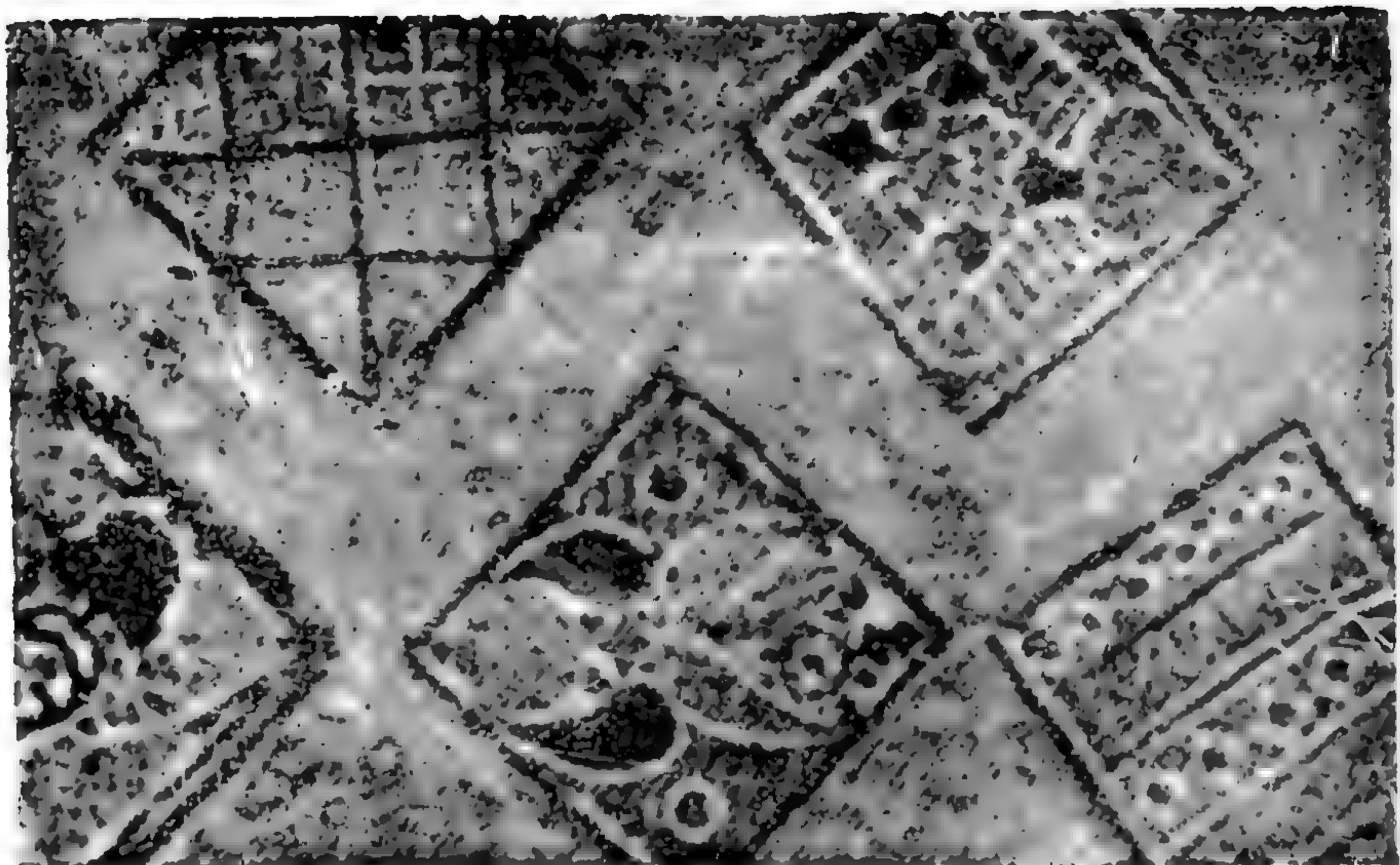




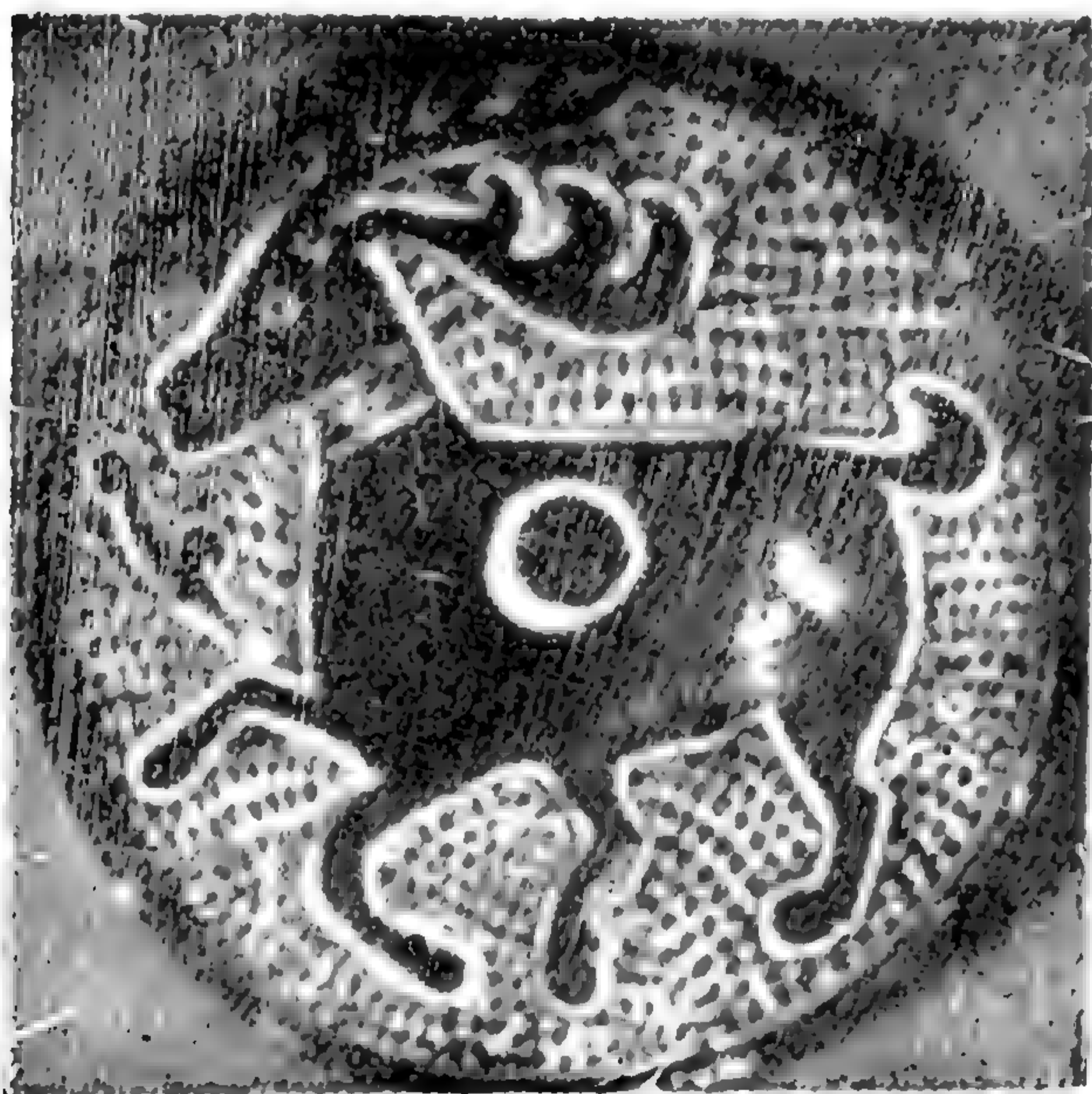
صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة العراق
في القرن (٣ هـ) من مجموعة شريف صبرى بالقاهرة



صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة ايران في
اوائل القرن (٤ هـ) بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة



بلاطات من القاشاني ذي البريق المعدني من صناعة العراق او شمال افريقيا
في القرن (٣ هـ) موجودة بعقد محراب المسجد الجامع في القيروان



صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة ايران في
اوائل القرن (٤ هـ) (بمتحف كلية الآثار بالقاهرة)



قدر من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في العصر
الفاطمي القرن (٤ هـ) في مجموعة كلبيان



صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في العصر
الفاطمي في القرن (٥ هـ) بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة



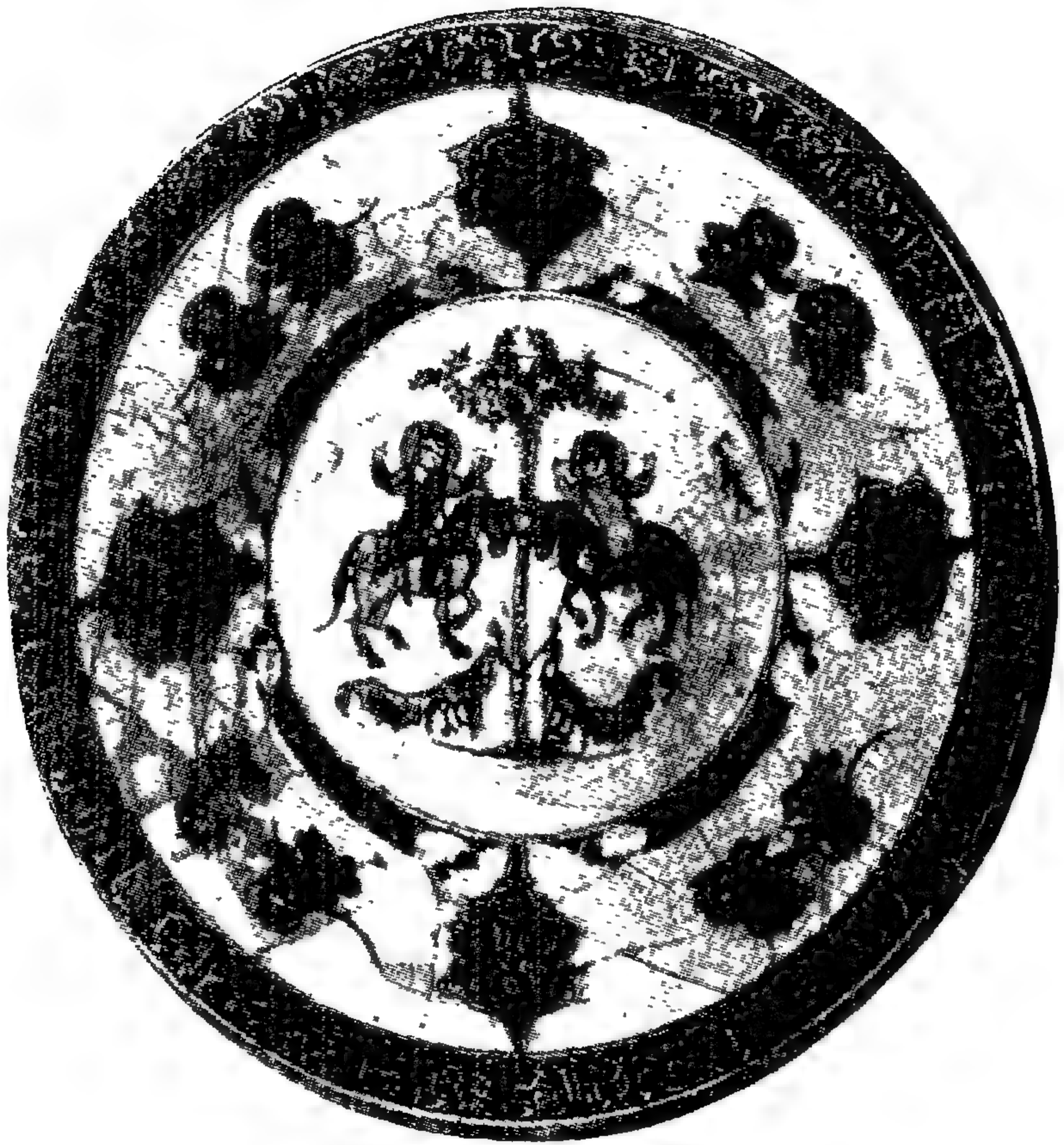
صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مصر في
العصر الفاطمي في القرن (٦ هـ)



جرة من الفخار غير المطلي زخارفه مضافة من صناعة ايران في
القرن (٢ هـ) بمتحف الآثار العربية ببغداد

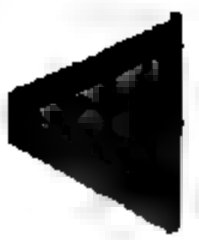


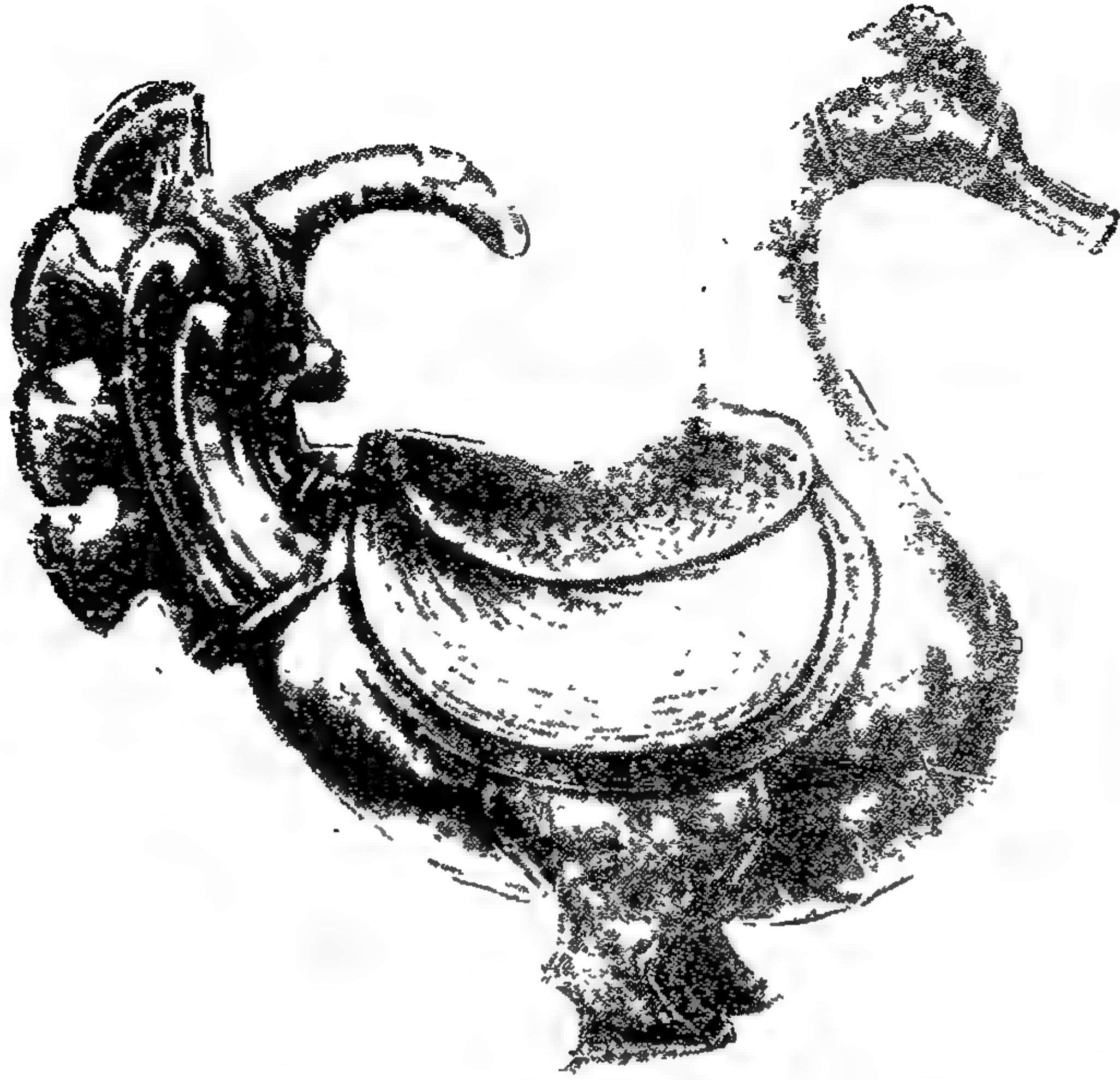
طبق من الخزف الجبرى من صناعة ايران فى القرن (٤ هـ)
قوام الزخرفة رسم بطة ويحيط بالطبق شريط زخرفى مصفور
(بمتحف كلية الآثار بالقاهرة)



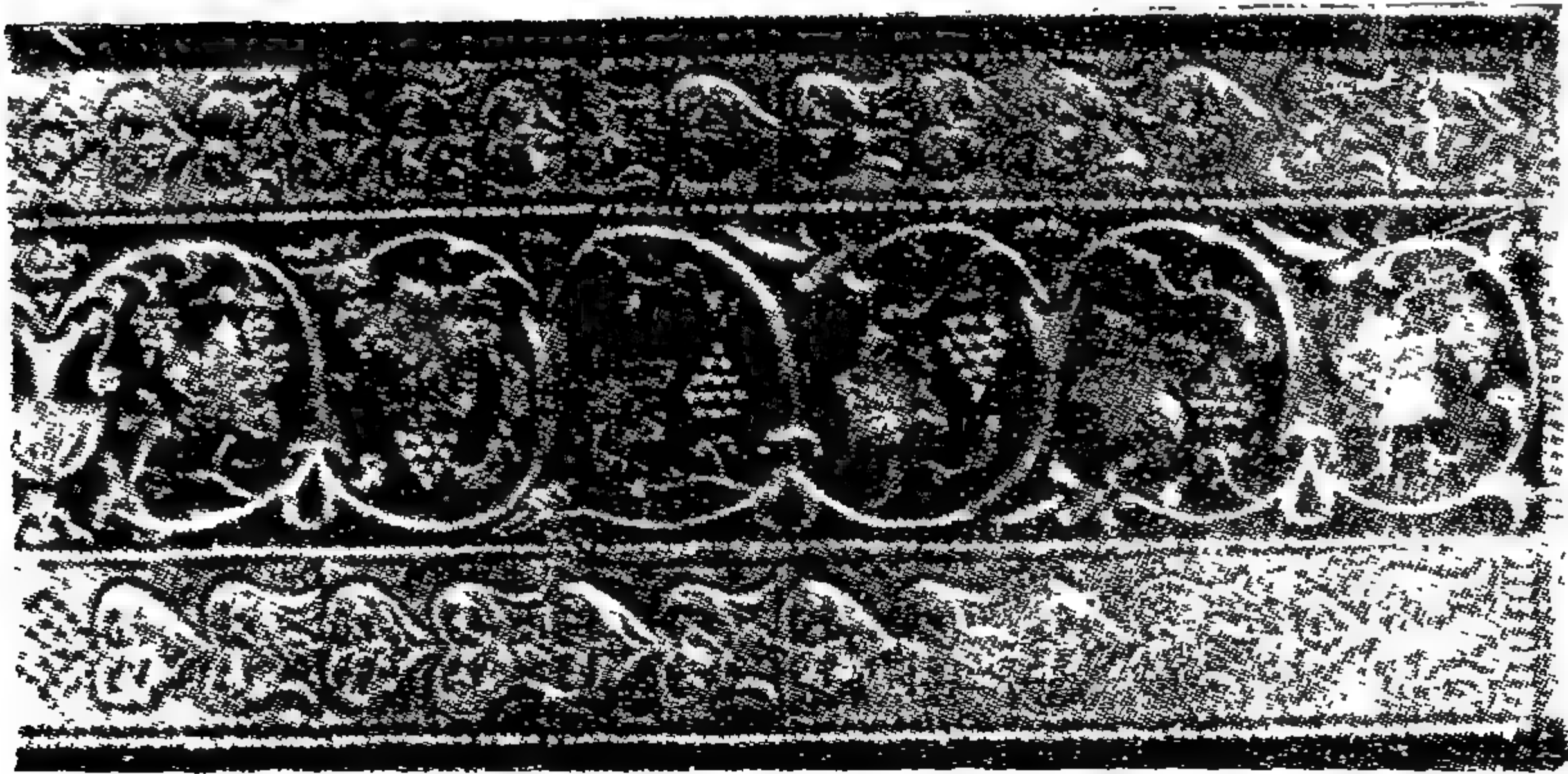
صحن من الخزف المينائي من صناعة ايران في القرن (٧ هـ)
بمتحف كلية الآثار بالقاهرة

ثالثا - المعادن الاسلامية





مبخره من البرونز من صناعة ايران في العصر الساساني في القرن (٦ هـ)
(بمتحف الأرميتاج في ليننجراد بروسيا)



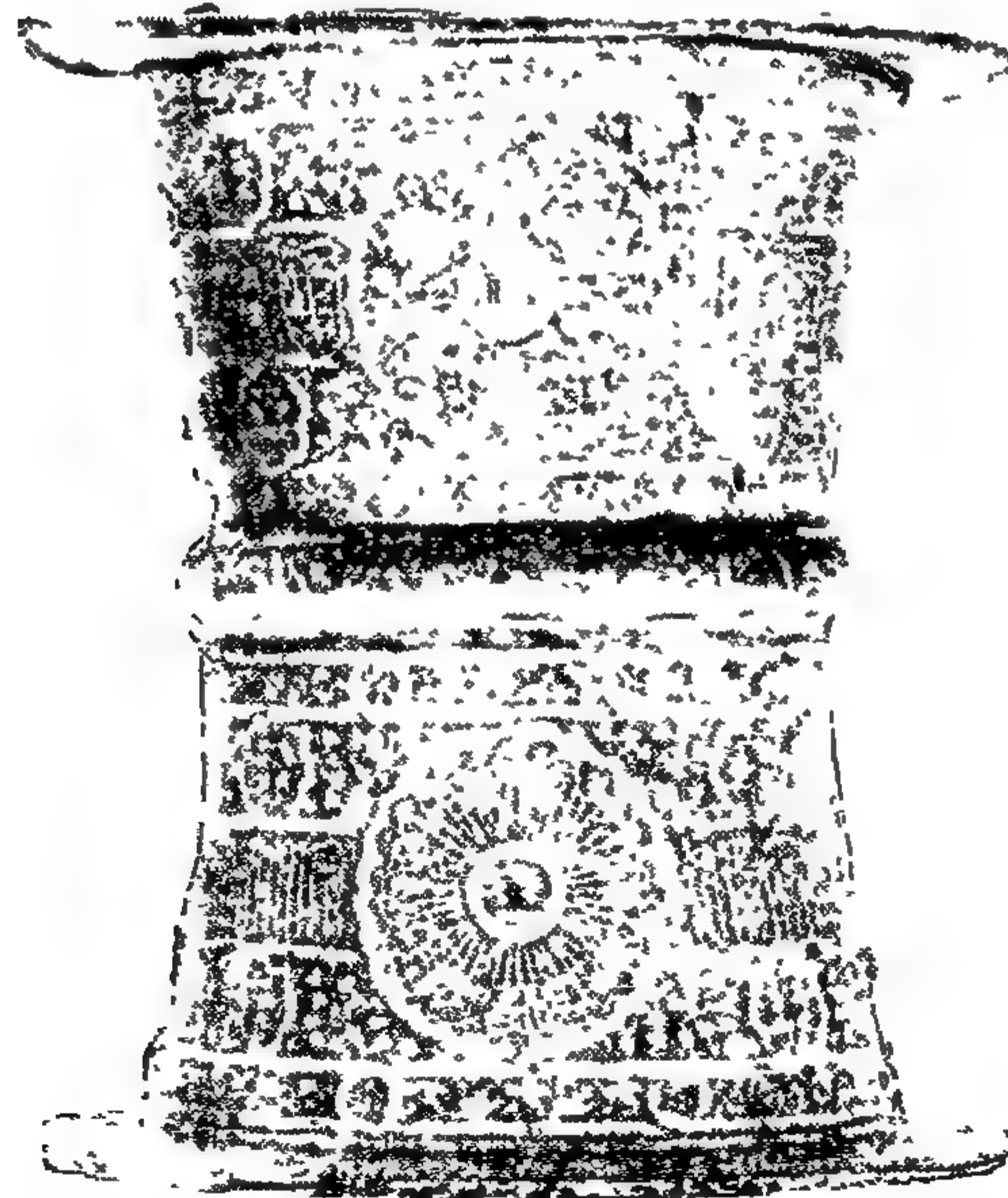
شريط من البرونز المزخرف بطريقة الطرق والصفط بفلف الروابط الخشبية
بقبة الصخرة ببيت المقدس من صناعة الشام سنة ٧٢ هـ



تمثال عقاب من البرونز زخارفه معزوزة من صناعة مصر في
العصر الفاطمي (بمتحف بيزا بايطاليا)



صندوق من النحاس المطعم بالفضة تحفظ فيه المجوهرات
والبخور عليه كتابة بالخط الثلث باسم الأمير المملوكي طغاي
تمر على ارضية نباتية وأعلاها شريط عليه رسوم حيوانية
يتوسطه رنك الكاسي أي أن صاحبها يشغل وظيفة ساقى
السلطان • وهي من مصر القرن ٧ - ٨ هـ



حامل صينية من النحاس المكفت بالفضة من عصر السلطان
القاصر محمد بن قلاوون في القرن (٧ هـ) من صناعة مصر
(بالمتحف البريطاني)



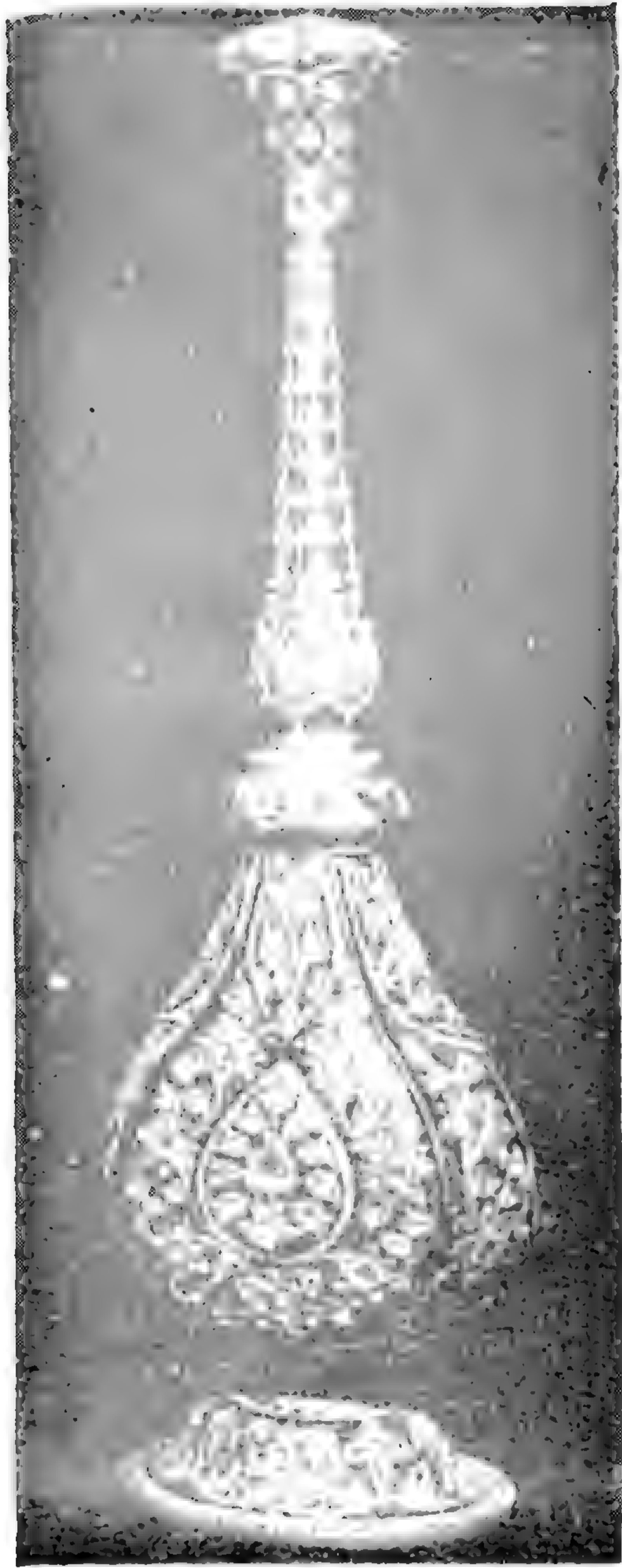
ابريق من النحاس زخارفه مضغوطة ومخزوزة ومضلعة
من صناعة ايران في القرن (٧ هـ) بمتحف برلين



ابريق من النحاس المكفت بالذهب والفضة من صناعة ايران سنة ٦٧٣ هـ
(في متحف قصر گلستان طهران)

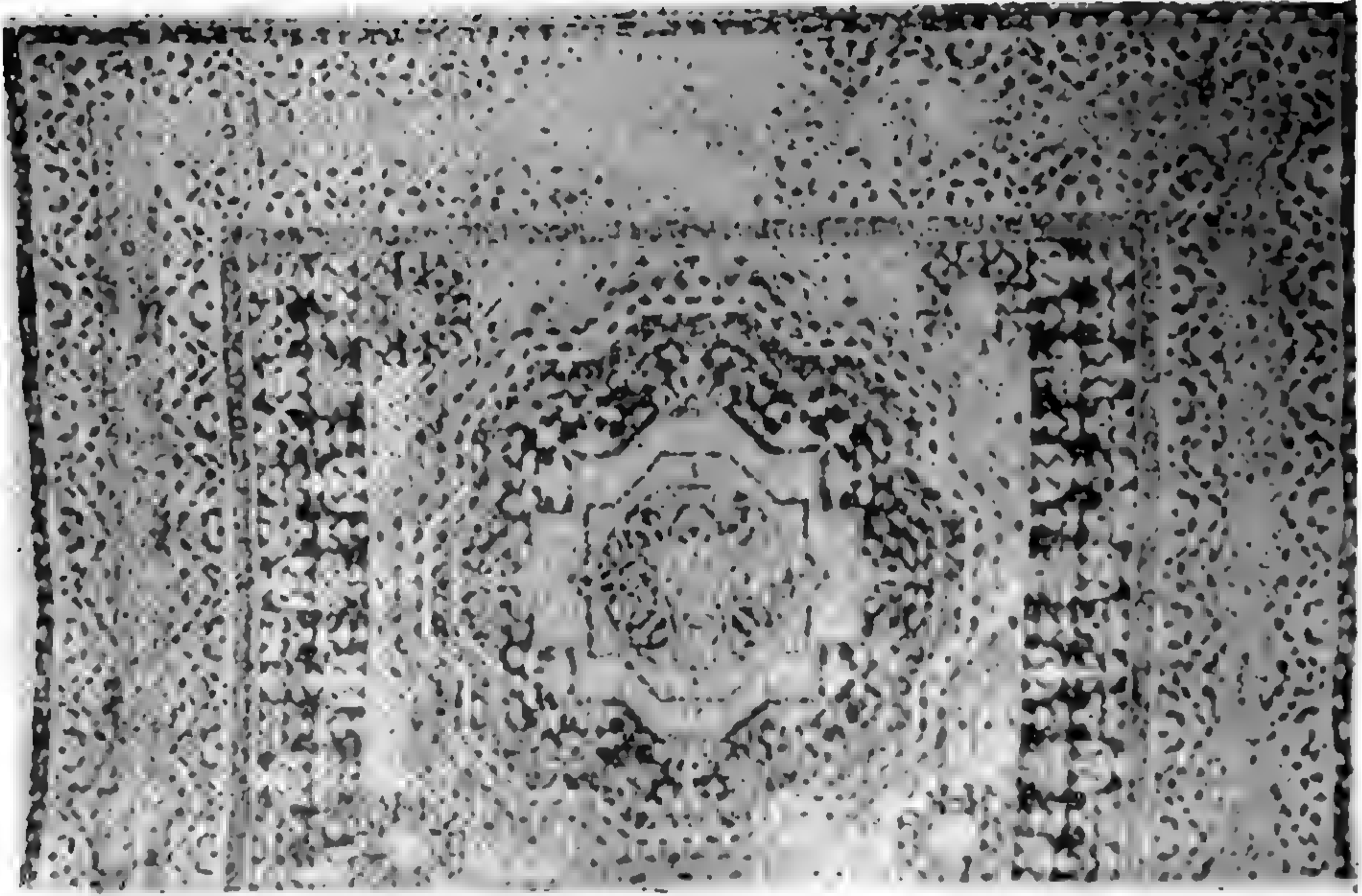


شمعدان من البرونز المكفّت بالفضة من صناعة ايران في
القرن (٧ هـ) في متحف كلستان بطهران

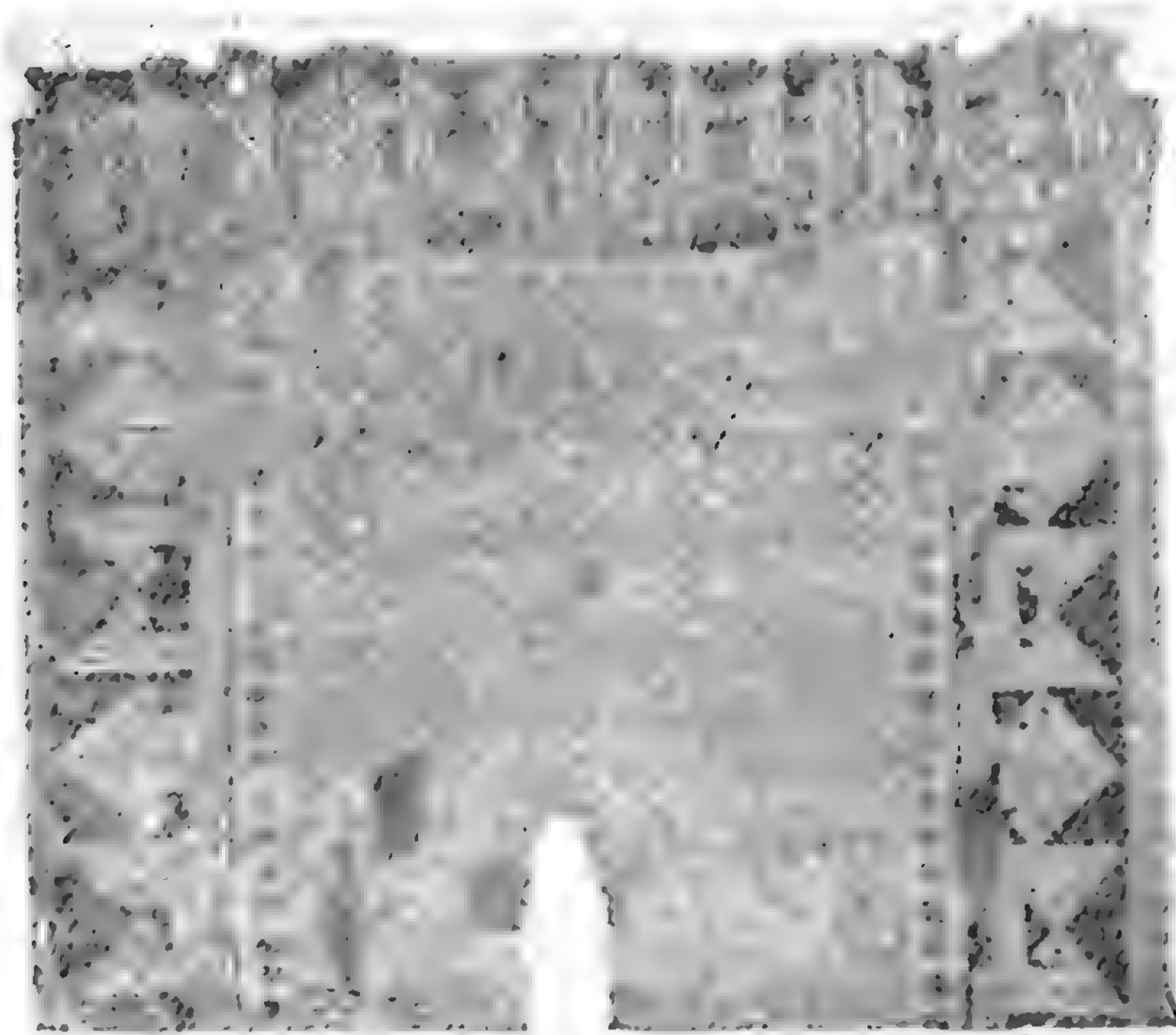


لمقم العطور من الفضة المرصعة بالأحجار الكريمة من صناعة
تركيا في القرن (١٢ هـ) من هدايا الكعبة المشرفة
بمتحف الحرم المكي

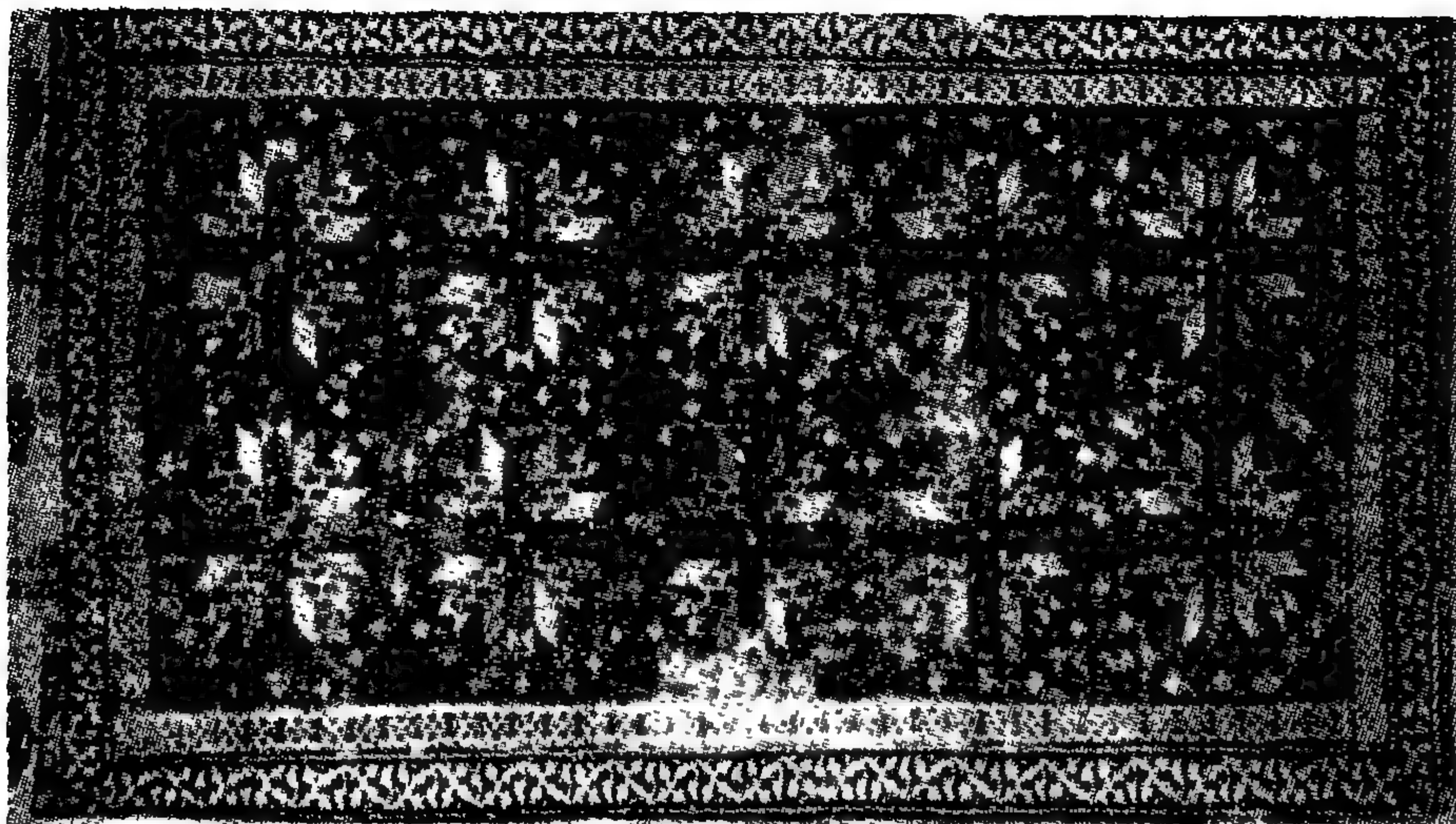
رابعاً - السجّاد الوبري



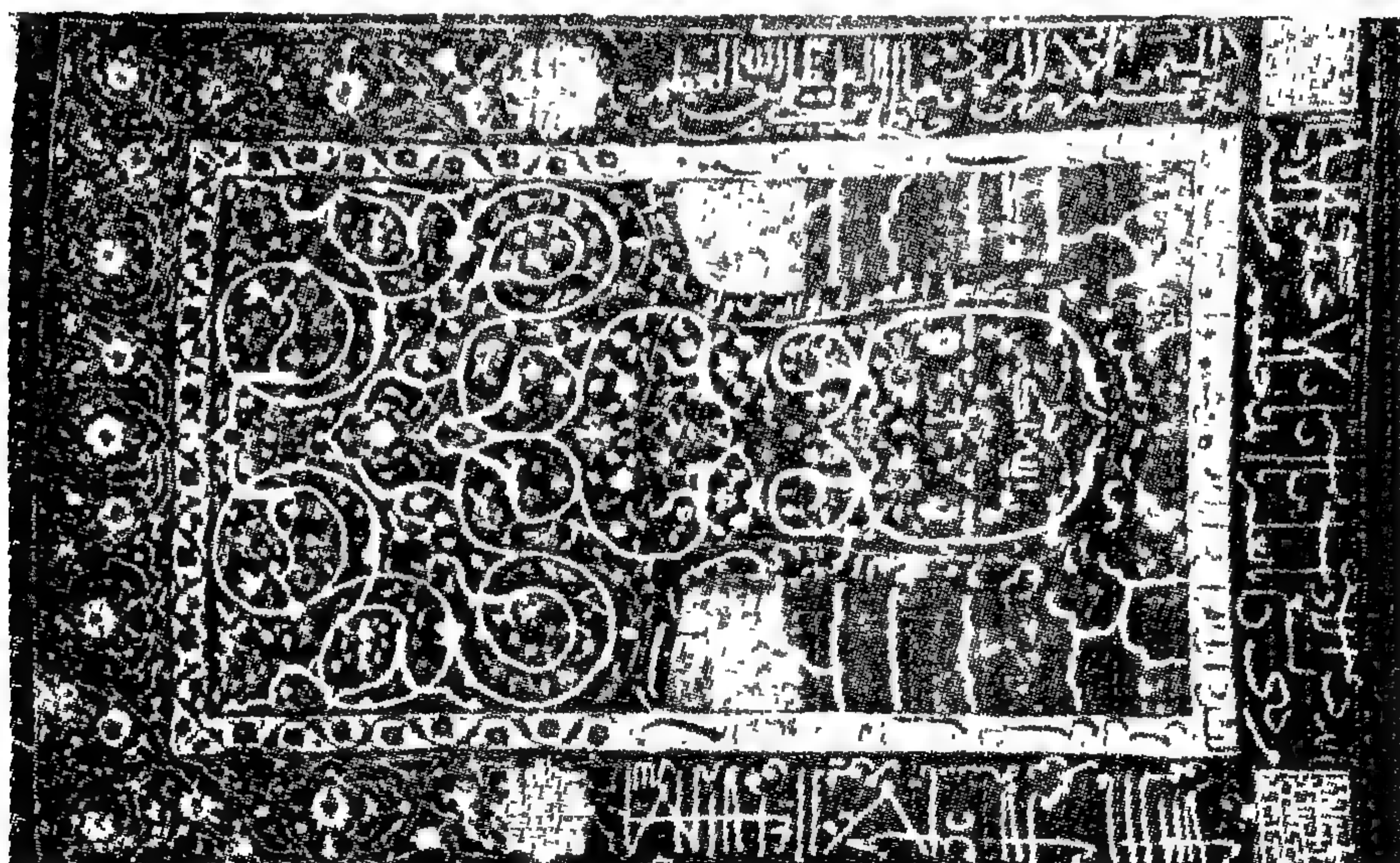
سجادة من صناعة مصر في العصر المملوكي في القرن (١٠ هـ) والتي يطلق عليها خطأ
سجاد دمشق بمتحف برلين



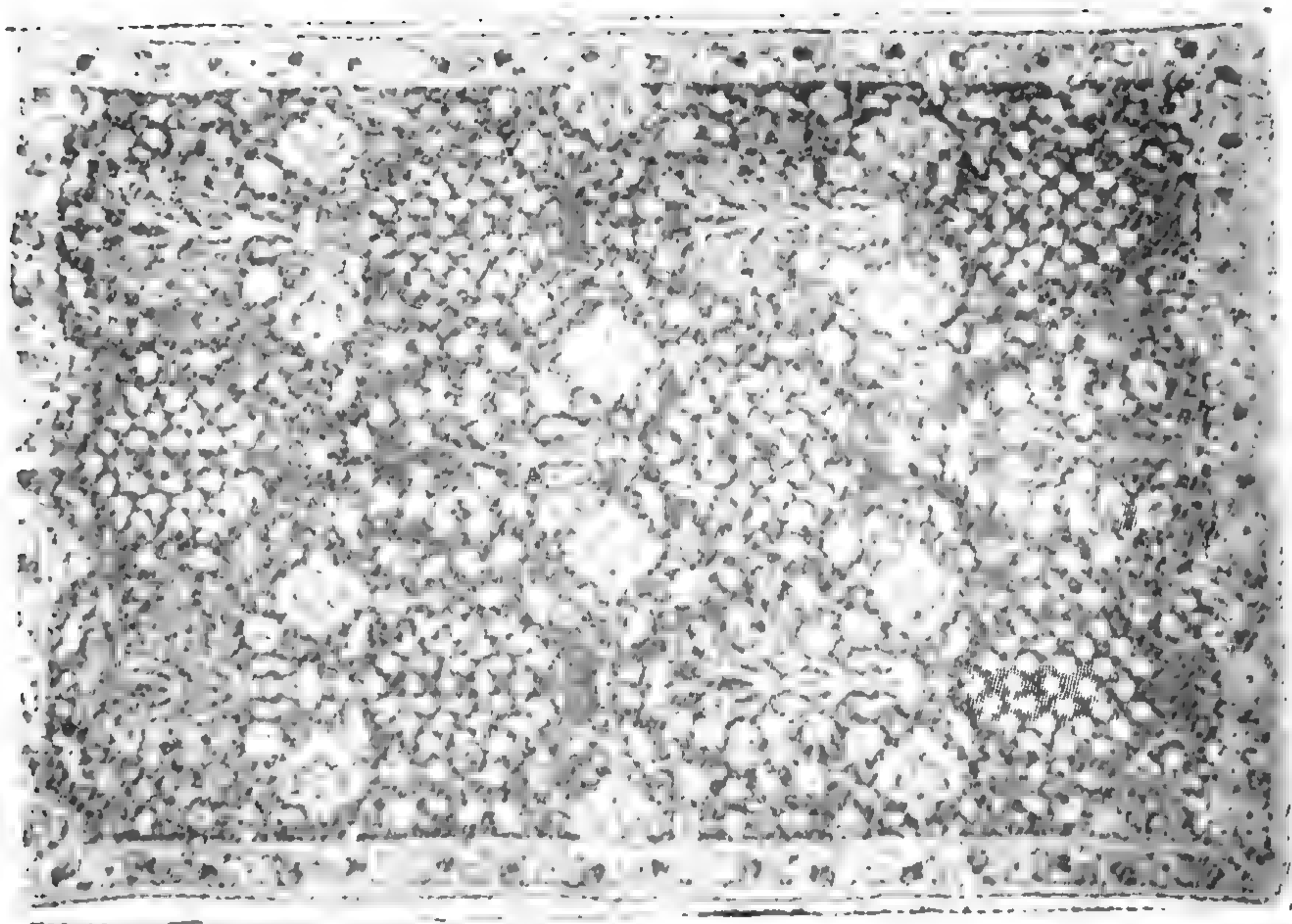
سجادة من مسجد علاء الدين بقونية بآسيا الصغرى من العصر السلجوقي في القرن
(٧ هـ بمتحف الفنون التركية والاسلامية باسطنبول)



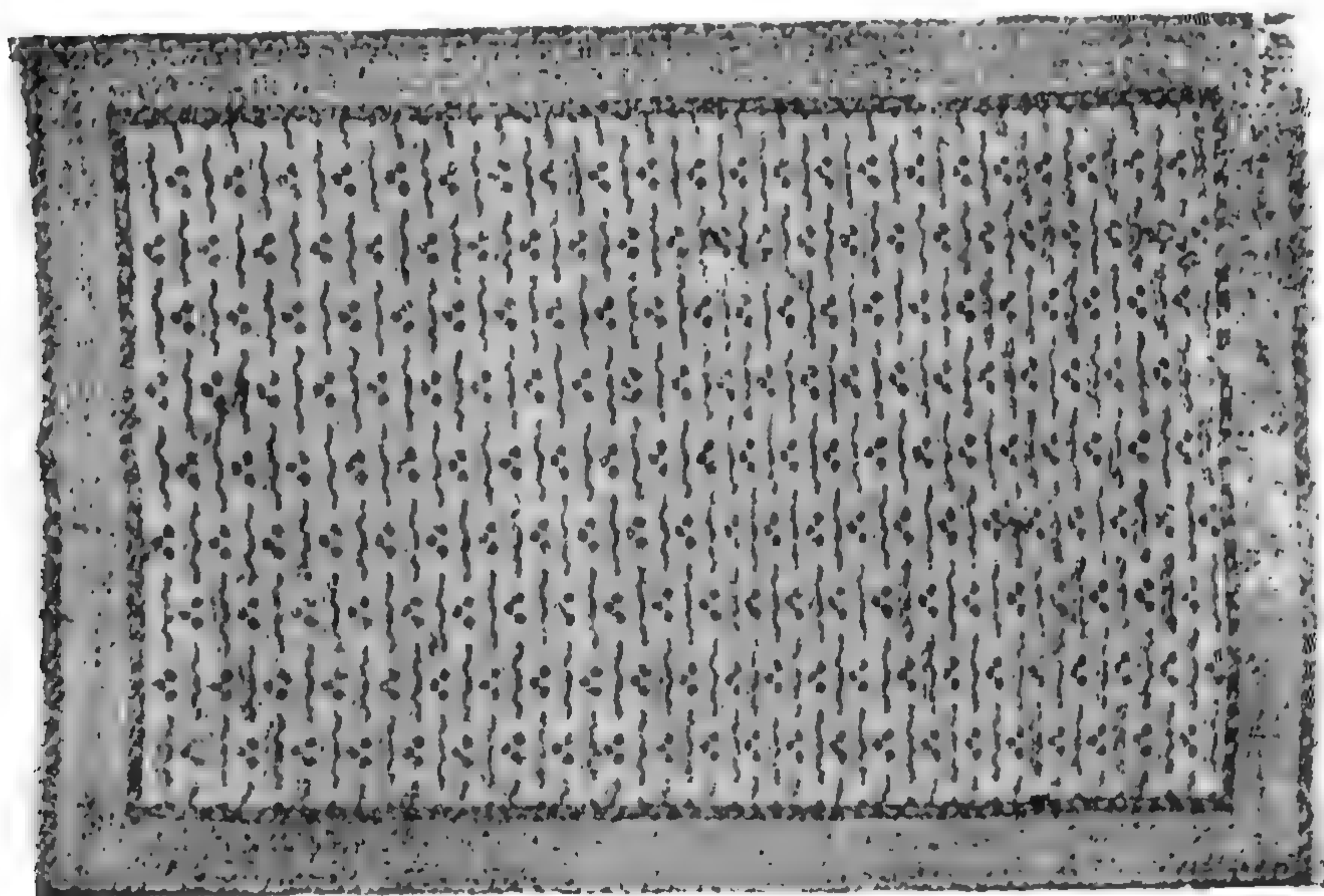
سجادة من صناعة اسبانيا من القرن (١٠ هـ) بمتحف برلين



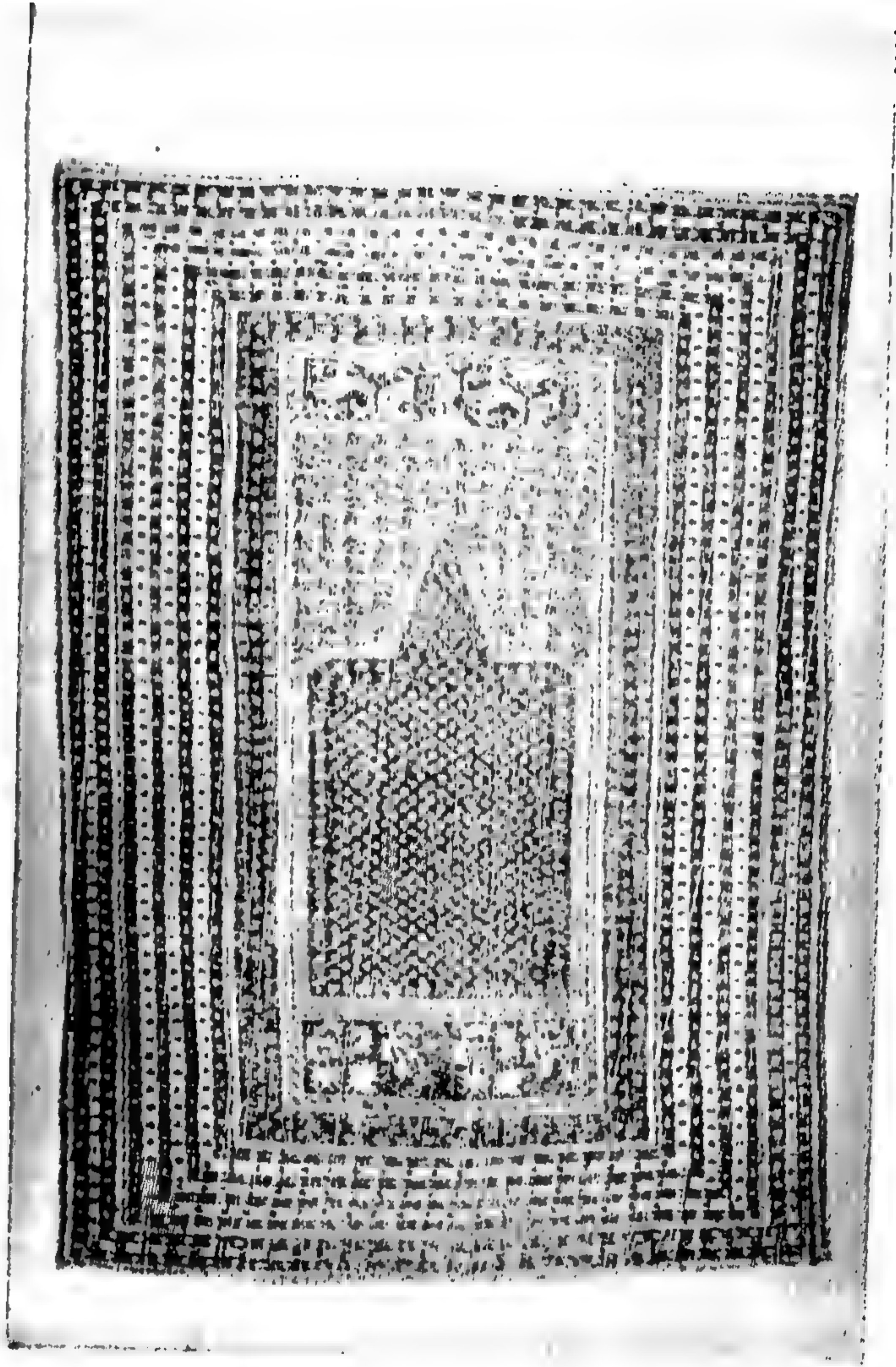
سجادة صلاة من صناعة ايران في العصر الصفوي من القرن (١٠ هـ)
بمجموعة يوسف كمال بالقاهرة



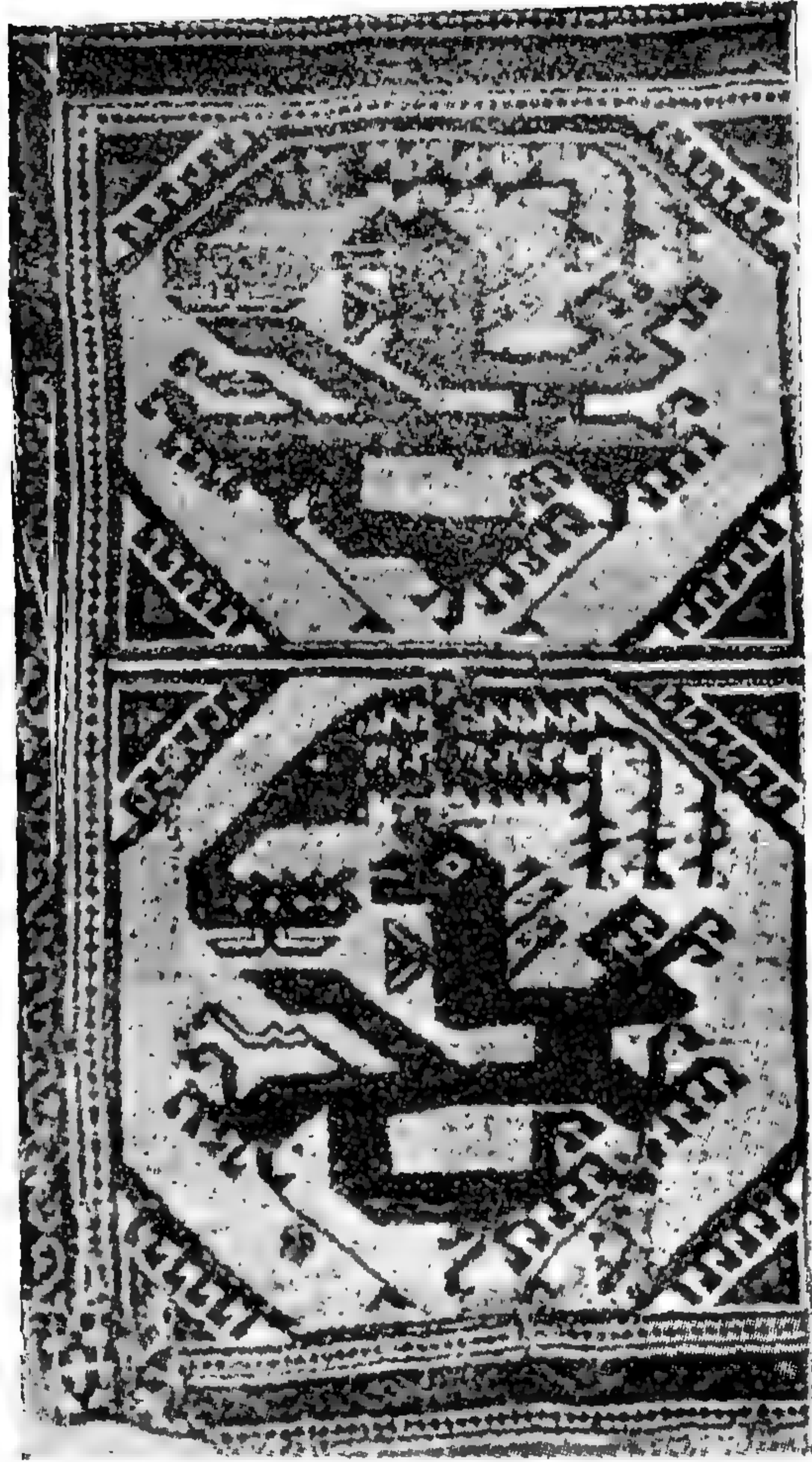
سجادة من صنع ايران في العصر الصفوي في القرن (١١ هـ) تعرف باسم سجادة
الزهرية (بمتحف برلين)



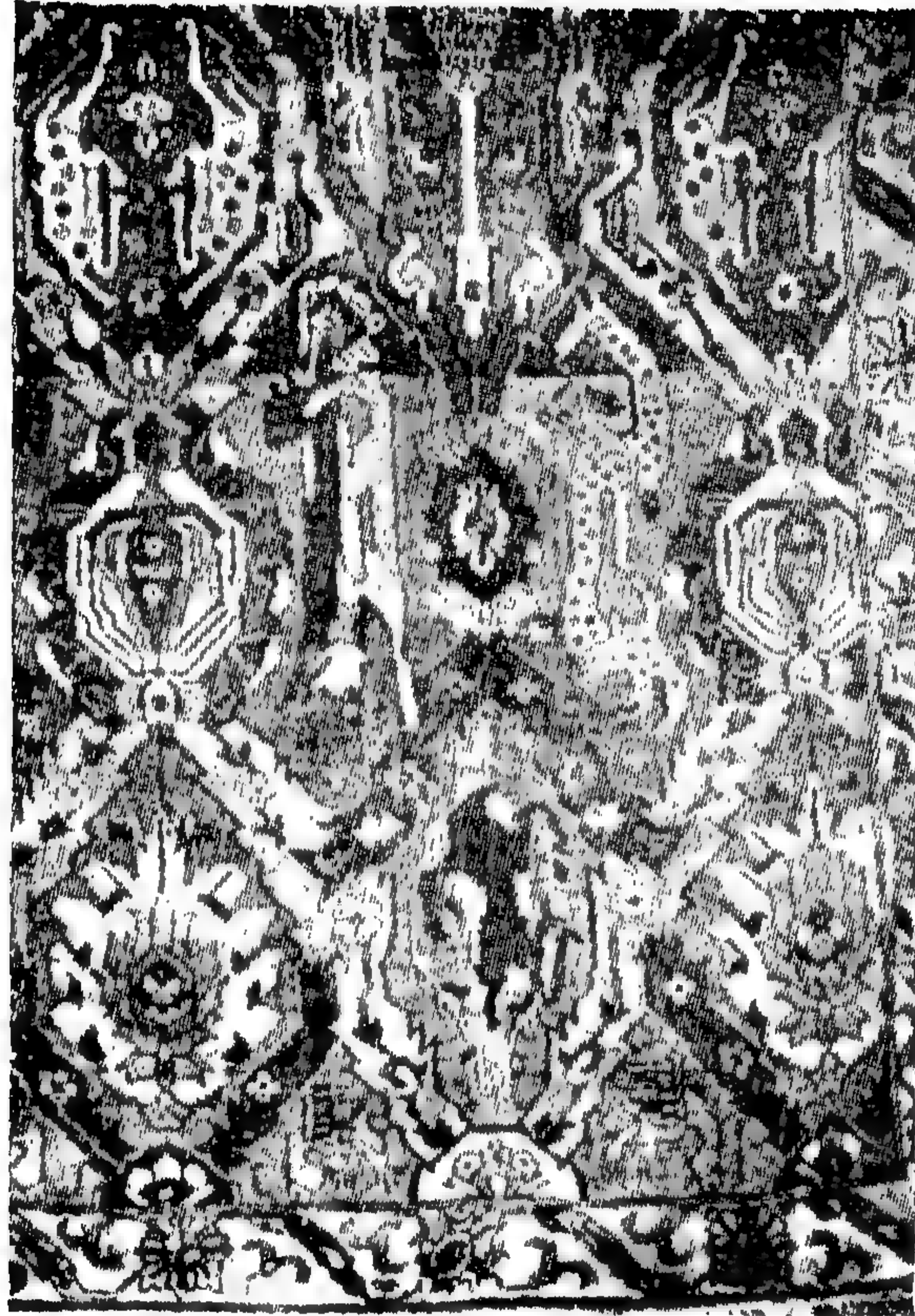
سجادة من صناعة تركيا في القرن (١١ هـ) تعرف باسم تششتماني اى السحب والاقمار
بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة



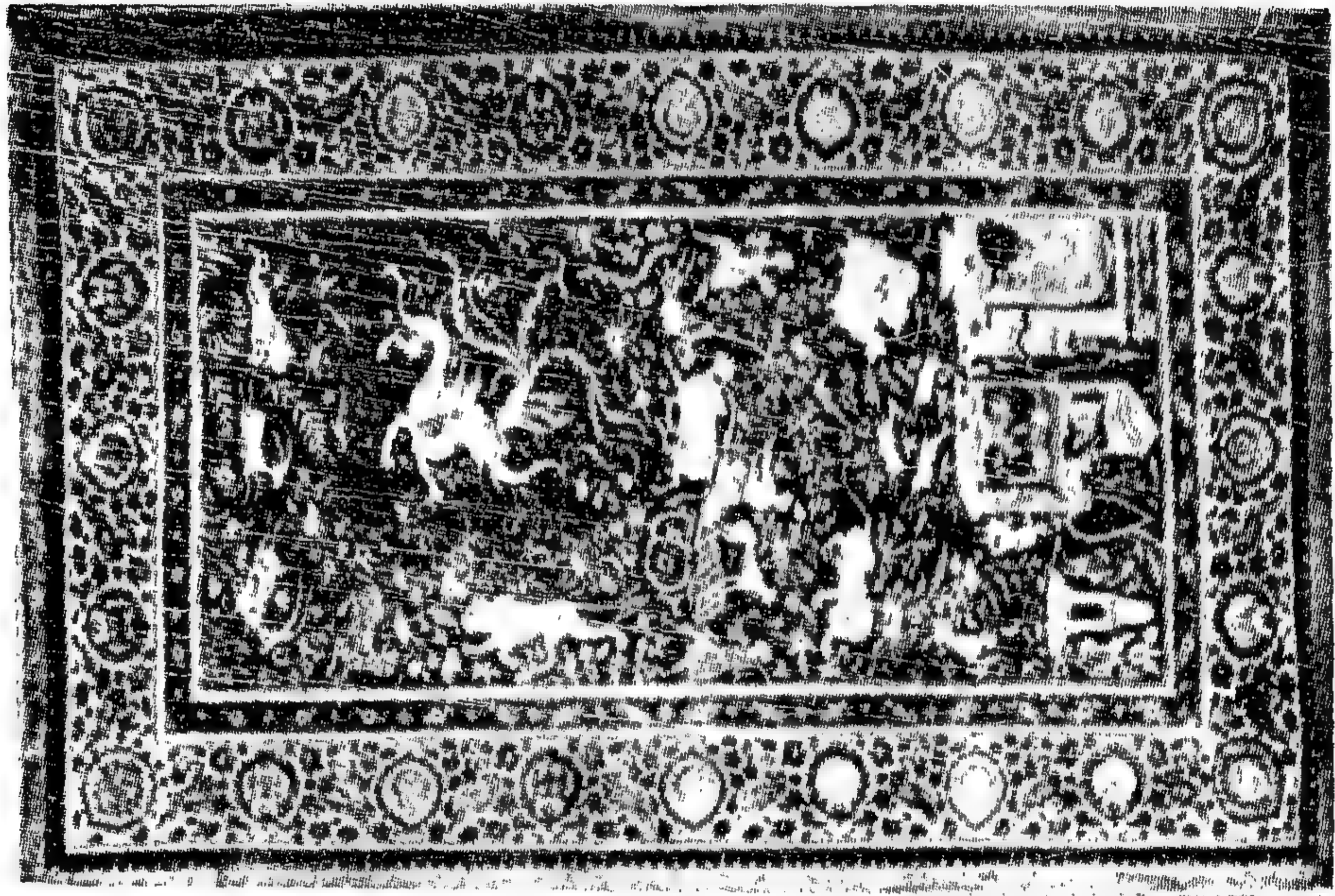
سجادة صلاة من صناعة تركيا من طراز جورديس من نهاية
القرن (١٢ هـ) بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة



سجادة من صناعة أرمينيا في القرن (٩ هـ)
(بمتحف برلين)



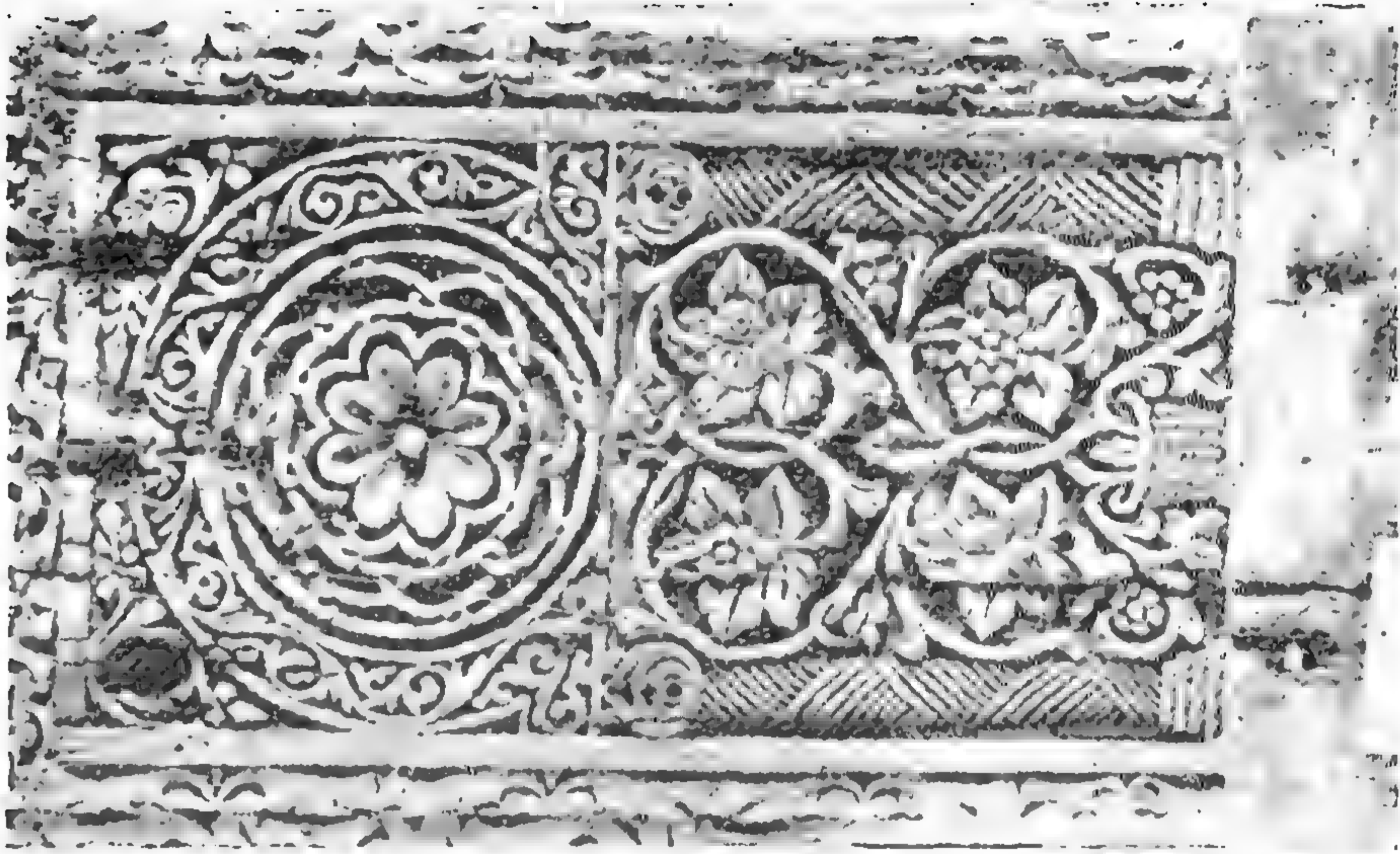
سجادة من صناعة ارمينيا تعرف باسم طراز القوقاز
من القرن (١١ هـ) (بمتحف برلين)



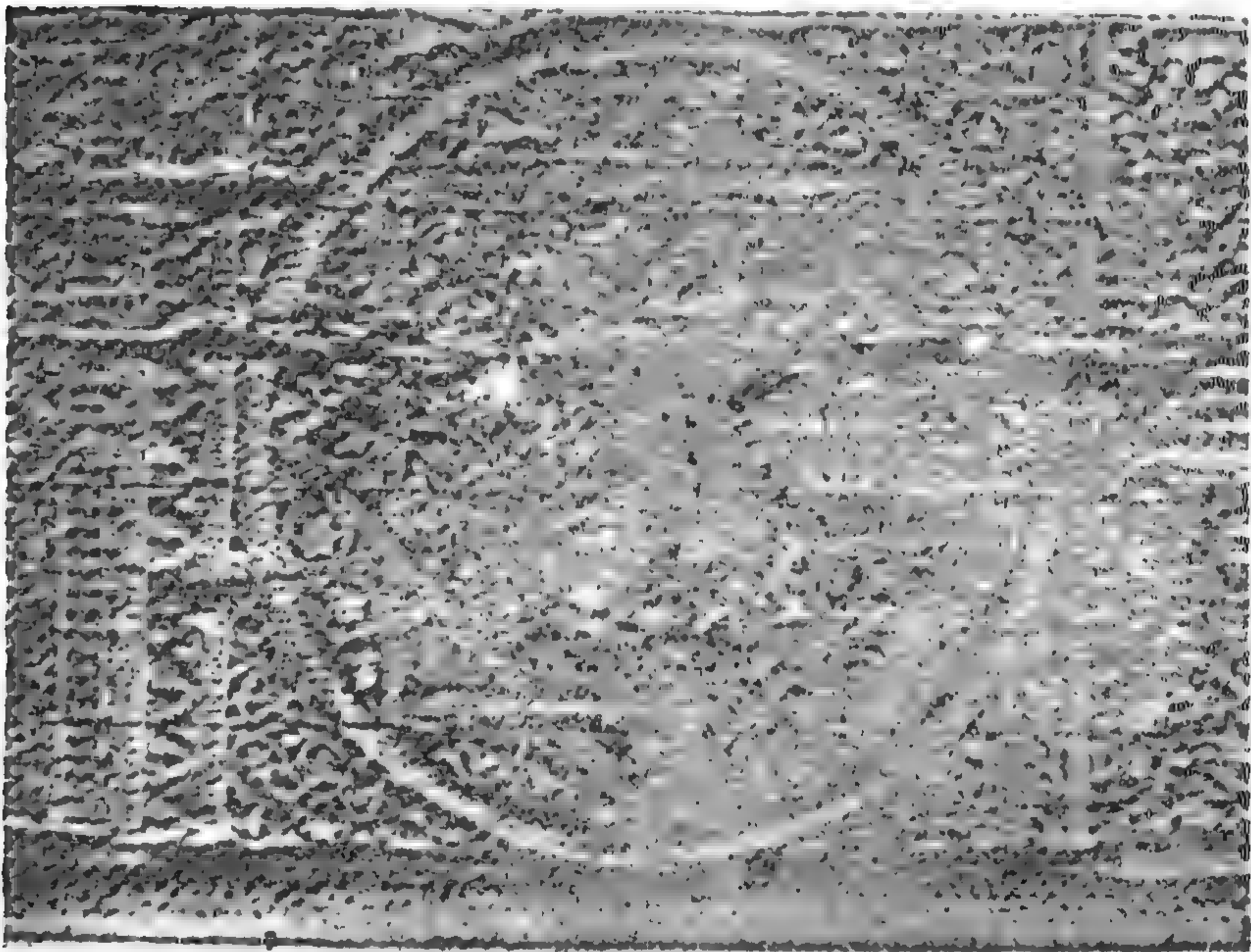
سجادة من الهند من القرن السابع عشر
(بمتحف الفنون الجميلة ببوسطن)

النقش في الخشب والعاج





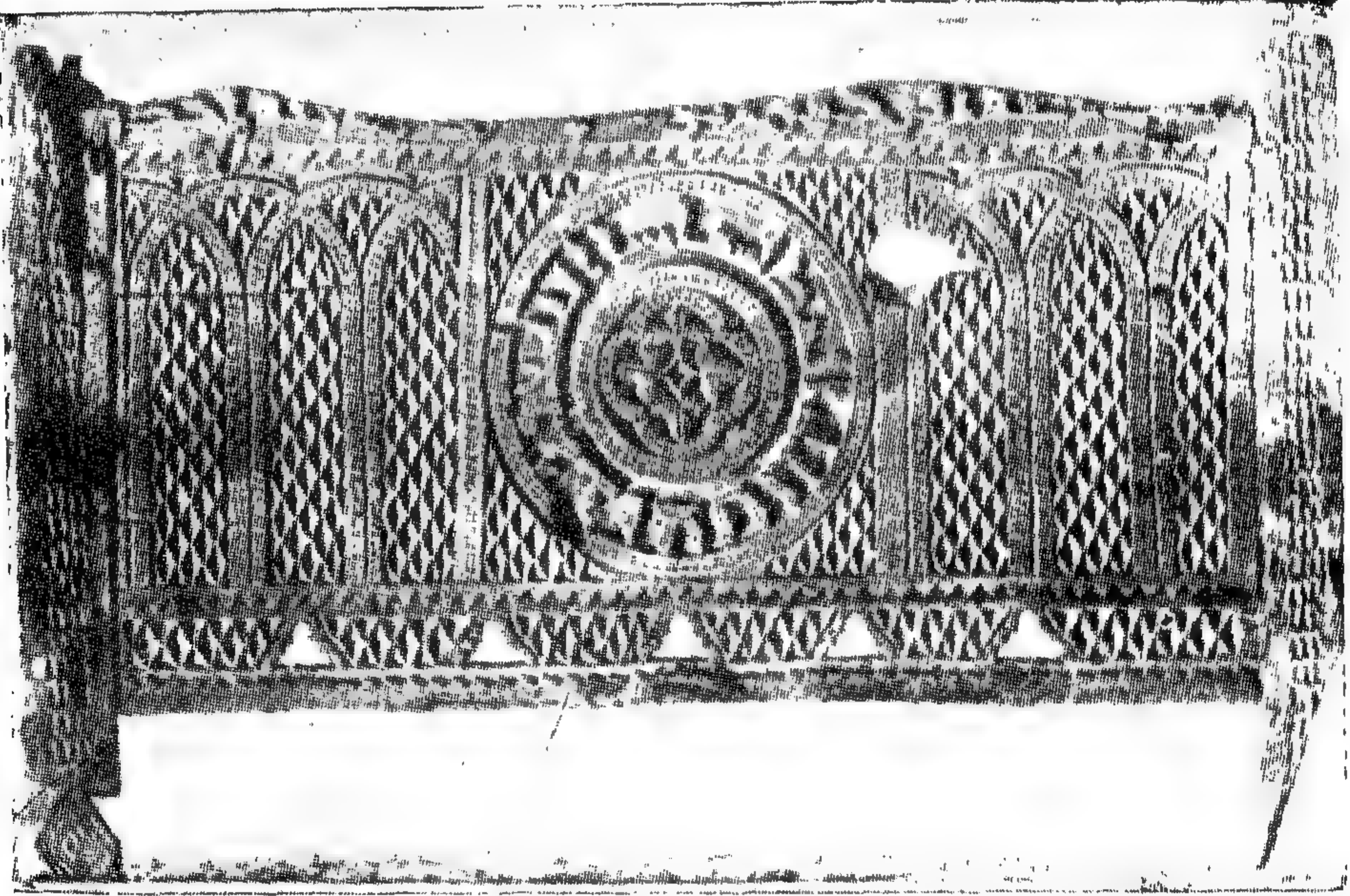
لوح من الخشب منحوت حفرًا بارزًا وغائرًا من الطراز الأموي من صناعة الشام حوالي سنة ١٦٣ هـ وهو يسقف الرواق الأوسط بالمسجد الأقصى ببيت المقدس



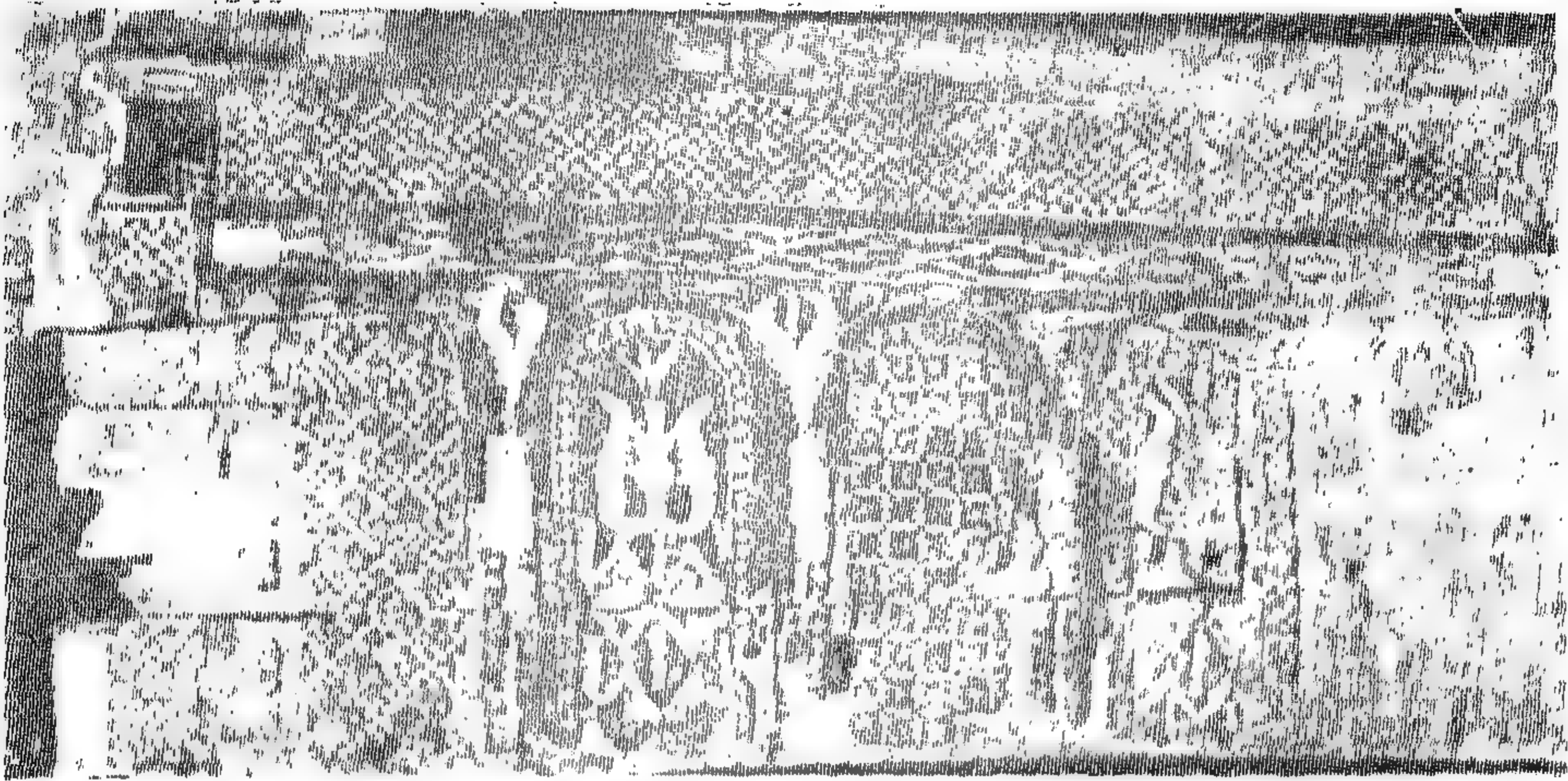
جزء من باب من الخشب وجد في تكريت في العراق ويرجع إلى بداية العصر العباسي في القرن (٢ هـ)



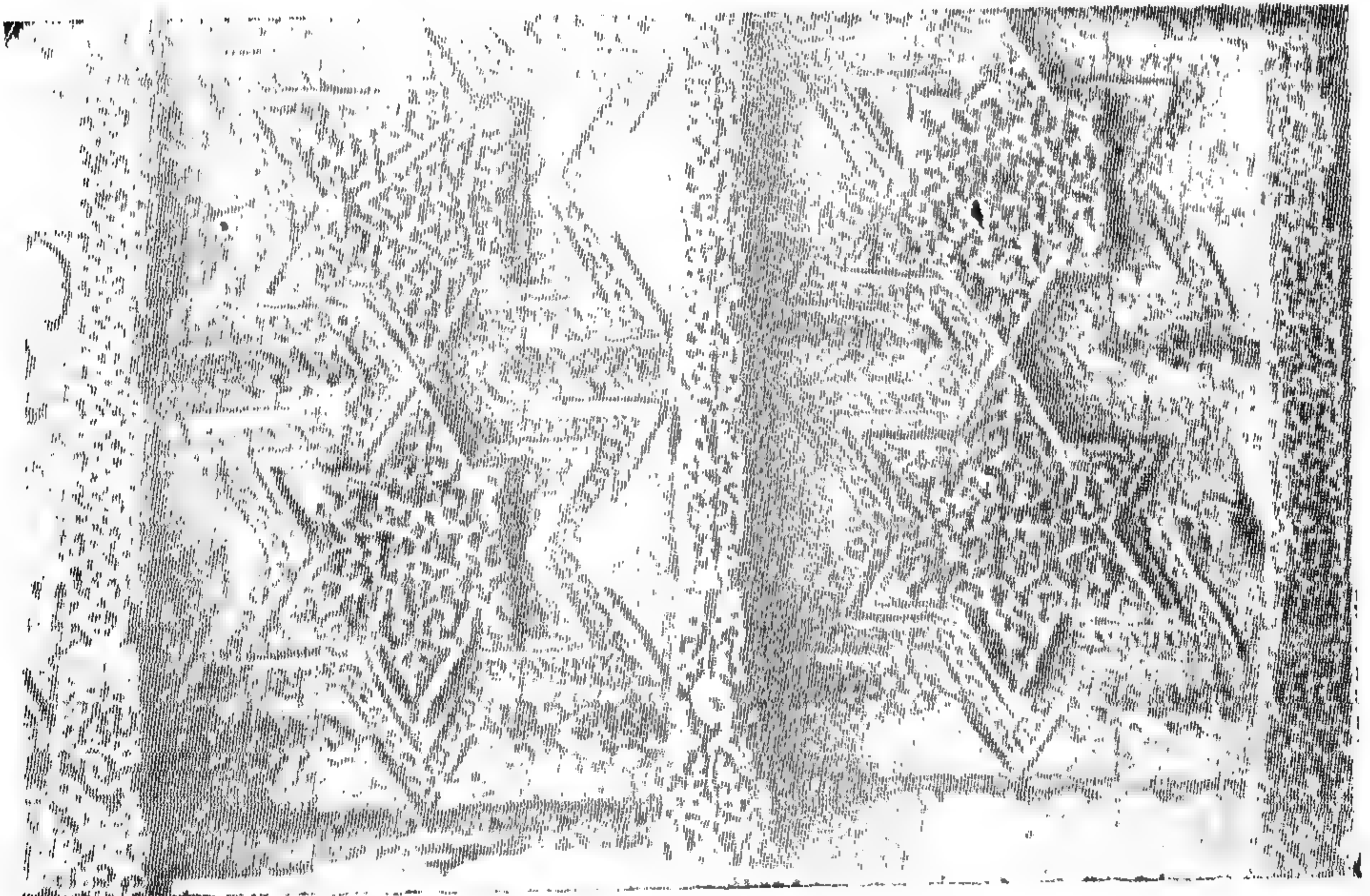
حشوه من الخشب من منبر وجد في تكريت
يرجع الى اوائل العصر العباسي القرن (٢ هـ)
(بمتحف المتروبوليتان بنيويورك)



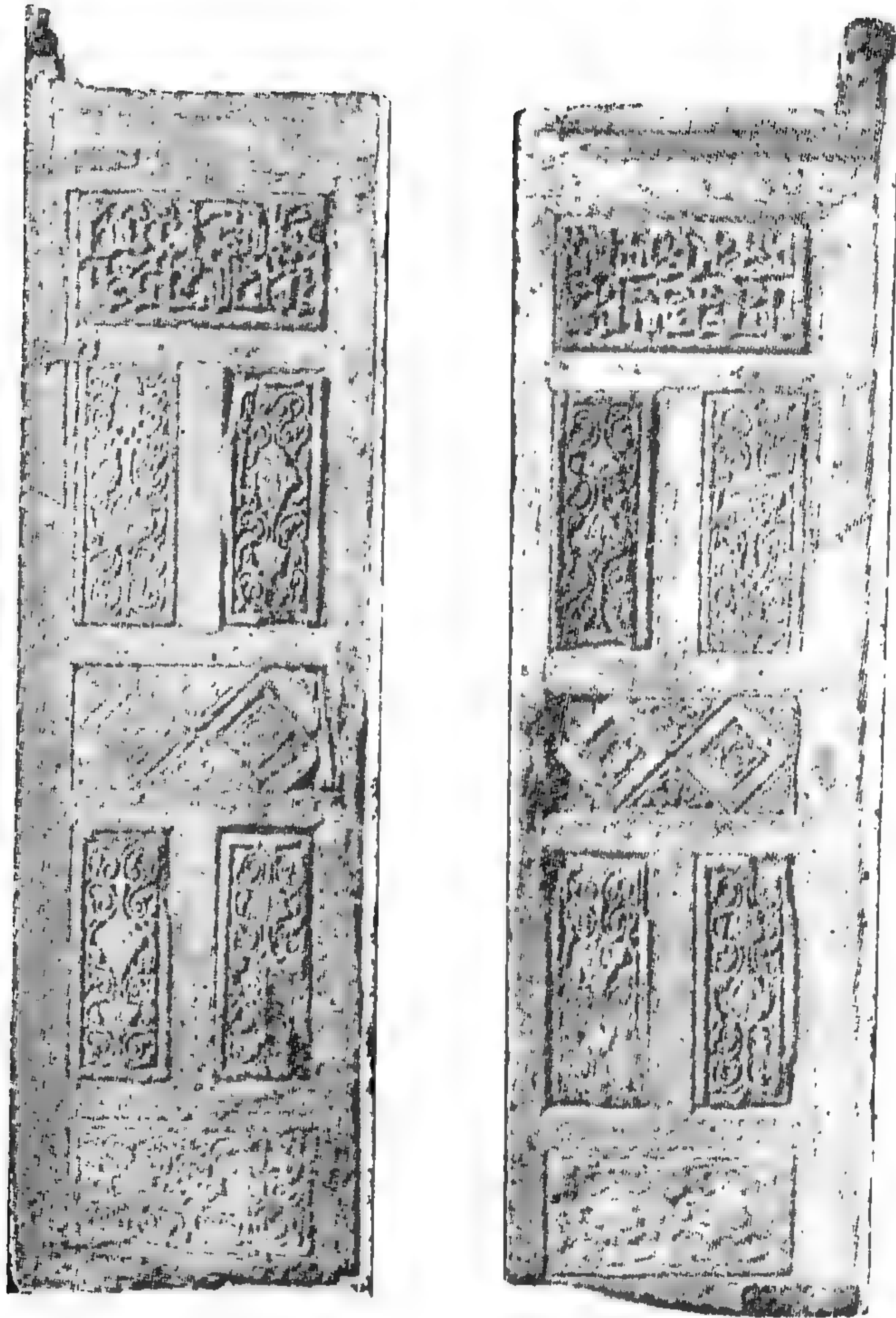
لوح من الخشب من صناعة مصر في العصر الأموي في القرن (٢ هـ)
بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة



لوح من الخشب مزخرف بطريقة التطعيم المزيف او طريقة الترصيع من صناعة مصر فى القرن (٣ هـ)
بمتحف كلية الآثار بالقاهرة



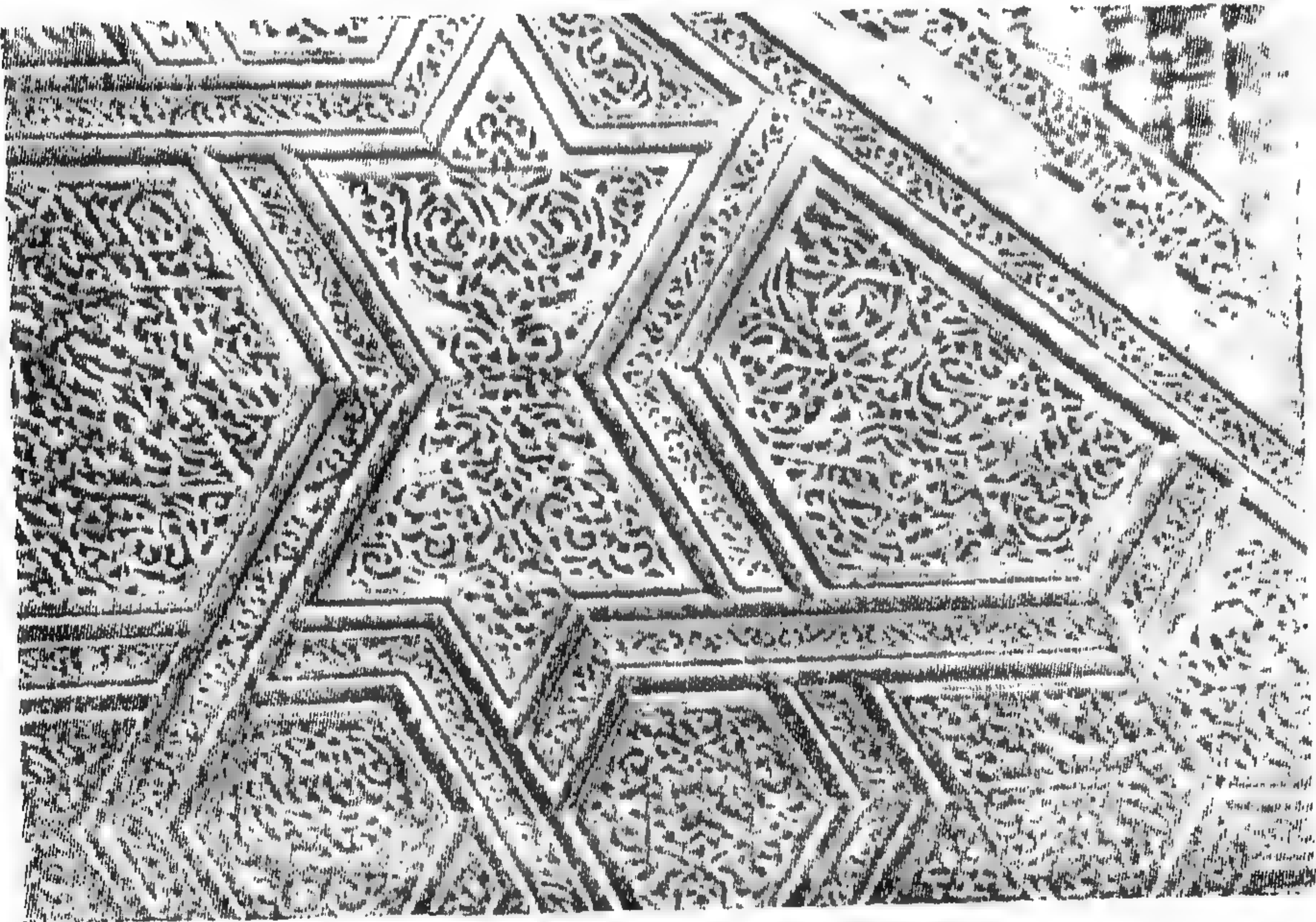
باب خشبى من قبر محمود الغزنوى من صناعة ايران فى القرن (٥ هـ)
(محفوظ بمتحف قلعة اجرا بالهند)



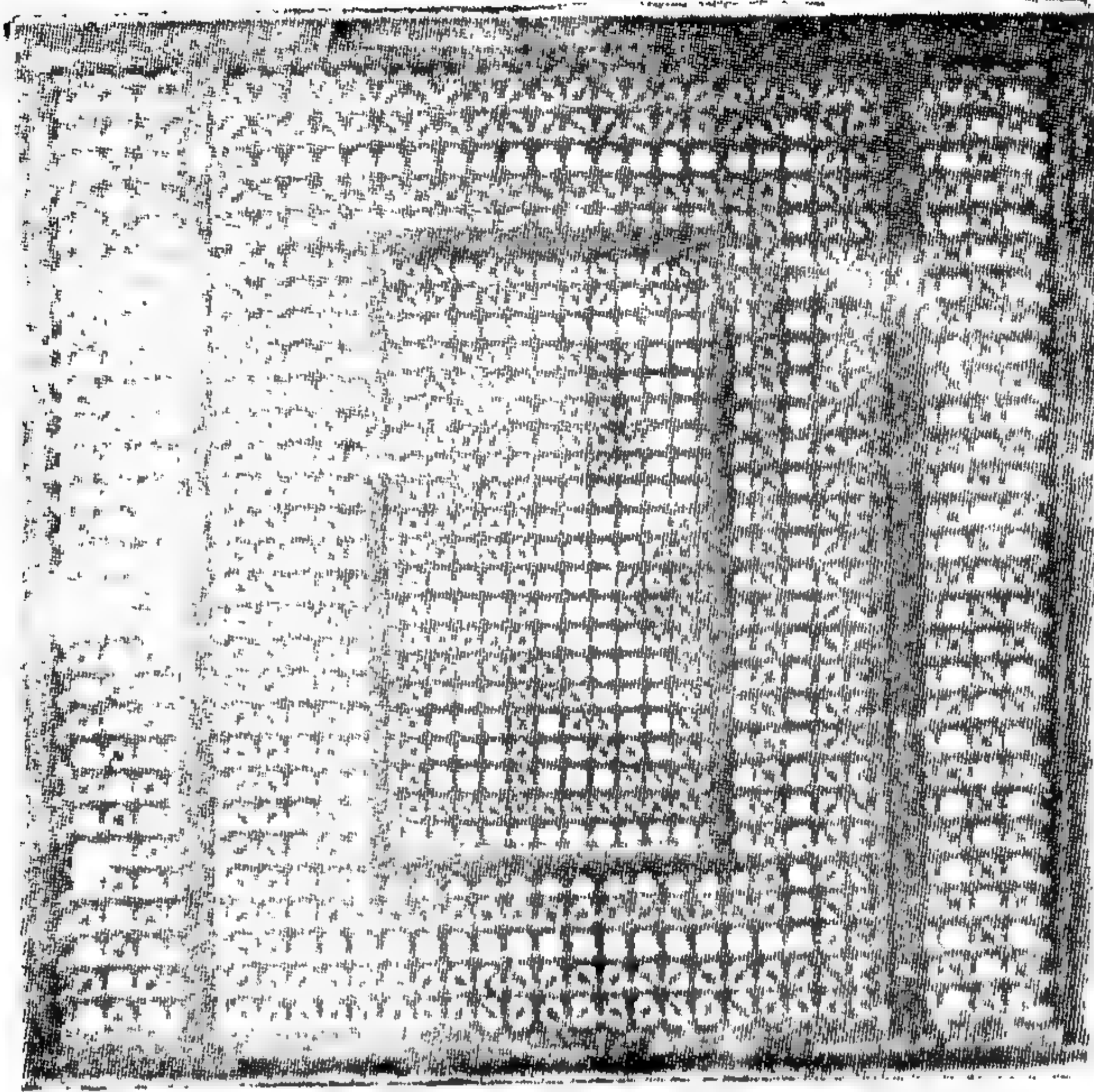
باب خشبي باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ
بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة



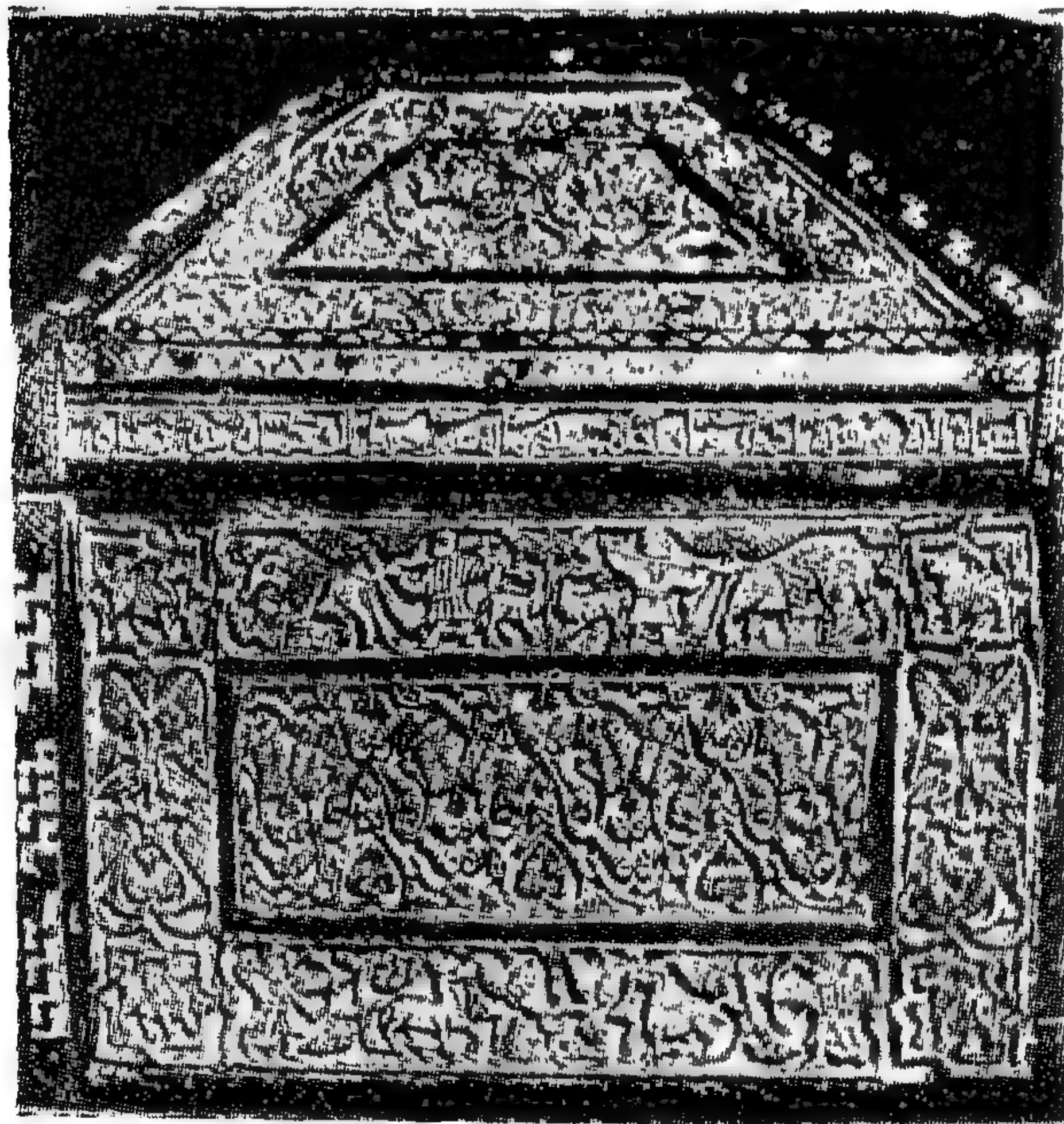
الواح خشبية من القصر الفاطمي الغربي ، عشر عليها في مارستان قلاوون
(بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة)



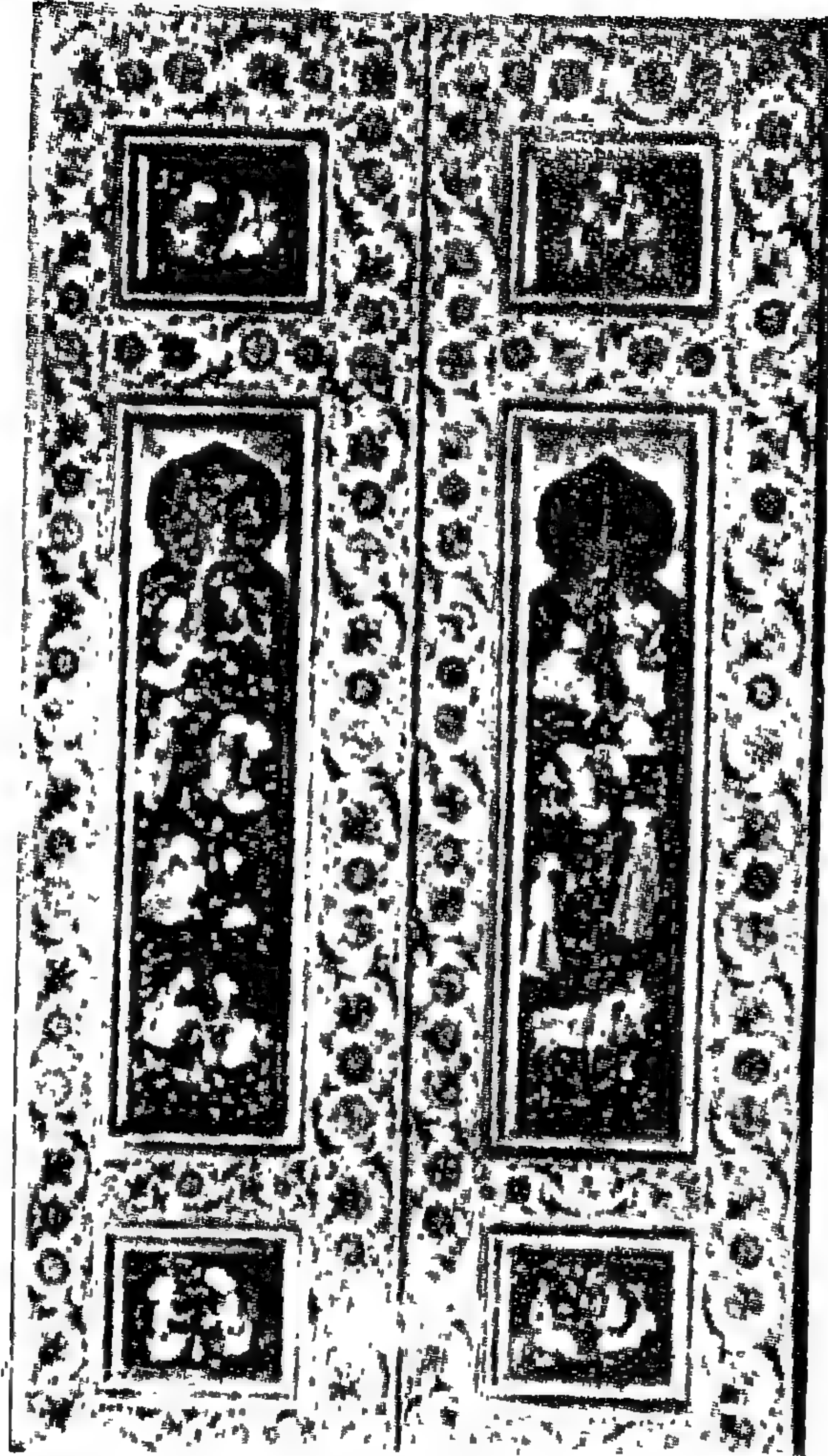
جزء من منبر خشبي عليه كتابة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر ووزيره بدر الجمالي
سنة ٤٨٤ هـ . صنع لشهد الامام الحسين في عسقلان ثم نقل الى حرم الخليل في فلسطين



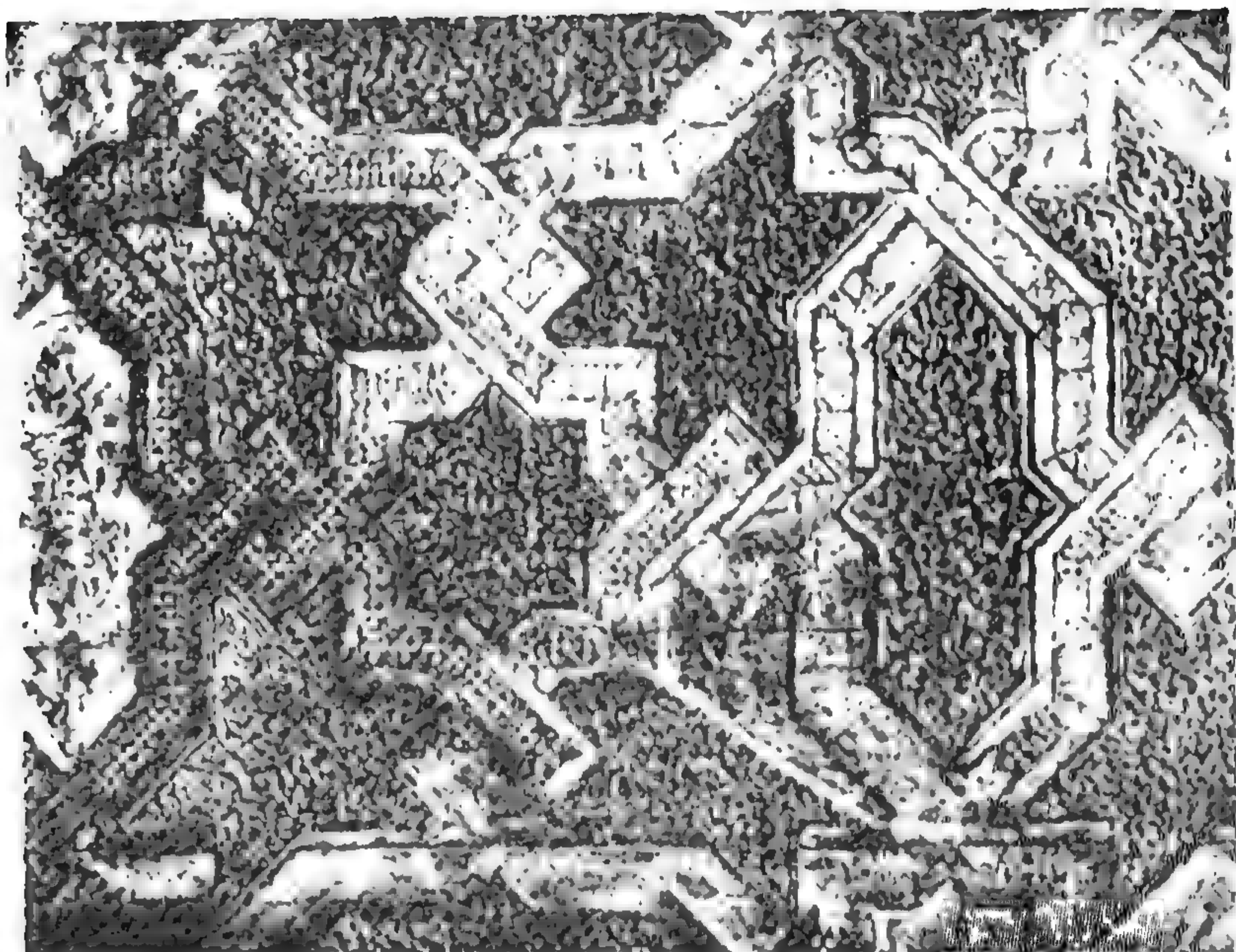
لوح من الخشب مزخرف بطريقة الخروط من صناعة مصر في
العصر المملوكي بمحترف الفن الاسلامي بالقاهرة



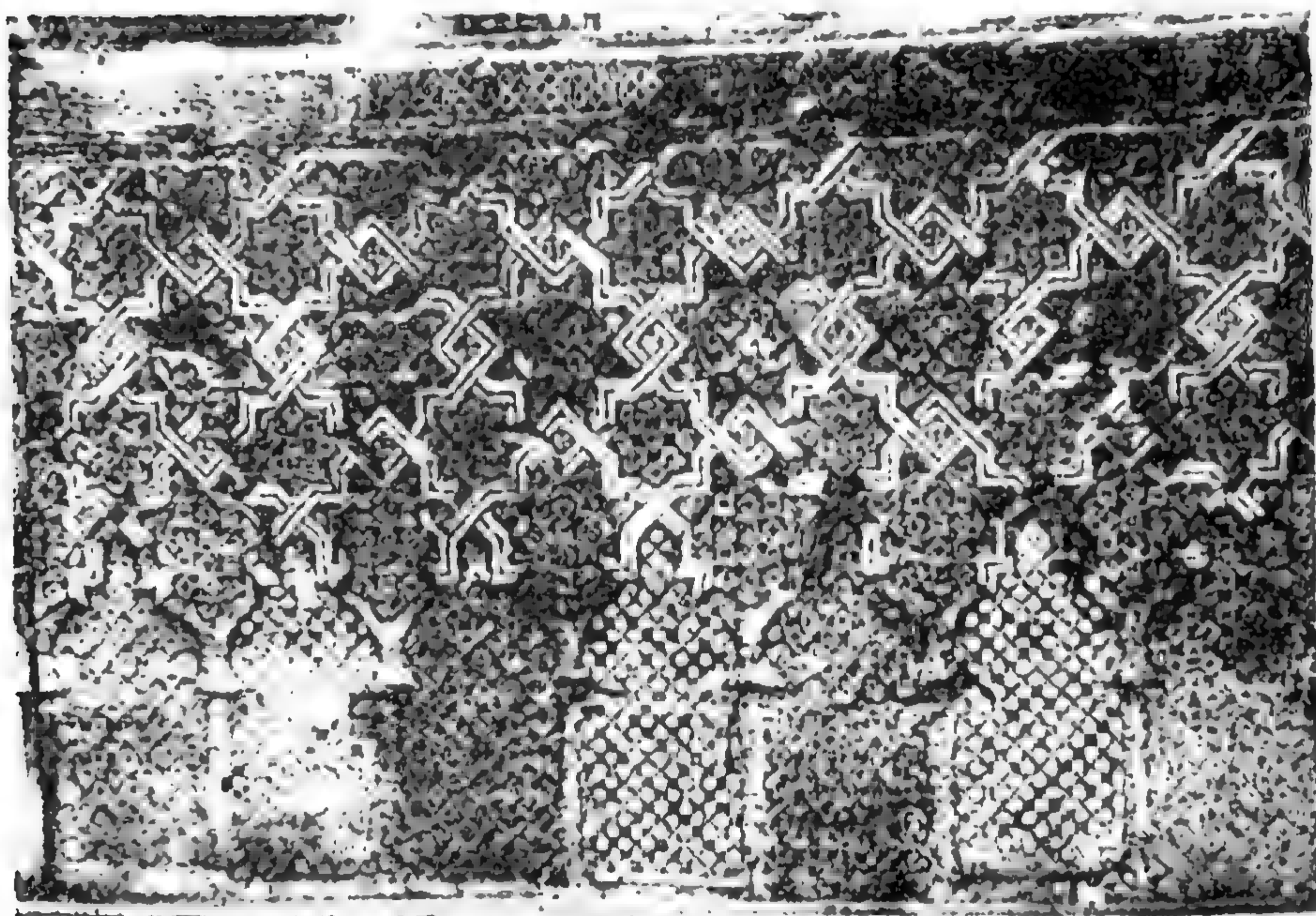
علبة من العاج من صناعة الاندلس مؤرخة سنة ٤٤١ هـ اصلها
من كاتدرائية بلنسة وهي محفوظة الآن بمتحف الآثار بمدريد



باب من الخشب من صناعة ايران مزخرف بطريقة اللاكيه .
من قصر جهل ستون في اصفهان وبرجع الى العصر الصفوي
في القرن (١١ هـ)

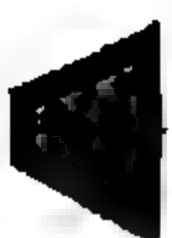


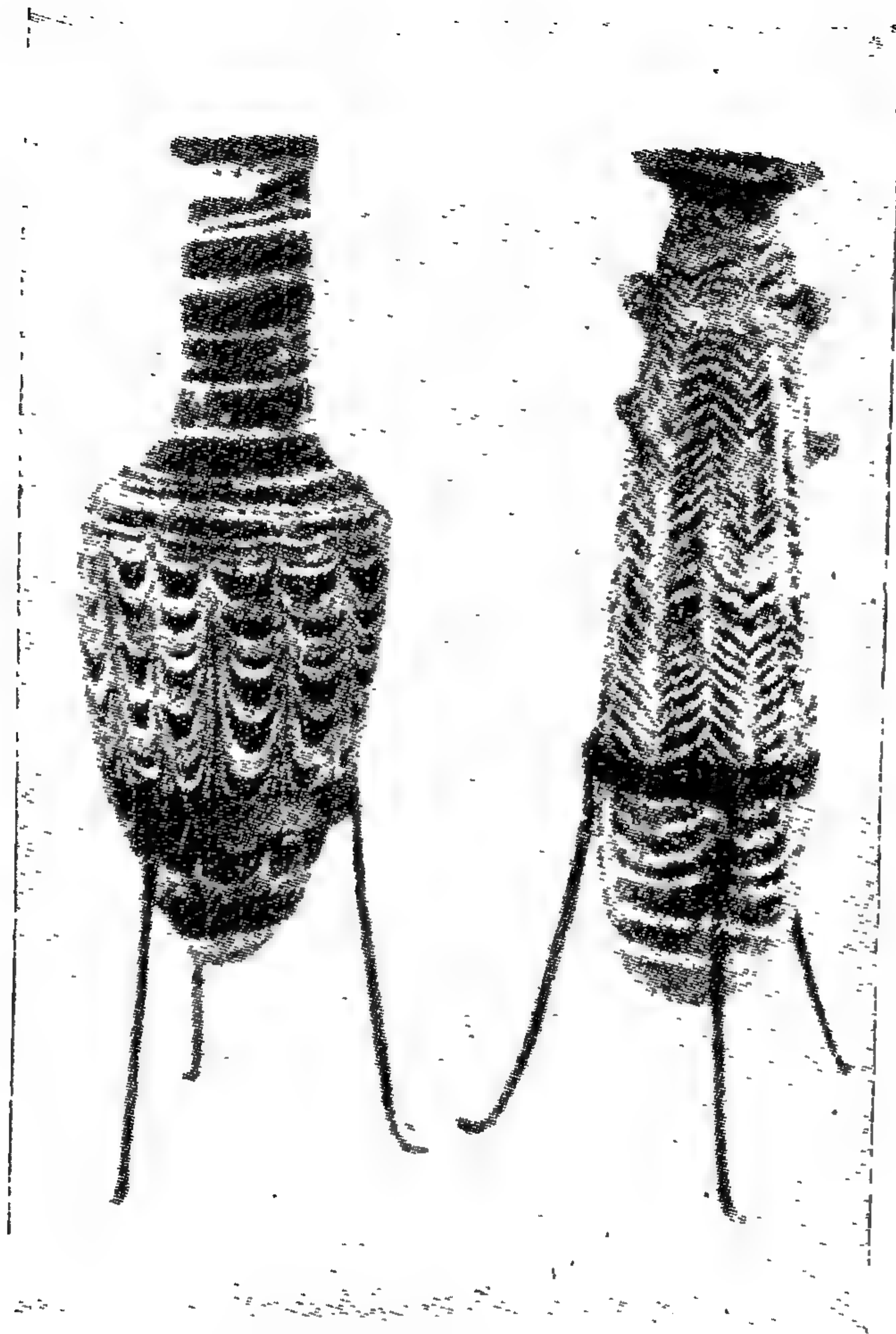
حشوات خشبية من منبر حاكم الكبتية في مدينة مراكش من القرن (٧ هـ)



حشوات خشبية من منبر جامع القصبة بمدينة مراكش من القرن (٧ هـ)

الزجاج والبللور الصغرى





قنيتان من الزجاج من صناعة مصر في فجر الاسلام
(بمتحف كلية الآثار بالقاهرة)



قنينة من الزجاج فى حامل زجاجى على شكل جمل من صناعة مصر فى القرن (٢ هـ)
(بمتحف برلين)



٣ أكواب عليها زخرفة مهوهة بالميناء ومنقوطة من صناعة الرقة والشام فى القرن (٧ م)
(بمتحف برلين)



كاس من زجاج معوه بالميٲا من صناعة الشام في القرن (٧ هـ)
(بمتحف المتروبوليتان بنيويورك)



فنية من الزجاج المموه بالمينا من صناعة بلاد الشام في القرن (٨ هـ)
(بمتحف اللوفر بباريس)



مشكاة من الزجاج المموه بالمينا
عليها رنك السيف (السلاحدار) من صناعة مصر في القرن (٨ هـ)
(بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة)



مشكاة من الزجاج الموه بالينا وهي تقليد
حديث لمشكاة السلطان المملوكي قايتباي •
(بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة)



صحن من الزجاج الموهو بالمينا صناعة ايران في القرن (٩ هـ)
(بالمتحف البريطاني)



قنية من الزجاج من صناعة الهند في القرن (١٢ هـ)
(بمتحف فيكتوريا و ألبرت)



آنية من الزجاج من صناعة الهند في القرن (١١ هـ) بمتحف فكتوريا والبرت

فهرس

مدخل فى قيمة حصاد حضارة أمم الاسلام خلال أربعة عشر قرنا	
هجرىا ومكانة هذا الحصاد فى حضارة الانسانية . . .	٣
الاسلام فى أربعة عشر قرنا : سمات الحضارة الاسلامية من مصادرها	
الأصلية	١٧
الحضارة الاسلامية خلال الأربعة عشر قرنا الماضية : التعليم والتربية	
عند المسلمين	٤٧
وسائل التسلية عند المسلمين	٨١
اللغة العربية : تاريخها وخصائصها وآثارها فى الحضارة العالمية .	١٢٩
أثر الفرس فى حضارة الاسلام	١٦٣
مكان المسلمين فى التاريخ العام لعلم الجغرافيا	٢٢٣
الفنون الزخرفية	٢٥٩
بيان اللوحات	٣٢٩
الأشكال الخاصة ببحث وسائل التسلية عند المسلمين	٣٣٣
الأشكال الخاصة ببحث الفنون الزخرفية	٣٥٧
أولا : النسيج الاسلامى	٣٥٨
ثانيا : الخزف الاسلامى	٣٧٠
ثالثا : المعادن الاسلامية	٣٨٠
النقش فى الخشب والعاج	٣٩٦
الزجاج والبللور الصخرى	٤٠٦

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٢٠٢٨

٢ - ٠٥٥٦ - ٠١ - ٩٧٧ - ISBN

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب حصاد الحضارة الإسلامية خلال أربعة عشر قرناً هجرياً . من هذا الحصاد مؤلفات أساطين الفقه والتشريع الإسلاميين سواء أكانوا أصحاب مذاهب أو فقهاء أجلاء ، وكبار الفلاسفة وأهل التصوف والكلام ، والمؤرخين والجغرافيين ، وكبار أهل الفلك والرياضيات ، والبارزين في ميادين العمارة والزخرفة والموسيقى ، وأساتذة النباتيين والكيميائيين وقد امتزجت أعمالهم بتيار الحضارة الإنسانية ، وأصبحت حصداً إنسانياً عاماً .

